

دراسات قرآنية

٥

قَبَسٌ

سُورَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

مِنْ

سُورَةِ هُودٍ وَيُوسُفَ وَالرَّعْدِ

دراسة تحليلية موسعة بأهداف ومقاصد السور اللزيمية

بِقَامِ

خَادِمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

الشيخ محمد علي الصابوني

الاستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار الفاء

دمشق

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للتباعة والنشر والتوزيع

رئيس - ملبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

قَبَسٌ
مِنْ نَوْدِ الْقَرَأِ الْكَبِيرِ

سَاعَدَتِ مَوْسَسَةٌ مُحَمَّدِ بْنِ لَادِنٍ
فِي نَشْرِ هَذَا الْكِتَابِ بِسِعْرِ مَخْفُضٍ
الْتِمَنٌ: ٥ رِيَالَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقْدَمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد الذي خصَّه الله بالمعجزة الكبرى، والآية العظمى «القرآن الكريم» وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو الكتاب الخامس في سلسلة «دراسات قرآنية» في ضوء السور الكريمة «هود، يوسف، الرعد» وهي دراسة موضوعية تحليلية هادفة، القصد منها تنوير القلوب والبصائر، بما تناوله الكتاب المعجز، الذي نزل على قلب خاتم المرسلين، بلسان عربي مبين.

وإننا إذ نشكر الله عزَّ وجلَّ أن وفَّقنا لخدمة كتابه، لتُبْرز ما فيه من روائع الحكَم والأحكام، ونُظهر أسرار إعجازه وبيانه، نسأله تعالى أن يمنَّ علينا بالتيسير والتسهيل، لما قصدناه في هذه الدراسات القرآنية، التي تتناول المواضيع التي تعرضت لها السور الكريمة، ليستوعب الأخ المسلم فهم ما حَوَتْه هذه السور المباركة من مقاصد وأهداف.

والله نسأل أن يرزقنا الصدق والإخلاص، في القول والفعل والعمل، وأن ينفع بهذه الدراسات إخواننا المؤمنين، إنه خير مسؤول، وأعظم مأمول، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الشيخ محمد علي الصابوني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ هُودٍ

مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَةٌ

بَيْنَ كَيْدِ السُّورَةِ

- سورة «هود» من السور المكية، التي تهتم بأصول العقيدة الإسلامية، توحيد الله جلّ وعلا، وأمر النبوة والرسالة، وقضية البعث والنشور، وسائر أركان العقيدة الصافية.
- وقد عرضت هذه السورة الكريمة لذكر قصص بعض الأنبياء بالتفصيل، تسليّةً للنبي عليه الصلاة والسلام على ما لاقاه من أذى وبلاء من الكفرة المشركين، لا سيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه، بعد وفاة عمه «أبي طالب» وزوجه «خديجة» رضي الله عنها، حتى عُرف ذلك العام بأنه «عام الحزن» على رسول الله ﷺ حيث فقد نصيريه: عمّه، وزوجه، واشتد أذى المشركين عليه، وهو بمكة يجابه الصناديد والطغاة، الذين قست قلوبهم فكانت كالحجارة أو أشد قسوة. . . فكانت الآيات تنزل على قلبه الشريف، لتخفف الآلام وتزيل عنه الأكدار، وهي تقصُّ عليه ما حدث لإخوانه الرسل الكرام، من أنواع الابتلاء والمحن، والشدائد والأهوال، ليتأسى بهم في الصبر والثبات، في سبيل تبليغ دعوة الله.
- ابتدأت السورة الكريمة بتعظيم شأن القرآن، وعلو شأنه، ورفعة قدره، فهو الكتاب المعجز، الذي أحكمت آياته، بحيث لا يتطرق إليه خلل ولا تناقض، لأنه تنزيل الحكيم العليم، الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح

العباد، فهو يُشَرِّع لهم ما فيه خيرهم وصلاحهم، دنيا وآخرة، حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية الباهرة ﴿الرَّ. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

● ثم عرضت السورة لعناصر الدعوة الإسلامية، عن طريق الحجج العقلية، مع الموازنة بين الفريقين، فريق أهل الهدى، وفريق أهل الضلال، وضربت مثلاً للفريقين، وضحت به الفارق الكبير بين المؤمنين والكافرين، والمهتدين والضالين، وميّزت بينهما كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى، وَالسَّمِيعِ وَالْبَصِيرِ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟﴾.

● ثم تحدثت عن دعوة الرسل الكرام، فقصّت على رسول الله أخبارهم، ليقتدي بهم ويتأسى في الصبر والثبات على تبليغ دعوة الله، مبتدئة بقصة شيخ الأنبياء والمرسلين «نوح» عليه السلام، الذي كان أطول الأنبياء عمراً، وأشدّهم بلاءً وصبراً، وما كان من أمر قومه المكذبين، حيث أهلكهم الله بالطوفان، ولم ينج من الغرق الذي عمّ الأرض كلّها، إلا نوح وأتباعه المؤمنون، الذين ركبوا معه في السفينة، وهم عدد يسير ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

● ثم ذكرت قصة نبي الله «هود» عليه السلام، الذي سميت السورة الكريمة باسمه «سورة هود» تخليداً لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله، فقد أرسله الله إلى «قوم عاد» العتاة المتجبرين، الذين اغتروا بقوة أجسامهم حتى قالوا: من أشدّ منا قوة؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، التي جاوزت كل حدّ في الشدة والهبوب، حتى أهلكهم الله عن بكرة أبيهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين، وقد أسهبت الآيات في الحديث عن أحوالهم وأخبارهم، بقصد العظة والتذكير للطغاة المتجبرين ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ

الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلَا بَعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿١﴾.

● ثم تلتها قصة نبي الله «صالح» عليه السلام، ثم قصة «لوط» ثم قصة «شعيب» ثم قصة «موسى وهارون» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم جاء التعقيب المباشر بذكر الغاية من سرد هذه القصص والأخبار، ألا وهو العظة والاعتبار، والزجر للطغاة المتكبرين، في كل حين وزمان ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ. وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

● وَخَتَمَتِ السُّورَةَ الْكَرِيمَةَ بِيَانِ الْحِكْمَةِ مِنْ ذِكْرِ قِصَصِ أَخْبَارِ الْمُرْسَلِينَ، وَمَا حَدَثَ لَهُمْ مَعَ أَقْوَامِهِمُ الْمَكْذِبِينَ، لِيَكُونَ ذَلِكَ نُمُودَجًا لِلدَّعَاةِ فِي السَّيْرِ عَلَى نَهْجِ الْأَنْبِيَاءِ، وَتَثْبِيثًا لِقَلْبِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ أَمَامَ تِلْكَ الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة، وهكذا تختتم السورة بالإشادة بالقرآن العظيم كما بدأت به، ليتناسق البدء مع الختام، في أعظم بيان، وأبدع إحكام.

تفصيلٌ بعد إجمال

ولنعد إلى التفصيل بعد الإجمال في سورة هود عليه السلام.
﴿الرَّ. كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ. أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ. وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

والابتداء بهذه الحروف الهجائية المقطعة، سرٌّ من أسرار هذا الكتاب المبين، الذي تحدى الله به البشر، الأولين منهم والآخرين، على أن يأتوا بمثل سورة من سوره فعجزوا وانقطعوا، وبقي التحدي إلى آخر الزمان، ومع ذلك فقد أشار تعالى إلى إعجاز القرآن، إشارة لطيفة دقيقة بذكر هذه الحروف المقطعة (الر) وكأنه يقول: هذا الكتاب المعجز، منظوم ومركب من أمثال هذه الحروف الهجائية، التي تتكلمون بها، وتنظمون منها الحكم والأشعار، وروائع الأمثال والمعلقات، نثراً وشعراً، فأتوا بمثله إن زعمتم أنه من تأليف محمد، وأنه أتى به من تلقاء نفسه.

برهانٌ ساطعٌ للإعجاز

ثم أعقبه تعالى ببيان برهان الإعجاز فقال: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ﴾ والإحكام: الجودة والإتقان، وهو أن يؤتى بالأمر على وجه سليم، لا يتطراً إليه فسادٌ أو خلل، والمعنى: هذا كتابٌ جليل القدر، نظمت آياته نظماً رصيناً محكماً، من غير نقص أو نقص، ومن غير تعارض أو تناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ فهو كالبناء المشاد بدقة وإحكام، ومن تمام الإحكام تفصيلٌ

آياته، وتوضيح أحكامه ولهذا قال: ﴿ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي وُضِّحَتْ وَبَيِّنَتْ أَحْسَنَ بَيَانٍ، كما تُفَصَّلُ الْقَلَائِدُ بِالْفَرَائِدِ، من دلائل التوحيد، والنبوة، والأحكام، والمواعظ، والقصص، والذي فَصَّلَهَا وَبَيَّنَّهَا هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، العالم بكيفيات الأشياء، ولذا كانت محكمة أحسن الإحكام، مفصلة أحسن التفصيل.

التوحيد أساس الإيمان

ثم بدأ بتفصيل أمر التوحيد الذي هو أساس العقيدة واليقين فقال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي لأجل ألا تعبدوا إلا الله، فأنا أنذركم عذابه، وأخوفكم عقابه إن عبدتم غيره، وأبشركم برحمته ورضوانه، ودخول جناته، إن آمنتم به وعبدتموه، وبعد الدعوة إلى التوبة والاستغفار، جاء التخويف والإنذار ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم حكى تعالى طرفاً من موقف كفار مكة، الجاحدين المستهزئين، المعاندين لسيد المرسلين فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ، يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وهذه الآية كشفت لخفايا صدور المشركين، وما انطوت عليه سرائرهم من عداوة للنبي والمؤمنين، ولكن الله لهم بالمرصاد، حيث يرقبهم ليلاً ونهاراً، ويعلم أحوالهم سراً وجهاراً، ولهذا ختمها بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

الله المتكفل بأرزاق العباد

وبعد الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، جاءت الآيات لتذكّر العباد، بأن الله هو الخالق الرازق، وقد تكفل لعباده بالرزق وتأمين جميع

الحاجات، ولم يغفل عن أضعف خلقه ألا وهي الهوامُ وسائر دواب الأرض، فكيف يغفل عن أشرف مخلوقاته ألا وهم البشر، فينساهم من فضله، ورزقه وإنعامه؟ وإذا كان الله هو الخالق والرازق لبني الإنسان، فكيف ينسون شكره، ويعبدون غيره، وهم يأكلون من رزقه وإنعامه؟ ولهذا ذكَّروهم تقدست أسماؤه بهذا العطاء والنوال فقال: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ والمراد بالدابة كل ما دبَّ على ظهر الأرض، من إنسان أو حيوان، في البر والبحر من ماشٍ أو زاحف، فهو لفظ يشمل الطير، والبهائم، والأسماك والحيتان، وكل مخلوق على سطح هذه الأرض، صغيرها وكبيرها، يعلم تعالى منتهى سيرها، وأين تأوي إليه من وكرها، والله سبحانه يُحصيها دون غيره، وهو عالمٌ بكيفية طبائعها، وأعضائها، وأحوالها، وأغذيتها، وأوكارها، ومسكنها، وما يوافقها وما يخالفها، فالإله المدبِّر للكون، وطبائع الحيوان والنبات، كيف لا يكون عالماً بأحوال بني آدم كما ظن المشركون؟! .

من غرائب القصص

رُوي أن موسى عليه السلام تعلق قلبه بأهله، واشتغل فكره كيف يرزق الله عباده؟ فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه صخرةً، فضربها فانشقتُ فخرجت منها صخرةٌ ثانية، فضربها فانشقتُ عن صخرةٍ ثالثة، فضربها فخرجت منها دودةٌ صغيرة، وفيها شيءٌ من الطعام، يجري مجرى الغذاء لها، ورفع الله الحجاب عن سمع موسى، فسمع الدودة تقول: «سبحان من يراني، ويعلمُ مكاني، ويسمعُ كلامي، ويرزقني ولا ينساني»^(١)!! .

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ٩/١٢ .

وقوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ قال ابن عباس: مستقرُّها حيث تأوي إليه من الأرض، ومستودعُها: الموضع الذي تموت فيه فتدفن، كل ذلك في علم الله عزَّ وجلَّ، وقد سطره وسجله في كتابٍ مبين، هو اللوح المحفوظ، الذي دُوِّنت فيه الأرزاق، والأقذار، والأعمار.

أدلة الوجدانية منبئة في الكون

ثم تلتها الآيات الكريمة وهي تؤكد دلائل القدرة والوجدانية، فهذا الإله العظيم هو الذي أبدع الكائنات علويَّها وسفليَّها، وخلق العرش قبل تلك المخلوقات، ليدل على عظمته وسلطانه، وبديع خلقه وإتقانه، وقد جعل الحياة والرزق ابتلاءً للبشر، ليظهر المحسن من المسيء، والشاكر من الكافر، فالدنيا دارُ الابتلاء، والآخرة دارُ الجزاء، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ، لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

والله جلَّ وعلا لا يعجزه أن يخلق الكون بأسره بلمح البصر، ولكنها السنَّة الإلهية لتعليم البشر التآني في الأمور، وعدم التعجل فيما يريدونه من أعمال الحياة، ليكون لهم منهجاً إلى طريق المهلة والتؤدة، كما قال ابن عباس: لو شاء لخلقها في أقلَّ من لحظة، ولكن أراد أن يُعلِّم عباده التريث، فخلقها في ستة أيام.

العرش مخلوق قبل السموات

وقد كان خلق العرش قبل خلق السموات والأرض، كما ثبت في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ ونطقت به السنَّة النبوية

الكريمة، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين قال: كنت عند النبي ﷺ، إذ جاء قومٌ من بني تميم فقال لهم: اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: بشرتنا فأعطنا مرتين، فدخل ناسٌ من أهل اليمن، فقال لهم عليه السلام: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قبلنا، جئنا لتتفقه في الدين، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان؟ قال: كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء، ثم أتاني رجلٌ فقال يا عمران: أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها فإذا هي يقطع دونها السراب، وأيم الله لو ددت أنها ذهبت ولم أقم^(١).

الغرض بيان القدرة الباهرة

والغرض من الآية بيان عظمته تعالى، وقدرته الباهرة، فإن العرش أعظم من السموات والأرضين جميعاً، فإذا كانت السموات والأرض كلهن بالنسبة للعرش العظيم كحلقة صغيرة في فلاة واسعة، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، كان قيام العرش على الماء أبداع وأعجب، فإن البناء الضعيف إذا لم يؤسس على أرضٍ صلبة لم يستقر ولم يثبت، فكيف بالعرش العظيم الذي أحاط بالسموات وجميع الأكوان، إذا بسط على الماء؟ وكيف بخالق هذا العرش أليس في غاية العظمة والجلال؟ سبحانه وتعالى جل أن يحيط بعظمته وسلطانه مخلوق ضعيف من البشر، وقد خلق الكون لغاية، ولا بد بعد هذه الحياة من الرجوع إلى العليّ القدير، للحساب والجزاء، ولكن المنكرين يستبعدون هذا:

(١) الحديث أخرجه البخاري في المغازي ٦٦/٨ والترمذي في المناقب رقم /٣٩٤٦/ وأحمد في المسند ٤٢٦/٤.

﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ، لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

ضعف الإنسان بالنسبة للكون

ولما كان طبيعة الإنسان الجحود والإنكار، والفخر والاستعلاء، مع أنه بالنسبة للكون مخلوق حقير ضعيف، فقد جاءت الآيات لتذكّره بعجزه وضعفه، وحقارته ومهانته، وكان الأحرى به أن يستمطر رحمة الله، فيشكره ولا يكفره، ويذكره ولا يجحد إنعامه، ليبرهن على عبوديته لهذا الخالق العظيم: ﴿ وَلَئِنْ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ رَحْمَةٍ نُنَزِّلُهَا مِنْهُ، إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ﴾ . وَلَئِنْ أَدَقْنَا نِعْمَاءَ بَعْدِ ضِرَاءِ مَسْتَه، لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي، إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ. إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

وهكذا شأن الكافر، لا يقر بفضل الله وإنعامه، بل يعتقد أن السبب في حصول تلك النعم، من الأمور الطبيعية التي تحدث للإنسان اتفاقاً، فإذا زالت استبعد حدوثها مرة أخرى، فيقع في اليأس الشديد، وعند حصولها كان ينسبها إلى السعد، فلا يشكر الله بل يكفره، وإذا انتقل من مكروه إلى محبوب ومن محنة إلى منحة، اشتد فرحه بذلك، فطغى وبغى، وأفسد في الأرض بالشهوات والملذات، ونسي السعادة الحقيقية.

تسليّة للنبي عليه السلام

ثم سلّى الله نبيه ﷺ أمام استهزاء المشركين، وسخرية الساخرين، فما عليه إلا أن يتوكل على الله، ويجهر بالدعوة دون مبالاة من أحدٍ من الخلق، فحسبه أن الله مطلع على عمله، راضٍ عن سيرته

وجهاده، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه مواسياً ومسلماً: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ، وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ، أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾
 وكان الآية تقول: امض في دعوتك يا محمد، فلك أسوة بإخوانك الرسل قبلك، فإنهم كذبوا وأوذوا، فصبروا حتى أتاهم نصرُ الله عزَّ وجلَّ، وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ، وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾.

افتراءات المشركين على القرآن

وبعد ذلك البيان الناصح الساطع، عن موقف المشركين «كفار مكة» من أمر الإيمان والتوحيد، والرسالة والنبى، وأمر البعث والنشور، حيث استبعدوا أن يكون الإله واحداً، واستنكروا أن يكون هناك بعث بعد الموت والفناء، فقد جاءت الآيات لتخبرنا عن رأي المشركين في القرآن، ومزاعمهم الباطلة حيث ادَّعَوْا أن هذا القرآن ليس من عند الله العلي الكبير، بل هو من تأليف محمد ونظمه، اختلقه وافتراه، ونسبه إلى الله، وهي دعوى تفوح منها رائحة الكذب والبهتان، ولهذا جاء القرآن يتحداهم بهذا الأسلوب الصارخ، الذي يُحَرِّكُ النفوس ويستفزُّ المشاعر، للمصاولة والمقارعة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ، وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟ ﴾.

والافتراء ضرب من ضروب الكذب، ولكنه لا يُستعمل إلا فيما يبهت فيه المرء ويكابِر، ويأتي بأمرٍ عظيم منكر، فيقال: فلان افترى كذا أي اختلقه من تلقاء نفسه ونسبه إلى غيره.

التحدي الصارخ القاطع

وهذه مقالة زعماء قريش زعموا أن القرآن من صنع محمد، ومن تركيبه وتأليفه، وهم فرسان البلاغة وملوك البيان، ولهذا جاء التحدي لهم صارخاً قاطعاً: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَفْتَرِيَاتٍ﴾.

وهذه هي المرة الثانية التي تحداهم بها القرآن الكريم، وتدرج معهم في هذا التحدي، من الأعلى إلى الأقل، فالأقل، وفي كل مرة يعجزون ويخرسون، ولا يستطيعون أن يقاوموا هذا التحدي، وهم فرسان الميدان، وفي هذا أعظم البرهان على إعجاز هذا القرآن.. تحداهم أولاً بمجموع القرآن في قوله تقدست أسماؤه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(١) أي ولو استعانوا بأهل الأرض جميعاً، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور فقط من مثل هذا القرآن، ويستعينوا بمن شاءوا غير الله سبحانه، كما جاء في هذه السورة التي نحن بصدد دراستها، وإلقاء الأضواء عليها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَفْتَرِيَاتٍ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فما استطاعوا أن يرفعوا رأساً.

وأخيراً تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة فقط، مشابهة للقرآن في الفصاحة والبيان، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا، فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فلم يستطيعوا أن ينسوا بنت شفة.

وهذا كما يقول أديب كبير - كتب مقالةً بديعة - لأديب آخر: اكتب

(١) سورة الإسراء آية رقم ٨٨/.

مثل هذه المقالة التي كتبتها، فإذا ظهر عجزه عن مجاراته، قال: اكتب عشرة أسطرٍ مثل ما كتبتُ، ثم أراد غاية المبالغة قال: قد اقتصرتُ منك على سطرٍ واحدٍ مثله، وأجزتُ لك أن تستعين بكل من تريد، فإذا ظهر عجزه حال الانفراد، وحال الاجتماع والتعاون، تبين عجزه عن المعارضة على الإطلاق، ولهذا قال تعالى في هذه السورة: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي فإن لم يستجب الكفار إلى ما دُعوا إليه من المعارضة، فاعلموا يا معشر المؤمنين أن هذا الكتاب، من عند رب الأرباب، فاثبتوا على التوحيد والإيمان، وأيقنوا بصدق ما جاءكم به محمد، فهذا الكتاب المبين معجزته الخالدة.

عجزهم عن المعارضة للقرآن

يا عجباً لسادة قريشٍ وأشرافها، هم فرسان الميدان في الفصاحة والبيان، جاءهم محمد بما برعوا فيه واشتهروا، فقد كانوا يفخرون بأنهم ملكوا ناصية البيان، في نظمهم، ونثرهم، ومعلقاتهم وأشعارهم، جاءهم محمد بهذا الكتاب كبرهانٍ على صدقه وقال لهم: هذا هو معجزتي، فلما عاندوه وكذبوه، تحداهم أن يأتوا بمثله، أو بمثل سورةٍ منه، فهاجوا وماجوا، ثم استنفروا جماعتهم، وبدلوا طاقتهم، لرد هذا التحدي الصارخ، من رجلٍ واحدٍ وهم جمعٌ غفير، ومن شخصٍ أميٍّ لا يحسن القراءة ولا الكتابة، ولا يعرفها، وهم أساطين البيان، وفرسان الميدان، فما سمعنا عن واحدٍ منهم رفع عقيرته، ليردَّ على هذا التحدي، أو ليدفع عن نفسه عار الهزيمة، في أمرٍ يفخر ويعتزُّ به، ألا وهو «مَيْدَانُ الْفُصْحَى» التي هي من أشهر سلاثق العرب، ومن أمجادهم ومفاخرهم، حيث كانوا يعقدون مؤتمرات في الأنديّة، والأسواق، للتفاخر والتباهي بالشعراء والأدباء.

سفهٌ وحمافةٌ من بعض الجهلاء

دع عنك أمر بعض المجانين والسفهاء، ممن أرادوا أن يُحاكوا القرآن في روعته وبيانه، فأتوا بما هو شبيه بالهَدْيَانِ، مما يضحك منه الصبيان، كقول بعضهم: (الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وبيْلٌ، وخرطوم طويل..). وقول بعض الحمقى في معارضة سورة الكوثر (إنا أعطيناك الجواهر، فصلُّ لربك وجاهر، إن شائتك هو الكافر).

فهذا وأمثاله لا يعتبر معارضةً للقرآن، لأنه بالبديهية يُعرف بطلانه وضلاله، وقد أجمع رواة الأدب والتاريخ، على أن أساطين البلغاء، وفحول الشعراء، من المناوئين لرسول الله عليه السلام، لم يُنقل عن أحدٍ منهم أنه عارض القرآن، أو حاول تلك المحاولة، مع شدة حرصهم على صدِّ الناس عن الإسلام، فكان ذلك من أظهر الدلائل، على أن القرآن كلام العليم الخبير، المعجز في برهانه وبيانه.

بين أهل السعادة وأهل الشقاوة

ثم تتابعت السورة الكريمة تذكر موقف البشرية من هذا النور الإلهي الفياض، فمنهم من حصر همته وغايته في نعيم هذه الحياة الفاني، فليس له هدف إلا الاستمتاع بالدنيا وبهجتها ومتاعها، غير مفكِّرٍ في الآخرة ونعيمها، وما أعدَّه الله للمتقين الأبرار، ومنهم من كانت غايته الآخرة، ولها يسعى ويكدح، يبتغي بذلك وجه الله، وهؤلاء هم السعداء الذين فازوا بالحسنين.

أما الفريق الأول ففيهم يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا، نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا، وَهُمْ فِيهَا لَا

يُبْخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا، وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ وهذه الآية تشمل الكافرين، والمنافقين، والمرائين بأعمالهم، الذين لا يقصدون بأعمالهم الصالحة وجه الله، إنما يقصدون الشهرة، وحب المديح والثناء.

وقد ورد في صحيح مسلم وفي سنن الترمذي أن أول من تُسَعَّرُ بهم نارُ جهنم ثلاثة: رجل جمع القرآن وعلمه، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجل وَسَّعَ اللهُ عليه في رزقه، فأحسن وتصدق، فيؤتى يوم القيامة بالقارىء، والمجاهد، والمتصدق، فيقول الله لكل واحدٍ منهم ماذا عملتَ فيما أنعمتُ عليك؟ فيقول القارىء: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت بل أردت أن يقال فلان قارىء - أي عالم - وقد قيل، ويقول الذي قُتل في سبيل الله: قاتلتُ في سبيلك حتى قُتلتُ، فيقول الله له كذبت بل أردت أن يُقال: فلان جريء وقد قيل، ويؤتى بالمتصدق فيقول الله: ماذا فعلتَ فيما آتيتك، فيقول: كنت أصلُ الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت بل أردت أن يُقال: فلان جواد - أي كريم - وقد قيل. ثم قال رسول الله: «أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر لهم النار يوم القيامة»^(١).

وأما الفريق الثاني فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ، وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾.

(١) الحديث أخرجه مسلم، والنسائي، والترمذي وحسنه، وانظر الترغيب للمنزدي

والمعنى: أفمن كان على نورٍ واضح، وبرهانٍ ساطعٍ من الله تعالى، وهو النبي عليه الصلاة والسلام وأتباعه المؤمنون، ويتبعه شاهد من ربه وهو القرآن المنير الذي أنزل عليه، فيه الحجة القاطعة على صدقه ﷺ لأنه رجل أميٌ جاء بكتاب معجز، أبعده هذا البيان يكون هناك شكٌ في القرآن؟ وجواب الاستفهام محذوف لظهوره من سياق الآية، أي كمن كان يريد الحياة الدنيا، ولا يفكر في مرضاة الله؟ يريد أن بينهما تفاوتاً كبيراً، وتبايناً بعيداً، فلا يستوي من أراد الله والدار الآخرة، ومن أراد الدنيا وبهجتها ونعيمها، ثم قال تعالى: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ هو هذا القرآن العظيم، الدال على صدق نبوته وصحة دعوته ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أي ومن قبل هذا القرآن، التوراة التي أنزلها الله على رسوله الكريم موسى بن عمران، كذلك تشهد بصدق القرآن وصدق الرسول، لأنها بشرت به، فما لهؤلاء الأشقياء يكذبون ولا يؤمنون؟.

مشهدٌ مخزٍ للمشركين في الآخرة

ثم تمضي الآيات الكريمة، تفرع بحججها الدامغة آذان الطغاة المتجبرين، الذين أعرضوا عن هداية الله، وكذبوا بالقرآن المنزل على سيد المرسلين، وتصف موقفهم المخزي يوم القيامة، حين تُبلى السرائر، وتنكشف الحقائق، ويظهر الكاذب من الصادق، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ. الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾.

وإنه لمشهدٌ مهول، مخزٍ لأعداء الله، حين يُفضحون على رءوس الأَشهاد، أمام ذلك الجمع الحافل، الذي يُجمع فيه الخلائق والملائكة والأنبياء والشهداء، ويقول هؤلاء جميعاً: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم.. فهو يوم الفضيحة، ويوم الذل والعار، الذي يكسو وجوه هؤلاء الكفار، ويعلوها الظلمة والسواد وهو سيماهم في ذلك اليوم العصيب كما قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾؟.

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾؟ استفهامٌ يُراد به النفي، كأنه قال: لا أحدٌ أظلم ممن اختلق الكذب على الله، بنسبة الشريك له والولد.

الفضيحة الكبرى على رءوس الأَشهاد

والمراد بالأَشهاد: الشهداء من الملائكة والأنبياء، الذين يشهدون على المجرمين بما اقترفوه في الدنيا من موبقات وآثام، أو يُراد بهم جميع الخلائق بما فيهم الرسل والأنبياء: ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ وأيُّ خزيٍ أعظم من هذا الخزي؟ وأيُّ فضيحةٍ أكبر من هذه الفضيحة؟ تصوّروا أن محكمةً عُقدت لمحاكمة شخص، اتهم بالخيانة للوطن، والتجسس لحساب دولةٍ معادية، وحضر الوزراء والنواب، والرؤساء والكبراء، فشهدوا عليه بالخيانة، وظهرت الوثائق مذيّلةً بالحقائق، التي تُدين ذلك المجرم الخائن للبلاد والوطن، كيف يكون حاله وموقفه أمام الناس؟ هذا في محكمة صغيرة في بلدةٍ من البلدان، صدر عليه فيها الحكم بالخيانة، فكيف يكون الحال إذا عُرضت القضية في محكمة دوليةٍ أمام آلاف الملايين من البشر؟ ألا

تكون الفضيحة أعظم، والخزي والعار أكبر؟ ولنتصور الآن محكمة إلهية تعرض فيها تلك القضية، يشهدا جميع الخلائق في أرض المحشر، ويشهد فيها على الإنسان جوارحه وأعضاؤه «يده، ورجله، وعينه، ولسانه» في محفل عظيم ضمَّ الملائكة والخلائق، والأنبياء والشهداء: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) ألا يسودُّ وجه الإنسان خجلاً وحياءً من تلك الفضيحة على مشهده من جميع الخلائق؟ فهذا هو المقصود من قوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وهنا ندرُكُ سرَّ دعوة المؤمنين وهم يتهلون إلى الله، بهذا الدعاء الخاشع المنيب: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٢).

الخسران والشقاء الأبدي

ثم تمضي الآيات وهي تحكي لنا نهاية هؤلاء المجرمين، الذين صدُّوا الناس عن دين الله، وكذبوا على الله وعلى رسله، وأمعنوا في الأرض فساداً، فإن الله عزَّ وجلَّ وإن أمهلهم في هذه الدار، ولكنه لن يهملهم، ولن يُفلتوا من عذابه، لأنهم في قبضته جلَّ وعلا وفي ملكه وسلطانه، ولكنَّ حكمته اقتضت أن يؤخر جزاءهم إلى يوم القيامة، ليكون العذابُ أشدَّ، والفضيحةُ أعظم: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ، مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا

(١) سورة النور الآية رقم /٢٤/.

(٢) سورة آل عمران آية رقم /١٩٤/.

أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
الْأَخْسَرُونَ ﴿١﴾.

ومعنى «لَا جَرَمَ» في لغة العرب: أي حق، وقيل: معناها: لا شك، ولا بد، ولا محالة، وهو قول الفراء قال: هي بمنزلة لا بد، ولا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً^(١)، ومعنى الآية الكريمة: حقاً إن هؤلاء الأشقياء يوم القيامة من أخسر الناس، فقد خسروا سعادة الدارين، ولن ترى أحداً أظهر خسراناً منهم، لأنهم آثروا الفانية على الباقية، واستعاضوا عن الجنان بلظى النيران، فما أتعسهم وأشقاهم؟!.

الصف الثاني المؤمنون السعداء

وبعد أن عرضت السورة لحالة المجرمين الأشقياء، ذكرت حال المؤمنين السعداء، وما أعدَّ الله تعالى لهم في جنات النعيم من أنواع الكرامة فقال تقديست أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومعنى الإخبات: الاطمئنان، والخشوع، والتصديق بكل ما وعد الله عزَّ وجلَّ به عباده مع الخوف والإنابة، فإنهم قد جمعوا مع الإيمان والعمل الصالح، الخوف من الله والخشوع والخشوع لعظمته وجلاله، فاستحقوا الخلود في دار الكرامة والنعيم، حيث فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(١) انظر معاني القرآن للفراء ٨/٢.

مثلٌ رائعٌ للفريقين يضر به القرآن

وقد ضرب الباري جل وعلا مثلاً للفريقين: فريق المهتدين، وفريق الضالين، شبه فيه أهل الشقاوة والضلال بالأعمى والأصم، وأهل السعادة والإيمان بالسميع والبصير، فأهل الضلال يتخبطون في ظلمات الجهل والغبي، وأهل الإيمان يسرون بنور البصيرة والإيمان على هداية الرحمن، فقال تقدست أسماؤه: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ، وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟.

والمعنى: حال الفريقين العجيب، كحال من جمع بين العمى والصمم، وبين من جمع بين السمع والبصر، فإذا كان الإنسان أعمى وأصم، كانت مصيبته أفدح، وبلاؤه أعظم، فأصبح كالتائه في حضيض الظلمات، لا يبصر نوراً يهتدي به، ولا يسمع صوتاً يؤنسه ويسليه، فكذلك الكافر الضال، يكون أعمى البصر، أصم القلب، وأما المؤمن المهتدي فهو كالرجل السميع البصير، يبصر نور الحق، ويستضيء بضياءه، فكيف يتساويان؟ ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تعتبرون وتتعظون؟ وهذه الآية مثل قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظُّلُّ وَلَا الحُرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ﴾ اللهم اشرح صدورنا بالإيمان، ونور عقولنا بالقرآن، واجعلنا من عبادك المتقين.

الحكمة من ذكر قصص الأنبياء والمرسلين

وبعد هذا البيان الواضح عن كتاب محمد ﷺ، ودعوته، ورسالته، جاءت الآيات لتبرهن على صدقه، فقد تناولت السورة الكريمة

- ضمن ما تناولته من المواضيع - ذكر قصص الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كبرهان على صدق رسالته، وتسليية لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فذكرت قصة «نوح» ثم قصة «هود» ثم قصة نبي الله «صالح» ثم «لوط» و«شعيب» وختمت بقصة «موسى وهارون» وكل هذه القصص والأخبار إنما وردت لإثبات الوحي، وبيان صدق رسالة محمد ﷺ، والتأكيد على معجزة القرآن.

إنَّ المشركين من أهل مكة، يعرفون جميعاً أن النبي عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، ولا تتلمذ على يد أحد من الأساتذة، ولم يلتق بعلماء أهل الكتاب، من أحبار اليهود وقُسس النصارى، لأنه عاش حياته في مكة، إلى أن بعثه الله نبياً، وأرسله رسولاً، ومكة - شرفها الله - لم يكن بها أحد من أهل الكتاب، فمن أين جاء بهذه القصص والأخبار، على وجه الكمال والسداد، والصحة والتدقيق، التي فيها أنباء الأمم السابقة مع رسلها وأنبيائها، ممَّا لم يطلع عليه إلاَّ خاصَّةُ الخاصَّة من علماء أهل الكتاب، لو لم يكن هذا بوحي من الله عزَّ وجلَّ؟ ولهذا نجد القرآن الكريم، يلفت الأنظار إلى هذه النقطة بالذات، فيذكر - بعد سرد قصص الأنبياء الكرام - خبر الوحي، وأمر النبوة، ويبين بجلاء ووضوح، أن هذه الأخبار لم تكن من تلقاء محمد، إنما هي بوحي من الله العلي الكبير، الذي أنزل على رسوله هذا الكتاب المعجز، وفيه أنباء من سبق من الأمم والمرسلين، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

ويقول جلَّتْ عظمتُه وتباركتْ أسماؤه، بعد سرد قصة موسى وهارون، وأخبار الطغاة المتجبرين: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ

عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَمَا
أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، لَمَّا جَاءَ أَمْرُ
رَبِّكَ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ. وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ
ظَالِمَةٌ، إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿٤٠﴾

كل ذلك لينبه الغافلين والجاهلين، إلى أن ما جاءهم به محمد
عليه الصلاة والسلام، ما هو إلا بوحى من الحكيم العليم، الذي أحاط
بكل شيء علماً، وأنزل هذا الكتاب تبصرةً وذكرى لأولى الألباب.

البراهين ثم القصص والأخبار

وقد جرت عادة القرآن الكريم، أنه إذا أورد على الكفار أنواع
الدلائل والبراهين، أتبعها بذكر قصص الأنبياء والمرسلين، ليصير ذكرها
مؤكداً لتلك الدلائل، وموضحاً لصدقها بأنها وحي من عند الله،
ولغرض آخر هو التفنن في الكلام، بالتنقل من أسلوب إلى أسلوب،
في الموعظة والنصيحة، لتبقى النفس متشوقة إلى سماع تلك الأخبار،
ولا يدخل إليها الكلال والملل، أو يصيبها الضجر والسآمة، كما ينتقل
الإنسان في الحديقة من مكان إلى مكان، ليستمتع بالأشجار والأزهار،
والنظر إلى الخضرة والثمار، وخرير الأنهار، فبذلك يتم سروره، ويكمل
ابتهاجه، وهكذا ينقلنا القرآن، من مشهد إلى مشهد، ومن قصة إلى
قصة، ومن حديث إلى حديث، ليكتمل الهدف من الوعظ والإرشاد.

القصة الأولى قصة نوح عليه السلام

وأول قصة في هذه السورة الكريمة، هي قصة نوح شيخ الأنبياء والمرسلين، الذي هو المثل الأعلى لجميع الدعاة والمصلحين، في الصبر والثبات وتحمل ضروب الأذى لتبليغ دعوة الله عز وجل، فلقد كان أطول الأنبياء عمراً، وأشدّهم بلاءً، وأكثرهم تحملاً، وأقلّهم أتباعاً وأنصاراً، لم يفتأ يدعو قومه إلى الله، ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، ومكث بين أظهرهم مدةً من الزمان تكاد تكون ضرباً من الخيال، هي مدة خمسين وتسعمائة سنة بنص القرآن الكريم: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ وهي مدة لم يدركها أحدٌ من المرسلين قبله ولا بعده، أدرك فيها الأحفاد، والآباء، والأجداد، وأجداد الأجداد، ومع هذه المدة المتطاولة من الزمان، لم يؤمن به إلا قليل، فما أطول المدة، وما أقلّ الحصيصة؟ وقد ذكر قصته تعالى في سورة يونس، وأعادها في هذه السورة أيضاً، لما فيها من زوائد الفوائد، وبدائع الحكم.

ولنستمع إلى قصة شيخ الأنبياء في سورة هود، كما قصّها علينا القرآن بالتفصيل والإسهاب، يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ، إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ. فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا مِنَّا، وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾.

شبهات ثلاث في وجه دعوة نوح

يا لها من سفاهة وحمافة، أن يقابلوا نبيهم بمثل هذا السّفه والبهتان، فيجحدوا نبوته، ويكذبوا رسالته، وهو يدعوهم إلى الله،

لينقذهم من عذاب يومٍ أليمٍ !! .

دعاهم إلى الإيمان بالله، وإلى توحيدِهِ، وإخلاص العبودية له جلَّ وعلا، ونبذ عبادة الأوثان والأصنام فسخروا منه واستهزءوا، وقومُ نوح هم أول من اخترع عبادة الأحجار، وتقديس الأوثان، فما كانت الوثنية قبلهم معروفة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان بين آدمٍ ونوحٍ عشرة قرونٍ، كلُّهم على الإسلام»^(١).

لقد طعن أشراف قومه في نبوته، وأثاروا حول رسالته الشكوك، بثلاثة أنواعٍ من الشبهات:

الشبهة الأولى: أنه بشرٌ مثلهم، يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، وليس هو من الملائكة حتى يُقرُّوا له بالسيادة والفضل عليهم، فكيف يتبعونه وهو بشرٌ مثلهم؟ وإلى ذلك الإشارة بقولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا..﴾

الشبهة الثانية: أن أتباعه الذين آمنوا به، وصدَّقوا برسالته، ما هم من أشراف القوم، إنما هم من الأراذل والأسافل، ومن الضعفاء والفقراء، ولو كان صادقاً في دعوى النبوة لاتبَّعه الأكابر، والأشراف منهم، وإليه الإشارة بقولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِرَأْيِ الرَّأْيِ﴾ ويقصدون بالأراذل أصحاب الحرف الخسيسة، كالحلاق، والخيَّاط، والنجَّار، والفقراء المعدمين الذين لا يملكون الثروات والأموال. وَصَفُوهُمْ بقولهم: «أراذل» جمع أرذل، لفقرتهم وخسَّةِ صنعتهم، جهلاً منهم وسفهاً، لاعتقادهم بأن الشرف إنما يكون بالمال والجاه، ونظيراً هذه الآية قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَنْتُمْ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿

(١) الحديث أخرجه البخاري عن ابن عباس موقوفاً.

لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴿١٠٠﴾! وما علم الجهلاء أن هذا مبعث لهم عن الله، لا مقرب منه سبحانه، فإن الأنبياء ما بُعثوا إلا لترك الدنيا، والزهد فيها، والإقبال على الآخرة، فكيف يجعل قلة المال طعناً في النبوة؟.

الشبهة الثالثة: أما الشبهة الثالثة التي أثاروها، فهي اتهامهم لنوح عليه السلام ولأتباعه بعدم الحصافة وسداد الرأي، وبالطعن فيهم بقلة العقل، لأنهم يشغلون أوقاتهم في العبادة، ولا يهتمون برعاية المصالح العاجلة، وهذا في نظرهم سفهٌ وجهل، فكيف يتبعونهم وهم على هذه الحالة؟ وإليه الإشارة بقولهم: ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .

ولنستمع إلى جواب نبي الله «نوح» عليه السلام، في رد هذه الشبهات السقيمة بأسلوب التلطف الذي امتاز به الأنبياء، وبمنطق العقل الحكيم: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ، وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ ، فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ ، أَنْلِزُكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ؟ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّهُمْ مَلَاقُوا رَبَّهُمْ ، وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ونلمح من هذه الآيات البيّنات أن أشرف قومه، طلبوا منه أن يطرد من حوله هؤلاء الفقراء الضعفاء، ليتمكنوا من الاجتماع به ويُناظروه في أمر النبوة والرسالة، فيرد عليهم بهذا الجواب المفحم، الذي لا يستطيعون دفعه: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟ أي من يخلصني وينقذني من عذاب الله، إن طردت هؤلاء المؤمنين من حولي إرضاءً لكم؟ أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم؟.

جدال عنيف بين نوح وقومه

تركنا نوحاً عليه السلام - شيخ الأنبياء - مع قومه المعاندين، يناظرهم ويجادلهم، ويقيم عليهم الحجة تلو الحجة، والبرهان تلو البرهان، على صدق دعوته، وصحة نبوته، ولكنهم كانوا - كما أسلفنا - في غاية العتو والضلال، يكابرون ويعاندون، ويخاصمون ويجادلون، كلُّما حاول تذكيرهم تَمَرَّدُوا، وكلما حاول إقناعهم شردوا، ولكنه عليه السلام لم تضعف همته، ولم تتشن عزيمته، عن تبليغ دعوة ربه، بما آتاه الله من الحجة والبرهان، وتتابع سرد أخباره العجيبة، مع أولئك الطغاة المتجبرين من أشراف قومه.

لقد أنكروا رسالته بدعوى أنه بشر، وليس بمَلَكٍ، وأتباعه الضعفاء والفقراء، وليس بثريٍّ من كبار الأغنياء، يملك الخزائن والأموال الطائلة، ثم هو لا يخبرهم عن أمور الغيب، فكيف يكون نبياً - في نظرهم - وهو رجلٌ عاديٌّ، ليس له شيءٌ من خصائص العظماء والكبراء؟.

ولنستمع إلى جواب نوح عليه السلام، وهو النبيُّ الكريم الذي شرفه الله بالرسالة، وأيده بالحجة الدامغة: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ، وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ، إِنِّي إِذَا لِمَنْ الظَّالِمِينَ﴾.

ردَّ عليهم طلبهم بطرد الفقراء والضعفاء بقوله: ﴿مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ؟﴾ أي إذا كانوا مؤمنين، وطردتهم من مجلسي ومن حولي لفرهم، فمن يدفع عني عقاب الله إن أقدمت على ذلك؟ وردَّ

عليهم ادعاءهم بأنه فقير، فنبههم إلى أن الفقر ليس بمنقص قدر الرجال، ولا أن الغنى سبب لعلو جاه الإنسان، بقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي لا أقول لكم عندي المال الوافر الكثير، وخزائني مملوءة بالذهب والفضة، حتى تتبعوني لغناي، بل أنا واحد من أفراد الناس، أكرمني الله بالنبوة، وليس من شروط النبوة الغنى والثراء.

وردَّ عليهم دعوى أنه من البشر وليس من الملائكة بقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي لا أقول لكم إني من الملائكة، حتى أتعظّم بذلك عليكم، وأطلب منكم اتباعي، بل طريقي الخضوع والتواضع، ومن كان هذا شأنه وطريقه، فإنه لا يستكف عن مخالطة الفقراء والمساكين، ولا يطلب مجالسة الأمراء والسلاطين، وإنما شأنه طلب الدين، وسيرته مخالطة العابدين والخاشعين، فلما كانت طريقتي توجب مخالطة الفقراء، فكيف جعلتم ذلك عيباً عليّ يوجب عدم الاتباع؟! ثم إنه أكد هذا البيان بطريق رابع فقال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ أي لا أقول لهؤلاء الضعفاء الذين آمنوا بي، واحتقرتموهم لفقرهم، إنهم محرومون من رحمة الله، ومن دخول جنته، فأكون كاذباً على الله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي الله وحده هو العالم بسرائرهم وضمائرهم، فكيف أطردهم لمجرد أنهم فقراء، ثم يختم معهم الكلام، بما يشير إلى إقنابهم من طرد أولئك الأتباع الفقراء فيقول: ﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن قلت ذلك أو طردتهم عني، أكون مستحقاً لأشد أنواع العقاب.

جوابهم السخيف لنوح عليه السلام

وبعد هذه المناظرة والمحاورة بالدليل القاطع، والبرهان النير، والأسلوب الحكيم، ماذا كان جواب أولئك المعاندين المكابرين؟ الذين لا يقنعهم الدليل مهما بدا فيه الإشراق والوضوح، ولا يرضون بالحجة والإقناع، إنما سبيلهم الطغيان والجبروت، لأنهم من أهل الشرف والسيادة، فلا يمكن أن يخضعوا لأحدٍ دونهم في الشرف والمال، مهما كان في النبوغ والتفوق العلمي والذاتي، ولنستمع الآن إلى جوابهم السفیه، الذي يدل على الجهل والرعونة، والبعد عن منطق العقل السديد: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا، فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وكان الأحرى بهم لو كانوا عقلاء، أن يقولوا سمعاً وطاعة، فقد جئنا بالحجة الواضحة، والبرهان الساطع، ولكنهم لسفهم وحمافتهم طلبوا العذاب: ﴿ فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي إن كنت صادقاً في دعوى الرسالة، أنك مرسلٌ من عند الله، وتخوفنا من عذابه إن لم نؤمن، فأتينا بهذا العذاب، فإننا لن نؤمن بك ولن نتبعك!! .

فلا يملك نوح عليه السلام في مثل هذه الحالة، بعد أن أزاح عنهم كل علة، وأزال كل شبهةٍ أثاروها، إلا أن يلجأ إلى الله، ويكل أمرهم إلى من بيده القوة والقدرة، والذي يملك أن ينتقم ممن جحده، وكذب رسالة أنبيائه ورسله، فيقول ما قصه علينا القرآن: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ . وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ، هُوَ رَبُّكُمْ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

نوح يبالغ في النصح والتذكير

ونلمح من هذه الكلمات، التي قالها نوح عليه السلام لقومه الجاحدين المستكبرين، أنه قد بالغ معهم في النصح والتذكير، كما بالغوا هم معه في السخرية والاستهزاء، حتى لم يبق عنده أمل، في صلاحهم وفلاحهم، فماذا يصنع مع قلوبٍ قد تحجرت، ونفوسٍ قد بلغ بها العناد والطغيان، أن تطلب العذاب بدل الرحمة؟ وأن تتوعد نبيَّ الله بالقتل والتشريد، إن بقي مستمراً في دعواه؟.

لقد استعمل قومه المشركون مع نبيهم الكريم، صنوف الاستهزاء والبلاء، ليصدّوه عن دعوته، فلم يجدوا منه إلا كل صبر وثبات، وسلّطوا عليه الصبيان والسفهاء، واتهموه بأنواع الاتهامات، وافتروا عليه أنواع الافتراءات، فما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وصبراً وجهاداً، فكان في مقدمة الرسل من أولي العزم عليهم السلام، واستحقَّ أن يكون قدوةً للأنبياء والمرسلين، والدعاة والمصلحين، في كفاحه، وجهاده، وصبره.

أنواع الاتهامات الشنيعة لنوح عليه السلام

ولنتحدث بشيءٍ من الإيجاز على أنواع الافتراءات والاتهامات التي أطلقها المشركون على نوح عليه السلام:

١ - اتهموه عليه السلام أولاً بالسفه والضلال، كما قال سبحانه عنهم في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَأَنْصَحُ لَكُمْ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

(١) سورة الأعراف آية رقم ٦٠ - ٦٢ .

٢- واتهموه ثانياً بِالْخَرْفِ والجنون، كما قال سبحانه عنهم في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ﴾^(١) أي قالوا إنه مجنون، وزجروه عن دعوى النبوة وتوعده، وكما قال عنهم في سورة المؤمنين: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي به جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾^(٢) أي انتظروه واصبروا عليه حتى يموت.

٣- واتهموه ثالثاً بالكذب والافتراء على الله، وبكثرة المجادلة والمناظرة: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

٤- وقابلوه بالسخرية والتهكم كما قال سبحانه: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ...﴾.

٥- وهددوه عليه السلام أخيراً بالقتل والرجم: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾.

وهكذا تفننوا في إيذائه واتهامه، ليفلأوا من عزمه، ويضعفوا من صبره وكفاحه، وهذه الافتراءات والاتهامات، سلاح يستعمله الفجرة، في كل وقتٍ وحين، في وجه كل نبي كريم، أو داعية مصلح، وهذه الافتراءات والاتهامات ليست خاصة بنوح عليه السلام، فقد قال كفار مكة لسيد الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وقالوا أيضاً عنه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ فهو

(١) سورة القمر آية رقم /٩/.

(٢) سورة المؤمنون آية رقم /٢٥/.

شأن الطغاة في كل زمان ومكان، وهو شأن الأشرار الفجار، في حق كل نبي، وحق كل داعٍ مصلح.

حياة نوح عليه السلام حياة شاقة مريرة

لا نزال نتحدث عن شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، الذي تناولت قصته بالتفصيل سورة هود، فلقد كانت حياة نوح عليه السلام حياةً مريرةً شاقةً، ومحنته مع قومه محنة شديدة أليمة، فقد أقام بينهم قروناً ودهوراً، ولكنه لم يرَ إلا آذاناً صُمّاً، وقلوباً غلفاً، وعقولاً متحجرة، لقد كانت عقولهم أيسرَ من الصخر، وأفئدتهم أقسى من الحديد، لم ينفعهم نصحٌ ولا تذكير، ولم يزرهم وعيدٌ ولا تحذير، وكلما قدّم لهم نصحاً، ازدادوا له تمرداً وعناداً، وكلّما ذكّروهم بالله وخوفهم من عقابه، زادوا ضلالاً وفساداً، وبقوا في طريق الضلالة سائرين، لا يلتفتون إلى دعوة نبيهم الكريم، ولا يباليون بتحذيره وإنذاره، وقد سلك معهم جميع الطرق الحكيمة، لإنقاذهم من الغي والضلal، وإبعادهم عن عبادة الأوثان والأصنام، فلم يُفلح معهم أبداً، ولذلك دعا عليهم بالهلاك، فاستجاب الله دعاءه، وأوحى إليه بأنه سيهلكهم بالطوفان، فلا يُبقي لهم أثراً، وأمره بأن يصنع السفينة ليركب فيها هو وجماعته المؤمنون، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه:

﴿ وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا، وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِنَّهُمْ مَغْرُقُونَ ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾: أي اصنع السفينة تحت نظرنا، وبحفظنا ورعايتنا، وبوحينا وتعليمنا لك، فالمراد

بها الحفظ، والحياطة، والكلاءة، وإلهامه كيف يصنعها.

قال ابن عباس: لم يعلم نوح كيف يصنع السفينة، فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعها مثل جؤجو الطائر - أي مثل صدره ومقدمه جسده - ومعنى قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي لا تخاطبني في شأنهم، ولا تشفع فيهم فإني مهلكهم لا محالة، وهم قوم هالكون بالإغراق، فلا فائدة في الوساطة أو الشفاعة. وهكذا صدر الحكم على أولئك الأشقياء بالهلاك، نتيجة الكفر، والظلم، والعدوان!!.

نوح يصنع السفينة وقومه يسخرون منه

أخذ نوح عليه السلام يصنع السفينة، وجعل قومه يَمرون عليه فيسخرون منه ويهزءون، ويقولون له: يا نوح كنت بالأمس نبياً، وأصبحت اليوم نجاراً!! ويجمعون عليه وهم يضحكون، وهو عليه السلام جادٌ في عمله، غيرٌ مكترثٍ بهم ولا بسخريتهم، لأنهم جهلة سفهاء، لا يعرفون ما خبأ لهم القدر، وعن قريب سيرون عاقبة سخريتهم واستهزائهم، وإلى ذلك تشير الآيات البينات في قوله تقدرت أسماؤه: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

الطوفان كان عاماً لجميع الأرض

ولما انتهى من صنعها أمره الله سبحانه، أن يحمل معه أهله وجماعته المؤمنين، وأن يحمل فيها من الحيوانات من كل صنفٍ زوجين

اثنين «ذكراً وأُنثى» لبقاء نسلها، وفي هذا أوضح دليل على أن الطوفان كان عاماً لجميع الأرض، لم تسلم منه جهة أو بقعة، ولو لم يكن كذلك لما أمره الله تعالى أن يحمل معه هذه الحيوانات ذوات الأرواح، وغيرها من النباتات، وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين أن الطوفان عم سائر أنحاء الأرض، وقد جعل الله له علامة لهلاكهم «فوران التنور» وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا، وَفَارَ التَّنُّورُ، قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، وَأَهْلَكَ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي من حكم الله بهلاكه كزوجة نوح وابنه الكافرين، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ آمَنَ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي واحمل في السفينة أتباعك المؤمنين، وهم نزر يسير.

قال ابن عباس: «كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم» ولا شك أنه عدد قليل جداً، بالنسبة لطول المدة التي مكثها نوح عيه السلام.

أقوال المفسرين في التنور

أما التنور فالمراد به - على رأي الأكثرين - وجه الأرض، أي فإذا نبعت العيون من الأرض، فذلك علامة على هلاكهم، وهذا القول مروى عن ابن عباس وغيره من كبار الصحابة والتابعين، ويؤيده قول الله جل ثناؤه في سورة القمر: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا، فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

ورجح الإمام ابن جرير أن المراد بالتنور هو الذي يُخبز فيه الخبز، لأنه هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله يُحمل على الأغلب الأشهر، وجمع الحافظ ابن كثير بين القولين، فقال رحمه الله: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً

تفور، حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار، صارت تفور ماءً، وهذا قول جمهور السلف والخلف^(١).

حجم السفينة التي صنعها نوح عليه السلام

أما السفينة التي صنعها نوح عليه السلام، بإلهام من الله العلي الكبير، وبدقة وتصميم، فقد جعلها ثلاث طبقات، لتسع لجميع الأصناف ممن أمر بحملهم معه في السفينة، من البشر، والدواب، والوحوش، والطيور، وسائر المخلوقات، لأنه أمر بذلك بقوله تعالى: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.

قال الحافظ ابن كثير في روايته عن الحسن البصري: «كان طول السفينة ستمائة ذراع، وعرضها ثلاثمائة، وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، وجعلها ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس والبشر، والعليا للطيور»^(٢).

وهذا يؤيد ما قلناه إن الطوفان كان عاماً لجميع الكرة الأرضية، ولم يكن خاصاً في منطقة معينة، وإلا لما احتاج أن يحمل معه في السفينة هذه الأنواع المتعددة من المخلوقات، فإنه إن هلك بعضها في مناطق من الأرض، بقي بعضها الآخر في مناطق أخرى، فلا ينقرض النسل، وبذلك يتضح أن الطوفان عم جميع أنحاء المعمورة، وارتفع الماء على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً، كما روي ذلك عن عدد من الصحابة والتابعين.

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٢٢٠/٢.

(٢) نفس المرجع السابق ٢١٩/٢.

نوح يأمر المؤمنين بالركوب في السفينة

لقد تركنا نوحاً عليه السلام يصنع السفينة، بتوجيه من الله وعناية، وقومه المشركون يمرون عليه فيهزءون منه ويسخرون، وكان جوابه لهم ما قصة علينا القرآن قال: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ ولما انتهى من صنع السفينة، وظهرت العلامة بنبع الماء من التنور، وفوران الأرض بالمياه الدافقة كأمثال العيون، كما قال سبحانه: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا. فَالتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (١) عند ذلك أمر نوح عليه السلام المؤمنين بالركوب في السفينة، وأرسل الله تعالى من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله، ولم تُمطره بعده، كان كأفواه القرب، دون توقف ولا انقطاع، وأمر الله الأرض فنبعت من جميع فجاجها، وسائر أرجائها، فالتقى ماء السماء مع ماء الأرض، وما هي إلا فترة قصيرة، حتى عمَّ الطوفان أرجاء المعمورة، فلم يبق سهل ولا جبل، ولا بنيان، إلا وقد غمرته المياه، وأخذت السفينة تسير بالمؤمنين ومن فيها، في وسط أمواج هائجة كأنها الجبال، ونوح يهتف بولده الكافر لينجو بنفسه، ولا يهلك مع الهالكين، فيأبى عليه، ويخدعه الشيطان بأن يعلو رءوس الجبال لينجو من الغرق، ثم تنكشف الحقيقة فإذا بالطوفان يجرفه مع الهالكين، ولا ينجو أحدٌ من أهل الأرض إلا من ركب مع نوح في السفينة، من عباد الله المؤمنين.

اقرأ هذه الآيات البينات، التي تفيض بالعبر والعظات في هذه السورة الكريمة: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرسَاهَا﴾ أي باسم الله سيرها ووقوفها، حين تسيرُ وحين تقف ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ

(١) سورة القمر آية رقم /١٢/.

رَحِيمٌ . وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ، وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ، وَكَانَ فِي مَعَزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا ، وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٠١﴾ .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ أي لا ناجي من عذاب الله ، ولا معصوم ، إلا من رحمه الله تعالى .

فقرات بديعة من الظلال

ولننقل هنا بعض فقرات من تفسير «في ظلال القرآن» لشهيد الدعوة «سيد قطب» عليه الرحمة والرضوان حيث قال : «وعند هذا المقطع من قصة نوح ، يلتفت السياق لفتة عجيبة ، إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة ، التي تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول ﷺ ، ودعواهم أن محمداً يفترى هذا القصص ، فيقول تقدست أسماؤه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ؟ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ فالافتراء إجرام ، وعليّ تبعته ، وأنا أعرف أنه إجرام فمستبعد أن أرتكبه .

ثم يمضي السياق في قصة نوح ، يعرض مشهداً ثانياً ، مشهد نوح يتلقى وحي ربه وأمره : ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا ﴾ أي برعايتنا وتعليمنا ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ فقد تقرّر مصيرهم ، وانتهى الإنذار ، وانتهى الجدل !! .

والمشهد الثالث من مشاهد القصة ، مشهد نوح وهو يصنع السفينة : ﴿ وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾

والتعبير بالمضارع ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدته، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير، وقومُه المتكبرون يمرُّون به فيسخرُون، يسخرُون من الرجل الذي كان يقول لهم إنه رسول، ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً.

والمشهد الرابع: مشهد التعبئة عندما حلت اللحظة المرتقبة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ، قُلْنَا: احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾.

ثم يأتي المشهد الهائل المرهوب: مشهد الطوفان ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ . . ﴾ إن الهول هنا هولان: هول في الطبيعة الصامتة، وهول في النفس البشرية، يلتقيان . . وإننا بعد آلاف من السنين، لنمسك أنفسنا - ونحن نتابع السياق - والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ ونوح الوالد الملهوف، يبعث بالنداء تلو النداء، وابنه الفتى المغرور، يأبى إجابة الدعاء، والموجة الغامرة تحسم الموقف، في سرعة خاطفة راجفة ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ وينتهي كل شيء، وكأن لم يكن نداء ولا جواب.

وتهدأ العاصفة، ويخيم السكون، ويُقضى الأمر، ويوجه الأمر إلى السماء والأرض بصيغة العاقل، فتستجيب كلتاها للأمر الفاصل، فتبلع الأرض الماء، وتكف عن المطر السماء ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي، وَغِيضَ الْمَاءِ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ أي استقرت السفينة على جبل الجودي قرب الموصل ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ انتهى كلام سيد قطب عليه الرحمة^(١).

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/١٨٧٩.

سرٌّ من أسرار الإعجاز في القرآن

وندرك في هذا التعبير الرائع، سرّاً من أسرار الإعجاز القرآني، فإن هذه الآية الكريمة، جمعت أحداث الكون، وما جرى من أخبار عجيبة في كلمات، فقد حُكي أن أعرابياً سمع هذه الآية ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ . الآية فقال: هذا كلام القادرين، لا يشبه أبداً كلام المخلوقين.

ويروى أن «ابن المقفّع» - وكان أفصح أهل زمانه - حاول أن يعارض القرآن، فنظم كلاماً، وجعله مفصلاً، وسمّاه سوراً، فمرّ يوماً بصبي وهو يقرأ هذه الآية، فرجع إلى بيته، ومحا ما كان قد بدأ به، وقال: أشهد أن هذا لا يُعارض أبداً، وما هو من كلام البشر.

قال أبو حيان في البحر المحيط: وهذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، وحوث من بدائع الفوائد نهايتها، وجمعت من المحاسن اللفظية والمعنوية ما يضيق عنه نطاق البيان، قال: وفي هذه الآية واحدٌ وعشرون نوعاً من البديع.

فيها المناسبةُ في قوله: «أقْلِعِي، وابلعِي».

والمطابقةُ بذكر الأرض والسماء.

والمجاز في «يا سماءُ أقْلِعِي» المرادُ به مطر السماء.

والاستعارةُ في «أقْلِعِي» أي أمسكي عن المطر.

والإشارةُ في «وغيضَ الماء» فإنها إشارةٌ إلى معانٍ كثيرة.

والتمثيلُ في «وقضى الأمر» عبّر بالأمر عن إهلاك الهالكين، ونجاة

الناجين.

والإرداف في «وَأَسْتَوْتُ عَلَى الْجُودِيِّ» فلفظ واستوت كلام تام، أردفه بلفظ ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قصداً للمبالغة في التمكن بذلك المكان.

والاحتراس في ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

والإيجاز وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً للمعاني الجمّة. وعدّد بقية الوجوه، وهي الإيضاح، وحسن النسق، والتجنيس إلى آخر تلك الأمور.

دعاء نوح لنجاة ولده

وتمضي السورة الكريمة، وهي تذكر دعوة نوح لربه أن يُنجي ولده من الغرق، ويأتيه الجواب الحاسم، تقطع العلاقة النسبية بين المؤمن والكافر، فلا صلة بين الوالد المؤمن، والولد الكافر، لأن الكفر يحول بين ذلك ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ثم تختتم القصة بإجابة نوح إلى ربه، وطلبه العفو والمغفرة منه، بعد أن بان له خطأ طلب النجاة له: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا، وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ، وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ، وَأُمَّمٌ سَنَمْتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهكذا تنتهي قصة نوح عليه السلام، بنجاة المؤمنين، وهلاك الظالمين، وكأن الأمر لم يكن قد كان.

القصة الثانية قصة هود عليه السلام

وبعد أن انتهى الحديث عن قصة نوح عليه السلام، جاءت الآيات لتتحدث عن قصة «هود» عليه السلام، وهي القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله في هذه السورة الكريمة، وقد أرسل نبيُّ الله «هود» إلى قبيلة «عاد» وهي من القبائل العربية البائدة، المتفرعة من أبناء «سام بن نوح» وكانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها من دون الله تعالى، فبعث الله إليهم هذا النبيَّ الكريم، يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، ويذكِّرهم بنعمه وآلائه، ويرشدهم إلى طريق النجاة والسعادة، ولكنهم كانوا عُتاة، طغاة، متجبرين، لم يقبلوا النصح، ولم يستجيبوا لدعوة نبيهم، واغتروا بقوتهم، ووقفوا في وجه الناصح الأمين، يهدِّدونه ويتوعدونه.

ولنستمع إلى الآيات البينات في هذه السورة الكريمة، وهي تقصُّ علينا أخبار هؤلاء الطغاة المتجبرين ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى قبيلة عاد نبياً منهم عظيماً مبجلاً، اسمه هود عليه السلام ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ. يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي، أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

دعوتهم إلى عبادة الله وتوحيده

دعاهم هودٌ إلى عبادة الله وحده، وإلى ترك عبادة الأوثان والأصنام، وهذا هو الهدف الأساسي، من بعثة الأنبياء والمرسلين، بل هو الأصل والأساس الذي بُعث من أجله الرسل الكرام، ولهذا نجد كل رسول يعتني بهذا الأصل الأصيل، فيدعو قومه إلى توحيد الله جلَّ وعلا،

وإفراده بالعبادة، وخلع جميع الأنداد، والشركاء، والأوثان، فهو هنا يقول لهم، بدافع القرابة والشفقة عليهم والنصح: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وفي لفظ «يا قوم» استمالة لهم نحوه، لقبول دعوته، فالدافع له هو الشفقة عليهم، حيث كان من قبيلة عاد، فالواجب يفرض عليه تقديم النصح لهم والإرشاد، لأنهم منه وهو منهم، فكيف لا يحرص على خيرهم ومصلحتهم وهو واحدٌ من عشيرتهم؟.

وقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ معناه: لا تعبدوا غير الله، فهو دعوة إلى إخلاص العبادة لله، وتخصيصه جل وعلا وحده بالعبادة، والدليل عليه قوله عقيبه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي ليس لكم إله يستحق العبادة غير الله تعالى، فهو الخالقُ الرازق، المحيي المميت.

تنبيههم إلى بطلان عبادة الأوثان

ثم ذكّره ببطلان عبادة الأوثان فقال: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ يعني إنكم كاذبون في دعوى أن هذه الأصنام تحسن عبادتها، أو أنها تستحق العبادة!! وكيف لا يكون هذا كذباً وافتراءً، وهي جمادات لا حسّ لها، ولا إدراك ولا شعور، والإنسان هو الذي ركّبها وصوّرها، فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعبدها؟ وأن يضع الجبهة على التراب تعظيماً لها؟ ثم نبّههم إلى أنه لا يطلب على هذا النصح والتذكير أجراً منهم، حتى يظنوا فيه الظنون، بل هو بدافع الخوف عليهم، وإنقاذهم من سخط الله وعقابه، ولهذا ينبغي أن يقبلوا النصح بعد الإمعان والتفكير ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أنغفلون عن ذلك، فلا تعقلون أن من يدعوكم إلى الخير، دون إرادة جزاءٍ منكم، هو لكم ناصحٌ أمين؟

ترغيبهم في تكاثر الخيرات والثمرات

وبعد هذا البيان الواضح في تلخيص دعوته ورسالته، رغبهم فيما هم فيه يطمعون، ألا وهو زيادة الخيرات والنعم، بكثرة الأمطار، وخروج الزروع والثمار، وزيادة القوة التي كانوا بها يفاخرون ويعجبون، إن هم تركوا عبادة الأحجار، وأقبلوا على الله بالتوبة والاستغفار ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ، ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

روي أن الله تعالى لما بعث إليهم هوداً وكذبه، حبس الله عنهم المطر ثلاث سنين، حتى كادوا يهلكوا عطشاً، وقلَّتْ عندهم الخيرات والثمار، وهلكت المواشي، فقال لهم هود: إن آمنتُم بالله، وتبتم من ذنوبكم واستغفرتُم، أحيا الله بلادكم، ورزقكم المال والبنين، وأنزل عليكم المطر مدراراً، والمدرارُ الكثير الدرُّ، وهو من أبنية المبالغة، أي ينزل عليكم المطر غزيراً متتابعاً، ويزدكم قوة في أجسامكم، وعزاً وفخاراً.

جوابهم السفیه لنبیهم الکریم

ولنستمع إلى جواب أولئك الطغاة المتجبرين، لمن أسدى لهم النصح، وكان حريصاً على هدايتهم وسعادتهم ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ، وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي ما نقول إلا إنه أصابك بعض آلِهتنا بجنون، فأفسدت عقلك، لَمَّا سببتنا ونهيتنا عن عبادتها، فكلامك هذا خبلٌ وجنون!!.

وقد ردَّ عليهم هود عليه السلام بثقة المؤمن بربه، الذي لا يهاب

ولا يخاف أحداً إلا الله، وبأسلوب القوة والاعتزاز بدينه ودعوته ﴿ قَالَ
 إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ، وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ، فَكَيْدُونِي
 جَمِيعاً، ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، مَا مِنْ دَابَّةٍ
 إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

ضلالٌ وطغيان

لقد دلت أجوبتهم على أن القوم كانوا جُفَاءً، غلاظ الأكباد، لا
 يلتفتون إلى النصيح، ولا تلين نفوسهم للرشد، وقد دلَّ قولهم الأخير،
 على جهل مفرط، وسَفَهٍ وَحُمَقٍ، حيث اعتقدوا في حجارة صمَاءَ
 بكماء، أنها تنتصر وتنتقم ﴿ إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ ويا
 له من غباء ما بعده غباء!! ولهذا جابههم هود بالقوة والصلابة ﴿ قَالَ
 إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ، وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي
 جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴾ أي اجتمعوا أنتم وآلهتكم، واحتالوا جميعاً في
 هلاكِي، ثم لا تمهلوني طرفة عين، فأنا لا أخافكم ولا أباي بكم
 جميعاً، لأنني واثق بنصر الله، ووعيدكم لي لن يفتَّ في عضدي، لأنه
 طنينٌ دُباب.

قال العلامة أبو السعود: «وكلامه هذا من أعظم المعجزات، فإنه
 عليه السلام كان رجلاً مفرداً، بين الجَمِّ الغفير من عُتاة عادٍ، الغلاظ
 الشداد، وقد حقرهم، وهيجهم بانتقاص آلهتهم، وحثهم على التصدي
 له، فلم يقدروا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً»^(١).
 وقال صاحب الكشف: «من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام، رجلٌ

(١) إرشاد العقل السليم لمزايا القرآن الحكيم ٢١٨/٤.

واحد، أمةً عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوسٍ واحدة، وذلك لثقتة بربه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبتهم، ومثله قول نوح: ﴿ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ ولما يش هودٌ من إصلاحهم، هجرهم بعد أن توعددهم وهددهم، وأخبرهم أنهم بطغيانهم هذا لن يضروا إلا أنفسهم ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ، وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

نهاية الطغاة المجرمين

وتمضي السورة الكريمة، وهي تقصُّ علينا نهاية أولئك الطغاة المتجبرين، فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم، بالريح الصرصر العاتية، وجعلهم عبرةً للمعتبرين، ونجى من ذلك العذاب المؤمنين الصادقين، وبقيت سيرة أولئك العتاة عظة وعبرة لكل جبار عنيد. وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلَّا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾.

اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا قبل ذلك، برحمتك يا أرحم الراحمين.

القصة الثالثة قصة صالح عليه السلام

هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة، وهي قصة نبيِّ الله «صالح» عليه السلام مع قومه المتمردين، يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا، فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ. قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٥٠﴾

لقد بعث الله إلى قبيلة ثمود هذا النبي الكريم الناصح «صالحاً» عليه السلام، من العشيرة والقبيلة نفسها، ليدعوهم إلى الله، ويرشدهم إلى دينه الحق، ويبيِّن لهم ضلال ما هم عليه من الكفر والإشراك، فقد كانت قبيلة ثمود، كمن سبقهم من قوم عاد، يعبدون الأوثان، ويكفرون بالرحمن، وهم من العرب العاربة، الذين عمَّروا الجزيرة العربية، قبل إسماعيل عليه السلام، وكانت مساكنهم بالحِجْر، بين بلاد الحجاز والشام، يمرُّ عليها المسافرون في سفرهم، ولا تزال آثار مدائنهم باقية حتى الآن، وتُسمَّى «مدائن صالح».

وأصحُّ أقوال العلماء فيهم، أنهم كانوا عرباً من بقايا قوم عاد، ويؤيد هذا القول ما جاء في سورة الأعراف من قول الله جلت عظمته على لسان نبي الله صالح: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ، وَبَوَّأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا، وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا، فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ، وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

دعوتهم إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ

نَبَّههم نبيهم صالح عليه السلام، إلى ضرورة إفراد الله بالعبادة، لأنه جل وعلا هو الذي ابتدأ خلقهم، فأنشأهم من العدم، وأكرمهم بأنواع النعم، ومكَّن لهم في الأرض، فجعلهم عمَّارها وسكانها، يزرعون في سهولها، ويبنون في جبالها القصور والدور، ويتمتعون بما

خلق الله لهم فيها من أنواع النخيل، والفواكه، والثمار، فعليهم أن يشكروه على فضله وإنعامه، ويرجعوا إليه بالتوبة والاستغفار.

قال المفسرون: كان قوم صالح، أهل خصبٍ ونعيم، لما لهم من الخيرات الوافرة، والجنات الزاهرة، والعيون الجارية، والزرور والنخيل، كما يدل عليه قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ أَتَّركُونَ فِيمَا هَهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَظِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾؟ .

وهكذا أصدق الله عليهم النعم، وأكثر لهم الخيرات، وجعلهم في بحبوحة من العيش، وسعة من الرزق، ولكنهم لم يشكروا الله على ذلك الفضل والإحسان، فأزال الله عنهم ذلك النعيم.

رُدُّهم على نبي الله صالح عليه السلام

ولنستمع إلى جوابهم السقيم، الذي يدل على طيشٍ وحماسة، في حق ذلك النبي الكريم: ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيِّدًا قبل تلك المقالة فلما قتلها سقطت من أعيننا ﴿ أَتَّهَّنَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟ ﴾ أي أتمنعنا يا صالح عن عبادة الأوثان، التي عبدها آباؤنا وأجدادنا؟ فهل أنت عاقل أم مجنون؟ كيف تأمرنا بترك عبادتها، وآباؤنا عبدها مئات من السنين؟ ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ أي نحن شاكون في دعواك الإصلاح، وأمرك عندنا مريبٌ يوجب التهمة، وسوء الظن بك، هكذا يقول السفهاء لنبيهم الناصح الأمين «صالح» عليه السلام، وهذا كما قال كفار مكة لسيد الخلق محمد بن عبد الله ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ،

إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿ وَأَجَابَهُمْ صَالِحٌ بِأَسْلُوبِ الْمُرْشِدِ الْحَكِيمِ، الَّذِي لَا يَأْلُو عَنْ تَقْدِيمِ النَّصِيحَةِ لِقَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ، مَهْمَا لَاقَى مِنْهُمْ مِنْ عَنَتٍ، وَأَذَى، وَضُرَرٍ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ، فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ؟ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي إِذَا كُنْتُ نَبِيًّا حَقًّا، وَكَانَتْ دَعْوَتِي وَاضِحَةً كَالشَّمْسِ، وَتَابَعْتُمْكُم فِيمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ، وَعَصَيْتُ رَبِّي فِي أَمْرِهِ، فَمَنْ يَمْنَعُنِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؟ فَهَلْ تَدْعُونِي إِلَى الرَّشَادِ أَمْ إِلَى الْفُسَادِ؟ فَلَيْسَ اتِّبَاعِي لَكُمْ إِلَّا خَسَارَةٌ فَادِحَةٌ لِي وَلَكُمْ.

طلبهم معجزةً تدل على صدقه

وهنا - لما أقام عليهم الحجة في بطلان دعواهم - طلبوا منه معجزة، تدل على صدق نبوته، واشتروا عليه أن يأتيهم بالمعجزة على رغبتهم، وحسب ما يطلبون، وأعطوه العهود والمواثيق، أن يؤمنوا به إن أجابهم إلى ما طلبوا. . وكان هذا الطلب - في نظرهم - تعجيزاً لنبى الله «صالح» عليه السلام، فقد طلبوا منه أن يشق لهم صخرة عظيمة، ويُخرج لهم منها ناقةً عُشراء، والناقة أنثى الجمل، والعشراء هي الحامل التي في بطنها ولد.

قال الحافظ ابن كثير: «وكان القوم قد سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء، عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر، ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى طلبهم، ليؤمنن به وليتبعن، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام نبي الله صالح إلى صلاته، ودعا الله عزَّ وجلَّ، فتحركت الصخرة ثم انصدعت عن ناقة

عظيمة عُشراء، يتحرك جنبينها بين جنبينها كما سألوا، فلما عاينوها رأوا منظراً هائلاً، وقدرة باهرة، فأمن بعضهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، وإلى هذا تشير الآيات الكريمة في قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ، فذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ وإنما أضاف الناقة إلى الله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ تكريماً وتشريفاً لأنها وُجدت بأمره^(١).

وكان من أمر هذه الناقة - بعد أن وضعت حملها أمامهم - أنها تشرب ماء كثيراً غير معهود، وتعطيهم حليياً بمقدار ما شربت، كما قصَّ علينا القرآن الكريم في قوله تقدست أسماؤه: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ، وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾.

تحذيرهم من قتل الناقة

وقد حذَّره نبيهم صالح من التعرض للناقة بسوء، وأنذرهم عذاب الله إن هم آذوها أو أقدموا على نحرها، ولكنَّ النفوس العاتية، التي لا تسمع موعظة، ولا تقبل نصيحة، والتي قد أعمأها حبُّ العدوان والطغيان، قد أبت إلا الإجمام، فأقدموا على قتل الناقة بغياً وعدواً، وفي ذلك يقول جل ثناؤه: ﴿فَعَقَرُوهَا، فَقَالَ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ أي استمتعوا في العيش في بلدكم ثلاثة أيام، ثم يصبحكم العذاب، فلما توعدَّهم نبيهم بالهلاك والدمار، عزموا على قتله ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(٢).

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣٢/٢.

(٢) سورة النمل آية رقم ٤٩/.

قال ابن كثير: فلما عزموا على ذلك، وتواطئوا عليه، وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله، أرسل الله سبحانه عليهم حجارة، فرضختهم سلفاً وتعجلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام المهلة - ووجوههم مصفرة، كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمّرة، وأصبحوا في اليوم الثالث وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما كان اليوم الرابع جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة فأصبحوا في دارهم جائمين أي جثثاً هامدة، لا أرواح فيها ولا حراك^(١)، اقرأ قوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَكْدُوبٍ. فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ. كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا﴾ أي كان لم يقيموا في ديارهم ولم يعمروها ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ وهكذا كانت نهاية الظلمة الفاجرين، الهلاك والدمار، ثم عذاب النار، وصدق الله العظيم: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا. وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾^(٢).

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣٣/٢.

(٢) سورة الشمس آية ١٣ - ١٥.

القصة الرابعة قصة إبراهيم عليه السلام

هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة الكريمة، وهي قصة أبي الأنبياء سيدنا «إبراهيم» عليه أفضل الصلاة والتسليم، وما بشرته به الملائكة عليهم السلام، من ولادة ولدٍ له من زوجته العقيم، وفي ذلك دليل على القدرة الباهرة، في أن الله عزَّ وجلَّ إذا أراد شيئاً، فإنما يقول له كن فيكون، لا سيَّما وأن إبراهيم عليه السلام قد كان في سنِّ الشيخوخة، وهي سنُّ لا يطمعُ فيها الإنسانُ عادةً بمجيء مولود، فكيف إذا اجتمع مع الشيخوخة والهرم، عُقمُ الزوجة واستحالة إمكان الحمل؟ ولكنَّ الله القادر لا يعجزه شيء في هذا الوجود، فالذي خلق الإنسان من نطفةٍ من ماءٍ مهين، قادرٌ على أن يمنح الزوج الكبير، والمرأة العقيم، ولداً تقرُّ به أعينهما.

ولنستمع إلى هذه الآيات البيِّنات في قصة بشارة إبراهيم بالغلام الحليم، حيث يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى، قَالُوا سَلَامًا، قَالَ سَلَامٌ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ، وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، قَالُوا: لَا تَخَفْ، إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبُ﴾.

البشارة بالمولود بطريق الملائكة

والرسلُ الذين جاءوا إبراهيم عليه السلام بالبشارة، هم من الملائكة - ملائكة الرحمة - الذين جعلهم الله تعالى وسائط بينه وبين رسله، وهم على قول ابن عباس ثلاثة «جبريل، وميكائيل، وإسرافيل». وقال الضحاك: كانوا تسعة ملائكة، جاءوه في صورة غلمانٍ، مُردِّ

حسانٍ، في أجمل صورة خلقها الله، ليبشروه بالمولود السعيد، ويخبروه بما قضى الله من تدمير قرى قوم لوط، لأنهم بلغوا النهاية في الفساد والإجرام، كما ستتحدث عنه الآيات الكريمة بعد قليل، وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي سلّمنا عليك سلاماً، يريدون بذلك التحية والإكرام: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي سلامٌ عليكم، فهو ردٌّ منه على تحيتهم، لكنّ بإيجاز وإبداع، وذلك من البلاغة بمكان، كما قال الشاعر:

وَقَفْنَا فَقُلْنَا إِلَيْهِ سَلِمٌ فَسَلَّمَتْ فَمَا كَانَ إِلَّا وَمُؤْهَا بِالْحَوَاجِبِ

أي وما كان ردّها السلام علينا إلا إيماءً بحواجبها، وتحريك جفونها، مع تمتمةٍ بلسانها.

قال علماء البيان: كان ردُّ إبراهيم السلام عليهم، أحسنَ ممّا حيّوه به، لأنه جاء بها جملة اسميّة «قال سلامٌ» أي سلامي لكم «السلام عليكم» وهي تدل على الثبوت والاستمرار، وذلك عملاً بأدب القرآن: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

كرم الضيافة عند الخليل إبراهيم

والتعبيرُ بقوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ يدل على سرعة الأمر، وزيادة الكرم في قرى الضيف، فإن من أدب الضيافة أن يُعجّل الإنسان في تقديم الطعام للضيوف، وألاً يسألهم هل هم جياع يحتاجون إلى طعام، لأن ذلك يُخجلهم ويوقعهم في الحرج، ومن أدبه أيضاً أن يكون الطعام شهياً دسماً، وافرأ غير قليل، وألذّه اللحم المشويّ النضيج، وهذا ما فعله إبراهيم الخليل مع ضيوفه الكرام، فقد سارع إلى تقديم الطعام لهم، وكان عجلأ مشويأ يقطر دسمه، والعجلُ ولد البقرة ويسمى «الحسيل» ومعنى الحنيز: المشويّ بالحجارة المحمّاة

في أخدود في حفرة من الأرض، ويسميه الناس اليوم «اللحم المندي» والآية تشير إلى عظيم كرم إبراهيم الخليل، فقد كان أب الأيتام، كما كان موثلاً الضيفان، ومنه اقتبس العرب هذه الخصلة الحميدة «خصلة الكرم» حتى أصبح ذلك رمزاً لهم، به يُعرفون ويُشهرون فيقال: الكرم في العرب، وحتى قال قائلهم:

إِذَا مَا صَنَعَتِ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيلاً، فَإِنِّي لَسْتُ أَكِلُهُ وَحَدِي

ومعنى الآية الكريمة: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي ما مكث طويلاً، ولا تأخر مجيئه، حتى جاءهم بعجلٍ مشويٍّ، قدّمه بين أيديهم، ليأكلوا منه.

فزع إبراهيم من الضيوف

وقد كانت المفاجأة عجيبة، حيث لم تمتد يد أحدٍ إلى هذا الطعام الشهيّ اللذيذ، فما الأمر، وما الخبر؟ إن من عادة الكرم أن يُقدّم القرى، ومن عادة الضيف أن يُلبي الدعوة، فيأكل من طعامه تطيباً لخاطره، وتأنيساً له، لأنّ ما قدّمه ليس إلّا تكريماً لضيفه، ولا يأبى الكرامة إلّا لثيمٌ، فكيف لم تمتد إلى هذا الطعام الشهيّ أيدي هؤلاء الضيوف؟ وهنا دأخله الفزع منهم، وخشي أن يكونوا قد جاءوا لقصد الشرّ والسوء به، ولم يدّر بخُلده أنهم ملائكة، لا يأكلون ولا يشربون: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ، وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي فلما رآهم لا يمدّون أيديهم إلى الطعام، ولا يأكلون منه، أنكرهم واستنكر فعلهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أحسّ منهم الخوف والفزع.

قال قتادة: «كان العرب إذا نزل بهم ضيف، فلم يَطعم من طعامهم، توقّعوا منه المكروه والشر، وظنوا أنه لم يجيء بخير» ولهذا

السبب فزع منهم إبراهيم عليه السلام.

ولما رأت الملائكة ما أصاب إبراهيم من الفزع والاضطراب، سارعوا إلى تهدئة رَوْعِهِ، وإخباره عن الحقيقة التي جاءوا من أجلها، ألا وهي بشارته بمولود سعيد، يُولد له من امرأته «سارة» العقيم، وإهلاك الطغاة المفسدين من قوم لوط ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي لا تخف منا، فإننا ملائكة ربك، لا نأكل ولا نشرب، وقد أرسلنا الله لإهلاك قوم لوط.

الآداب الإسلامية في قرى الضيف

والآية الكريمة تشير إلى أن من واجب المضيف، أن يتعهد ضيوفه، ويتبسّط معهم في الحديث، وأن يُقدّم لهم ما يحتاج إليه الضيف من الطعام، مع البشاشة والابتسام، وألا يتغافل عنهم، بل ينظر إلى ضيفه هل يأكل أم لا؟ ولكن لا ينبغي أن يُحدّ النظر إليه، ويراقبه في كل لقمة يتناولها، فإن ذلك مخلٌّ بالمرءة وكرم الضيافة، فقد حكى أن أعرابياً تناول الطعام على مائدة بعض البخلاء، فرأى ذلك الثريُّ البخيلُ في لقمة الأعرابيِّ شَعْرَةَ، فقال له: أزلِ الشَّعْرَةَ عن لقمَتِكَ، فقال له: أنتظر إليَّ نظر من يرى الشعرة في لقمتي، والله لا أكلتُ معك أبداً، ثم خرج من عنده وهو يقول:

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُلَاحِظُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ عَلَى عَمْدٍ

بشارة الملائكة لزوجة إبراهيم

ثم تابعت الآيات تذكر بشارة «إبراهيم» وزوجته «سارة» بغلام حلِيم، وما كان من أمر «سارة» حين سمعت بتلك البشارة: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ

قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴿ وَإِنَّمَا ضَحِكْتَ سَارَةً لِأَنَّهَا سَمِعَتْ أَمْرًا عَجِيبًا خَارِقًا لِلْعَادَةِ، وَهُوَ وِلَادَةُ مَوْلُودٍ مِنْ امْرَأَةٍ عَقِيمٍ، وَيَأْتِي مِنْ هَذَا الْوَلَدِ مَوْلُودٌ هُوَ «يَعْقُوبُ» ابْنًا لِمَوْلُودِهَا، فَتَكُونُ أُمًّا وَجَدَّةً.

وقيل: إنما ضحكت فرحاً وسروراً بإهلاك أهل الخبائث من قوم لوط، لأنهم تجرءوا على انتهاك محارم الله. . ولما سمعت بالبشارة، وأيقنت بأن الأمر حاصل لا محالة: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ، وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي قالت سارة متعجبة مستغربة: يا لهفي ويا عجبي، أيأتيني ولد وأنا امرأة مسنة عقيم، وهذا زوجي شيخ كبير هرم، فكيف يأتينا الولد؟ إن هذا الأمر لشيء غريب، لم تجربه العادة، قال مجاهد: «كانت يومئذ ابنة تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة» ﴿ قَالُوا أَنْتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ؟ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أي ليس هناك ما يدعو إلى العجب، فإن الله إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً، وبعلك شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير، وقد أراد أن يكرمكم يا آل بيت إبراهيم بهذه النعمة الجليلة، لأنه محمود في ذاته وصفاته، مستحق للحمد والتمجيد.

مجادلة إبراهيم مع الملائكة

لقد تركنا إبراهيم عليه السلام مع ضيوفه الكرام، وهو يناقشهم ويجادلهم، بعد أن عرف أنهم ملائكة الرحمن جاءوا لإهلاك قوم لوط، وقد كان بين «إبراهيم» و«لوط» عليهما السلام نسب وقربة، فإن إبراهيم ابن تارح بن ناحور، ينتهي نسبه إلى «سام بن نوح»، و«تارح» هو اسم

«آزر»، و«لوط» هو ابن هاران بن تارح، فيكون إبراهيم عليه السلام هو عمّه الشقيق، ولوط هو ابن أخيه، ولهذا لما أخبرته الملائكة بهلاك قوم لوط، خشي إبراهيم أن يكون «لوط» ضمن الهالكين، إن نزل بهم عذاب الاستئصال، الذي حكم الله به على أولئك المجرمين، ولذلك أخذ يجادلهم ويناقشهم بالحجج، لا دفعاً لعذاب الله، ولكن استرشاداً واستبصاراً، وإلى ذلك تشير الآيات البيّنات في تنمة قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ، وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى، يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ، أَوَّاهٌ، مُنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾.

مجادلته عليه السلام بدافع الشفقة

أما مجادلته عليه السلام فلم تكن بطريق المعارضة والخصام، وإنما كانت بدافع الشفقة والرحمة على المؤمنين، أن يهلكوا مع الهالكين، وبخاصة ابن أخيه «لوطاً» عليه السلام، قال المفسرون: لما قالت له الملائكة: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ فقال لهم: أرايتم لو كان فيها خمسون من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، حتى بلغ العشرة، قالوا: لا، قال: فإن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال لهم: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا، قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ، كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أي من الهالكين الباقين في العذاب الأليم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ أي ذهب عنه الخوف الذي لحقه، حين أنكر أضيافه، واطمأن قلبه حين علم أنهم

ملائكة من السماء، جاءوا إليه بأمر الله: ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ﴾ أي البشارة بإسحق ثم يعقوب ولد إسحق ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي أخذ يجادل ملائكتنا في شأن إهلاك قوم لوط، الذين نفذ فيهم القضاء السابق، بقلب دورهم، واستئصال جمعهم ودمارهم الدمار الشامل.

صفات إبراهيم العظيمة

وقد وصف الله تقديس أسمائه إبراهيم بصفات ثلاث، تدل على كمال شفقتة، ورحمته، وعبوديته لله رب العالمين فقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾.

أما الصفة الأولى: فهي الحلم، والحليم الذي لا يتعجل في الأمور، بل يتأنى ويترفق، وهذا دليل كمال العقل.

وأما الصفة الثانية: فهي التأوه، ومعناه كثرة الحزن والتأسف على الناس لرقة قلبه، وهو دليل الشفقة على العباد.

وأما الصفة الثالثة: فهي الإنابة، ومعناها الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة وكثرة الاستغفار، وهذه دليل على صدق العبودية.

وهذه الصفات الحميدة، إنما ذكرها تعالى في موطن المديح والثناء، على أبي الأنبياء، فقد كان رقيق القلب، صافي النفس، عظيم الخوف من عقاب الله، يحرص على إيمان الناس، ويخشى عليهم من الهلاك والدمار، وهذه أخلاق الأنبياء والمرسلين، لأنهم إنما بعثوا للرحمة، وإنقاذ البشرية من مهاوي الغي والضلال.

المجرم لا يستحق الرحمة والإكرام

وبعد هذا الوصف الدقيق، والتصوير الشامل، لنفسية إبراهيم الخليل، الذي ينبىء عن الفضائل والكمالات، التي أودعها الله في قلب

خليله وحببيه إبراهيم عليه السلام، جاءت الآيات لتنبهه إلى أن طلب الرحمة للمجرم الأثيم، ليس مما ينبغي أن يصدر عن نبي كريم كإبراهيم، ولهذا أمره الله تعالى على لسان الملائكة، بالكف عن المجادلة والمحاورة بشأن أولئك الأشقياء المفسدين ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ والمعنى: قالت الملائكة يا إبراهيم: دَعُ عَنْكَ الْجِدَالَ فِي أَمْرِ قَوْمِ لُوطٍ، فقد نفذ فيهم القضاء، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ بِالْهَلَاكِ، وحلول بأس الله الذي لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين.

القصة الخامسة قصة لوطٍ عليه السلام

وتمضي السورة الكريمة بعد ذلك، لذكر القصة الخامسة من قصص الأنبياء والمرسلين وهي قصة نبي الله الكريم لوطٍ عليه السلام، لتطالعنا بأخبار عجيبة، وأمور غريبة، عن أحوال أولئك الأشقياء الفجار، الذين ارتكبوا أقبح الفواحش، وأرذل المنكرات، ألا وهي «جريمة اللواط» التي يتورع عن فعلها الحيوان، وعنهم تتحدث الآيات الكريمة: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا، وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ. وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ، وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ يَا قَوْمِ : هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ؟ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ، قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً، أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

قال المفسرون: لما تركت الملائكة إبراهيم عليه السلام وودَّعوه، عرَّجوا في طريقهم على قرية لوط، والرسل هنا في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا

جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴿ هَم الملائكة الذين كانوا أضياف إبراهيم عليه السلام، وذلك أنهم لما خرجوا إلى بلدة لوط - وبينها وبين قرية إبراهيم ثمانية أميال - وصلوا إليها، فوجدوا ابنته تستقي ماءً في نهر سدوم، فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيأتهم وجمالهم، فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مكانكم حتى أدعو لكم أبي، وذهبت إلى أبيها فأخبرته، فخرج إليهم، فقالوا له: نريد أن تضيفنا الليلة، فقال لهم: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال: أشهد بالله لهم شر قوم في الأرض!! .

شهادة نبيهم عليهم بالفجور

وقد كان الله عز وجل قال للملائكة: لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما قال لوط تلك المقالة، قال جبريل لمن معه من الملائكة: هذه واحدة، وتكرر الحديث بينهم وبينه حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات، على أنهم أفجر أهل الأرض، ولم يدرك لوط أنهم ملائكة، ثم دخل بهم المدينة، وهو متخوف عليهم من قومه المجرمين، وحينئذ ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي أصابه سوءٌ وضجرٌ ﴿ وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا ﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم، واغتم لذلك، لأنه خاف عليهم خبت قومه، وأن يعجز عن مقاومتهم، لأنهم جاءوه على صورة شبابٍ مُردٍ، في غاية الحسن والجمال، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمَ عَصِيبٍ ﴾ أي هذا يوم شديد بلاؤه، لأنه توقع أن يطمع بهم قومه، فيفحشوا بهم، ولا يستطيع أن يدافع عنهم، وقد وقع ما كان يحذره ويخافه ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي جاءه قومه الأشرار يسرعون نحو بيته، يطلبون الفاحشة بالضيوف، كأنهم يُدفعون إلى ذلك دفعا، كمن

يُسرع في طلب حاجة تهمه فهو مندفع نحوها اندفاعاً ﴿ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي ومن قبل ذلك الحين، كانوا أشقياء فجرة، عادتهم إتيان الرجال، وفعل الخبائث، ولذلك لم يستحيوا حين جاءوا يهرعون إليه، مجاهرين بطلبهم القبيح.

زوجة لوط تدل على الضيوف

روي أن امرأة لوط الكافرة، لما رأت الأضياف، ورأت جمالهم وهياتهم الحسنة، خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت: إن لوطاً أضاف الليلة فتية، ما رؤي مثلهم جمالاً، فحينئذ جاءوا يهرعون إليه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾؟ أي قال لهم لوط: هؤلاء نساء البلدة أزوجكم بهن، فذلك أشرف لكم وأطهر، فاحشوا عذاب الله ولا تفضحوني وتهينوني في ضيوفي، أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح؟ وإنما قال: ﴿ بناتي ﴾ وقصد به نساء البلدة، لأن كل نبي كالوالد لأمته، في الشفقة والحنان، فماذا كان جواب أولئك الأشقياء الفجار؟ ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أي لقد علمت هدفنا وغرضنا الأصيل، الذي جئنا من أجله، وهو الاستمتاع بالذكر وليس لنا حاجة ولا أرب في النساء، فلا تعرض علينا البنات، وقد صرّحوا له بغرضهم الخبيث وهو الفجور بالذكر أخزاهم الله، وهذا هو مرادهم بقولهم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾؟! .

اللوامة من خصائص قوم لوط

تركنا «لوطاً» عليه السلام في جدل عنيف مع الأشرار الفجار من قومه، الذين اقتحموا داره يريدون أن يفجروا بضيوفه، وهو عليه السلام

يتلطف بهم، ويخاطب فيهم مروءتهم وشهامتهم، ولكن دون فائدة ولا جدوى، لأن قلوبهم خوت من الإيمان، وخوف الرحمن.. ولقد عرفنا - فيما تقدم - أن قومه كانوا من أفجر الناس وأكفرهم، وأخبثهم طويّة، وأقبحهم سيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، علناً وجهاراً، دون حياء ولا خجل، وقد ارتكبوا جريمة هي من أقبح وأشنع الجرائم، لم يسبقهم إليها أحدٌ من أهل الأرض، ألا وهي «اللواط» وهي إتيان الذكور في الأدبار، وترك النساء لعدم رغبتهم فيهن، كما حدثنا عنهم القرآن الكريم، في قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأنتون الفاحشّة، ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين. أننكم لتأتون الرجال، وتقطعون السبيل، وتأتون في ناديكم المنكر، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ (١).

وفي موطن آخر يقول القرآن الكريم عن أولئك السفهاء: ﴿أأنتون الذكّران من العالمين؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم؟ بل أنتم قوم عادون﴾ (٢)!!

لوط يسدي النصح لقومه

وبعد أن أسدى لهم لوط عليه السلام النصح، لم يلق منهم إلا أذناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، وهو لا يزال يلاطفهم بالكلام الجميل، ويتودّد إليهم طالباً منهم الكفّ عن التعرض لأولئك الضيوف، وهم يُمعنون في الغواية والضلالة، ولا يستجيبون لمنطق العقل والمروءة، عند ذلك توعدّهم لوط عليه السلام: ﴿قال لو أن لي بكم قوّة، أو آوي إلي ركنٍ

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٢٨ - ٢٩ / .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ١٦٥ - ١٦٦ / .

شديد ﴿؟ وجواب «لو» محذوف تقديره: لفعلت بكم ما فعلت، ونكّلتُ بكم تنكيلاً، يردُّعُ المجرم عن إجرامه.

قال علماء البيان: حذف الجواب هنا أبلغ، لأنه يوهم بعظيم الجزاء، وغلظ النكال، ويدُّعُ النفس تذهب إلى أبعد صور العقوبة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا﴾ (١) حُذِفَ مِنْهُ الْجَوَابُ، لِلتَّهْوِيلِ وَالتَّفْظِيحِ، وَمَرَادُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ الْإِلْتِجَاءُ إِلَى الْعَشِيرَةِ وَالْأَنْصَارِ، لِيَكُونَ لَهُ بِهِمْ قُوَّةٌ وَمَنْعَةٌ، وَالْمَعْنَى: أَوْ أَلْتَجِئُ وَأَنْضُوِي إِلَى عَشِيرَتِي، الَّتِي تَحْمِينِي وَتَسَاعِدُنِي عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْكُمْ لِفَعْلَتُكَ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «يُرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» (٢) يَرِيدُ بِهِ جَانِبَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ نَعْمُ الْمَلْجَأِ، وَنَعْمُ النَّصِيرِ، وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ بِزِيَادَةِ «فَمَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا إِلَّا فِي ثُرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ» أَي فِي قُوَّةٍ وَعِزَّةٍ وَمَنْعَةٍ، مِنَ الْعَشِيرَةِ وَالْأَنْصَارِ.

الملائكة تبشّر لوطاً بالنجاة

ولما رأت الملائكة ما أصاب لوطاً من الحزن والأسى، خوفاً على ضيوفه، من أذى قومه الأشرار الفجار، أخبروه عن الحقيقة، وهي أنهم ليسوا بشراً، وإنما هم ملائكة جاءوا لإهلاك القوم الظالمين، فلا خوف عليهم من أولئك السفهاء، وأمره أن يخرج من أرض قومه ليلاً، قبل

(١) سورة الأنعام آية رقم ٢٧/.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٢٩٣/٦ باب قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وأخرجه مسلم في الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب رقم ١٥١/ والترمذي في التفسير رقم ٣١١٥/ وانظر جامع الأصول ٥٤/٢.

طلوع الفجر، ويصحب معه أهله وأتباعه المؤمنين، إلا امرأته الكافرة، فإنها ستكون مع الهالكين، ولن ينجها صلتها بزوجها لوط عليه السلام، لأن العلاقة قد انقطعت بسبب الكفر، وأخبروه بأن هلاكهم سيكون في وقت قريب، وموعده الصباح من تلك الليلة التي أمر أن يخرج منها من بين القوم الظالمين، وفي ذلك يقول الله تقدست أسماؤه: ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ، لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾؟ أي قالت الملائكة لنبى الله لوط عليه السلام: إنا رسل ربك ولسنا بشرًا، فلا تخف علينا من شرهم، وقد أرسلنا الله لإهلاكهم، ولن يصلوا إليك بضررٍ ولا مكروه ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أي اخرج بهم بطائفة من الليل قبل طلوع الصباح، قال الطبري: أي اخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ ﴾ أي لا ينظر أحد منكم وراه، إلا امرأتك فإنها ستهلك كما هلكوا. . نهوهم عن الالتفات إلى الخلف لثلاث تنفطر أكبادهم على قريتهم حين ستقلب بمن فيها، ويصبح عاليها سافلها.

قال القرطبي: «إن امرأة لوط لما سمعت هذة العذاب التفتت وقالت: واقوماه!! فأدركها حجرٌ فقتلها»^(١).

هلاك قوم لوط بانقلاب مدنهم

وقد استعجل لوط عليه السلام عذابهم، لغيظه على قومه لما علم أنهم ملائكة، فطلب التعجيل بهلاكهم، فقالوا له: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ

(١) جامع الأحكام للقرطبي ٨٠/٩.

الصُّبْحُ ﴿ أَي موعِد عذابهم وهلاكهم وقت الصبح ﴾ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿ ؟ .

قال المفسرون: إن قوم لوط لما سمعوا بالضيوف هرعوا نحوه، فأغلق بابه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما بلوطٍ من الكرب والحزن، قالوا يا لوط: افتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بطرفٍ من جناحه، فأعمى أبصارهم، وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النِّجَاءُ، النِّجَاءُ، كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ ثم إن لوطاً عليه السلام سرى بمن معه قبل الفجر، وما أن أشرقت الشمس حتى كانت القرى بمن فيها خراباً يباباً، فقد أمر الله جبريل أن يقتلع مدائنهم - وكانت خمس مدائن - من تخوم الأرض، وأن يرفعها إلى السماء ثم يقلبها بهم بمن فيها، ففعل جبريل ذلك، ثم أرسلها مقلوبة وأتبعهم الله بالحجارة، التي نزلت عليهم كالمطر، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

والمعنى: لما جاء موعِد هلاكهم وعذابهم، قلبنا بهم القرى فجعلنا العالي سافلاً: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴾ أي أرسلنا على أهل تلك المدن والقرى، حجارة صلبة شديدة من نارٍ وطين، تشبه المطر الزاخر في كثرتها وشدتها، ومعنى «مَنْضُودٍ» أي متتابعة بعضها إثر بعض ﴿ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أي معلّمة بعلامة، قد كتب على كل حجر اسمٌ من يُرمى به، وفي قوله: ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أي مرسلة من عند الله وليست من حجارة الأرض ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ

مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ ﴿١﴾ أي وليست هذه القرى المهلكة بعيدة عن «كفار قريش» الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم سيد المرسلين، بل هي قرية يمرون عليها في أسفارهم، أفلا يعتبرون؟!

قال الحافظ ابن كثير: «وقد جعل الله مكان تلك البلدة، بحرة منتنة، لا يُنتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها، لردائتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة، وعظة وآية، على قدرة الله وعظمته، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله، واتبع هواه، وعصى مولاه»^(١).

وهكذا يسدل الستار على قوم لوط، بهلاكهم ودمارهم، بأفطع أنواع العقوبة والانتقام، بالصيحة المدمرة، وقلب مدنهم وقراهم، وبالحجارة التي أرسلها الله عليهم من سجل منضود.

القصة السادسة قصة شعيب عليه السلام

وبعد أن انتهى الحديث عن قصة قوم لوط، وما جرى لهم من فظيع العقوبة، وبالغ الانتقام، جاء بعده الحديث عن أهل «مدين» وهم قوم نبي الله «شعيب» عليه السلام، وهذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة الكريمة، وكلُّ هذه القصص إنما سيقت للعظة والاعتبار، ولتسليية النبي ﷺ عما يلقاه ويقاسيه من الكفرة الفجار. لقد كان أهل مدين قوماً عرباً، يسكنون قريباً من بلاد الحجاز، مما يلي جهة الشام قريباً من معانٍ، وكانت بلادهم تعرف باسم «مَدِين» وقد أرسل الله إليهم نبياً كريماً، هو سيدنا «شعيب» عليه السلام، من

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١٨٢/١.

أشرفهم نسباً، ومن أطيبهم ديناً وصلاحاً، فدعاهم إلى توحيد الله، وذكَّرههم بعذابه، ونهاهم عن تطفيف المكيال والميزان، وأمرهم بالإصلاح وعدم الإفساد، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَالِى مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِنَّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ. وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُّفْسِدِينَ. بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.

جريمة أهل مدين تطفيف المكيال والميزان

وقد كانت معصية هؤلاء الأمة الشنيعة، أنهم كانوا قد تواطئوا على ظلم الناس والاعتداء عليهم، فقد كانوا يأخذون ممن يردُّ عليهم من غيرهم الحقَّ وافيّاً كافياً، ويُعطوه ناقصاً في وزنهم وكيلهم، عدا عن كفرهم وضلالهم في عبادة الأوثان والأصنام، ودعاء شعيب لهم إلى عبادة الله جلَّ وعلا يقتضي أنهم كانوا يعبدون الأوثان، ولهذا قال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وهذا الأمر بين أيضاً من قولهم فيما بعد: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؟ فكفرهم هو الذي استوجبوا به العذاب، لا معاصيهم فقط، فإن الله لم يعذب أمة قطُّ إلا بالكفر، فإذا انضافت إلى ذلك معصية من المعاصي كانت تابعةً، وأعني بالعذاب عذاب الاستئصال العام، الذي يكون به الهلاك والدمار.

شعيب يبالح في تذكيرهم وإرشادهم

ولمّا كانت تلك الخصلة القبيحة متأصلةً فيهم، كأنها امتزجت بدمائهم وعروقهم، نرى أن شعيباً قد بالغ في التأكيد، فهو يقول لهم

أولاً: ﴿ وَلَا تَنْفُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ ويقول لهم ثانياً: ﴿ وَيَا قَوْمِ
أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ ويقول لهم ثالثاً: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ وكل ذلك التكرار لإفادة
التأكيد، وشدة العناية والاهتمام بالأمر، على طريقة العرب إذا أرادوا أمراً
من الأمور، أكدوا اللفظ بضروب من المؤكدات، مع التكرار له بأساليب
متنوعة، كما تقول لإنسان: «صِلْ قرابتك، ولا تقطعهم، وتفقد
أحوالهم، وأحسن إليهم بكل ما تستطيع».

ومعنى قول شعيب لهم: ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ،
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أي ما يُبقية الله لكم من الربح، بعد وفاء الكيل
والميزان، خير لكم من أخذ أموال الناس بالظلم والعدوان، وهذا
المعنى مروى عن ابن عباس، وإليه ذهب ابن جرير الطبري، وهو
الأظهر، وروى عن مجاهد أن المعنى: طاعة الله خير لكم إن كنتم
مصدقين بوعد الله: ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أي لست عليكم برفيق
أحفظ أعمالكم، إنما أنا ناصح مبلغ، والله هو الذي يجازيكم
بالأعمال.

جواب السفهاء لنبئهم عليه السلام

وبعد هذه النصائح التي أسداها لهم، بدافع الشفقة والحنان، ماذا
كان جواب أولئك السفهاء؟: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ
مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ
الرَّشِيدُ ﴾. يا للتعجب العُجاب!! يدعوهم نبئهم الكريم إلى ما فيه سعادتهم
وفلاحهم، فيجيبونه بجواب سفيه، بأسلوب يدل على السخرية
والاستهزاء، متهكمين به وبدينه وصلاته: ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا

يَعْبُدُ آبَاؤَنَا؟ أي أدينك يأمرك بهذا؟ وأطلقوا على الدين الصلاة، لأنها أظهر شعائر الدين، وروي أن شعيباً كان كثير العبادة والصلاة، وكان قومه إذا رآه يصلي تغامزوا وتضاحكوا، فقصدهوا بقولهم: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ السخرية والهزاء، وزادوا في الغي والضلال حتى قالوا له: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أي أنت العاقل، المتّصف بالحلم والرشد؟

قال الطبري: «يستهزئون به، فإنهم أعداء الله إنما قالوا ذلك استهزاءً به، سفهوه وجهلوه بهذا الكلام»^(١). عجبٌ والله أن يهزأ الجاهل من العالم، وأن يسخر المجنون من العاقل، وأن يصبح السفیه راشداً، ذا حجة وبيان، يريد أن يظهر بشخصيته، على من يدعو إلى الفضيلة والطهر والعفاف؟

متى كانت الاستقامة تعدُّ نقصاً؟ ومتى كانت الفضيلة تعتبر عيباً يُلام عليه الإنسان؟ ولكنه منطق الكبرياء والطغيان، كما قال قوم لوط لنبئهم وأتباعه المؤمنين: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾!!

شعيب يتلطف مع قومه

ومع هذا السّفه والهدّيان، فقد تلطف معهم شعيب عليه السلام، وخاطبهم مخاطبة الشفيق الرفيق، الذي لا يألوا في تقديم النصح والإرشاد، شفقةً ورحمةً على الخصم المعاند ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا.﴾؟ أي أخبروني إن كنت على بصيرة في أمر الدين، وفيما أدعوكم إليه، وأعطاني الله النبوة والمال الحلال، والجواب محذوف دلّ عليه السياق وتقديره: إذا كنت

(١) جامع البيان للطبري ١٢/١٠٣ وهو مروى عن ابن زيد.

نياً على الحقيقة، أيصح لي أن أترك تبليغ الرسالة، وألاً أقدم لكم النصيح بترك عبادة الأوثان، والكف عن العصيان؟ ثم زاد في الإيضاح والبيان فقال: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ . ومراده لا يمكن أن أنهاكم عن شيء وأفعله، لأنني لا أريد إلا صلاحكم وفلاحكم، وأمري بيد الله جلّ وعلا .

تحذيرهم من الاستمرار على الكفر

ثم حذّروهم من مغبة الاستمرار على الكفر والعصيان، ومخالفة أمره ﷺ خشية أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من العذاب والنكال فقال: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ، أَوْ قَوْمَ هُودٍ، أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ، وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ. وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي، على ترك الإيمان بالرحمن، فيصيبكم ما أصاب من سبقكم من الطغاة المفسدين، ولنستمع إلى جواب أولئك السفهاء العجيب الغريب ﴿ قَالُوا يَا شَعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ، وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا، وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكّم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل التخليط والهديان، الذي لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه، مع وضوحه وشدّة بيانه، وكل ذلك من مظاهر الشقاوة والطغيان الذي كانوا عليه، ثم زادوا في الإجمام فقالوا له: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أي لولا عشيرتك وجماعتك لقتلناك رجماً بالأحجار، فإنك لست علينا بمكرّم ولا محترم .

تعاسة وشقاوة

ما أتعس هؤلاء القوم وما أشقاهم، نبيهم يتلطف معهم فيخاطبهم بقوله: «يا قوم» ويكرر هذا النداء «يا قوم» الذي ينم عن المحبة والشفقة، وهم يقابلونه بهذه السفاهة والرعونة، أنه لولا جماعته وأتباعه، لرموه بالحجارة حتى يموت أشنع ميتة.

ومع هذا لم يستفزه كلامهم القبيح للدعاء عليهم، أو لوصفهم بأشنع الألقاب التي يستحقونها، بل بقي في تلفظه وهدوئه، لأنه كالطبيب المداوي يتحمل جهل المريض وبذائه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا، إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ. وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ، سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾.

النتيجة: الهلاك والدمار

ويُسدل الستار عن نتيجة ما حلَّ بهؤلاء المكذبين الأشرار، فإذا هم هلكى صرعى، هامدين لا حراك بهم، كأنهم لم يقيموا في ديارهم قبل ذلك آمنين ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أي كأنهم لم يعيشوا وقيموا في ديارهم، في نعمة وأمن واستقرار ﴿ أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: «ذكر تعالى هنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف ذكر الرجفة، وفي الشعراء ذكر عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه»^(١).

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٣١.

وقد ختم الله قصتهم بالدعاء عليهم بالهلاك والدمار ﴿ أَلَا بُعْدًا
لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ أي أبعد الله هؤلاء الأشقياء المجرمين من
رحمته، كما بعدت من قبلهم قبيلة ثمود، بتكذيبهم رسل الله!! .

القصة السابعة قصة موسى عليه السلام

ثم يأتي الحديث عن قصة نبي الله موسى عليه السلام، مع
فرعون المتمرد الجبار، الذي نازع الله في ملكه، وشاركه في ربوبيته،
فزعم أنه ربٌّ ينبغي أن يعبد من دون الله، وقال مقالته الفاجرة: ﴿ أَنَا
رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ وقصته مع فرعون هي القصة السابعة، التي ذكرها الله
في هذه السورة الكريمة «سورة هود» عليه السلام.

وقد أورد الله قصته هنا مجملة، لأنه قد جاء تفصيلها - على أتم
وجوه البيان - في سورة الأعراف، وفي سورة يونس، ولما كان الغرض
من ذكر القصص «العظة والاعتبار» والإخبار عمّا حلّ بالأمم الطاغين،
من ضروب العذاب والدمار، ردعاً للظالمين، وتسلياً لقلب النبي الأمين
عمّا قاساه من الكفرة المشركين، جاء الحديث هنا عن قصة فرعون
الطاغية، موجزاً مختصراً، تحقيقاً للهدف الأول ألا وهو ردع المجرمين،
وفي قصة موسى مع فرعون يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَمَا
أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ . يَقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوَرْدُ
الْمُورُودُ . وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ .

تأييد الله له بالمعجزات الواضحة

ولقد أيد الله نبيه الكريم «موسى بن عمران» بالحجج الساطعة،
والبراهين القاطعة، التي تدلُّ على صدق نبوته، وكانت معجزاته الحسية

ظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار، وهي تسع كما نصَّ القرآن الكريم في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (١).

ومن أوضح هذه المعجزات وأبينها «اليد» و«العصا»، كان إذا أدخل يده في فتحة ثوبه ثم أخرجها، تشع بالنور والضياء، كأنها شمس ساطعة من غير سوء أو أذى، وكان إذا ألقى العصا انقلبت إلى حية تسعى، ثم إذا أمسكها عادت عصا. ومع هذه الآيات الباهرة، والبراهين الساطعة، تمادى فرعون في كفره وضلاله، وأصرَّ على طغيانه وعناده، وأبى أن يستجيب لدعوة الله، ودعا الناس إلى الكفر والفجور، فأطاعه الكثيرون ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي ليس عملُ فرعون وفعله بحميدٍ ولا رشيد، لأنه ليس فيه هدىً ورشاد، وإنما هو جهلٌ وسفهٌ وضلال، وكما كان فرعون في الدنيا قُدوةً لهم في الشرِّ والفساد، فكذلك هو يوم القيامة رئيس لهم وإمام، يتقدّمهم إلى نار جهنم، وهم على أثره في الورد والدخول: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ، وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾.

فرعون مثلٌ لكل طاغية

وفرعون مثلٌ لكل طاغية جبار، يدعو إلى الفجور والإجرام، فكلُّ داعٍ في الدنيا إلى ضلالة، يكون يوم القيامة قائداً لأتباعه، ليسلك بهم إلى دركات الجحيم، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ. وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٢).

(١) سورة الإسراء آية رقم ١٠١.

(٢) سورة القصص آية رقم ٤١-٤٢.

وقد أحسن من قال :

وَمَنْ يَكُنِ الْغَرَابُ لَهُ دَلِيلًا يَمُرُّ بِهِ عَلَى جَيْفِ الْكِلَابِ
ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ أي بئس هذا
المدخل السيء، يردونه ويدخلونه يوم القيامة، وهو نار الجحيم، شبه
تعالى نار جهنم بماء يرده العطاش، وشبه فرعون في تقدمه على قومه،
بالوارد الذي يتقدم رفاقه لطلب الماء، لتسكين العطش وتبريد الأكباد،
فيوردهم إلى المهلكة، النار اللاهبة، المحرقة للأجساد، ففي الآية
استعارة مكنية ثم زاد تعالى في البيان والإيضاح، وذكر ما حلّ بأتباع
فرعون الأشقياء فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً، وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ أي ألحقوا فوق العذاب الذي عجله لهم
لعنة في الدنيا، وأردفوا بلعنة أخرى يوم القيامة، وبئس العون والعطاء
المعطى لهم، وهو اللعنة في الدارين.

قال قتادة: «ترادفت عليهم لعنتان: لعنة من الله وملائكته
والمؤمنين، ولعنة في الآخرة»^(١). وأصل الرفد في كلام العرب: العون
والعطاء، وسُمي العذاب هنا رفاً على سبيل السخرية والتهكم، لأنه هو
الذي حصل لهم بدل الرحمة والنعيم، وكلُّ شيء جعلته عوناً لشيء فقد
رصدته به، فكان عطاؤهم ومنحتهم، اللعنة في الدارين، وهذا كما تقول
يا فلان: لم يكن عطاؤك وإفضالك إلا الضرب والإهانة، كما قال تعالى
في سورة القصص: ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ
المقبوحين ﴾ سأل نافع بن الأزرق ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله
تعالى: ﴿ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ قال: هو اللعنة بعد اللعنة^(٢).

(١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري ٥٨/١٢ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٥٥/١٨ .

الحكمة من هذه القصص

ثم تمضي السورة الكريمة لتذكر بعد ذلك، الغاية والحكمة من سرِّ هذه القصص والأخبار، على رسول الله ﷺ وعلى الأمم والأجيال، ألا وهي العبرة والاتعاظ بما جرى للسابقين من النكال والدمار، لتكون كشاهدٍ على تعجيل العقوبة للمكذبين، من الطغاة المجرمين، والانتقام العاجل منهم، وبرهاناً على تأييد الله عزَّ وجلَّ لأنبيائه وأوليائه، وتخويفاً لكفار مكة الذين كذبوا سيِّد المرسلين.

وثمة ناحيةٌ أخرى - عدا العظة والاعتبار - وهي أن النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب، لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتلقَّ العلم على يد أحد، ولا تتلمذ على إنسان، فمن أين جاء بهذه الأخبار، على وجه الدقة والتحقيق؟ لا شك أن في ذكر ذلك أعظم برهان ومعجزة على صدق دعوى النبوة، وأن هذا القرآن تنزيل الحكيم الحميد، ولنستمع إلى الآيات البيّنات، وهي تقصُّ علينا الغاية من ذكر هذه القصص والأخبار: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ. وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

بهذا البيان الساطع يخبرنا الله جلَّ وعلا عن سبب هلاك الأمم، ألا وهو الظلم والطغيان، والاستكبار عن طاعة الرحمن، وقد ذكر تعالى أن آثار هؤلاء المهلكين لم تدرس، فمنها ما هو عامر، قد هلك أهله وبقي بنيانه، ومنها ما هو خرابٌ قد اندثر بأهله، فلم يبق له أثر،

كالزرع المحصود بالمناجل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ ثم بين تعالى أن هذه هي سنته في الطغاة المتجبرين، يمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ .

في القصص بيان صدق الرسول ﷺ

وبعد أن انتهى الحديث عن قصص الأنبياء والمرسلين، وهي سبع قصص متتالية، ذكر تعالى الغرض من سرد هذه القصص، وهي تذكير الناس بالقيامة، والبعث، والحشر والنشر، وإيقافهم على صدق ما جاء به الأنبياء والمرسلون، فقد جعل الله تقديس أسماؤه الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، والأقوام الذين عذبوا في الدنيا إنما عذبوا بسبب تكذيبهم الأنبياء، وإشراكهم بالله، ولكن عذاب الدنيا يسير، فهم ما ذاقوا إلا قطرة لا تُذكر، من العذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ .

والآيات هنا تتحدث عن أهوال الآخرة وشدائدها، وعن انقسام الناس في ذلك اليوم العصيب إلى فريقين: سعداء، وأشقياء، وفي ذلك يقول ربنا تقديس أسماؤه: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ، وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

والمعنى: أن في هذه القصص والأخبار، لعظة وعبرة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الآخرة: ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ﴾ أي

يجتمع فيه الخلائق للحساب والجزاء، لا يغيب منهم أحد، كما قال سبحانه: ﴿ وَحَشْرَنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي يشهده أهل السماء والأرض، والأولون والآخرون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يشهده البرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر.

وصف جلَّ وعلا ذلك اليوم العصيب بوصفين:

أحدهما: أنه يوم الحشر الأكبر، الذي يجتمع فيه جميع الخلائق، من لدن آدم عليه السلام، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

والثاني: أنه يوم العرضِ على الجليل المتعال، للفصل بين العباد، فهو يومٌ عظيم يجتمع فيه الحاكمُ والمحكومُ، والظالمُ والمظلومُ، وتحضره الملائكة والرسلُ، ويحشر فيه الخلائق بأسرهم، من الإنسِ، والجنِّ، والطيور، والوحش، والدوابِّ، ويحكم فيه العادل، ملك الملوك الذي لا يظلم مثقال ذرة.

أهوال يوم القيامة

ولما كان يوم القيامة، هو أحد أركان الإيمان الهامة، وهو الذي أقسم الله عزَّ وجلَّ به لخطره وعظيم شأنه في قوله سبحانه: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾؟ لذلك نجد في هذه السورة الكريمة إسهاباً في الحديث عنه، يتفق مع جلال الموقف وروعته، ويتسم بالهول والفرع في أحداثه، وأوصافه وأنبائه، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أي يوم يأتي ذلك اليوم

الرهيب، فلا يتكلم أحدٌ إلا بإذن الله تعالى، لا مَلَكٌ، ولا رسولٌ، ولا بشرٌ، الكلُّ قد خضعوا لجلال الله وعظمته، فلا كلام ولا ملام، ولا اعتذار ولا انتصار، وإنك لتحسّ بالهول يكاد يذهب بالأنفاس، وقد سكتت الأصوات، ونُكّست الرؤوس، وشخصت الأبصار ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾^(١) ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾^(٢) وهناك ينقسم الناس إلى فريقين كما قال سبحانه ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ هكذا ينقسم أهل المحشر إلى فريقين ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ فيا فوز السعداء، ويا خيبة الأشقياء!!

صور مفزعة عن الأشقياء في الآخرة

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تطالعنا بصور مفزعة، من أحوال أولئك التعساء الأشقياء، الذين خسروا دينهم، فخسروا سعادتهم، وشقوا الشقاء الأبدي، الذي جرّعهم الغُصص والآلام، وسبب لهم الخلود في أطباق الجحيم، مع ما لهم من العذاب الدائم، الذي لا ينقطع، وصور لنا القرآن حالهم ومآلهم، وكأنه مشاهد لنا مرثي رأبي العين، وهم في الأغلال والسعير، ينهقون كما تنهق الحمير ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَبِئْسَ الْوَجْدُ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

والزفيرُ: صوتٌ شديدٌ خاصٌّ بالمحزون والمكروب، أو المومج والمعدب، ينبعث من القلب كما يفعل الباكي الذي يصيح خلال بكائه.

(١) سورة طه آية رقم /١١١/.

(٢) سورة طه آية رقم /١٠٨/.

والشهيق صوت مفزع يشبه صوت الحمار.

قال بعض المفسرين: شبه صراخهم في جهنم بأصوات الحمير، التي هي مثل في النكارة والشناعة ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾^(١) وذكر الطبري في روايته عن قتادة أنه قال: «صوت الكافر في النار صوت الحمار، أوله زفير، وآخره شهيق»^(٢) فكذلك صياح أهل النار، لا يفتأون عن الصياح بأصوات منكرة تصم الأذان، وذلك زيادة في عذابهم وخزيهم، وهوانهم على الله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

صور مشرقة عن السعداء في الآخرة

أما السعداء الأبرار، فهم في جنان الخلد يتنعمون، مستقرون فيها لا يخرجون منها أبداً، دائمون فيها دوام السموات والأرض، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا، مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ هكذا يخلد هؤلاء السعداء في النعيم، كما يخلد أولئك الأشقياء في الجحيم، والمراد من قوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ أي عطاء دائماً باقياً، غير مقطوع عنهم، بل هو ممتد إلى غير نهاية.

وفي الحديث الصحيح: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، ناداهم الله عز وجل يا عبادي هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أعطيتكم أفضل من ذلك، فيقول: وما

(١) سورة لقمان آية رقم ١٩/.

(٢) جامع البيان للطبري ١١٧/١٢.

أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(١).

استفسار حول الآيات الكريمة

وهنا سؤالان هاما لا بدَّ من الإجابة عنهما بشيء من الإيجاز.

الأول: كيف قال تعالى في هذه السورة ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وفي المرسلات ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ وقال في مواضع أخرى ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ وقال سبحانه: ﴿وَقَفْوَهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ الذي يدل على الكلام، والسؤال، والاعتراف؟! .

والجواب: أن يوم القيامة يوم طويل، وفيه مواقف متعددة، ففي بعضها لا يتكلمون ولا ينطقون، وفي بعضها يُؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يجادلون ويتخاصمون، وفي بعضها يُختم على أفواههم فيخرسون، وتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، وصدق الله العظيم ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٣).

الثاني: كيف قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ مع أن السموات والأرض يفنيان، وذلك ينافي الخلود الدائم؟ .

(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي وهو من الأحاديث القدسية.

(٢) سورة فصلت آية رقم /١٨/ .

(٣) سورة يس آية رقم /٦٥/ .

والجواب: ما قاله شيخ المفسرين الإمام الطبري رحمه الله: «إنَّ العرب إذا أرادت أن تصف شيئاً بالدوام أبداً، قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، بمعنى أنه دائم أبداً، فخطبهم جلُّ ثناؤه بما يتعارفون به بينهم»^(١) فالمراد إذاً الإخبار بأنهم ماكثون في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السموات والأرض، نظير قولهم: لا أكلمه ما اختلف الليل والنهار، وما طَمَّ البحرُ، وما أقامَ الجبلُ، وكلُّ ذلك تمثيلاً للدوام والاستمرار بدون انقطاع.

أو نقول: المراد بقوله تعالى: ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ سموات الآخرة وأرضها، وهي دائمة مخلوقة للأبد، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ فزال بذلك الإشكال، والله أعلم.

أسوة كفار مكة بالطغاة السابقين

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تقصُّ على الرسول ﷺ أنباء من سبق من الأمم الطاغية، الذين كذبوا رسلهم وأنبياءهم، فأهلكهم الله ودمرهم، وما حدث لبني إسرائيل من الاختلاف في كتابهم «التوراة» الذي أنزله الله على «موسى بن عمران» ليكون نوراً لهم وهداية، ولكنهم تفرَّقوا، وتخاصموا، وتنازعوا، وضلُّوا كما ضلَّ رؤساء قريش، الذين بعث الله إليهم خاتم المرسلين، فكذبوه وعاندوه، ولم يقبلوا هداية الله التي جاءهم بها سيد الخلق ﷺ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وينقذهم من براثن الجهالة والضلالة، وعبادة الأصنام، إلى نور التوحيد والإيمان، ولكنهم لشقاوتهم أبوا إلاَّ الجحود والعناد، وتقليد الآباء والأجداد، من

(١) جامع البيان عن أي القرآن للطبري ١١٧/١٢.

غير حجة ولا برهان، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ، مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّا لَمُؤْفُؤُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ .

حال المشركين أظهر من أن يُمتري فيه

والآية في ظاهرها خطابٌ للنبي ﷺ وفي حقيقتها خطابٌ للأمة، وكأنها تقول: لا تشكُّوا يا معشر المسلمين، في ضلال هؤلاء المشركين، وفساد دينهم، فهم إنما يتبعون آباءهم تقليداً، من غير حجة ولا برهان، يقلدونهم على العماية، من غير بصيرة ولا تفكير، وسنعتهم جزاءهم من العذاب كاملاً غير منقوص.. وهذه تسلية للرسول الكريم، ووعدٌ له بالانتقام ممن آذوه وكذبوه، فحال هؤلاء المشركين، كحال من سبقهم من الضالين المكذبين، وقد بلغك ما نزل بأسلافهم، فسينزل بهم مثل ما نزل بأولئك المجرمين. والآية الكريمة جرت على أساليب العرب في بيان ضلال المشركين، فإنه لم يقع للرسول ﷺ ولا لأحدٍ من المسلمين شكٌ أو ارتياب، في فساد عقائد عبَاد الأوثان حتى يجيء النهيُ عنه، ولكن من فصاحة القول - في بيان ضلال الكفرة تمثيلاً في هذه العبارة - أي حالهم أوضح من أن يُمتري فيها، لظهور أمارات الضلال بشكل واضح مكشوف، في أفعالهم، وعباداتهم، ومعتقداتهم.

المشركون مقلدون للآباء

والمِرْيَةُ في اللغة: الشك، يُقال: هذه فِرْيَةٌ ما فيها مِرْيَةٌ، أي ما فيها شك ولا ارتياب، و«هؤلاء» إشارة إلى كفار العرب عبدة الأصنام،

ثم قال تعالى: ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدَ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي إنهم مقلدون للآباء، من غير حجة ولا برهان، وإنما عبادتهم تشبه منهم بآبائهم وأسلافهم، لا عن بصيرة وبيّنة، يتبعونهم أتباع الأعمى لقائده، والعبد لسيده، ولهذا استحقوا العقوبة والعذاب ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١).

وقد ختم الله الآية بأسلوب الوعيد، المتضمن للعذاب الشديد فقال تقديست أسماؤه: ﴿ وَإِنَّا لَمُوفُونَهُمْ نَصِيحَهُمْ غَيْرَ مَقْصُودٍ ﴾ أي سنعطيهم جزاءهم من العذاب كاملاً، دون نقص أو تخفيف، حسب ما تقتضيه أعمالهم الإجرامية في حق الرسل والأنبياء.

تسليّة الرسول بمن سبقه من الرسل

ثم عاد في تسليّة النبي ﷺ، بذكر موقف اليهود من دعوة كليم الله «موسى بن عمران» عليه السلام، فقد أنزل الله عليه التوراة، نوراً وهدىً لبني إسرائيل، فأمن به بعضهم وكذب به بعضهم كما فعل قومك، وهذه سنة الله في خلقه، يتلي عباده ليعلم الصادق من المنافق، والبرّ من الفاجر ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

وفي ذكر قصة موسى ضرباً من التمثيل أي لا يعظّم عليك أمر من كذبك، فهذه هي سيرة الأمم، فقد جاء موسى بكتاب، فاختلف الناس فيه، ما بين مؤمن وكافر، وكذلك أمر قومك من قريش، فلا تحزن لتكذيبهم، وامض في تبليغ دعوة ربك. وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

(١) سورة الرعد آية رقم ١٩/.

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لُقْضِي بَيْنَهُمْ ﴿ أَي لولا حكم الله السابق، بتأخير الحساب والجزاء، إلى يوم الفصل والمعاد، لفصل بينهم في الدنيا، فجوزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وقضي بين المؤمن والكافر، بنعيم هذا، وعقاب ذاك، ولكن سبق القدر، بتأخير الجزاء إلى يوم الحساب، ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي قومك يا محمد في شك من هذا القرآن، موقع لهم في الريب وسوء الظن، لا يدرون أحق هو أم باطل؟ لسفههم وظلمة قلوبهم، وهكذا شأن المعاند والمكابر.

الدنيا مزرعة والآخرة دار الجزاء

وتمضي السورة الكريمة لتبين لجميع الخلائق، أن الجزاء الوافر الكامل، لا يكون هنا في الدنيا، إنما يكون هناك في الآخرة، حيث جعلها الله دار الحساب والجزاء، فالدنيا مزرعة والآخرة مكان الحصاد، ومهما نعم المؤمن في هذه الحياة، فإنه لم ينل وافر جزائه، ومهما عذب الكافر في الدنيا، فما هو إلا جزء يسير مما ينتظره من العذاب الموعود، وسواء من عجلت عقوبته ومن أخرت، ومن صدق الرسل ومن كذب، فإن الكل لم ينالوا جزاء أعمالهم، ولا بد من اليوم الموعود، لينال كل إنسان جزاءه وافياً كاملاً، وفي ذلك يقول تقديست أسماؤه: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لِيُؤْفَيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ و«لما» هنا على حالها تفيد الترقب والانتظار - كما يقول علماء اللغة - فهي ليست لمجرد النفي، بل هي للترقب وتوقع حدوث الأمر، كما إذا سألك سائل: هل حضر الأمير؟ فتجيبه: لماً يحضر بعد فأنت إذاً تتوقع حضوره.

وفي سياق الآية ما يدل على المحذوف المترقب، والمعنى الدقيق لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لِيُؤْفَيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي وإن كلاً من

الفريقين: المؤمنين والكافرين، لَمَّا ينالوا جزاء أعمالهم كاملاً وافياً، وسيوفُهم ربك جزاءها في الآخرة.

وقد ختمها تعالى بما يوحي بالوعد والوعيد فقال: ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي إنه تعالى عليمٌ بأعمالهم جميعها، صالحها وطالحها، صغيرها وكبيرها، وسيجازيهم عليها كما قال سبحانه: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾^(١) وهكذا لو أعطي المؤمن الصالح كل نعيم الدنيا، ما نال جزاءه كاملاً وافياً، ولو عُدب الفاجر الكافر بكل ما في هذه الحياة من ألوان العذاب، لم ينل عقابه كاملاً وافياً، لأن الدنيا ليست دار الجزاء، إنما هي دار العمل والابتلاء ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾^(٢) وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾^(٣) أي هي الحياة الحقيقية، وهي الدار التي فيها السعادة التامة، والعيش الهنيء، وأما الدنيا فهي دار البلاء والفناء.

وقد أحسن من قال:

تَأْمَلُ فِي الْوُجُودِ بَعِينَ فِكْرٍ تَرَى الدُّنْيَا الدُّنْيَةَ كَالْحَيَالِ
وَمَنْ فِيهَا جَمِيعاً سَوْفَ يَفْنَى وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ

أمر الرسول بالاستقامة أمرٌ للأمة

وبعد أن أسهبت السورة في أمر الوعد والوعيد، وذكر الحساب والجزاء، والحشر والنشر، وذكرت انقسام الناس في الآخرة إلى

(١) سورة غافر آية رقم /١٧/.

(٢) سورة آل عمران رقم /١٨٥/.

(٣) سورة العنكبوت آية رقم /٦٤/.

فريقين: شقي، وسعيد، جاءت الآيات بعدها، تأمر النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم، بالاستقامة على شريعة الله، والتمسك بأوامره ونواهيه، والاعتصام بحبله المتين، فالرسول عليه السلام هو الإمام، وأُمَّته تبع له في جميع الأحكام، ولهذا جاء الأمر له بالاستقامة - لتقتدي به أُمَّته - بكلمة جامعة في كل ما يتعلق بالعقائد، والأقوال، والأعمال، وهي قوله تقدست أسماؤه: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ، وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾.

الاستقامة أمرٌ هامٌ عظيم

والأمر للنبي عليه السلام بالاستقامة - وهو شديد الملازمة لها - إنما هو أمرٌ بالدوام والثبات، كما تقول للعابد الزاهد: اعبُد ربَّك، وكما تقول للمطيع البارِّ بالديه: أطع والديك، أي الزمَّ يا أيها العابد العبادة واثبت عليها، والزمَّ أيها المطيع طاعة والديك واستمرَّ عليها، والاستقامة ليست بالأمر السهل اليسير، بل هي غاية التشريف، ونهاية التكليف، فهي الاستمساكُ بدين الله، في جميع تكاليفه وأحكامه، وهي التطبيقُ الصحيح لتوجيهات الدين وإرشاداته، والاعتصامُ بكل الأحكام التي أمر الله بها عباده، من إيمانٍ، وصدقٍ، وإخلاصٍ، وعملٍ صالحٍ، ويقينٍ راسخٍ، وثباتٍ على المبدأ، وبذلٍ وسخاءٍ، ونهذيبٍ للنفس، ولهذا قال ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ آيةٌ في القرآن أشدُّ ولا أشقُّ من هذه الآية، حتى إن أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب يا رسول الله؟! فقال: «شيبتني هودٌ وأخواتها»^(١) يعني بـ «هود» هذه الآية

(١) أخرجه الطبراني عن سهل بن سعد، ورواه الترمذي بلفظ (شيبتني هودٌ، والواقعة، والمرسلات، وعمم يتساءلون، وإذا الشمس كورت) وقال حديث حسن غريب، وصححه =

الكريمة ﴿ فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمِرْتَ ﴾ وأخواتها يعني سورة الواقعة، والمرسلات، وإذا الشمس كورت، وأمثال هذه السورة التي تحكي أحوال الآخرة، وشدائدها، وفظائعها، وما أعدّه الله فيها للمجرمين العتاة، من أنواع العذاب والنكال، التي يشيب لها رأس الولدان كقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ، يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا. السَّمَاءُ مُنْفِطِرٌ بِهِ، كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ (١) وأيضاً ما في سورة هود، من أخبار الأمم السالفة، وأحوال الهالكين والمعذبين، من قوم عاد، وثمود، وقوم مدين ولوط، وقوم فرعون الجبار، وما حلّ بهم من أنواع العذاب والدمار، وقد قال ابن عطية رحمه الله في تفسيره: (والتأويل المشهور في قوله ﷺ «شيبني هودٌ وأخواتها» أنها إشارة إلى ما فيها ممّا حلّ بالأمم السابقة، فكانَ حِذْرَهُ ﷺ على هذه الأمة مثلَ ذلك شيبهُ عليه الصلاة والسلام) (٢).

لا كرامة أعظم من الاستقامة

وإذا أراد الإنسان الكرامة في الدنيا والآخرة، فعليه بالاستقامة، فإنها كما قال بعض العلماء الربانيين «الاستقامة عينُ الكرامة» ولا كرامة أعظم من الاستقامة على شريعة الله. ومن تمام الاستقامة، عدم الميل إلى أهل الفسق والفجور، بالمحبة والهوى، أو مصاحبتهم أو صداقتهم، فإن الميل إلى الظالم ظلمٌ وعدوان، وقد قال بعض الصالحين «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحبَّ أن يُعصى الله في أرضه» (٣).

= الحاكم وله روايات متعددة انظر جامع الأصول ١٩٣/٢ والفتح الكبير ١٨٠/٢.

(١) سورة المزمل آية رقم ١٧/.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٤١٣/٧.

(٣) غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري ٦٩/٧.

ولهذا جاءت الآيات - بعد الأمر بالاستقامة - تحذّر المؤمنين من الركون إلى الظالمين، أو مجالسة العصاة المفسدين، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾. والركون: هو الميل اليسير، الميل بالمحبة والهوى، والرضا بما عليه الظلمة من الظلم، وتحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم، ومشاركتهم في شيء من أعمالهم القبيحة، فأما مخالطتهم للإنكار عليهم والتغيير، فليس من الركون المحرم، بل هو واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يخالط الطبيب المريض، لينقذه من براثن المرض، ويُخلصه من البلاء والوباء، ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي لا تميلوا إلى الظلمة من الزعماء، وغيرهم من الفسقة الفجرة، لا توافقوهم ولا تميلوا إليهم أدنى ميل، ولو بالإذعان والرضى، فتمسكم نار جهنم وتصبحوا مثلهم في الشقاء والخسران، فمصاحبة الشقي شقاوة، كما أن مخالطة الأجر والأبرص تنقل العدوى.

وإذا كان هذا حال من ركن إلى من ظلم، فكيف يكون حال الظالم نفسه؟ إنه لا تمسه النار فحسب، بل تطبق عليه إطباقاً، وتحرقه إحراقاً كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ﴾ وقد ختم الله الآية الكريمة بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ليس لكم من ينجيكم ويخلصكم من عذاب الله الشديد، وليس لكم ناصرٌ يدفع عنكم ما حلّ بكم من البلاء، أو يرفع عنكم ذلك الشقاء. قال سفيان الثوري: «في جهنم وادٍ لا يسكنه إلا المداهنون، المخالطون للظلمة والفساق»^(١).

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ٦٩/١٢.

وعن محمد بن مسلمة: «الدُّبَابُ عَلَى الْعَدْرَةِ - أي النجاسة
الآدمية - أحسنُّ من قارىءِ علي باب فاجر فاسق»^(١).

وسئل بعض العلماء عن ظالمٍ أشرف على الهلاك في برية، هل
يُسقى شربة ماء؟ فقال: «لا»، فقيل له: يموت، فقال: «دعه يموت
حتى يخلص الناس من فجوره وشره» أقول: هذا محمول على مَنْ عظم
شره، فسفك الدماء، وقتل الأبرياء.

الصلاة طهارة للإنسان من الأدران

ثم تلتها الآيات الكريمة، تأمر بالمحافظة على الصلوات، في
جميع الأحوال والأوقات، فإنها هي العون على الاستقامة على شريعة
الله، وهي التي تعصم المؤمن عن مقارفة المنكرات، وتمنعه عن السير
في ركاب الظالمين، وهي مطهرة للإنسان من الآثام والموبقات، وفي
ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ، وَزُلْفًا مِنْ
اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ. وَاصْبِرْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ والمراد بالصلاة هنا: الصلوات
الخمسة التي فرضها الله على عباده، وقد ذكرها المولى جلَّ وعلا بعد
الأمر بالاستقامة، تنبيهاً على شرفها، وأنها أعظم العبادات والقربات بعد
الإيمان بالله، والمراد بقوله تعالى: ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ صلاتي الصبح،
والعصر، واختاره الطبري، وقيل: الصبح والمغرب، وهو قول ابن
عباس وقوله تعالى: ﴿وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ﴾ أي ساعات من الليل قريبة من
النهار، وهما صلاة المغرب، والعشاء، ثم قال تعالى مبيِّناً العلة
والحكمة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي إن الأعمال الصالحة

(١) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة.

- ومنها إقامة الصلوات - يكفّر الذنوب والسيئات، كما ورد في الحديث الصحيح: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات لما بينهنّ ما اجتنبت الكبائر»^(١).

سبب نزول الآية الكريمة

وقد رُوي في سبب نزول هذه الآية أن رجلاً كان يبيع التمر، فأتته امرأة لتشتري من عنده، فأراها وكانت جميلة، فقال لها: إن في البيت تمراً أجود من هذا، فانطلقت معه فلما دخلت الدار، ضمّها إلى نفسه وقبلها، ثم ندم على ما صنع فجاء إلى رسول الله ﷺ يخبره بما حدث ليطهره من هذا الذنب، وصادف الوقت وقت العصر، فصلى مع الرسول الكريم صلاة العصر، ثم جاء إلى الرسول ﷺ يريد أن يطهره من الذنب، وقصّ عليه القصة، فقال له الرسول الكريم: أصليت معنا العصر؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: اذهب فقد غفر الله لك، فأنزل الله على رسوله هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾^(٢).

وفي رواية: أن الرجل قال يا رسول الله: ألي هذا خاصة؟ قال: «بل لجميع أمتي كلهم» وروى عن علي رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً، نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحدٌ استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلمٍ يذنب

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٣٣ في كتاب الطهارة، والترمذي في الصلاة برقم ٢١٤.

(٢) الحديث روي هنا بالمعنى، وأصله في البخاري ومسلم، وانظر مختصر تفسير ابن كثير

٢/٢٣٦ وتمام الرواية في جامع البيان للطبري ١٢/٤٨٦.

ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غُفر له» (١).

ولنمعن النظر في كلمة علي رضي الله عنه «وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر» يريد أنه لم يستحلفه على الحديث لصدقه، فهذا شأن أهل الفضل يعرفون الفضل لأصحابه، فعلي يعرف قدر أبي بكر، ويُقر له بالفضل، ويوقن بصدقه، فأين هذا من عمل الزائغين من الرافضة الذين يشتمون الشيخين «أبا بكر، وعمر» ويدعون أنهم يحبون علياً، ويحبون أهل البيت، وفي قلوبهم هذا الحقد الأسود على أصحاب الرسول؟! ألا قاتل الله الجهل والضلال، فلو كانوا صادقين في محبة علي، لأحبوا من كان يحبه علي وهما أبو بكر، وعمر، أخص أصحاب رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم أجمعين.

سبب هلاك الأمم السابقة

ثم تلتها الآيات تذكر سبب هلاك الأمم السابقين، وسبب دمار القرى والبلدان بمن فيها، فإن من سنة الله تبارك وتعالى أن يهلك الظالمين، وينجي المؤمنين المصلحين، وهو تعالى يمهل ولا يهمل، فإذا استمرت الأمة في طغيانها أهلكها الله ودمرها، ولم ينج منها إلا أهل الخير والصلاح، لأن العقاب إنما يحل بالمجرم المفسد في الأرض.

وقد ذكر تعالى في سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أمرين اثنين:

الأمر الأول: أنه ما كان فيهم قومٌ يهون عن الفساد، فلذلك

استحقوا العذاب.

(١) الحديث أخرجه الترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن ماجه، وأحمد في المسند، وانظر

مختصر ابن كثير ٢٣٥/٢.

الأمر الثاني: التمتع والترف الذي كانوا عليه، مما أغراهم بارتكاب أنواع المعاصي والموبقات.

وإلى هذين الأمرين تشير الآية الكريمة وهي قوله تقدرت أسماؤه: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ، وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ .

و«لولا» هنا للتحضيض بمعنى «هلاً» يصحبها معنى التأسف والتفجع ، وليست حرف امتناع لوجود، ومعنى الآية الكريمة: فهلاً كان من الأمم الماضية قبلكم، أناس عقلاء، ذوو فضلٍ وصلاح، ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض؟! فإن الفساد يُعرض الأمة للهلاك والدمار، ثم قال تعالى: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ هذا استثناء منقطع أي لكن قليلٌ منهم نَهَوْا الأشرار، عن الإفساد في الأرض، فنجوا من العذاب، وهذا هو الأمر الأول.

وأما الأمر الثاني فقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ، وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ والمعنى: واتبع أولئك الظلمة شهواتهم، وما نَعَمُوا به من لذائذ الحياة، فاشتغلوا بها عن طاعة الله وعبادته، وآثروها على الآخرة، فاستحقوا العذاب بسبب إجرامهم وعصيانهم، وانتهاكهم لمحارم الله.

ولهذا أمر الله هذه الأمة بالاستمسك بواجب النصح والتذكير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا يصيبهم ما أصاب مَنْ قبلهم من العذاب، ويحلّ بهم عقاب الله، فقال سبحانه: ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وفي الحديث النبوي الشريف: «إن الناس إذا رأوا المنكر

فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»^(١).

ختام السورة الكريمة

وقد ختمت السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص الأنبياء والمرسلين، وبخاصة في هذه السورة الكريمة، حيث أفاض الله فيها بذكر سبع قصص من أخبار الأنبياء والأئم، بدءاً بنوح شيخ الأنبياء وختاماً بقصة موسى أعظم أنبياء بني إسرائيل، فذكرت أن الغرض من هذه القصص، تسلية النبي عليه الصلاة والسلام حتى يصبر كما صبر قبله أولو العزم من الرسل، وتثبيتاً لقلبه الشريف أمام تلك التحديات من المشركين، ليتحمل الشدائد والأهوال، بقلبٍ ثابت، ويقين راسخ، ولا يضيق صدره من تكذيب أهل الكفر والضلال، فإن العاقبة للمتقين، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في ختام هذه السورة الكريمة: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ. وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ. وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهكذا تختم السورة بالتمسك بالدين، كما بدأت بذكر الرسالة والتوحيد، ليتناسق البدء مع الختام، في أجمل صورة وأروع بيان.

* * *

(١) الحديث أخرجه الترمذي برقم ٣٠٥٩ وأبو داود برقم ٤٣٣٨ وانظر جامع الأصول

سُورَةُ يُوسُفَ

مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَةٌ

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

● سورة يوسف هي إحدى السور المكية، التي تناولت بالتفصيل قصص الأنبياء والمرسلين، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله الكريم «يوسف ابن يعقوب» عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، وما لاقاه عليه السلام من ضروب المحنة، وصنوف الأذى والبلاء، وما أصابه من إخوته الحاسدين، ومن زوجة العزيز، وتآمر النسوة عليه، ثم دخوله السجن، ومكثه فيه سبع سنين، حتى نجّاه الله من ذلك الضيق، وفرّج كربته، وأزاح عنه تلك المحنة القاسية، وجعله العزيز في أرض مصر، يتصرّف فيها تصرف الأمير والسلطان في ملكه.

● والمقصود من السورة الكريمة، تسليّة نبينا ﷺ بما مرّ عليه من الكرب والشدة، وما لاقاه من صنوف الأذى والبلاء، من أولئك العتاة الطغاة الظالمين، من كفار مكة، الذين تآمروا عليه وعلى أتباعه، ليطفثوا نور الله، كما فعل إخوة يوسف بيوسف الصديق، فكانت المحنة متشابهة، والعاقبة بالفرج والنصر متّحدة.

● والسورة الكريمة أسلوبٌ فذٌّ فريد، في ألفاظها، وفي تعبيرها وأدائها، وفي قصصها الشفيف اللطيف، تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري برقها وسلاستها في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن كانت من السور المكية - التي تحمل في الغالب طابع الإنذار

والتهديد - إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طريفةً نديّة، في أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جوّ الأُنس والرحمة، والرأفة والحنان، ولهذا قال خالد بن معدان: «سورة يوسف ومريم، مما يتفكّه بهما أهل الجنة في الجنة». وقال عطاء بن أبي رباح «لا يسمع سورة يوسف محزونٌ أو مكروب، إلا استراح إليها، وذهب غمّه وكربه».

● نزلت هذه السورة الكريمة على رسول الله ﷺ، بعد سورة هود، في تلك الفترة الحرجة العصيبة، من حياة الرسول الأعظم ﷺ، حيث توالى عليه وعلى المؤمنين الشدائد والنكبات، واشتدّ عليهم أذى المشركين، وبالأخص بعد أن فقد عليه السلام من كان يحنو عليه، ويدفع عنه الأذى والبلاء، فقد عضديه ونصيريه: زوجة الطاهر الحنون «خديجة بنت خويلد» رضي الله عنها، التي كانت تواسيه وتسليه، وتخفف عنه الأحزان والآلام، وقد عمّه «أبا طالب» الذي كان له خير معين، وخير نصير، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء، على الرسول وعلى المؤمنين، حتى عُرف ذلك العام بـ «عام الحزن». لأنه العام الذي عظمت فيه المصيبة، وكان وقعها عظيماً على قلب النبي الرحيم.

● في تلك الفترة الحرجة العصيبة، من حياة سيد الأنبياء والمرسلين، وفي ذلك الوقت الشديد، الذي كان يعاني فيه الرسول الكريم مع أتباعه المؤمنين، الوحشة، والغربة، والانقطاع في جاهلية قريش، كان الله سبحانه وتعالى يتعهد نبيه وصفيه، فينزّل على رسوله الكريم هذه السورة الجليلة، تسليّة لقلبه الشريف، وتخفيفاً لآلامه وأحزانه، بذكر قصص المرسلين.

وكانه تعالى يواسيه ويُسلّيه فيقول له: لا تحزن يا محمد على تكذيب قومك لك، ولا تبال بتكذبيهم وإيذائهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن بعد الضيق فرجاً، وإن بعد الشدة مخرجاً، انظر إلى أخيك «يوسف الصديق» وتمعن ما حدث له من صنوف البلايا والمحن، وألوان

الشدائد والمكائد، وما ناله من أنواع الأذى والبلاء، وضروب المِحنِ القاسية: محنة حسد إخوته له، ومحنة رميه في الجب، ومحنة تأمر امرأة العزيز عليه، ومحنة دخوله السجن بعد ذلك العزِّ الذي كان عليه في قصر العزيز!! .

● انظر إليه، وتفكّرْ في شئونه وأحواله، كيف أنه لَمَّا عَفَّ عن الحرام، وصبر على الأذى في مرضاة الله، وتحمّل الضّرَّ والبلاء، في سبيل العقيدة والإيمان، أعزّه الله وفرّج كربته، ونقله من السجن إلى القصر، وجعله عزيزاً مكرماً في أرض مصر، وملّكه الله خزائنها، فكان السيد المطاع، والعزيز المكرّم، والملك المتوّج، وهكذا أفعّل بأوليائي، ومن صبر على قضائي، فلا بدّ أن توّطد النفس على تحمل البلاء، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ .

● وهكذا جاءت قصة يوسف الصّدِّيق، تسلية لسيد الأنبياء، عمّا لاقاه من البلاء، وجاءت تحمل البشرَ والأنس، والراحة والسعادة، لمن سار على درب الأنبياء، واستمسك بعرى الإيمان واليقين، فلا بدّ من الفرج بعد الضيق، ومن اليسر بعد العسر، ومن الراحة بعد التعب، فتلك هي سنّة الله في خلقه ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ .

● هذا هو جو السورة، وهذه إحياءاتها ورموزها، تبشر بقرب النصر، لمن تمسك بالصبر، وسار على نهج الأنبياء والمرسلين، والدعاة المخلصين، فهي سلوى للقلب، وبلسم للجروح، وحفّز لعزائم الصابرين. وقد جرت عادة القرآن الكريم، بتكرير القصة في مواطن عديدة، بقصد العظة والاعتبار، بأخبار الرسل الأبرار، ولكن بإيجاز دون توسع، لاستكمال جميع حلقات القصة، وللتشويق إلى سماع الأخبار، دون ملل أو ضجر، ففي كل سورة تذكر بعض الجوانب من سيرة أنبياء الله المكرّمين، وأما سورة يوسف، فقد وردت حلقاتها هنا متواليةً متتابعةً، بإسهابٍ وإطنابٍ،

من بدايتها إلى نهايتها، وأكملت جميع حلقات القصة في هذه السورة الكريمة، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قصص المرسلين، لتشير إلى إعجاز القرآن، في الإجمال والتفصيل، وفي المكرر وغير المكرر، فسبحان من أحاط بكل شيء علماً، وأعجز في قرآنه، كما أعجز في تصويره وخلقه.

● قال العلامة القرطبي: «ذكر الله أفاضل الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد، في وجوه مختلفة، وبألفاظ متباينة، على درجات البلاغة والبيان، وذكر قصة يوسف الصديق عليه السلام، ولم يكررها أو يعددها، فلم يقدر معارض أو مخالف، على معارضة المكرر، ولا على معارضة غير المكرر، والإعجاز واضح لمن تأمل»^(١).

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ١١٨/٩.

تفصيل بعد إجمال

ولنبداً الآن بذكر ما أجملناه عن هذه السورة الكريمة، لنرى ما فيها من إشراقات الجمال والبيان، يقول تقدست أسماؤه في مطلع هذه السورة: ﴿آلر. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

وبدء السورة الكريمة بهذه الحروف المقطعة، للإشارة إلى إعجاز القرآن، فمن هذه الحروف الهجائية: ألف، لام، راء، وأمثالها، تتألف آيات هذا الكتاب المعجز، وتتنظم درره وسوره، فهو يحمل برهان إعجازه، وآية جماله وبيانه، بما حواه من ألفاظٍ فاقت أساليب البشر، في البيان والجمال، ولهذا أعقبها بقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي هذه الآيات التي أنزلت إليك يا محمد، هي آيات الكتاب المعجز في بيانه، الساطع في حجته وبرهانه، الواضح الجلي في مقاصده ومعانيه، الذي لا تشبهه حقائقه، ولا تلبس دقائقه.

الحكمة من نزول القرآن باللغة العربية

ثم بين تعالى الغاية من إنزاله فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي أنزلناه بلغة العرب، كتاباً محكماً بيناً، مؤلفاً من هذه الأحرف العربية، لكي تعقلوا وتدركوا، أن الذي ينظم من هذه الكلمات العربية هذا الكتاب المعجز، ليس بشراً عادياً، إنما هو إله قدير، فكما خلق من التراب إنساناً، كذلك جعل من هذه الحروف قرآناً، فسبحان القادر الحكيم!!.

ثم ذكر تعالى أن أخباره وقصصه، كلها حقٌ وصدق، لا شك فيها ولا امتراء، وأنه قصَّ على رسوله النبي الأمي، هذه القصص على أبداع طريقة، وأعجب أسلوب، وبأظهر لسان وأعذب بيان فقال تقدست أسماؤه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ، بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أي كنت قبل نزول هذا القرآن، من الغافلين عن هذه الأخبار، لم تفرح سمعك، ولم تخطر ببالك، لأنك أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب، فمن أين جاءتك هذه القصص والأخبار؟! .

روي أن اليهود أمروا كفار مكة، أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي جعل بني إسرائيل يرتحلون من الأرض المقدسة إلى مصر، وعن قصة يوسف الصديق وما جرى له مع إخوته، بقصد الامتحان له والاختبار، في دعوى النبوة، فنزلت عليه هذه السورة الكريمة، موافقة لما ورد في التوراة، وبذلك أفحمهم ﷺ وألجمهم . .

أَحْسَنُ الْقَصَصِ وَأَبْدَعُهُ

سَمَّى اللهُ تَعَالَى مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» فِي قَوْلِهِ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ لِمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالْحِكْمِ ، وَالْفَوَائِدِ وَالْبِدَائِعِ ، وَالْأَخْبَارِ الْعَجِيبَةِ ، الَّتِي تُصَلِّحُ شُؤْنَ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، مِنْ سِيرِ الْمُلُوكِ وَالْمَمَالِكِ ، وَمَكْرِ النِّسَاءِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْأَعْدَاءِ ، وَالصَّفْحِ عَنْهُمْ بَعْدَ الْاِقْتِدَارِ ، وَأَسْلُوبِ الدَّعْوَةِ الْحَكِيمِ الَّذِي يُوَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْفَوَائِدِ الْجَلِيلَةِ ، وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي يُوسُفَ الصَّدِّيقِ ، مَعَ أَنَّهُ ابْنُ ثَلَاثَةِ أَنْبِيَاءَ : شَرَفُ النَّبُوَّةِ ، وَعِلْمُ الرُّؤْيَا ، وَرِيَاسَةُ الدُّنْيَا ، وَقَدْ قَالَ عَنْهُ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ :

(الكريمُ ابنُ الكريمِ ، ابنِ الكريمِ ، ابنِ الكريمِ : يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمِ) (١) فهو نبيٌّ ، وأبوه نبيٌّ ، وجدُّه إبراهيمُ الخليل أبو الأنبياء ، صلوات الله عليهم أجمعين .

في القرآن تفصيل وبيان

لقد اجتمعت في يوسف خصالُ الفضل ، والنسب الزكي ، والله تعالى قد قصَّ على نبيه ، قصة يوسف وقصة غيره من الأنبياء والمرسلين ، على غاية الدقة في الوقائع والأخبار ، وفي نهاية الكمال والجمال ، فلا ينبغي للمسلم أن يطلب غير تلك الأخبار الموثوقة ، التي قصَّها علينا القرآن ، لأن ما سواه يحتمل الصدق والكذب ، والزيادة والنقصان ، وقد يكون الخبر مختلفاً من قِبَل الكُفَّان أو الرهبان ، فقد روى الإمام أحمد في المسند ، أن عمر بن الخطاب جاء النبي ﷺ ذات يوم بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتاب «اليهود والنصارى» فقرأه على النبي ﷺ ، فغضب رسولُ الله ﷺ أشد الغضب وقال : «أمتهوكونَ فيها يا ابن الخطاب؟ - أي أمتحيرون في أمر الدين؟ - والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء ، فيخبروكم بحق فتكذبونه ، أو بباطل فتصدقونه!! والذي نفسي بيده ، لو أن موسى كان حياً لما وسعه إلا أن يتبعني» وفي رواية أخرى أن عمر رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إني مررتُ بأخٍ لي من قُرَيْظَةَ ، فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك؟ فتغيَّر وجهُ رسول الله ﷺ ، فقال عمر : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، فسُرِّي عن

(١) الحديث أخرجه البخاري وأحمد في المسند من حديث عبد الله بن عمر ، وانظر تفسير الحافظ ابن كثير ، والفتح الكبير ٣١٦/١ .

النبي عليه السلام - أي ذهب عنه ما كان به من غضب - وقال: «والذي نفسُ محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى حياً، ثم اتَّبَعْتُمُوهُ وترَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إنْ كُنْتُمْ حَظِي مِنَ الْأُمَّمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ»^(١).

رؤيا يوسف الصديق

وبعد ذلك البيان عن قصص القرآن، جاء الحديث عن قصة يوسف الصديق عليه السلام، وقصته جاءت في هذه السورة، موضحة، مفصلة مكتملة بأسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، ولم تُكرَّر في سور أخرى - كما بينا - لأنها قد استكملت جميع حلقاتها في هذه السورة الكريمة، ليظهر الإعجاز في كلام الله تعالى، فيما تكرر وفيما لم يتكرر، وقد بدأت القصة بذكر «الرؤيا المنامية» التي رآها يوسف الصديق، فقصَّها على أبيه يعقوب عليه السلام، وهي رؤيا صادقة، توحى بأحداث غريبة، وأمور عجيبة، عمَّا سيحدث لهذا الغلام اليافع الشاب، من أحوالٍ ومفاجآت، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

بداية القصة

هذه هي بداية القصة، رؤيا منامية، يراها يوسف الصديق وهو ابن عشر سنين، ولكنها تحمل في طياتها أسراراً مدهشة عجيبة، رأى أحد عشر كوكباً من كواكب السماء، خرَّت ساجدة بين يديه، ورأى كذلك الشمس والقمر يسجدان له مع الكواكب، وكانت الرؤيا فيهم وحياً كما

(١) الروايتان في مسند أحمد بن حنبل، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢٣٩/٢.

قال ابن عباس، فقصَّ هذه القصة على أبيه يعقوب عليه السلام، وهنا أدرك يعقوب ما هياً له القدر بقضاء الله، من رفعةٍ وسؤددٍ، ومكانةٍ رفيعةٍ، يفوق بها على جميع إخوته، وينال بها شرفاً لا يضاهيه فيه أحد، حتى يفوق بذلك الفضل على أبويه، وخاف عليه من حسد إخوته، فنهاه أن يقصَّ الرؤيا عليهم ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ، وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

والمعنى: أن يعقوب عليه السلام قال لابنه يوسف ناصحاً ومدكراً: لا تُخبر بهذه الرؤيا إخوتك، فإني أخاف أن يحسدوك، ويحتالوا لإهلاكك حيلة عظيمة. لا تقدر على ردّها، لأن الشيطان عدوٌّ مبين ظاهر العداوة للإنسان.

يوسف عليه السلام يسود إخوته

فهم يعقوب - بنور النبوة - من رؤيا ولده يوسف، الذي كان أحبَّ أبنائه إليه، أن الله سيبلغه مبلغاً من الحكمة، ويصطفيه - من بين إخوته - لحمل أعباء النبوة والرسالة، وينعم عليه بشرف الدارين، فخاف عليه من حسد إخوته، فنهاه أن يقصَّ رؤياه عليهم، ثم أخبره بجلية الأمر، أن الله سيكرمه بالنبوة، ويُعلِّمه تفسير الأحلام، والرؤى في المنام، ويتمُّ عليه النعمة بالسيادة على جميع إخوته، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي كما أراك هذه الرؤيا العظيمة، كذلك يختارك ربك للنبوة والرسالة المنامية ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي يعلمك

تفسير الرؤيا المنامية، فالمراد بالأحاديث هنا الرؤى التي يراها الناس في منامهم، لأنها تحدث أحياناً كما رآها الإنسان، وتقع طبق ما رآها في الأحلام، ولهذا ورد في السنة المطهرة: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره، فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعد بالله من شرّها، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره»^(١).

ثم بشره بعد ذلك بإتمام الله نعمته وفضله عليه، برفع قدره ومكانته على سائر إخوته، وبما هياه له من الأمر العظيم فقال: ﴿وَيْتِمٌ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عالمٌ بمن هو أهل للفضل، حكيم في تدبيره لشئون عباده.

أقسام الرؤيا المنامية

والرؤيا المنامية، من عالم الغيب، فقد تكون حقيقة واقعية، كما في رؤيا يوسف الصديق عليه السلام، وقد تكون أضغاث أحلام، أو من تلاعب الشيطان بالإنسان، وقد قسمها العلماء ثلاثة أقسام:

أحدها: حديث النفس، كمن يهّمه أمر من الأمور في نهاره، ويشغل فكره بقضية من القضايا، فيراها في منامه، ويسميها علماء النفس «أحلام الذاكرة» أو «خواطر الذاكرة» كالعاشق الولهان يجد معشوقته في نومه، لأن شكلها وصورتها لا تغيب عن ذاكرته، وكالقاتل المجرم يعلم أن الشرطة تبحث عنه، فيراهم في منامه يلاحقونه ويطاردونه.

(١) رواه مسلم وانظر جامع الأصول ٥٤٧/٢.

الثانية: أضغاث أحلام لا حقيقة لها ولا وجود، بل هي من رعونة النفس وتلاعب الشيطان بالإنسان، فإن الشيطان إذا لم يستطع على الإنسان بالنهار، فقد يأتيه بالليل بصورة مفزعة مخيفة، ليعكّر عليه صفوه، ويُشغل به فكره، حتى تسيطر عليه الأوهام، وقد ورد في صحيح مسلم أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله رأيتُ في المنام كأن رأسي ضرب فتدحرج - أي قطع رأسي عن جسدي - وأنا أتبعه وأجري خلفه فضحك النبي ﷺ ثم قال: «لا تخبر الناس بتلعب الشيطان بك في منامك»^(١) وفي رواية: «إذا لعب الشيطان بأحدكم فلا يُحدّث به الناس».

الثالثة: الرؤيا الصادقة التي هي بشرى من الرحمن، وهي الرؤيا الحسنة يراها المؤمن في منامه، أو يراها له أخ صديق، وقد كان ﷺ يُعبّر الرؤيا لأصحابه، ويقول: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟»، فكان بعضهم يقصُّ عليه ما رأى فيعبّر لها عليه السلام. ومما يؤيد هذه الأقوال ما رواه الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «الرؤيا ثلاث: فرؤيا حقٌّ، ورؤيا يُحدّث بها نفسه، ورؤيا تحزينٌ من الشيطان»^(٢) وفي صحيح مسلم: «إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، والرؤيا ثلاث: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يُحدّث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصلِّ ولا يُحدّث بها الناس، قال: وأحبُّ القيد، وأكره الغلُّ»^(٣) قال أبو

(١) رواه مسلم وأبو داود، جامع الأصول ٥٢١/٢.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الرؤيا برقم ٢٢٧١ وأبو داود في الأدب برقم

٥٠١٩.

(٣) الحديث أخرجه البخاري بنحوه ٣٥٦/١٢ ومسلم في الرؤيا برقم ٢٢٦٣ والترمذي في الرؤيا أيضاً برقم ٢٢٧١ وأبو داود برقم ٥٠١٩ وانظر جامع الأصول ٥١٨/٢.

هريرة: والقيدُ ثبات في الدين. اللهم ثبتنا على دينك الحق، واجعلنا من عبادك الصالحين.

حسد إخوة يوسف لأخيهم

وتمضي السورة الكريمة وهي تقصُّ علينا بأسلوبها الرائع، وبيانها العذب الذي يأخذ بالألباب، قصة نبيِّ الله «يوسف الصديق» عليه السلام، وتسرد لنا ما جرى له من أنواع الكيد، والمكر، والتآمر، وأول ذلك حسدُ إخوته له، للمكانة التي كانت له في قلب أبيه «يعقوب» عليه السلام، فقد كان ليعقوب من البنين اثنا عشر ولداً، وكان يحبُّ من أولاده «يوسف» ويؤثره وأخاه «بنيامين» على بقية أولاده في المحبة والقرب، فكان ذلك سبباً لحسد إخوته، وحقدهم الشديد على يوسف وأخيه، ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تقصُّ علينا بداية القصة، وما تبعها من أحداثٍ وعبر، بذلك الأسلوب العجيب ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَائِلِينَ. إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنََّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً، يَخُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ، وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

المحنة الأولى مع إخوته

هذه هي بداية المحنة في أمر ذلك الشاب الحدث، الذي لم يبلغ بعدُ سنَّ الرشد والتكليف، فقد كان عُمر يوسف عليه السلام في ذلك الحين، لا يتجاوز الثانية عشرة من العمر، حين تآمر عليه إخوته، فحسدوه وكادوا له أنواع الكيد، ليفرِّقوا بينه وبين أبيه، ليفرِّقوا بين الشيخ الكبير وولده الصغير، الذي تعلق قلبه بحبه، حتى ما كان يستطيع أن يغيب عن نظره، وليدخلوا الحزن والألم على قلب ذلك الشيخ الوقور،

فيتضاعف عليه الكرب، وتعظم عليه المصيبة، وكانت المؤامرة مدبرة، فقد تشاوروا فيما بينهم عن الطريقة التي يفعلونها مع أبيهم، حتى يستطيعوا أن ينتزعوا منه فلذة كبده، ويصطحبوا معهم أخاهم ليفعلوا به ما شاءوا ممّا عزموا وصمّموا عليه.

قاتل الله الحسد فإنه يُعمي قلب الحاسد، حتى يجعله صليداً كالصخر، لا يلين لذكر، ولا تؤثر فيه موعظة، ولا يبقى فيه أثر للشفقة والرحمة، وهكذا كان الأمر بالنسبة لإخوة يوسف فلقد تآمروا على أخيهم الصغير الضعيف، حسداً له، لأن أباه كان يحبه ويدنيه، وكان الواجب عليهم أن يعطفوا عليه ويحموه، لأنه صغير السنّ وهم في كمال القوة وعنفوان الشباب، ولكنّ الحسد أحرق قلوبهم.

تآمرهم على أخيهم يوسف

ولنرجع إلى الآيات الكريمة، لنستجلي ما فيها من إشراقات وأنوار، وما أشارت إليه من دقائق العبر والعظات ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَائِلِينَ﴾ اللامُ هنا لامُ القسم أي بالله قد كان في قصة يوسف، وحكاية إخوته الأحد عشر، علاماتٌ عظيمة الشأن، بعيدة المغزى، بالغة العظة والتأثير، لكل من سأل عن قصتهم وعرفها، وفي الآية حثٌّ على تعلم هذه الأنباء، إذ هي مقرُّ العبرة والاتعاظ، فإن كبار أولاد يعقوب، بعد ما تآمروا على الكيد بأخيهم الصغير والبطش به، وفعلوا به ما فعلوا، قد اصطفاه الله للنبوة والمُلك، وجعلَ إخوته خاضعين له منقادين لحكمه يتلمسون رضاه، وأن وبال حسدهم قد انقلب عليهم، وهذا من أجلّ العبر والعظات، وكما قال الشاعر:

حَسَدُوا الْفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا فَضْلَهُ فَالْكُلُّ أَعْدَاءُ لَهُ وَخُصُومُ

كَضَرَاثِرِ الْحَسَنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا حَسَدًا وَبُغْضًا إِنَّهُ لَدَمِيمٌ

وتتابع الآيات الحديث عنهم، وعن مكرهم وكيدهم فيقول ربنا تقدست
أسماؤه: ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنََّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّ
أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي حين قالوا ساخطين لائمين: ليوسف وأخوه
بنيامين، أحبُّ إلى قلب أبينا منا، والحال أننا جماعة أقوياء، ذوو عددٍ
وقوة، نقدر على النفع والضرر، فنحن أحقُّ بالمحبة منهما، فما معنى
اختيار صغيرين ضعيفين على عشرة أقوياء، وفي قولهم: «ليوسف وأخوه»
ما يدل على أن «بنيامين» كان شقيقاً ليوسف، وأما بقيتهم فكانوا إخوةً له
من الأب، وهنا تكمل النعمة لأنهما أخوان شقيقان، فقد فضّلهما
وآثرهما علينا، ثم قالوا: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي إنه لفي خطأٍ
واضح، وخروجٍ عن الصواب ظاهر، لتفضيلهما بالمحبة علينا، ولم
يريدوا ضلال العقيدة والدين، إذ لو أرادوه لكفروا، لأن يعقوب نبيُّ
كريم، فكيف يكون ضالاً؟ وإنما أرادوا أنه في خطأٍ بين في إثارة اثنين
على عشرة.

سبُّ الحسد حبُّ أبيه له

وقد كان حبُّ يعقوب ليوسف وبنيامين لصغرهما، وموتِ أمهما،
وهذا أمرٌ فطريٌّ أن يحنو الأب على ابنه الصغير، وقد قيل لابنة الحسن:
أيُّ بنيك أحبُّ إليك؟ فقالت: «الصغيرُ حتى يكبر، والغائبُ حتى يقدّم،
والمريضُ حتى يُشفى» وقديماً قال الناس: حبُّ الصغيرِ فطرةُ البشر. ثم
تكشف لنا السورة عن خيوط تلك المؤامرة، التي دبّوها في خفاء،
وأسرّوها فيما بينهم، وما جرى بينهم من محاورات ومناظرات،
فيقولون: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا، يَخِلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ

وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٤٠﴾ أي اجتهدوا في القضاء على يوسف بقتله وإزهاق روحه خالصاً، أو ألقوه في أرض قفر مضيعة، بعيدة عن العمران، ليهلك فيها أو تأكله السباع ﴿٤١﴾ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ ﴿٤٢﴾ أي تخلص لكم محبة أبيكم، وتصفو وتدوم، ويُقْبَلُ عَلَيْكُمْ بِوَجْهِهِ، ومرادهم أن يوسف قد شغله عنا، فإذا فقدته أقبل علينا بالمحبة والميل، ثم قالوا: ﴿٤٣﴾ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٤٤﴾ أي تتوبوا من بعد هذا الذنب، فإن الله غفار الذنوب، يغفر ذنب العبد إذا هو تاب وأناب، وأصلح سيرته.

عزمهم على إلقاءه في الجبِّ

لقد عزموا على التخلص من أخيهم يوسف بأحد أمرين: إمّا بالقتل، أو بإلقاءه بصحراء مهلكة يضيع فيها وتفترسه السباع، وكان هذا رأي بعض الإخوة ولم يكن رأي الجميع، بدليل أنه لم يقع القتل، لقد أشار بعضهم بالقتل، وبعضهم بالطرح، وكلا الأمرين شرٌّ مستطير، لأنه يؤدي إلى الموت والهلاك، ولكنَّ الشيطان زين لهم مثل ذلك الصنيع القبيح، الذي لا يُقدم عليه إلا من كان مغرقاً في البغي والإجرام، وحسنه في نظرهم، بل سهَّله ويسَّره حتى قال بعضهم لبعض: ﴿٤٥﴾ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٤٦﴾ وهكذا نصيحة الوسواس الخناس، الذي يتلاعب بعقول الناس. ما أتعب الإنسان حين يسير بوسواس الشيطان، ويسيطر على قلبه، وفكره ولبّه، فلا يفكر في قباحة الذنب وسوء المصير!! يتصور الأمر العظيم صغيراً، ويغريه الشيطان بالتوبة والغفران، فيقدم على الإجرام من غير نظرٍ إلى سوء العاقبة!! وبينما هم يتشاورون ويتآمرون، ويخططون ويدبِّرون، في الطريقة التي يمكنهم

التخلص بها من أخيهام المسكين، لا لشيء إلا بدافع الحسد، ليحفظوا بالحب الذي اختص به أخوهم يوسف دونهم، إذ خطرت لأحدهم خاطرة، وبدا له رأي غير الرأيين السابقين، فيه تحقيق لرغبتهم دون مباشرة لجريمة القتل أو التشريد ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ، وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ، يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ كان هذا الرأي الجديد، رأي الأخ الأكبر وهو «يهودا» الذي كان أحسنهم فيه رأياً وأدباً، وهو الذي قال: ﴿ فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ عندما احتجز أخوه «بنيامين» بجرم السرقة. والمعنى: قال لهم: إن القتل عظيم، ولا سيما قتل الأخ لأخيه، فلا تقتلوا أحاكم يوسف، واكتفوا بإلقائه في قعر الجب وغوره، يلتقطه بعض المارئين من المسافرين، فيأخذونه معهم، وتكونوا قد تخلصتم منه، إن كان لا بد لكم من الخلاص منه. . . وغيابة الجب: قعره وغوره، سُمي به لأن من نزل فيه غاب عن أعين الناظرين، والسيارة: المراد بهم القوم المسافرون، أو القافلة التي تقطع المفاوز في مسيرها. نبههم «يهودا» إلى أمر تكون فيه السلامة هي الغالب، وهي الأبعد عن الهلاك، وذلك لأن البئر كانت في طريق المسافرين، فإذا ألقوه فيها ومّرت عليها القوافل رأوه فحملوه معهم وسافروا به إلى بلادهم، وبذلك يكونوا قد تخلصوا منه، وسلمت أيديهم من قتله، وهكذا اجتمعت آراؤهم على هذا الرأي الجديد، وهذا عطف منه على أخيه، ورحمة من الله على يوسف، لما أراد سبحانه من إنفاذ قضائه.

احتياهم لأخذ يوسف من والدهم

لقد تركنا إخوة يوسف، يخططون ويتآمرون، ويتبادلون الآراء للكيد بأخيهم «يوسف الصديق» الذي تعلق قلب أبيه به، وفاز بقربه

وَحَبَّهٗ، وَعَكَّرَ عَلَيْهِمْ صَفْوَ حَيَاتِهِمْ، وَهَاهُمْ يُجْمَعُونَ عَلَى رَأْيٍ، بَعْدَ طَوْلٍ مَشَاوِرَةٍ وَمَذَاكِرَةٍ، لِيَفْرُقُوا بَيْنَ الْآبِ وَابْنِهِ، وَيُبْعِدُوا أَخَاهُم الصَّغِيرَ، الَّذِي حَظِيَ بِالمَحَبَّةِ وَالْحَنُوِّ، عَنِ وَالِدِهِ الشَّيْخِ الكَبِيرِ، بَعْدَ أَنْ فَقدَ يوسُفَ أُمَّهُ حَيْثُ مَاتَتْ وَحُرِّمَ عَظْفُهَا، لِيضَاعَفُوا عَلَى أَبِيهِمْ وَقَعَ الفَاجِعَةَ وَالمَصِيبَةَ، وَهَاهُمْ يَأْتُونَ بِصُورَةِ الحَمَلِ الوَدِيعِ، يَتَلَطَّفُونَ بِأَبِيهِمْ يَعقُوبَ لِيُرْسِلَ مَعَهُمْ أَخَاهُم يوسُفَ، وَقَدْ قَصَّ عَلَيْنَا القُرْآنَ الكَرِيمَ الحِوَارَ الَّذِي دَارَ بَيْنَهُمْ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ، وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ. أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

مؤامرة وتخطيط بدهاء

أَحْكَمُوا المُوَامِرَةَ، وَدَبَّرُوا الحُطَّةَ، وَأَظْهَرُوا لِأَبِيهِمْ أَنَّهُمْ فِي غَايَةِ المَحَبَّةِ لِيوسُفَ، وَفِي غَايَةِ الشَّفَقَةِ عَلَيْهِ، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُسَمِّحَ لَهُمْ بِاصْطِحَابِ يوسُفَ، لِيَلْهَوْا وَيَلْعَبُوا مَعَهُمْ فِي البَرِيَّةِ، فَلَمَّا ذَا يَسْتَمْتَعُونَ هَمَّ بِالنَّزْهَةِ خَارِجَ المَدِينَةِ، وَيُحْرَمُ مِنْ هَذِهِ المَتْعَةِ أَخُوهُمْ الصَّغِيرَ؟ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ؟ أَيُّ شَيْءٍ حَدِثَ فِي نَفْسِكَ، حَتَّى لَمْ تَأْمَنَّا عَلَى أَخِينَا يوسُفَ، وَنَحْنُ جَمِيعاً أَبْنَاؤُكَ؟ كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَخَافَ عَلَيْهِ مِنْ جِهَتِنَا، فَنَحْنُ نَحْبُهُ وَنُرِيدُ الخَيْرَ بِهِ، وَنَحْنُ جَمِيعاً إِخْوَتَهُ، ثُمَّ زَادُوا فِي البَيَانِ لِللَّاطِمِثْنَانِ فَقَالُوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ أَيُّ وَنَحْنُ نَحْفَظُهُ وَنُرْعَاهُ مِنْ كُلِّ سَوْءٍ وَمَكْرُوهٍ، فَلَا دَاعِي إِلَى الخَوْفِ عَلَيْهِ، أَكْثَرُوا كَلَامَهُمْ بِـ «إِنَّ» وَ«الْلَامِ» وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي هَذِهِ الدَّعْوَى ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أَيُّ ابْعَثْهُ مَعَنَا غَدًا إِلَى البَادِيَةِ، يَتَوَسَّعُ وَيَتَمَتَّعُ بِأَكْلِ مَا لَدُنَّ وَطَابَ، وَيَسْتَمْتَعُ أَيْضاً بِالتَّسَابُقِ مَعَنَا، وَنَحْنُ نَحْفَظُهُ مِنْ كُلِّ سَوْءٍ وَمَكْرُوهٍ.

خوف يعقوب على يوسف منهم

لقد كان يعقوب عليه السلام يعلم حسدهم له، ويخاف عليه منهم أن يدبروا له مكيدة، ولكنه لم يكن يُظهر لهم ذلك، لئلا يزيدوا له في الحسد والبغضاء، لذلك تعلل لهم بالخوف عليه من الذئب ﴿ قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ .

اعتذر لهم بشيئين:

أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقتة إياه مما يحزنه ويؤلمه، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة.

والثاني: خوفه عليه من الذئب أن يفترسه، إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم، لقلّة اهتمامهم به. وهو عليه السلام إنما كان يتخوّف عليه من عدوانهم، أكثر ممّا يتخوف عليه من عدوان الذئب، ولكنه ما أظهر لهم ذلك، وأراد أن يصرفهم بذلك الكلام عن مقصودهم، فحبه ليوسف وخوفه عليه منهم، هو الدافع الحقيقي للاعتذار والامتناع، ولكن إخوته كانوا بارعين في الدهاء، حيث التقطوا تلك الكلمة من فم أبيهم، ليطلوها بالحجة والبرهان ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ أي كيف تخاف عليه من الذئب، ونحن جماعة أقوياء أشداء؟ فوالله لئن أكله الذئب فإننا لسنا برجال، وإننا لمستحقون أن يدعى علينا بالخسار والدمار، إذ لم نستطع أن ندفع عن أختينا المخاطر. وكأنه عليه السلام لقنهم الحجة في قوله لهم: ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبُّ ﴾ وفي أمثال العرب الحكيمة «البلاء موكل بالمنطق» وما كان يريد بقوله ذلك إلا أن يصرفهم عن أختهم، ولكن لا راد لما قضى الله، ولكل أجل كتاب.

إرساله يوسف على كره ومضض

لم يجد يعقوب عليه السلام بدأ أن يُرسل يوسف مع إخوته، لثلا يشعروا بأن أباه يخشى عليه منهم، فيدبروا له مكيدةً في غيابه، فتظاهر بقبول كلامهم والافتناع برأيهم، وأرسله معهم على كره ومضض، وما أن غابوا عن عينيه، حتى جعلوا يشتمونه، ويضربونه، ويهينونه بسوء الكلام، وقبيح المقال، ثم عزموا على إلقاءه في غور الجب، فأوثقوا يديه بالحبال، وخلعوا قميصه عن جسده، ودلّوه بحبلٍ كانوا قد أعدّوه لتنفيذ تلك المؤامرة، حتى صار في غيابة الجبِّ، وكان في البئر شيء قليل من الماء، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ ﴾ أي في قعر الجب وغوره ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وتمضي السورة الكريمة، لتحدثنا عمّا فعل به إخوته بعد أن فارقوا أباهم، فقد قرّروا الخلاص منه برميّه في الجب .

وتوسّل إليهم يوسف وتضرّع، ولكنّ تلك القلوب كانت أقسى من الحجر، فلذلك لم ينفعه التوسل والدعاء، وكان يبكي ويقول: يا أبتاه لو ترى ما يصنع بابنك أولادُ الإماماء!! وفي تلك المحنة العصبية تداركته الرحمة الإلهية، فأوحى الله إليه - وحي إيناس وإلهام - لتخبرنَّ إخوتك بفعلهم هذا القبيح معك، وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال الحسن البصري: «ألقي يوسف في الجب وهو ابن اثني عشرة سنة، ولقي أباه بعد أربعين سنة» وروي أنه لما ألقى في الجب

قال: «يا شاهداً غير غائب، ويا قريباً غير بعيد، ويا غالباً غير مغلوب، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً».

رجوعهم عشاءً يبيكون

أما إخوة يوسف، فقد رجعوا إلى أبيهم عشاءً، ومعهم قميص يوسف، وقد لطحوه بدم شاة ذبحوها، ليوهموا أباهم أن الذئب قد عدا على أخيهم فأكله، ولكنهم نسوا أن يمزقوا الثوب أو يخرقوه - وآفة الكذب النسيان - فلم يفلحوا في هذا المكر، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّبُّ، وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا، وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي لست بمصدقٍ لنا ولو كنا في حقيقة الأمر صادقين، فكيف وأنت تتهمنا، وغير واثقٍ بأمرنا؟.

وهذا القول منهم يدلُّ على الارتياب، وكما قيل «يكاد المريبُ يقول خذوني».

لم يكن ذلك الدم دم يوسف، وإنما هو دم الشاة التي ذبحوها، ثم لطحوا بها القميص، ليأكدوا أن الذئب فعلاً قد افترسه، ولم يدخلوا على أبيهم في النهار، وإنما دخلوا عليه في ظلمة الليل، إمعاناً منهم في التضليل، ليروجوا صدق تلك المكيدة المدبرة، والليل أخفى للويل كما يُقال في الأمثال.

قال الطبري في روايته عن السدي: «أقبلوا على أبيهم عشاءً يبيكون، فلما سمع أصواتهم فرع، وقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فأين يوسف؟ قالوا: يا أبانا أكله الذئب، فبكى الشيخ وصاح أين القميص؟ فجاءوا بالقميص عليه دم سخلة - أي

شاة - ذبحوها، فأخذ القميص فطرحه على وجهه، ثم بكى حتى تخضب وجهه من دم القميص، ثم أخذ يقلبه وينظر فيه ويقول: تالله ما رأيت كالיום ذنباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق قميصه!! يا بُني يا يوسف ما فعل بك بنو الإماء؟!».

وهكذا فضح الله صنيعهم، فقد تحقق ليعقوب أنهم دبّروا له مكيده ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ لم تنطل عليه تلك المؤامرة، ولم ترج عليه الدموع الكاذبة التي ذرفوها، بل عرف أنهم تأمروا على أخيهم.

قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم، فربّ ظالم يأتيك وهو باكٍ كما فعل إخوة يوسف حين جاءوا أباهم عشاءً ليكون.

رُوي أن امرأةً تحاكت عند شريح فبكت، فقال الشعبي: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟ إنها مظلومة، فقال الشعبي: لقد جاء إخوة يوسف أباهم عشاءً ليكون وهم ظلّمة كذبة، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق.

مرور قافلة من المسافرين

نفذ أولاد يعقوب الخطة التي دبّروها، في أخيهم الصغير المسكين «يوسف الصديق» فرموه في الجب، ثم جاءوا أباهم ليكون، إظهاراً للحزن والأسى، على أخيهم الذي أكله الذئب، حسب ما زعموا، ولكنها كانت دموع الكذب والخداع، والقلوب إذا قست تحجرت، وإذا تحجرت نزعَتْ منها الرحمة، فلم يرحموا الشيخ الكبير، ولا أشفقوا على أخيهم الصغير، حين رموه في الجب، أن يغرق بالماء، أو يموت جوعاً إذا لم ينقذه أحد، ولكن رحمة الله عزّ وجلّ تداركته

بالرعاية والحماية، فما أن عادوا إلى المدينة ووصلوا إليها، حتى قبض الله له قافلة، كانت تسير في طريقها إلى مصر، فأرسلوا أحدهم ليأتيهم بماء، فلما أدلى دلوه في البئر تعلق به يوسف، وكان ذلك سبباً لنجاته من الهلاك، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ، وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

والمراد بالسيارة هنا: القوم المسافرون، الذين يسيرون على الأقدام، أو يركبون على الدواب، قال ابن عباس: «جاء قوم يسيرون من مدين إلى أرض مصر، فأخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون، حتى هبطوا على الأرض التي فيها جبُّ يوسف، فنزلوا قريباً منه، وكان الجبُّ في قفرةٍ بعيدة عن العمران»^(١) ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي بعثوا من يستقي لهم الماء ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي أرسل دلوه في البئر.

قال المفسرون: لما أدلى الواردُ دَلْوَهُ، وكان يوسف في ناحيةٍ من قعر البئر، تعلق بالحبل فخرج، فلما رأى حسنه وجماله نادى: ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ أي يا بُشراي بهذا الغلام الجميل، كأنه ينادي من فرحه وسروره البشري السارة، وهذا كما يقول الإنسان: يا بهجتي وحظي وسعدي الجميل، حينما تأتيه مفاجأة سارة، ويفوز بنعمةٍ جلييلة.

بيعهم ليوسف في مصر

ولما رأوه فرحوا بهذه الغنيمة الثمينة، التي جاءتهم بدون تعب، وأخفوا أمره عن الناس، ليبيعوه في أرض مصر، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ أي أخفوه ليبيعوه على أنه عبدٌ مملوكٌ لهم، كالمتاع

(١) انظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ١٠٥/١٢.

الذي يُباع، والبضاعة التي تُشترى، والضميرُ على القول الراجح من أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً ﴾ يعود على الوارد وعلى جماعته من الركب المسافرين ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي والله عالم بما أسروه وأضمره، من إرادة بيعه والتجارة فيه، ثم أخبر تعالى ما حدث ليوسف الصديق، حينما وصلت تلك القافلة إلى أرض مصر، من بيعه بأبخس الأسعار، ولم يعرفوا قيمته وقدره، ومن شراء عزيز مصر له ليكون له خادماً يقوم بخدمته في البيت، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ دَارِهِمْ مَعْدُودَةً، وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ أي باعه أولئك المارة، الذين استخرجوه من البئر، بأبخس الأثمان وأنقصها، وهي أربعون درهماً على قول عكرمة، وعشرون درهماً على قول ابن عباس، وإنما باعوه بهذا الثمن الزهيد، لأنهم خافوا أن يكون عبداً قد أبق من سيده، فيتزعه سيده من أيديهم، ولذلك باعوه بأبخس الأثمان.

المحنة الثانية محنة الاسترقاق

ومن هنا تبدأ المحنة الثانية في حياة يوسف عليه السلام، وهي محنة «العبودية والاسترقاق» بعد المحنة الأولى «محنة الجُبِّ» فبعد أن كان حراً منعماً مكرماً، في غاية الدلال والإكرام عند أبيه يعقوب عليه السلام، يرعاه ويحنو عليه، أصبح عبداً مملوكاً مسترقاً، يُباع كالبضاعة والسلعة، للخدمة والابتذال، وما أشقَّ على النفس، أن ينتقل الإنسان من الرفاهية والعزة إلى العبودية والمهانة، فلذلك كانت تلك المحنة عظيمة بالنسبة له، وهو لا يزال بعد في ريعان الصِّبا، وبحاجة إلى من يعطف ويحنو عليه، وقد اشتراه عزيز مصر من تلك القافلة على

أنه عبدٌ مملوك، اشتراه للخدمة وللمنفعة، وفي ذلك يقول تقدست
 أسماؤه: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ، أَكْرَمِي مَثْوَاهُ، عَسَىٰ أَنْ
 يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ
 تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴾.

فِرَاسَةُ عَزِيزٍ مِصْرَ بِيُوسُفَ

والمعنى: قال عزيز مصر الذي اشترى يوسف من أولئك الركب
 المسافرين، قال لزوجته أكرمي إقامته، وأحسني تعهده، فلعله يكفيننا
 بعض المهمات إذا بلغ، أو نجعله ولدًا لنا ننتبناه، والمثوى: هو مكان
 الإقامة، والمراد تعهده بحسن الرعاية في المطعم والمشرب، وإنما
 أمرها بالإحسان إليه، لأنه شاهد فيه علامات النبوغ والذكاء، ولهذا قال:
 ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أفرسُ الناس ثلاثة: العزيزُ في
 شأن يوسف حيث قال لامرأته ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ وابنةُ شعيب
 حين قالت لأبيها في شأن موسى ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ، إِنَّ خَيْرَ مَنْ
 اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ وأبو بكرٍ رضي الله عنه في شأن عمر حين
 استخلفه وقال: إني رأيتُ أن أوليَّ عليكم عمر بن الخطاب، إذ تفرَّس
 فيه العدل».

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي كما
 نجيناه من محنة الجب، جعلناه متمكنًا في أرض مصر، يعيش فيها في
 قصر العزيز بعزٍّ وأمان، وجعلناه محبوبًا في قلب سيِّده، مكرَّمًا في
 منزله، وهيانًا له أسباب الرفاهية والنعيم ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ

الأَحَادِيثِ ﴿ أَي وَلِنَعْلَمَهُ تَعْبِيرَ الْمَنَامَاتِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي تَرَفَعُ قَدْرُهُ ﴾ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ أَي لَا يَعْلَمُونَ لَطَائِفَ صَنَعِهِ ، وَخَفَايَا فَضْلِهِ .

إِخْوَةُ يُوسُفَ لَيْسُوا أَنْبِيَاءَ

وهنا لا بدُّ لنا من وقفة قصيرة، حول نقطة هامة، تعرَّض لها بعض المفسرين، وهي: كيف صدر من إخوة يوسف، مثل هذا الصنيع القبيح، في حقِّ أخيهم يوسف، وهم أنبياء؟.

وأجاب البعض بأن هذا كان منهم قبل النبوة، وبعضهم قال: إنهم تابوا والتوبَةُ تمحو ما سبق من الذنوب.

والحقُّ في هذا أن السؤال غير وارد، فإن إخوة يوسف ليسوا أنبياء، حتى نتحل لهم المعاذير، كما نبه على ذلك المحققون من علماء التفسير، فإن الأنبياء معصومون عن الكبائر قبل النبوة وبعدها، ولو كانوا أنبياء لما أقدموا على مثل هذه الأفعال الشنيعة، فالحسد، والسعي في الفساد، والإقدام على القتل، والكذب، وإلقاء يوسف في الجب، كل ذلك من الكبائر التي تنافي عصمة الأنبياء، فالقول بأنهم أنبياء - مع هذه الجرائم - لا يقبله عقل حصيف.

وقد أجاد الحافظ ابن كثير فأفاد، وردَّ على من زعم نبوتهم فقال رحمه الله: «واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر الآيات يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر ويحتاج إلى دليل، ولم يذكروا سوى أنهم الأسباط، وهذا ليس بدليل، لأن بطون بني إسرائيل يُقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب، ولم يقم دليل على أن أعيان هؤلاء

أوحى إليهم، فالصحيح أن الأسباط غيرهم»^(١) وقال الفخر الرازي: «قال بعضهم: إن الحسد من أمهات الكبائر، لا سيما وقد أقدموا على الكذب بسبب الحسد، وعلى تضييع ذلك الأخ الصالح، وإلقائه في ذل العبودية، وتبعيده عن الأب المشفق، وألقوا أباهم في الحزن الدائم، والأسف العظيم، وأقدموا على الكذب، فما بقيت خصلة مذمومة، ولا طريقة في الشر والفساد، إلا وقد أتوا بها، وكل ذلك يقدر في العصمة والنبوة». هذا هو الصحيح في الموضوع والله الهادي إلى سواء السبيل.

إقامة يوسف في قصر العزيز

أقام يوسف الصديق في بيت عزيز مصر، منعمًا مكرمًا، وكان فائق الحسن والجمال، فلما شبَّ وكبر، عشقته امرأة العزيز، وشُغفت به حبًّا، ودعته إلى نفسها، وكان ذلك بداية «المحنة الثالثة» له، بعد محنة الجب، ومحنة الاسترقاق، وكان يوسف عليه السلام طاهر النفس، عفيف الخلق، مستقيم السيرة، ولذلك استعصى على تلك الفتنة العارمة، ووقف في وجه الشهوة والإغراء، موقف الحزم والإباء، وقاوم تلك الدعوة بكل شجاعة وبسالة، وثباتٍ وحزم، لأمرين اثنين:

أولهما: إيمانه بالله عزَّ وجلَّ الذي غمر قلبه، وخوفه من الله، وسيرته العطرة التي نشأ عليها.

وثانيهما: أن زوجها سيده الذي أحسن إليه، وأكرم مثواه، واثمنه على ماله وعرضه، فكيف يخونه؟.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٤٤.

المحنة الثالثة

ولنستمع إلى الآيات البيّنات، وهي تحكي لنا أحداث تلك المحنة العصبية، التي كانت أشدّ على نفسه من محنة رميه في الجب، لأنها محنة تتعلق بالعرض والشرف، وتمسّ الدين والعقيدة، ولكنه خرج منها منتصراً، عفّ الثياب، طاهر النفس، مستعلياً بإيمانه على كل المغريات، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ، وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. أما بلوغ الأشدّ فهو بلوغ سنّ الرجولة، تقول العرب: بلغ فلان أشدّه إذا بلغ منتهاه في شبابه وقوته، أي لما أصبح شاباً مكتمل الشباب، قويّ البنية، راشد العقل، أعطياه الحكمة والفقّه في الدين، وكذلك نجزي المحسنين في أعمالهم، المستقيمين في سيرتهم وسلوكهم، قال ابن عباس: يعني بالمحسنين: المؤمنين المهتمدين.

شروع في تفصيل القصة

ثم شرع تعالى في بيان قصته مع سيدته زوجة العزيز، الذي عاش في بيته، وتربّى في حجره، وذكرها تعالى بأبلغ أسلوب، وأدق تصوير، فقال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ والمرادة هي الطلب برفق ولين، مأخوذة من راد يروّد إذا جاء وذهب، ومنه الرائد لطلب الماء، أو لطلب الكلاء، يُقال في الرجل: راودها عن نفسه، وفي المرأة راودته عن نفسه، أي طلبت منه برفق ولين مضاجعتها ومواقعتها، وتوسّلت إليه بكل وسيلة ليقضي حاجتها، وفعلت معه ما يفعله

المخداع، الذي يريد أن يوقع صاحبه في شركه، بطرق الاحتيال والخداع، يحتال عليه لينال منه مأربه.

إغلاق الأبواب بإحكام

ثم قال تعالى: ﴿ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ، وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أي غلقت أبواب القصر عليها وعلى يوسف، وأحكمت إغلاقها، والصيغة تدلُّ على المبالغة في الإغلاق، والتوثق من تدبير المؤمراة، قال المفسرون: كانت سبعة أبواب، أغلقتها فأحكمت إغلاقها، ثم دعتة إلى نفسها، بعد أن هيأت المضجع والفراش، وكانت في أبهى زينتها، وأجمل حللها ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أي هلمَّ وأسرع إلى الفراش، فليس ثمة ما يُخشى، الرقيبُ غائب، والأبواب مغلقة، وليس هناك ما يعكّر الصفو!!.

ما أشدَّ هذه المحنة على النفس، وما أقساها؟ وما أشدَّ وقعها على نفس يوسف، هذا الشاب المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان؟ ولكنَّ الإيمان وخوف الرحمن، جعلاه يصمد أمام تلك الفتنة العارمة التي تثير وتحرك شهوة الإنسان ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي قال يوسف الصديق: عياداً بالله من فعل السوء، إن زوجك هو ربي أي هو سيدي العزيز، الذي أكرمني، وأحسن تعهدي، وأكرم منزلي، فكيف أخونه في أهله وحرمه؟.

قال ابن كثير: وكانوا يطلقون لفظ «الربِّ» على السيد والكبير، أي إن بَعْلِكَ ربي ﴿ أحسن مَثْوَايَ ﴾ أي أحسن منزلي، وأحسن إليَّ، فلا أقبله بالفاحشة في أهله^(١) ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي إن فعلت هذه

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٤٥ وإطلاق الرب في كلام العرب على المالك، وعلى =

الفعلة فأنا ظالم، ولا يفلح الظالمُ الخائن، المجازي للإحسان بالسوء.

امرأة العزيز تريد إجباره بالقوة

هاج هائج الغرام في قلب امرأة العزيز، فأرادت أن تحمله على الاتصال بها بالقوة، فبعد أن أحكمت الخطة، وغلقت الأبواب، ودعته صراحة إلى نفسها، فامتنع وأبى وأصرَّ على العصيان، ولم تجد وسيلة لإخضاعه، وغلبها الحبُّ على حياثها، واستطارت الشهوةُ في نفسها، أمسكتُ به تريد أن تجبره على موافقتها، بالعنف والقوة، وأن تخضعه لأمرها باعتبار أنها سيِّدته، فتجاذبا وتشادًا، هي تريد أن تجبره، وهو يأبى ويمتنع، وأخيراً أفلت من يدها فهرب، وأخذت تلاحقه وتطارده، فأمسكت بقميصه - أي بثوبه - من خلف، فتمزق الثوب، وظلَّت تلاحقه وهو يسعى يريد الخلاص منها والهرب، وهما يستبقان نحو الباب أي يركضان هو يريد فتحه هرباً، وهي تحول بينه وبين الباب طلباً، تريد أن تقضي منه وطرها، فلم يعد هناك مكان للحياء، وفي هذه اللحظة، كان قد وصل زوجها، فوجدهما في هذه الحالة المريبة.

كيد خبيث من امرأة العزيز

وهنا يبدأ الكيدُ الخبيثُ، والمكرُّ المدبرُّ، فتنتطق صارخة باكية بدموع التماسيح، تريد أن تُظهر لزوجها عفتها ونزاهتها، زاعمةً أن يوسف راودها عن نفسها، فأبَّت عليه، وأنه أرادها بالقوة فهربت منه، وفي لمحة بصر تنقلب الأمور، فيصبح الظالم مظلوماً، والطالبُ مطلوباً، ويصبح الخائن بريئاً، والبريء متهماً، وتندفع تطالب زوجها بإنزال

= الصاحب مشهور، ومنه قول عبد المطلب «أنا ربُّ الإبل ولليبت ربُّ يحميه».

أقصى العقوبة، بمن أراد أن يخون شرف سيده، ويهتك عرضه، ويرتكب الفاحشة في أهله، لتظهر هي بمظهر الشريفة العفيفة، ويصبح يوسف البريء في قفص الاتهام!! حقاً إنه الكيد، والمكر، والدهاء، ولنستمع إلى الآيات البيّنات، وهي تطالعنا بتلك الأحداث المدهشة، ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ، وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ، قَالَتْ: مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

معنى الآية الكريمة

ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي تسابقا نحو باب القصر - قصر العزيز - هو للهرب، وهي للطلب. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي شقت ثوب يوسف شقاً فظيعاً من خلف، لأنها كانت تلاحقه فجذبه بشدة فشقت ثوبه، واستمر يوسف هارباً ذاهباً وهي في أثره ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ أي صادفا ووجدا زوجها العزيز عند باب القصر، وجداه فجأة وقد حضر في غير أوان حضوره، فلما رأت زوجها هابته، وخافت التهمة، فسابت يوسف بالقول قبل أن يكشف أمرها ﴿قَالَتْ مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي قالت امرأة العزيز: ليس جزاء من أراد بأهلك الفاحشة، وأراد الاعتداء عليها بالزنى، إلا أن يدخل السجن، أو يُضرب ضرباً شديداً موجعاً، جزاء عزمه القبيح.

يوسف عليه السلام يدفع البهتان

وهنا اضطر يوسف الصديق، أن يُبريء ساحته من تلك التهمة الشنيعة، ولولا أنها قذفته بذلك البهتان، فإنه ما كان يريد أن يذكر هذا القول، ولا أن يهتك سترها، ولكن لما قالت هي ما قالت، احتاج إلى

إزالة هذه التهمة عن نفسه ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ أي قال يوسف مكذباً لها: هي التي دعنتني إلى نفسها، لا أنني أردت بها السوء، وصدقه فيما قال لا يحتاج إلى بيان أكثر من الحال الذي كان فيه، وهو أنهما عند الباب، ولو كان منه الطلب، لما كان إلا في محلها الذي تجلس فيه، وهو صدر البيت وأشرف موضع منه، وأيضاً فإن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه، وأما يوسف فما كان عليه أثر من آثار الزينة، فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى.

معجزة باهرة لتبرئة يوسف

وقد أراد الله أن يُظهر الأمر، ويكشف الحقيقة، فأطلق طفلاً صغيراً كان في المهد، بالحجة والبرهان ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا، إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ، فَصَدَقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ، فَكَذَبْتُ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ، قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ، إِنْ كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.

شهادة صادقة، وحجة مقنعة، شهد بها طفلٌ من أقربائها رضيع، أنطقه الله بها لتكون براءة ليوسف الصديق، وبرهاناً على عفته ونزاهته، وخلاصتها: إذا كان يوسف هو الطالب وهي الممتنعة، فلا بد أن يُشَقَّ ثوبه من أمام، لأنه يريد لها وهي تدفعه عن نفسها، فالمنطق السديد أن يكون شق الثوب من الأمام، وإن كان يوسف هو الهارب، وهي الطالبة له، فلا بد أن يكون شق ثوبه من خلف، قال ابن عباس: «كان هذا الطفل رضيعاً في المهد، أنطقه الله، وكان ابن خالها»^(١) وهذا أوثق للحجة

(١) جامع البيان للطبري ١٢/١٩٣.

عليها وأظهر لبراءة يوسف، فلما تحقّق العزيز أن شق الثوب كان من خلف عرف خيانتها، وبراءة يوسف من تلك التهمة فانطلق يقول: ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ، إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

منةً الله على يوسف بعصمته وحمايته

لم تكن قصة يوسف بغرض التسلية والترويح عن النفس، بل كانت دروساً بليغة في الطهر والنزاهة، وقد قصّ علينا القرآن الكريم قصته عليه السلام لما فيها من العظات والعبر، وحكى لنا حياته بالتفصيل في هذه السورة الكريمة، فصوّر لنا قصة نشأة يوسف، وحسد إخوته له، ورميهم إياه في الجب، وشراء العزيز له، وقصته مع امرأة العزيز، أبلغ تصوير، وعبر عنه أفصح تعبير، وأبان عنه بأروع بيان في الآيات المتقدمة، وفي ضمن سرد قصته عليه السلام، جاء هذا النصّ القرآني الكريم، وهو قوله تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ . والآية امتنان من الله على يوسف الصديق، بحفظه وحمايته من مكائد النساء، وحبائل الشيطان، وصرْفِ السوءِ والفحشاءِ عنه، وهو في ريعان الشباب، واكتمال القوة والرجولة، وتحتاج إلى تأمل دقيق، في فهمها، وفي معرفة هدفها ومغزاها .

خطأ فاحش في مفهوم معنى الهمّ والبرهان

لقد شطّ القلم، وزلقت القدم ببعض الذين كتبوا عن قصة يوسف، فزعموا أنه قد همّ بمقارفة الفاحشة، ولكن حالت دون ذلك حوائل، صرفته عنها، وشجّعهم على قول ذلك الزور والبهتان، وجود

بعض روايات إسرائيلية واهية، ذُكرت في بعض كتب التفسير، بل هي من الروايات المنكرة الباطلة، التي لا يجوز ذكرها، ولا الوثوق بها، لأنها روايات لا زمام لها ولا خطام.

من هذه الروايات التي خبَّ فيها الناس وأوضعوا، تفسيرهم «الهمَّ» و «البرهان» بما لا يتفق مع نصوص القرآن، فالقرآن الكريم برَّاه، ونزَّهه، وأثنى عليه الشاء العاطر، لاستعصامه عن مقارفة الفاحشة، ولعفته ونزاهته، وصلابته في دين الله، وخصَّه بالاصطفاء والاجتباء فقال تقدست أسماءه: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فهل من يكون عبداً مخلصاً لله، يُقارَف الفاحشة، ويرتكب الموبقات؟! .

افتراءً وبهتان على يوسف عليه السلام

لقد زعم بعض القصاص، من المعجبين بالأخبار الغريبة، أن يوسف همَّ بمقارفتها، فحلَّ رباط السروال، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، ثم رأى صورة أبيه يعقوب، عاضاً على أصابعه، فقام عنها وتركها خجلاً.

وقال بعضهم: ناداه جبريل أتعلم عمل السفهاء، وأنت مكتوبٌ في زمرة الأنبياء؟! فاستحيا فقام.

وقال آخرون: رأى صورة سيِّده العزيز على الجدار. . إلى غير ما هنالك من أقوال واهية، فسروا به البرهان، وهو زورٌ وبهتان، لأنه يصادم نصوص القرآن.

ولست أدري كيف دخلت تلك الروايات المنكرة، إلى بعض كتب التفسير، وتقبَّلها بعضهم بقبول حسن، وكلها - كما يقول العلامة أبو

السعود في تفسيره - خرافات وأباطيل، تمجُّها الأذان، وتردُّها العقول والأذهان!! .

ثم كيف غاب عن أولئك الذين نسبوا إليه الزور والبهتان، أن يوسف الصديق، نبيِّ كريم، ابن نبي كريم؟ وأنه آثر السجن وفضَّله على عمل الفاحشة ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ إن كتاب الله عزَّ وجلَّ لا يدلُّ على أكثر من هذا الذي سنذكره، أنها همَّت به همَّ عزم وتصميم، ولولا أن الله كان معه في محنته هذه، وعَصَمَه ونجَّاه من شرِّها، لوقع في حبالها، ولكنَّ الله تولَّاه وحفظه ورعاه، لأنه من عباده المقربين الذين أخلصهم الله لنفسه، وأكرمهم بالاجتباء والاصطفاء.

نظر دقيق في أسلوب الآية وفهم أهدافها

ولنرجع الآن إلى الآية الكريمة، نستوحي من أسلوبها الرفيع، ودقة بيانها، هذا المعنى الذي تتقبله نفس المؤمن، وتشير إليه آيات القرآن المبين: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ قل لي بربك هل توحى هذه الآية الكريمة، أنه عزم على الزنى، أو همَّ بالفاحشة؟ أم توحى بخلاف ذلك؟ .

إن في الآية تقديمًا وتأخيرًا هو الذي أوقع بعض المفسرين في تلك الزلة، حتى نسبوا إليه ما هو منه بريء، والتقدير: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أي عزمت عزم رغبة وتصميم على موافقته ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ هنا التقديم والتأخير، فقله: ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ جواب «لولا» تقدَّم عليه، والأصل: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، وهذا كما تقولُ

لآخر: قارفتَ الذَّنْبَ لولا أن عَصَمَكَ اللهُ، ويُشبهه قوله تعالى عن أم موسى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ، لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ أي كادت تقول: هذا ابني، لولا أن ثبتنا قلبها وألهمناها الصبر، فكذلك هنا، المعنى: لولا أن الله عَصَمَهُ، وأراه آيةً في نفسه أن الزنى من أقبح القبائح، لقارفت الذنب معها وهمَّ بها، أي لولا عصمة الله له لوقع في المعصية، فالآية تذكيرٌ له بنعمة المولى وإفضاله عليه، بأن الله رَحِمَهُ فعصمه ونجَّاه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ كأنه يقول: إنما حفظناه وعصمناه، ودفعنا عنه ذلك الشر الكبير، لأنه من عبادنا المخلصين لنا، الذين أخلصناهم لطاعتنا، واخترناهم لوحينا ورسالتنا.

صفحات مشرقة من التفسير الكبير

ولقد كتب الإمام الفخر الرازي في تفسيره الكبير صفحاتٍ في هذا الموضوع، ننقل بعض فقرات منه لوضوحه وسطوع برهانه، فقد قال رحمه الله:

«اعلم أن هذه الآية من المهمات، التي يجب الاعتناء بالبحث عنها، وفيها مسائل:

الأولى: قال بعضهم: إن يوسف عليه السلام همَّ بالفاحشة، ونسبوا إليه أنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلمَّا رأى البرهان من ربه، زالت عنه كل شهوة، وفسَّروا البرهان بأنه صورة يعقوب عاصاً على أصابعه، أو صنمٌ مكلَّل بالدرِّ والياقوت، قامت لتستره بثوب، فقال أتستحين أنت من صنمٍ لا يعقل ولا يسمع، ولا أستحي أنا من إلهي القائم على كلِّ نفسٍ بما كسبت!! فلا والله لا أفعل ذلك أبداً، هذا قولٌ.

والقول الثاني: أن يوسف كان بريئاً عن العمل الباطل، والهَمَّ المحرَّم، وهذا قول المحققين من المفسرين، والمتكلمين وبه نقول، وعنه نكافح قال: وقد ذكرنا في عصمة الأنبياء دلائل كثيرة تدل على عصمتهم، ونزيد هنا وجوهاً:

(الحجة الأولى) أن الزنى من منكرات الكبائر، والخيانة في معرض الأمانة أيضاً من منكرات الذنوب، ومقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة والعار الشديد أيضاً من منكرات الذنوب، والصبي إذا تربى في حجر إنسان، وبقي مكفياً المونة، مصون العرض، من أول صباه إلى زمان شبابه، ثم أقدم هذا الصبي على إيصال أشنع أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم الجليل، من منكرات الأعمال، إذا ثبت هذا فنقول: إن هذه المعصية التي نسبها إلى يوسف عليه السلام، كانت موصوفة بجميع هذه القبائح، ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله، وأبعدهم عن كل خير، لاستنكف منها، فكيف يجوز إسنادها إلى نبي كريم، ابن نبي كريم، مؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة؟! .

(الحجة الثانية) أنه تعالى قال في هذه الواقعة: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ وذلك يدل دلالة ظاهرة على أن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه، ولا شك أن المعصية التي نسبها إليه أعظم أنواع القبائح، وأفحش أقسام الفحشاء، فكيف يليق برَبِّ العالمين، أن يشهد في عين هذه الواقعة بكون يوسف بريئاً من السوء، مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء؟ وهذه الآية تدل على المدح العظيم والثناء البالغ، ولا يليق بحكمة الله، أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة، ثم إنه يمدحه ويشني عليه بأعظم المدائح، بعد أن حكى

عنه ذلك الذنب العظيم، ومثالُ هذا ما إذا حكى السلطانُ عن بعض عبيده، أقبح الذنوب، وأفحش الأعمال، ثم ذكره بالمدح العظيم، والثناء البالغ عقبيه، فإن ذلك مستنكر جداً، فكذا هنا فإنه تعالى أثنى عليه فقال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

(الحجة الثالثة) أن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة، أتبعوها بإظهار الندامة، والتوبة، والتواضع، ولو كان يوسف ههنا أقدم على هذه الكبيرة المنكرة، لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار، ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى إتيانه بها، كما في سائر المواضع، وحيث لم يوجد شيء من ذلك، علمنا أنه ما صدر في هذه الواقعة ذنب ولا معصية». اهـ.

رحم الله الإمام الفخر الرازي، فلقد كان إماماً رائعاً، ومحققاً بارعاً، في دفع تلك الشبهات فأجاد وأفاد، ونسأل الله أن يجزيه عن دينه، وكتابه، ورسوله خير الجزاء، وأن يكرمه بجنت الخلد والنعيم، بجوار الصديق يوسف وخاتم النبيين محمد ﷺ، بما دفع من شبهات، وأزال من أباطيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل^(١).

الأدلة القاطعة على براءة يوسف عليه السلام

بيناً بالأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة، براءة يوسف الصديق عليه السلام، مما نسب إليه من الهمم باقتراف الفاحشة مع امرأة العزيز، ظناً من الغافلين عن أسرار القرآن أن الآية الكريمة ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ

(١) انظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ١٢٠/١٨.

رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴿ يساعد على هذا الفهم، أو يدلُّ عليه، ولكنهم متفقون معنا على أنه لم يقع في المعصية، ولم يقارف الذنب، ولكنه همٌّ ثم امتنع لوجود برهان ربه، وهذا الفهم الخاطيء يجعلنا نتهم القرآن - وحاشاه - بالتعارض والتناقض، إذ يثبت أنه همٌّ بالمعصية، ثم يخبر أن السوء والفحشاء مصروفة عنه لأنه من عباد الله المخلصين، حيث يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

بسط للكلام دقيق وتفصيل بعد الإجمال

ونظراً لخطورة الموضوع، ولكونه يتعلق بنبيٍّ من الأنبياء، ويؤثر على عقيدة المسلمين في «عصمة الأنبياء» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فقد آثرنا أن نبسط في هذا الموضوع القول، ونذكر البرهان تلو البرهان، على عفة يوسف عليه السلام، ونزاهته، وبراعة ساحته مما تقوّل عليه البعض، ممّا لا يتفق مع النصّ القرآني الكريم، ولا يقبله إنسان له عقلٌ سليم.

إن الزنى جريمة من أقبح الجرائم والمنكرات، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْنَى، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ومجرد التفكير به، والهّمّ والعزم على فعله، سفهٌ وضلالٌ وإجرام، فكيف يهّمُّ به نبيٌّ من الأنبياء الكرام، استخلصه الله لنفسه، واصطفاه لحضرته؟ فلا بدّ لنا إذاً أن نفهم النصّ القرآني على وجهه الصحيح السليم، فالذي يفضّل السجن على مقارفة الفاحشة، ويقول صراحة دون إخفاء ﴿ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴾ لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يهّمُّ بفعل الفاحشة، أو يفكر فيها مجرد تفكير، ولا بدّ لنا من حمل الآية على أحد وجهين:

الوجه الأول: أن الآية متعلقة بما بعدها، وفيها تقديم وتأخير ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ويصبح المعنى: أن الله عز وجل لو لم يعصمه، ولو لم يحفظه، وُبريه شناعة وقباحة هذا الذنب، لهم بها بمقتضى الغريزة الجنسية، والميل البشري الفطري، ولكن الله حفظه وصانه وعصمه، فلم يهَمَّ بالذنب وهذا كما يُقال: قد كنت من الهالكين لولا أن فلاناً خلَّصك، وكما تقول لإنسان تخاف عليه: قارفت الذنب لولا أن عصمك الله، فكذلك هنا ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فهو من الكلام الذي معناه: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، ولكنه رأى البرهان فلم يقع منه همُّ البتة.

ويؤيد هذا الرأي أن الله قد فرَّق بين الهمَّين: همُّ امرأة العزيز، وهمُّ يوسف الصديق، فقال هناك: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ دون تعليق بشيء، لينبئنا إلى أن الهمَّ منها كان همُّ عزمٍ وتصميم، فهي مندفعَةٌ على إجباره على الفاحشة بالقُوَّة، وبالْعزمِ، والقصدِ، والتصميمِ، بعد أن أحكمت إغلاق الأبواب، ودعته إلى الإسراع إليها ليقضي حاجتها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي أقبل وأسرع، مما اضطره إلى الهروب منها نحو الباب.

وأما بالنسبة إلى همُّ يوسف فقد علَّقه تعالى بقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فعَلَّقه بروية البرهان، والبرهان هنا عصمته تعالى، وحفظه وصونه له، والمعنى: لولا أن الله عز وجل حفظه وعصمه لَوَاقَعها وضاجعها، وهذا من الله تعالى تذكيرٌ له بالمنة عليه بالحفظ والصيانة، ليشكر الله تعالى على فضله وإنعامه، وفائدة هذا التعليق هو بيان أن ترك الهمَّ بها، ما كان لعدم رغبته بالنساء، أو عدم قدرته عليهن، بل لأجل خوفه من الله، واستعصامه بحبله المتين.

الوجه الثاني: أن نفسَ الهمِّ منه بها، بالخاطرة و «حديث النفس» بمعنى أن نفسه حدَّثته بمطاوعتها، ولكنَّ خوفه من الله، وما يعلمه من قباحة وشناعة هذا الأمر، وعاقبته الوخيمة، وما ركَّز الله في قلبه من النفور عن الفواحش، دفع عنه تلك الهواجس والخواطر.

ومثاله: المؤمن الصائم في الصيف الشديد الحر، يرى أمامه الماء البارد، فتحمله نفسه على الميل إليه، وطلب شربه، لما يشعر به من شدة العطش، ولكنَّ يمنعه دينه عنه . . وهذا ليس فيه ذنبٌ ولا معصية، كما جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي، مَا حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَكَلِّمْ أَوْ تَعْمَلْ»^(١) رواه البخاري ومسلم.

وعلى هذا الوجه من التأويل، لا ذنب هناك ولا معصية، لأنه مجرد خاطرة مرَّت على ذهنه عليه السلام، وهي تدعوه إلى نفسها، وقد تزيَّنت بأبهى الزينة، ولبست أجمل الحُلل، وحاصرته وطاردته، وهَدَّدته وتوعَّدته، وخاف أن تبطشَ به، فحدَّثته نفسه بمسايرتها، ولكنَّ سرعان ما انصرف عنه هذا الهاجسُ الذي هو من وحي الشيطان، فتذكَّر عظمة الله وجلالَه، وعقوبته وانتقامه، فلاذَّ بالاحتماء بحمي الرحمن، وأصرَّ على الامتناع خوفاً من الله، وترفعاً عن الخيانة، وحفظاً لشرف سيِّده، وهو سيِّدُها وزوجها الذي أحسن إليه، وانطلق لسانه يردُّ هذه الكلمات ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي عياداً بالله من فعل السوء بمن أحسن إليَّ وأكرمني.

(١) أخرجه الشيخان، والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه.

اختيار المحققين من المفسرين لهذا الوجه

وهذا الوجه من التأويل اختاره بعض المحققين، فقد حكاه الحافظ ابن كثير عن البغوي فقال رحمه الله: «اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، فقليل: المراد بهمَّ بها خطراتُ حديثِ النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، وقيل: همَّ بضربها، وقيل: تمنَّاها زوجة، وقيل: المعنى: همَّ بها لولا أن رأى برهان ربه، أي فلم يهَمَّ بها..» الخ هذا نصُّ كلام الحافظ ابن كثير.

وقال العلامة أبو السعود في تفسيره «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» ما نصُّه: إن همَّ بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، ميلاً جبلياً، لا أنه قصدتها قصداً اختيارياً، ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له، ونفرته عنه، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين، وهل هو إلا تسجيلٌ باستحالة صدور الهمِّ منه، تسجيلاً محكماً؟ وما قيل: إنه حلَّ الهمَّيان - أي الزُّنار - وجلس مجلس الختان، فإنما هي خرافات وأباطيل، تمجُّها الأذان، وتردُّها العقول والأذهان^(١).

الأدلة والبراهين من القرآن الكريم من عشرة وجوه

وبعد هذه الجولة مع أساطين المفسرين، ومع أئمة التحقيق من علماء التفسير، الذين تطمئن القلوب إلى علمهم وفهمهم السليم، نستخلص ما يأتي من الأدلة والبراهين، على عصمته عليه السلام وعفته ونزاهته، وقد جمعتها من كتاب الله عزَّ وجلَّ، وهي من عشرة وجوه:

الوجه الأول: امتناع يوسف عليه السلام أمام تلك المغريات،

(١) انظر تفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦٣/٢.

ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم مع شدة الإباء، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

الوجه الثاني: فرأه منها بعد أن غلقت الأبواب، وشددت عليه الحصار، والذي يهّم بالفاحشة لا يهرب، بل يصمد لينال مبتغاه، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ أي شقت قميصه من الخلف ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب . . ﴾ أي رأى زوجها العزيز مقبلاً نحو باب القصر.

الوجه الثالث: إثاره السّجن على الفاحشة، وذلك أعظم برهان على عصمته، ونزاهته عليه السلام، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ، وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

الوجه الرابع: ثناء الله تعالى عليه في عدة مواطن ووصفه بالإحسان ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ واصطفاء الله له في قوله: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ بفتح اللام أي ممن اصطفيناهم، واخترناهم للنبوة والرسالة، فهل يكون مخلصاً لله من همّ بفاحشة الزنى؟ .

الوجه الخامس: شهادة الطفل الذي أنطقه الله عزّ وجلّ وهو في المهد، ليكون حجةً دامغة على عفته وبراءته، وهذا من الآيات الباهرة، والمعجزات القاطعة على نزاهته عليه السلام ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ، إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ ، فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَإِنْ كَانَ

قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ، فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكَ، إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ ﴿٤٠﴾ .

الوجه السادس : اعتراف امرأة العزيز الصريح البيِّن بمراودتها له ، أمام الملك وأمام الحاضرين ، وعفته ونزاهته وإبائُهُ وامتناعه عليها ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ أي ظهر وبان ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

الوجه السابع : إقرارها أيضاً أمام النسوة بخيانتها ، ومراودتها له ، وبامتناعه منها أشدَّ الامتناع ، وعدم استجابته لها ، وتهديدها له أمامهن بالسجن والإهانة ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمَرُهُ لِيُسْجَنَنَّ وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

الوجه الثامن : استغاثته بربه جل وعلا لينقذه من كيد النساء ولجوؤه إليه ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

الوجه التاسع : إدخال العزيز ليوسف في السجن ، بعد ظهور الدلائل القاطعة على براءته ، لدفع مقالة الناس ﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنَنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

الوجه العاشر : عدم قبول يوسف الخروج من السجن حتى تبرأ الساحة ، وذلك نهاية الشهامة والعفة ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي ارجع إلى سيدك الملك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالَ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ .

هذه عشرةٌ وجوهٌ من كتاب الله تعالى على وجه الخصوص، تنطقُ كلُّها بنزاهة يوسف، وبرأته مما نُسب إليه من الهم والبهتان، الذي ألصقه به بعضُ المغفلين.

وأختم الحديث بما قاله الفخر الرازي في التفسير الكبير حيث قال رحمه الله:

أ - إن يوسف قد شهد الله براءته، بقوله جلَّ وعلا ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

ب - وشهد ببراءته الشاهدُ من أقرباء امرأة العزيز، بقوله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا، إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلٍ . . . ﴾ الآية.

ج - وشهد ببراءته النسوة اللاتي قطعن أيديهن، بقوله تعالى: ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ . . . ﴾ الآية.

د - وشهدت ببراءته زوجته العزيز بقولها: ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ، أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لِمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

هـ - وشهد ببراءته الشيطان نفسه، حين قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

ثم قال رحمه الله: فالذي يريد أن يتهم يوسف بالهم في الفاحشة، عليه أن يختار أن يكون من حزب الرحمن، أو من حزب الشيطان، وعلى كلا الوجهين، الجميعُ شهد ببراءة يوسف، فلا مفرَّ إذاً من الإقرار بالحق على أي حال، وهو براءة يوسف عليه السلام من الهمِّ بامرأة العزيز^(١).

* * *

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١١٦/١٨.

مؤامرة داخل القصر على يوسف عليه السلام

وتمضي السورة الكريمة في آياتها البينّات، وهي تطالعنا بصورٍ ومشاهد من قصة يوسف الصديق، فيها ألوانٌ من الأحداث المثيرة، والأخبار العجيبة، التي تسترعي الانتباه، وتشدُّ القارئ إليها شدةً، وها نحن الآن أمام مشهدٍ جديد، من مشاهد المكر والكيد، تدبره امرأة العزيز لهذا الشاب المؤمن العفيف. لقد شاع الخبر في أرجاء المدينة، وأخذت ألسنة النساء تلوّك في امرأة العزيز - كبير الوزراء - استهجاناً لها، ولوماً وعتاباً على صنيعها العجيب، كيف تعشق سيّدة عبدها؟ وكيف تهوى وتحبُّ خادماً لها؟ وهي زوجة العزيز، وسيّدة النساء؟! .

أيليق بامرأة من الطبقة الراقية، من سيّدات القصور، من ذوات العز، والجاه، والسلطان، أن يتعلق قلبها بعبدٍ مملوك، هو أجيرٌ وخادمٌ لها؟ وأن يبلغ حُبُّه في قلبها إلى هذه الدرجة من المهانة، أن تراوده عن نفسه؟ وبلغ ذلك الخبر امرأة العزيز، فأرسلت إلى صديقاتها العاذلات، تريد أن توقعهن معها فيما وقعت فيه، حتى يعذرنها في هذا الحبِّ والغرام.

مكر امرأة العزيز بالنسوة

اتخذت مائدة فيها أنواع الفواكه والطعام، ودعت أربعين امرأة من نساء أشرف مدينتها، فيهن زوجات الكبراء والوزراء، وهيأت لهن مكاناً يجلسن فيه، على الأرائك الوثيرة، والوسائد الناعمة كعادة المترفين، وقدمت إليهنّ طعاماً يحتاج إلى القطع بالسكين، وكانت قد خبأت يوسف في مكانٍ آخر، وفي تلك اللحظة من اشتغالهنّ بالطعام، أمرته أن يخرج عليهن - وكان يخاف من مخالفتها - فخرج عليهن يوسف في بهائه وجماله، ووقاره وزينته، فألهاهنَّ حسنه، وبهرهنَّ جماله، وتشاغلن

به عمًا في أيديهن من السكاكين، فجرحن أيديهن بها، ولم يشعرن في تلك اللذة الغامرة من الاستمتاع بالنظر إليه، بألم جراحة الأصابع، حيث كان الدم يسيل على ثيابهن، وهنّ يحسبن أنهن يقطعن الفاكهة!! .

تصويرٌ رائعٌ في مكر النساء

ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تحدثنا عن تلك المكيدة والمؤامرة - التي دبرتها امرأة العزيز للنساء - في أسلوبٍ رائع، وتصويرٍ جميل، وعبارةٍ تأخذ بالألباب، وإعجازٍ ما بعده من إعجاز، يقول جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ، وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا، وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ، وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ، مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

ولنرجع إلى المعاني والدلالات والإشارات في الآيات البينات، فقولته تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ في الآية استهجانٌ وتقبيحٌ لعملها يقول النسوة إنه عبدٌ وهي امرأة العزيز، أي هي سيِّدة، كبيرة، شريفة، - زوجةٌ كبير الوزراء - فتصريحهن بإضافتها إلى العزيز مبالغَةٌ في التشنيع، والتعبيرُ بلفظ المضارع ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ للدلالة على أن ذلك صار سجيَّةً لها وعادةً، فهي دائماً تخادعه عن نفسه، وتتوسَّل إليه بشتى الوسائل لقضاء وطرها، فالسيِّدة تطلب من خادمها وعبدها أن يواقعها، وتذلُّ كبرياءها بين يديه، وقوله تعالى: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أي خرق حبه شغاف قلبها، والشَّغاف - بالفتح كما يقول أهل اللغة - هو الجلدة الرقيقة المحيطةُ

بالقلب، وهي غلافه.

قال ابن عباس: الشَّغْفُ: الحبُّ القاتل، والشَّغَافُ: حجابُ القلب، فكان حُبُّه أحاط بقلبها، مثل إحاطة الغلاف الرقيق بالقلب، حتى طغى على كل تصرفاتها، فلم تعد تفكّر في غيره.

وقال الزجاج: الشَّغَافُ حُبُّ القلب، وسويداء القلب، والمعنى: أنه وصل حُبُّه إلى سويداء قلبها. وبالجملة فإن هذا التعبير وهو قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ يُوحى بالحبِّ الشديد، والعِشْقِ العظيم، ولهذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

والمعنى: إِنَّا لنعقد أنها في ضلالٍ عن طريق الرشد، واضحٍ ظاهر، لا يخفى على أحد، بسبب حُبِّها إياه، وقد أكّدت الآية بعدة مؤكّدات وهي «إِنَّ» واللَّام، كما وُصف الأمر بالضلال الواضح الجلي، وذلك منتهى التشنيع والتقبيح على ما أقدمت عليه.

يقول النسوة: يا لها من رعونة أن تنزّل السيّدة المالكة، زوجة كبير الوزراء، من أوجِ عليائها وكبرياتها، إلى عبدٍ عبريّ خادم لها في منزلها، وأن تطلب منه أن يواقعها، وتتوسّل إليه بجميع الطرق التي تؤمّن لها رغبتها!!.

هذا خلاصة ما دار من حديث بين النساء، من الطبقة الراقية، زوجات الكبراء والوزراء.

دعوتهنَّ إلى القصر للمكر بهنَّ

وهنا دبّرت لهن امرأة العزيز مكيدة خفيّة، ما كنَّ يشعرن بها ولا يعلمن شيئاً عنها، فجمعتهن عندها في القصر لتفاجئهنَّ به، وفي ذلك

يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ، وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا ﴾ أي فلما سمعت امرأة العزيز بحديثهن وقولهن، وبلغها ما يتحدثن به عنها في غيبتها، من عتبٍ ولومٍ - وَسُمِّيَ هذا الحديثُ «مكرًا» لأنهنَّ كنَّ يتحدثن به بينهن في غيبتها - والغيبةُ إنما تذكر على سبيل الخُفية فأشبهت المكر، فأشبه من هذه الناحية مكر الماكر، الذي يدبُّر لخصمه حيلةً في الخفاء ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا ﴾ أي هيات لكل واحدةٍ منهن ما تتكىء عليه من الفرش والوسائد ﴿ وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ في الكلام شيءٌ محذوفٌ دلَّ عليه السياق، أي قدّمت لهن الطعام، وأنواع الفاكهة التي تحتاج إلى تقشير، ثم أعطت كلَّ واحدةٍ منهنَّ سكينًا لتقطع به ﴿ وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَهُنَّ ﴾ أي وأمرت يوسف بالخروج عليهن وهنَّ مشغولات بتقشير الفاكهة، والسكاكينُ في أيديهن، فلم يشعرن إلا ويوسف يمرُّ من بينهن ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي فلما رأين يوسف أعظمته وأجللنه، وبهتت من جماله الفائق ودُهشن، وجرحن أيديهن بالسكاكين.

لقطات من كتاب الظلال

يقول سيد قطب في تفسيره الظلال: «لقد أقامت لهنَّ مأدبةً في قصرها - وندرك من هذا أنهنَّ كنَّ نساء الطبقة الراقية، فهنَّ اللواتي يدعين إلى المآدب في القصور، وهن اللواتي يُؤخذن بهذه الوسائل الناعمة - ويبدو أنهنَّ كنَّ يأكلن وهنَّ متكئات على الوسائد والنمارق، ويُؤخذ من هذا صورة الترف والحضارة المادية التي كان عليها أهل القصور في مصر، وبينما هنَّ منشغلاتٍ بتقطيع اللحم، أو تقشير الفاكهة، فاجأتهم بيوسف، فلما رأينه بهتت لطلعته ودُهشن، وجرحن

أيديهن بالسكاكين»^(١) ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي تنزه الله عن صفات العجز، فليس هذا الفتى من البشر، وما هو إلا مَلَكٌ من الملائكة، فإنَّ مثلَ هذا الجمال الباهر، ليس من سِمَاتِ البشر إنما هو من أوصاف الملائكة المكرمين. وهنا شعرت امرأة العزيز بأنها انتصرت عليهن، فباحث لهن بسرَّ عشقها له، بعد أن أوقعتهن في شباك غرامه، فقالت قولة المجاهرة المنتصرة، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها، أن تُفْضِي لهنَّ بما في نفسها، دون أي شعور من حياءٍ أو خجل ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ، وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾ أي هذا هو العبد الكنعاني الذي لُمْتُنِّي في محبته، فانظرون ماذا لقيتنَّ منه من الافتتان، والدهشة والإعجاب؟ حتى جرحتنَّ أيديكنَّ بالسكاكين؟ ثم تخبرهنَّ صراحةً بأنها هي التي راودته عن نفسه، وأرادت أن تقضي شهوتها معه، ولكنه امتنع امتناعاً شديداً، وأبى إباءً عنيفاً، وهناك تعلن أمامهنَّ بتبجح وإصرار، أنه إذا لم يستجب لها، ولم يلبَّ طلبها، فستكون عاقبته وخيمة: إمَّا السجن والحبس، أو الإذلال والإهانة، حتى تكسر كبرياءه، وترغمه على مضاجعتها، وحقاً إنه الإعلان والاستهتار أمام النزوات الجنسية التي طغت على عقلها.

النسوة يُبهرن بحسنه وجماله

لقد تركنا يوسف الصديق أمام تلك المحنة الشديدة، محنة تآمر النسوة عليه، بعد أن دبرت لهنَّ امرأة العزيز تلك المكيدة، حيث

(١) في ظلال القرآن ١٢/٢٣٢.

جمعتهن في القصر عندها، وقدمت لهن أنواع الفاكهة مما لذ وطاب، وأمرته أن يخرج إليهن، في تلك اللحظة التي كن يتحدثن فيها، وبأيديهن السكاكين يقشرن بها الفواكه، ويقطعن بها الطعام، وذلك لتدفع عن نفسها لومهن، بعد أن يشاهدن جماله الباهر، ويفتنن به كما فُتنت هي بطلعته، وأن يقع حبه في قلبهن كما وقعت هي في حبه وغرامه، فكان ذلك مكيدةً منها لأولئك النسوة، اللواتي تكلمن عنها باللوم والعتاب!! .

فما أن خرج عليهن يوسف، حتى دُهشن وبُهرن من جماله الصارخ، وقلن ﴿حَاشَا لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ لقد كانت رؤيتهن ليوسف مكيدة دبرتها لهن امرأة العزيز، حتى يكففن عن عدلها، وحتى تنال مبتغاها منه دون عتاب أو لوم من أحد، بعد أن توقعهن في حبه كما وقعت هي فيه ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ، وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ . . ﴾ .

وقفه قصيرة أمام اعتراف امرأة العزيز

ولنقف هنا وقفه قصيرة أمام اعتراف امرأة العزيز في قولها: ﴿وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أليس فيه أعظم البرهان على عفة ونزاهة يوسف عليه السلام، مما نسبه إليه بعض المغفلين من الهم بمقارفة الفاحشة؟ إنها تُقرُّ وتعترف بمنتهى الصراحة، أنها هي التي طلبت منه أن يواقعها، وتوسلت إليه أن يضاجعها، وأنه أبى كل الإباء، وامتنع كل الامتناع عن أن يُلبِّي رغبته، وهذا معنى الاستعصام الذي أشارت إليه بقولها: ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ الذي هو بناء مبالغة مما يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، أمام وجوه الفتنة والإغراء، وكأنها

تقول: أنا التي كنت أراوده ويأبى عليّ، وأطارده ويمتنع مني .

فكيف يرضى عاقلٌ بعد هذا الاعتراف الصريح، أن ينسب إلى يوسف ما هو منه بريء، وأن يطوف في خُلدِه شيء من سوء الظنِّ بعفته ونزاهته عليه السلام؟ إن لفظة «فَاسْتَعَصَمَ» من المرأة نفسها، كافيةٌ في تبرئة ساحته عليه السلام، من ذلك الزور والبهتان الذي نسبه إليه بعض الجاهلين، ممَّن لم يكن لهم رسوخ في علوم اللغة والدين، فدعوى أنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته، وأراد مقارفة الفاحشة معها، دعوى باطلة كاذبة. وبعد أن أعلنت براءته ونزاهته، وأقرت بأنها هي التي راودته عن نفسه، أمام الجمع الغفير من النساء، غالبتها نزوتها الأنثوية، فجهرت أمامهنَّ بمطعمها به، وأنها لا تزال تتطلع إليه لإجابة طلبها، فتندفع في تبجح مكشوف، تتوعد وتهدّد في معرض النساء فتقول: ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ .

امرأة العزيز تهتك جلاب الحياء

لقد عاودته المُرَاوِدَةُ بمحضرٍ منهن، فهتكت جلاب الحياء، ولم تعد تخشى عتاباً ولا ملاماً، فقد شعرت بالانتصار عليهن، بعد أن فتنَّ به بنظرةٍ واحدة، وطغت عليها شهوتها الجامحة، فقالت ما قالت، في إصرارٍ وتبجحٍ جديد، مع الوعيد والتهديد، بعد أن كانت تخفي ذلك ولا تظهره .

ويسمع «يوسف» هذا القول - وهو شاب في ريعان الشباب - في مجتمع النساء المبهورات المفتونات، المبديات لزيتهن ومفاتنهن في مثل هذه المناسبات، ويلمح الأبصار تتجه إليه وكأنها تخاطبه أن أطمع مولاتك، وليكن لنا منك حظٌ ونصيب، فإذا هو يناجي ربه بهذا الدعاء

الخاشع المنيب: ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ، وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

استغاثة يوسف بالله لصرف شهرن عنه

لم تعد محنته مع سيدته امرأة العزيز فحسب، بل طمحت إليه أبصارهن، وتعلقت به قلوبهن، فأصبحت المحنة كبيرة وجسيمة على نفسه، لأنهن كن نساءً فاتنات مفتونات، من عليّة القوم من الطبقة الراقية، ممن عشن على الترف والدلال، فهذا قال في مناجاته ﴿ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴾ ولم يقل «مما تدعوني إليه» فهنّ جميعاً مشتركات في الدعوة، سواءً بالقول، أم بالنظرات والحركات، فإذا به يستنجد بربه أن يصرف عنه كيدهنّ، ومحاولاتهن لإيقاعه في حبائلهن، ويخشى على نفسه من مكرهن، أن يضعف في لحظةٍ من اللحظات، أمام ضروب الفتنة والإغراء، فيدعوره أن ينقذه منهن.

وهنا نلمح البرهان تلو البرهان، على عفته ونزاهته عليه السلام، فلقد آثر السجن على فعل الفاحشة، وفضّل العقاب على اللذة العاجلة ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴾ وذلك من أظهر الدلائل، وأوضح البراهين، على نزاهة ساحته ممّا نسب إليه أهل البهتان! تضرّع إلى ربه لينقذه من تلك المحنة، واستشعر - بطبيعته البشرية - ضعفه أمام تلك المغريات، فهو عبدٌ مملوك لسيدته، ولكنه قبل ذلك عبدٌ لله، وما لم تتداركه عناية الله، ربما ضُعب عن مقاومة كيد النساء، فإن كيدهن عظيم، وتأثيرهن على الرجال جسيم، وكما قال القائل:

يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهَنَّ أضعف خلق الله إنساناً

ولهذا استنجد بربه، وأظهر الذلة والخضوع، استدراكاً للرحمة، وإظهاراً للعجز والضعف بمقتضى الطبيعة البشرية فقال: ﴿وَالْأَلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

والمعنى: إن لم تدفع عني يا رب شرهن، وتعصمني منهن، أمل إلى أجابتهن بدافع بشرיתי، وأصبح حينئذ من السفهاء الذين لا ينزجرون عن فعل القبيح.

وهذا القول منه إنما جاء على سبيل التضرع والدعاء، والاستغاثة بجناب الله تعالى، كعادة الأنبياء والصالحين، وكأنه يقول: أبرأ إليك من الحول والطول، فلا حول ولا قوة إلا بك يا رب العالمين.

وهنا تتدراكه عناية الله وحياطته، فيحفظه ويرعاه، ويصونه من كيدهن، ويكون معه في محنته حتى ينجو منها ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. ولهذا السبب كان جزاء من عفا عن محارم الله من الشباب، أن يظله الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، كما ثبت ذلك في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه عد من السبعة الذين يظلمهم الله قوله: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين»^(١).

ولقد تكرر ذكر الكيد والمكر في هذه السورة مرات عديدة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدُكُمْ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿وَالْأَلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ لينبهنا القرآن إلى خطر فتنة النساء، فهن على ضعفهن أخطر ما يجابهه الرجل من فتنة في هذه الحياة، كما قال

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ (سبعة يظلمهم الله في ظلّه...) إلخ وانظر جامع الأصول ٥٦٤/٩.

سيدنا رسول الله ﷺ «ما تركت بعدي فتنةً أضربَ على الرجال من النساء»^(١) وقال لعائشة لما أمرها أن تكلف أباها أبا بكر أن يصلي بالناس، وذلك في مرضه عليه السلام الذي تُوفي فيه، فراجعته في ذلك مراتٍ وهو يقول لها: مروا أبا بكر فليصل بالناس، ثم قال لها: «إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس» كما في صحيح البخاري، وقد ختمت الآيات الكريمة بما يدل على جانب من هذا المكر الذي اشتهرت به النساء، فبعد كل الدلائل والبراهين التي ظهرت لعزير مصر ببراءة ساحة يوسف، وإدانة امرأته، استطاعت بمكرها وكيدها أن تؤثر على زوجها وعلى حاشيته حتى يحكموا بدخول يوسف السجن ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ ﴿رُوي أن امرأة العزيز لما استعصى عليها يوسف، وأيست أن تنال مبتغاهَا منه، احتالت بطريق آخر، فقالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس، أنني راودته عن نفسه، وأنا لا أقدر على إظهار عذري، فإما أن تأذن لي فأخرج إلى الناس وأعتذر أمامهم، وإما أن تحبسه حتى تنقطع السنة الناس عني، وتسلم على عرضك وشرفك، فعند ذلك تأثر بكلامها فبدأ له سجنه، قال ابن عباس: فأمر به عزيز مصر، فحمل على حمار، وضرب بالطليل، ونودي عليه في الأسواق، إن يوسف العبراني أراد سيِّدته بسوء، فجزاؤه أن يسجن، قال أبو صالح: ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى^(٢).

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي والنسائي، وانظر جامع الأصول ٤/٥٠٤.

(٢) انظر غرائب القرآن ١٢/١٠٤ والتفسير الكبير للرازي ١٨/١٣٢.

إدخال يوسف السجن

أدخل «يوسف الصديق» السجن ظلماً وعدواناً، لا لشيء إلاً نزولاً عند رغبة زوجة العزيز، التي تابعت خطتها الماكرة لإهانة يوسف وإذلاله، ليرضح - تحت تأثير الضغط - لرغبتها، ويلبي غرضها الدنيء في تحقيق مرادها، لاسيما بعد أن توعدت وهددت، أمام زوجات الكبراء والوزراء، بأنها ستُدله وتُهينه، أو تُدخله السجن، إن لم يستجب لنزوتها الطائشة، ويحقق لها ما ربتها فقالت في تبجحٍ واستهتار: ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

وعوضاً من أن يُكرّم يوسف على عفته ونزاهته، وأن تُعاقب زوجة العزيز على خيانتها وجنائيتها، وعلى ما اجترحته يدها من إرادة تلويث سمعة زوجها، وتدنيس فراشه، لو تمّ الأمر لها، واستجاب ذلك الشاب لرغبتها الطائشة، جاء الأمر بالعكس، فقد حُكم على يوسف بالسجن، جزاء عفته وطهارته، فبرّئ المتهم، وأدين البريء، وقُدّم يوسف التقيُّ النقيُّ، فديةً لسمعة تلك المرأة الظالمة التي استهانت بكرامتها، وكرامة زوجها عزيز مصر، وهكذا حال الدنيا يُخون الأمين، ويؤتمن الخائن.

محنة دخوله السجن

صدر الحكم بسجنه، فدخل السجن ومكث فيه سنوات طويلة، تبلغ سبعاً كما قال تباركت أسماؤه: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُ حَتَّىٰ حِينٍ. وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومن هنا تبدأ المحنة الرابعة في حياة يوسف الصديق «محنة

دخوله السجن» والسجنُ للبريء المظلوم تكون على نفسه أشدَّ وأقسى،
فقد دخل السجن على غير جريمةٍ اقترفها، ودخل معه السجن فتیان:

أحدهما: رئيسُ سُقاة الملك.

والثاني: رئيسُ الخبَّازين والطبَّاعين.

وكلاهما من خدم الملك في القصر.

قال المفسرون: كان الفتیان غلامين لملك مصر الأكبر في ذلك
الزمان، أحدهما خبَّازُه صاحب طعامه، والآخر ساقيه صاحب شرابه،
فغضب الملك عليهما فحبسهما، وكان سبب حبس الملك إياهما أنه
توهم أنهما اتفقا على وضع السمِّ له في طعامه وشرابه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وكان يوسف عليه السلام قد
اشتهر في السجن، بالجدود والأمانة، وصدق الحديث، وكثرة العبادة،
ومعرفة التعبير للرؤيا، والإحسان إلى أهل السجن».

التقاء يوسف بساقي الملك وطبَّاعه

ولما دخل هذان الفتیان إلى السجن، التقيا به وأحبَّاه حباً شديداً،
وقالا له: والله لقد أحبيناك حباً زائداً، قال: بارك الله فيكما، إنه ما
أحبُّني أحدٌ إلاَّ دخل عليَّ من محبته أذى، أحبُّتني عمتي فدخل عليَّ
الضرر بسببها، وأحبني أبي فأوذيت بسببه، وأحبُّتني امرأة العزيز
فأدخلت السجن وهكذا، فقالا: والله ما نستطيع إلاَّ ذلك. ثم إنهما رأيا
مناماً، رأى الساقِي أنه يعصر خمراً، يعني عنباً فذلك قوله تعالى: ﴿إني
أراني أعصرُ خَمْراً﴾ قاله الضحَّاك، وقال عكرمة: إني رأيتُ في المنام
أني غرستُ حَبَّةً من عنب، فنبتت فخرجت منها عناقيد، فعصرتهن ثم

سقيتهن الملك، وقال الآخر وهو الخبّاز: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأًا بِتَأْوِيلِهِ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أخبرنا بتأويل هذه الرؤيا إنا نتوسّم فيك الخير، ونرى أنك ممن يحسنون تفسير الرؤيا.

قال ابن كثير: «والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، أنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره، وروي عن ابن مسعود أنه قال: ما رأى صاحباً يوسف شيئاً، إنما كانا تحالماً ليجرّباه ويمتحناه»^(١) اهـ كلام الحافظ ابن كثير.

يوسف يفسّر لهما الرؤيا بعد الدعوة

لم يتعجل يوسف عليه السلام في تفسير رؤياهما، بل أراد أن يثبت لهما صدقه، في معرفته ببعض الأمور الغيبية التي تخفى عليهما، وأراد أن يستفيد وهو في السجن من وقت الفراغ، فيخصّصه للدعوة إلى الله، وذلك شأن الصديقين العارفين بالله، لا يضيعون الوقت فيما لا يجدي، بل تكون همّتهم تبليغ دعوة الله، أينما وجدوا وحيثما حلّوا، لأن لهم رسالة سامية يريدون أداءها، وهذا ما فعله يوسف الصديق في السجن، أراد أن يدعوهم إلى التوحيد والإيمان بالله، وأن يرشدهما إلى الدين القويم، قبل أن يُسعهما إلى ما سألا عنه، كما هي طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد، فقدّم ما يكون معجزةً له من الإخبار بالغيب، ليدلّهما على صدقه في الدعوة والتعبير: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢٤٩/٣.

والمعنى: لا يأتيكما شيء من الطعام، يقدم لكم به أهلكما، إلا أخبرتكما ببيان حقيقته، ونوعه، وكيفيته قبل أن يصل إليكما، وهذا منه عليه السلام يشبه معجزة عيسى حيث قال: ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ فلما سمعا منه ذلك قالا: هذا فعل الكهنة، فمن أين لك هذا العلم؟ فقال: ما أنا بكاهن ﴿ ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ أي هذا من فضل الله عليّ، بسبب طاعتي وإيماني به، ثم زادهما في التوضيح والبيان، حاضاً لهما على الإيمان فقال: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

يوسف في السجن داعية إلى الله

وهكذا شأن الداعية المؤمن، الصادق المخلص، لا يدخر فرصة من الوقت إلا ويستغلها في نفع الآخرين، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعد هذا التوضيح والبيان، أخذ يرشدهم إلى دعوة التوحيد والإيمان، ويدلهم على طريق السعادة والنجاة، وذلك بتوحيد الله ونبذ عبادة الأوثان ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تدرج عليه السلام في دعوتهم، وألزمهم الحجة، فبين لهم أولاً رجحان التوحيد على عبادة الأوثان، ثم برهن لهم أن ما يسمونه آلهة ويعبدونه من دون الله، لا تستحق العبادة والألوهية، لأنها جمادات لا تستجيب ولا تسمع، ولا

تضر ولا تنفع، ثم دعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار، العزيز الجبار، الذي بيده الخلق والأمر، والنفع والضرر، وبعد أن أكمل الدعوة إلى الله بالأسلوب الحكيم، شرع في تفسير رؤيائهما فقال: ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ، قُضِيَ الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ومعنى «يا صاحبي السجن» أي يا صاحبي ورفيقي في السجن، لأنهما دخلا السجن معه، فهو نداء صحبة وإقامة، ثم بين لهما وفصل لهما الرؤيا قائلاً: أما الذي رأى أنه يعصر خمراً، فسيخرج من السجن ويعود إلى عمله، فيسقي الملك خمراً، وأما الذي رأى على رأسه الخبز فيقتل ويلقى على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه، وهكذا كان الأمر كما عبر لهما الرؤيا وكما قال.

وصية يوسف للساقى ونسيانه الوصية

وبعد أن عبر الرؤيا لصاحبيه اللذين كانا معه في السجن، وأخبرهما بما يحصل لهما على سبيل البت والقطع، أوصى الشخص الذي اعتقد نجاته وهو الساقى أوصاه خفية عن الآخر، بأن يذكره عند الملك، وأن يخبره عن قصته بأنه مظلوم في تلك التهمة التي لفتتها له امرأة العزيز، وأكد عليه ألا ينسى أمره عند سيده الملك، وتم قضاء الله فُصلب الطباخ، وأُفرج عن الساقى فخرج من السجن، ولكنه نسي وصية يوسف أن يذكر أمره للملك، فمكث يوسف في السجن سبع سنين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ، فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ، فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بَعْضَ سِنِينَ ﴾ والمراد بالرب في الآية الكريمة ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أي سيدك ملك مصر، ولم يُرد به معنى الإله، وهذا كما نقول: فلان ربُّ الدار، وربُّ الإبل. إنما يراد به الصاحب والمالك، ولا يراد به الربُّ الخالق الرازق.

عتابٌ لطيف ليوسف الصديق في السجن

قال المفسرون: إنما لبث في السجن بضع سنين، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق جلّ وعلا، وتلك غفلة عرضت له عليه السلام، والأولى بالصدّيقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب وعن المخلوقين، وألا يشتغلوا إلا بذكر الخالق مسبب الأسباب، فلهذا صار يوسف عليه السلام مؤاخذاً بهذا القول، وقد روي أن جبريل جاء يوسف وهو في السجن معاتباً له، فقال له: يا يوسف من خلّصك من القتل من أيدي إخوانك؟ قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك ونجّاك من غيابة الجب؟ قال: الله تعالى، قال: فمن عصمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف تركت ربك فلم تسأله ووثقت بمخلوق؟! قال: يا ربّ كلمة زلّت مني، أسألك يا إله إبراهيم، وإله إسحق، وإله الشيخ يعقوب أن ترحمني!! فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين، فذلك قوله تعالى: ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه، فلبث في السجن بضع سنين﴾^(١).

قال وهبٌ: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

الملك يرى في المنام رؤيا عجيبة

بعد تلك السنين العصبية الشديدة، التي مرت على يوسف وهو في السجن، جاءه الفرج والمخرج من الله، فقد رأى ملك مصر - وهو

(١) ذكر هذه الرواية القرطبي في تفسيره جامع الأحكام ١٩٦/٩.

غير العزيز - رؤيا عجيبة غريبة أفزعته، فجمع السحرة والكهنة والمنجمين ليخبرهم بما رأى في منامه، وسألهم عن تأويلها، فأعجزهم الله جميعاً، ليكون ذلك سبباً في خلاص يوسف من السجن ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ، وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابَسَاتٍ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ. قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾.

وتفصيل الرؤيا: أن الملك رأى سبع بقراتٍ سمناً جميلاً، قد خرجت من النهر، وأخذت ترتع في روضةٍ معشبة وفي أثرهن سبع بقراتٍ هزيلة، في غاية الهزال، قبيحة الهيئة والمنظر، قد خرجت من ذلك النهر، فابتلعت العجاف السمان، كما رأى سبع سنابل خضراء حسنة، قد انعقد حبها، وسبع سنابل أخر يابسة قد استحصدت، فالتوت اليبسات على الخضر فأكلتها وابتلعتها فلم تبق لها أثراً.

طلب الملك تفسير الرؤيا

جمع الملك الكهنة ورجال الحاشية وسألهم عن تفسيرها، فلم يعرفوا وقالوا: ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ أي هذه أحلام كاذبة، ومنامات باطلة، قد اختلط فيها الأمر والتبس، ولسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام الغريبة، التي تقرب أن تكون من الخيالات والأوهام.

وعند ذلك تذكّر ساقى الملك - الذي كان قد نجا من السجن - تذكّر قدرة يوسف على تأويل الأحلام، ومعرفته بتفسيرها على وجه الدقة والصواب، فطلب من الملك وحاشيته أن يرسلوه إلى السجن ليأتيه بالخبر اليقين، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ

بَعْدَ أُمَّةٍ، أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿ وَمَعْنَى «أَذْكَرَ» أَي تَذَكَّرَ أَمْرَ يَوْسُفَ وَمَعْرِفَتَهُ بِتَأْوِيلِ الْمَنَامَاتِ، «بَعْدَ أُمَّةٍ» أَي بَعْدَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الزَّمَانِ، وَلَوْلَا هَذِهِ الرَّؤْيَا لَبَقِيَ يَوْسُفُ فِي عَالَمِ النِّسْيَانِ.

وفي الآية الكريمة محذوف دلٌّ عليه السياق، وهذا المحذوف هو: فأرسلوه فذهب إلى يوسف فدخل عليه وهو في السجن، وتلطَّف معه في الحديث والكلام، فقال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ، يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ، وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قدَّم المديح والثناء على الخبر والاستفتاء، فوصف يوسف بالصدِّيق، وهو البليغ الكامل في الصدق والتصديق، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أن من أراد أن يتعلم من رجلٍ شيئاً، أو يستفتيه في أمرٍ يهيمه، فإنه يجب عليه أن يعظمه، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال، ولهذا بدأ حديثه بقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ ثم قصَّ عليه رؤيا الملك، وأعاد اللفظ الذي ذكره الملك بعينه، لأن التعبير يختلف باختلاف العبارات، وكما يقول الناس: «الفتوى على قدر النصِّ» أي ينبغي أن يذكر الأمر كما حدث وكما وقع، حتى يجيبه المفتي بالجواب الشافي الكافي.

شهامة يوسف وتأويله للرؤيا دون شرط

وهنا تظهر شهامة يوسف، وعزته وإبائوه، فما اشترط عليه أن يخرجه الملك من السجن حتى يُعبَّر له الرؤيا، ولا أن يطلق سراحه حتى يجيبه إلى ما طلب، بل انطلق يفسِّر له الرؤيا تفسيراً واقعياً دقيقاً، بما منحه الله من العلم، لأنه شعر بأن البلاد مقبلةٌ على مخاطر، وأنها

سيقع فيها قحطٌ وجذب، ومجاعات قد تودي بحياة الجماعات، وتأتي على الأخضر واليابس، ولهذا سارع يُعبر لهم الرؤيا، ويأمرهم بأخذ الحيلة والحذر ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا ﴾ أي دائبين بجدٍّ وعزيمة ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ، يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي إلا القليل مما تدخرونه وتخبئونه للزراعة ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ، وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴾ أولٌ لهم البقرات السمان والسنبلات الخضمر بسبع سنين مخصبات، وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فهي سبع سنين مجدبات، وقال لهم: إن البلاد ستمر عليها سنوات سبع، فيها الخيرات تجود فيها الأرض بالغلّات الوافرة، ثم يعقبها سبع سنين مجدبة، تأكل الأخضر واليابس، وأن عليهم أن يقتصدوا من سنيّ الرخاء، إلى سنيّ القحط والجذب، وأرشدهم إلى الأصلح في أمور الزراعة فقال: ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ أي فما حصدموه من الزرع فاتركوه في سنبله لئلا يسوس، ثم بشرهم بالبركة والخيرات في العام الثامن فقال: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴾ أي فيه يُمطر الناس ويُغاثون، وفيه يعصرون الأعناب والزيتون لكثرة خصبه، وغزارة خيراته وثمراته.

أمرُ الملكِ بإخراجه من السجن

رجع رسولُ الملك من السجن، وهو يحملُ لهم نبأَ تعبير الرؤيا، بعد أن اجتمع بيوسف الصديق، الذي فسّر لها لهم أبلغ تفسير، وأولها لهم أحسن تأويل، ممّا يدلُّ على شدّة ذكائه، وقوة علمه بتأويل الأحلام، وقد أعجبَ الملكُ بتأويل يوسف غاية الإعجاب، فأمر بإخراجه من السجن، ليجعله من خاصّته المقربين، ويُسلّمه إحدى

وزارات الدولة، ولكن يوسف الصديق أبي أن يخرج من السجن، إلا بعد أن ينكشف أمره، وتزول عنه التهمة بالكُلية، فيخرج ناصع الجبين، طاهر الثياب، وأن يُقرَّ خصومه بنزاهته، وتبراً ساحتها من تلك التهمة الشنيعة، وذلك هو منتهى العزة النفسية، والطهر والعفاف، وفي ذلك يقول ربنا تقدرت أسماؤه: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ ﴾ أي ارجع إلى سيّدك الملك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النُّسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾.

عفة ونزاهة

إنها حقاً العفة والنزاهة، والطهارة والكرامة، التي تحلت بها نفس هذا الشاب العفيف، الذي ربّاه الله وحماه من كيد النسوة، وأهله لمنصب النبوة والرسالة، وقد أثنى عليه رسول الله ﷺ ذلك الثناء العاطر بقوله فيما رواه البخاري ومسلم: «لو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبتُ»^(١) وفي رواية للإمام أحمد: «لو كنتُ أنا لأسرعتُ الإجابة، وما ابتغيتُ العذر» وهذا إنما قاله عليه السلام، إشادةً بصبر يوسف، ورفعاً لقدره، وإظهاراً لفضله، وتواضعاً منه عليه الصلاة والسلام، وإلاً فمقامه ﷺ أعلى وأعظم، وأرفع، ولكنه خلق النبيين، التواضع والاعتراف بالفضل لأهل الفضل، مع التكريم والإجلال.

والأظهر من هذا والأصرح، ما رواه عكرمة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد عجبْتُ من يوسفَ وصبره وكرمه، والله يغفرُ له، حين سُئل عن البقرات العجافِ والسَّمان، ولو كنتُ مكانه ما أجبتهم حتى أشرطُ

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٢٩٥ ومسلم في الإيمان برقم ١٥١ والترمذي في التفسير رقم ٣١١٥ وانظر جامع الأصول في أحاديث الرسول ٢/١٩٤.

أن يُخرجوني، ولقد عجبْتُ من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين أتاه الرسول، ولو كنتُ مكانه لبادرتُهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر، إنه كان حليماً ذا أناة»^(١).

بعض اللطائف في التعبير القرآني

وهذا الذي فعله يوسف من الصبر، وعدم قبوله الخروج من السجن، حتى تُبرأ ساحتُه، هو اللاتقُّ بالعقل والحزم، إذ لو سارع إلى الخروج، ل بقي في النفوس شيءٌ من التهمة، التي حُبس من أجلها، حتى ولو حظي بمكانة رفيعة عند الملك، بسبب تفسيره للرؤيا ذلك التفسير المدهش. وقوله لرسول الملك ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ في هذه الآية بعض اللطائف الدقيقة، التي هي سرٌّ من أسرار جمال القرآن:

اللطيفة الأولى: أنه كلفه أن يستقصي الملك عن قصة النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ولكن يوسف راعى الأدب، فاقصر في كلامه على أن يسأل الرسول الملك عن تلك الواقعة، لثلا يشتمل اللفظ على ما يجري مجرى الأمر للملك، فإن الملوك يأمرون ولا يؤمرون، وهذا الأسلوب الرفيع يهيج الملك على البحث والتفتيش، وهكذا حدث فإنه لما بلغه أن يوسف لم يخرج من السجن، حتى يُطلع الملك وحاشيته على الحقيقة، اهتمَّ بالأمر غاية الاهتمام.

اللطيفة الثانية: أن يوسف الصديق لم يذكر سيّدته بالخيانة، مع أنها هي التي سعت في إلقائه في السجن، بل ذكر النسوة على

(١) الحديث أخرجه عبد الرزاق عن عكرمة، قال ابن كثير: وهو حديث مرسل، وانظر مختصر ابن كثير ٢٥٣/٢ والتفسير الكبير للرازي ١٥١/١٨.

التعميم، ومع ذلك راعى جانبهنَّ أيضاً، فلم يذكرهنَّ بالمرادة، والترغيب بالخيانة، بل وَصَفَهُنَّ بتقطيع الأيدي فقط ﴿ فَاسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّائِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ولم يقل: ما بَالُ النسوة الخائنات الفاجرات، اللواتي رَغَبْنِي ودعوني إلى مطاوعة سيدتي!! وهذا أيضاً من شهامته وعفته عليه السلام، ولهذا كان أبلغ الأثر في نفس امرأة العزيز، والنسوة أنفسهنَّ، فإن المرأة لَمَّا عرفت أنه إنما ترك ذكرها رعايةً لحقها، وتعظيماً لجانبها، وستراً للأمر عليها، أرادت أن تكافئه على هذه الأريحية والشهامه، فأزالت الغطاء والوطاء، واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها، وأن يوسف كان مبرئاً من كل ما نُسب إليه، وكذلك النسوة اعترفن بنزاهته وبراءته عليه السلام.

تحقيقُ الملك مع النسوة

رجع الرسولُ فأخبر الملك، وأعلمه بأن يوسف أبى أن يخرج من السجن، حتى يتحقق للملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، وأن يعرف الجميع أن السجن كان ظلماً وعدواناً، فجمع الملك النسوة، ودعا امرأة العزيز معهنَّ، وحقَّق في الموضوع بنفسه، فلما اجتمعن عنده بحضور الحاشية، والكبراء والوزراء، سألهنَّ عن حقيقة الخبر ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾؟ أي ما شأنكن الخطيرُ البليغُ، حين دعوتنَّ يوسف إلى مقارفة الفاحشة؟.

والخطبُ في اللغة: الأمرُ العظيمُ الخطيرُ، فهو يواجههنَّ مقررًا الاتهام، ومشيرًا إلى أمرٍ لهنَّ جَلَل، وشأنٍ لهنَّ خطير، وفي مثل هذه المواجهة من الملك بالذات، لم يكن هناك مجالٌ للإخفاء أو الإنكار ﴿ قُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أي قالت النسوة: معاذ الله أن

يكون يوسف أراد السوء، وهو تنزيه له وتعجب من نزاهته وعفته ﴿ قَالَتْ
 امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ تقول الآن ظهر الحق وانكشف
 للعيان، وظهر ظهوراً واضحاً وبان ﴿ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنِ نَفْسِي، وَإِنَّهُ لَمِنَ
 الصَّادِقِينَ ﴾ أي أنا التي دعوته إلى نفسي، وهو بريء من الخيانة،
 وصادق فيما يقول، وهذا اعتراف صريح ببراءة يوسف على رءوس
 الأَشْهَاد.

خروجه من السجن بعد البراءة

وهنا يخرج يوسف من السجن، مرفوع الرأس، طاهر الذليل،
 معظَّم الجَنَاب، بعد أن شهد النساء كلهن ببراءته، ويلتقي بالملك
 وبكبير الوزراء - عزيز مصر - وبالحاشية والعظماء والكبراء، ويكبر فيه
 الجميع تلك الشهامة، والعفة، والرجولة، فينطلق لسانه أمام الجمع
 الغفير، معلناً أنه ما عَفَّ عن الحرام، ولا صَمَدَ أمام هذه المغريات،
 إلا لأنه مؤمنٌ يخاف الله، ويخشى عقابه، ولذلك صان عرض سيِّده،
 فلم يخنه في غيبته فيقول: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّ اللَّهَ
 لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ أي إنما رددتُ الرسول، ليعلم الملك أنني لم
 أخن العزيز في زوجته في غيبته، وأن صاحب الخيانة لا بد وأن
 يفتضح.

ونقتبس من موقف يوسف عليه السلام، أنه كان مثال الكمال
 الإنساني الأعلى، للاقتداء به في العفة والنزاهة، وأنه لم يمسه أدنى
 سوء من فتنة النساء، لأن من احتمي واستجار بالله عصمه الله، وأن
 المؤمن مبتلى في هذه الحياة، ولكن العاقبة للمتقين، ولا بدَّ بعد الضيق
 من الفرج، وأن امرأة العزيز التي اشتهرت بسوء القدوة، كان أكبر إثمها

على زوجها، لأنه كان لئن العريكة، وكان جملاً ذلولاً بين يديها، وأنها في خاتمة الأمر أقرت بذنبها في مجلس الملك الرسمي، إيثاراً للحق، وإثباتاً لبراءة يوسف عليه السلام، وصدق الله حيث يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (١).

اختلاف المفسرين في الآيتين الكريمتين

لقد ظهر للجميع براءة يوسف الصديق من تلك التهمة التي أدخل بسببها السجن، وبرئت ساحته أمام ذلك الجمع الحاشد، بمحضر الملك والكبراء والوزراء، من جهة امرأة العزيز وجميع النسوة، فقد اعترفن جميعاً ببراءته وطهارته، وعفته عن مقارفة الفاحشة ﴿وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ والاعتراف والإقرار سيد البراهين، وأعظم الحجج وأقواها في معرفة الحق. وهنا لا بد لنا من وقفة تأمل عند قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ. وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فإن للمفسرين في هاتين الآيتين قولين مشهورين:

القول الأول: إنه من كلام امرأة العزيز، قالت بمحضر من الملك وحاشيته والجمهور، بعد ذلك الإعلان العلني الذي كان منها في قولها: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وبعد هذا الاعتراف أرادت أن تبين أنها إنما كانت تراوده مراودة، ولم يحصل منها مقارفة الفاحشة، ولا خيانة الزوج بالزنى

(١) سورة الحج آية رقم ٣٨.

الفعلي، بل كان مجردَ رغبةٍ وشهوة، لم تتحقق، وحُلماً داعب خيالها، ولهذا أعقبت ذلك الاعتراف بقولها: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ أي تقول: إنما اعترفت بهذا علي نفسي، ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أنني بريئة ومعنى ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ أي لا يوفِّقُ الخائن، ولا يُسدِّدُ خطاه، ثم قالت: ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ تقول امرأة العزيز: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولذلك راودته، والنفس بفطرتها تميل إلى الشهوات، إلا من عصمه الله تعالى. وإلى هذا القول ذهب الحافظ ابن كثير، وبعض المفسرين، فجعلوا الآيتين من كلام المرأة، وحثَّتهم في هذا أن الكلام الذي سبق الآيتين الكريمتين، كان من قولها، فيكون ما بعده من الحديث استكمالاً لما قالته، ويكون ذلك أقرب إلى اتساق الكلام!!.

رأي جمهور المفسرين

القول الثاني: إن الآيتين من كلام يوسف عليه السلام، وليس من كلام امرأة العزيز - وهو قول الأكثرين من المفسرين - وهو الذي رجحه شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله، حتى لم يحك قولاً غيره، وكذلك ابن أبي حاتم ذكر أنه من قول يوسف الصديق ولم يذكر غيره، وهو مروى عن مجاهد، والحسن، وقتادة والسدي.

وعلى هذا القول الذي اختاره الجمهور، يكون معنى الآية الكريمة: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي يقول يوسف - لماً شهد النساء ببراءته، واعترفت امرأة العزيز بأنها هي المخطئة - يقول:

ذلك الأمر الذي فعلته من ردِّ الرسول حتى تظهر براءتي، ليعلم العزيز أنني لم أخنه في زوجته في غيبته، بل تعففتُ عنها ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ أي لا يرشد إلى طريق الهدى، ولا يوفق للحق والسعادة، الخائن الفاجر الذي يعتدي على حرمان الآخرين، فلو كنتُ خائناً لما أظهر الله براءتي، ولا نجاني من هذه المكيدة، بإقرار النسوة، واعتراف امرأة العزيز نفسها!! .

ولمَّا كان في هذا القول ما يشبه التزكية للنفس، والمديح لها، وهو مدموم في نظر العارفين المخلصين، ومنهبيُّ عنه بحكم ربِّ العالمين ﴿ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ أردفه بقوله: ﴿ وَمَا أَكْبَرُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ أي لستُ أركي نفسي ولا أنزهاها عن فعل القبيح، لأن النفس كثيرة النزوع إلى الشر والسوء، وهي تدفع الإنسان إلى مقارفة الشهوات، وفعل ما يُخلُّ بالمروءة، ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ يقول: إلا من رحمه الله بالعصمة، فنجاه بفضلته من الفتنة ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي إنه تعالى واسع المغفرة، عظيم الرحمة، قال ذلك يوسف عليه السلام على وجه التواضع، والاعتراف بفضل الله، وإنعامه عليه، فإنه لولا فضلُه وعصمته، لوقع فيما وقع فيه.

القول الثاني هو الأظهر والأرجح

وهذا القول - وهو أن الآيتين من كلام يوسف - هو الذي تطمئن إليه النفس وترتاح، وهو قول أساطين العلم، وجهابذة المفسرين، ولسنا نميل إلى القول الأول - وإن مال إليه البعض - لسبب بسيط، وهو أن نقول: كيف يصحُّ لامرأة العزيز أن تتبجَّح أمام الحشد الكبير فتقول: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنَهُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾؟

مع أنها قد عزمت على خيانة زوجها في غيبته، فلبست أجمل الثياب، وغلقت الأبواب، وهيأت الفراش، ودعته إلى نفسها علناً فقالت: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ أي أسرع وأقبل ولبّ طلبتي، ثم لما امتنع عن الاستجابة لهواها ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ وأراد الهرب، لحقته فشقت ثوبه من خلفه، ولما رأت زوجها مقبلاً، وهي تلاحق يوسف وتطارده، لتنال منه مأربها، قالت في مكرٍ وخبثٍ ودهاءٍ، متنكرةً من قبيح فعلها ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ، أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أليست هذه المطاردة والملاحقة، وتغليق الأبواب، وإجباره بالقوة والغضب على مضاجعتها، أليست كل هذه الطرق الماكرة التي سلكتها تُعدّ خيانةً لزوجها؟ حتى تتباهى وتفتخر فتقول: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾؟ فما هي الخيانة إذاً في نظرها؟.

إن الله عزّ وجلّ هو الذي نجاه من كيدها، ولولا حفظه وعصمته له لهلك، فالأظهر والأوضح والأرجح ما قاله الجمهور، من أن هذا من قول يوسف الصديق، وليس من كلام امرأة العزيز.

رأي الإمام الطبري شيخ المفسرين

يقول شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره جامع البيان:

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ هذا قول يوسف، يقول يوسف عليه السلام: إن هذا الفعل الذي فعلته، من ردّي رسول الملك، وتركى إجابته، والخروج إليه، ليعلم العزيز أنني لم أخنه في زوجته بالغيب، أي لم أرتكب فاحشة في حال غيبته عني... ثم نقل عن كبار المفسرين من التابعين هذا القول الذي ارتضاه وتبناه، فروى بسنده

عن مجاهد ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهُ بِالْغَيْبِ﴾ يوسفُ يقوله: إني لم أخن سيدي في غيبته، وكذلك روى عن قتادة، وأبي صالح، والسُّدِّي أن هذا من قول يوسف، ودفع ابن جرير قول المعترض: كيف يكون هذا من كلام يوسف، وسياق الكلام أن يكون من مقولة امرأة العزيز؟ فقال رحمه الله: واتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ بقول امرأة العزيز ﴿أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لمعرفة السامعين لمعناه كاتصال قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ في قصة بلقيس بقولها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾. ثم رجح أن الآيتين من كلام يوسف الصديق، وأنه قال ذلك تواضعاً وهضمًا للنفس، وهكذا شأن الأنبياء يعلمون أن كل شيء من الله وبفضله، فلا ينسبون شيئاً من الفضل لأنفسهم.

وهذا الذي رجحه الطبري هو قول ابن عباس روي عنه كما ذكره الكثيرون، ولهذا لم يحك الإمام الطبري غيره.

وقال الفراء: لا يبعد وصلُ كلام إنسانٍ بكلام إنسانٍ آخر، إذا دلت القرينة الصارفة لكلٍ منهما إلى ما يليق به.

رأي العلامة أبي السعود

ونرى العلامة أبا السعود تاج المفسرين، قاضي القضاة، ينحو هذا المنحى الذي ذهب إليه الطبري فيقول في تفسيره المسمى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» ٢٨٦/٤: لَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ وَأَخْبَرَهُ بِكَلَامِهِنَّ قَالَ يُوسُفُ: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي ذلك التثبيت المؤدي إلى ظهور حقيقة الحال، ليعلم العزيز أني لم أخنه في حرمة بظهر الغيب، وهو حال من المفعول أي وهو غائب عني، والمقصودُ كلام نزاهته عن الخيانة، واجتنابه عنها مع تعاضد أسبابها،

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ أي وليعلم أن الله تعالى لا يُنفذ كيد الخائنين ولا يسدده، بل يُزهقه ويُبطله . . وفيه تعريضٌ بامرأته في خيانتها أمانته، وبالعزيز في خيانتها أمانة الله جلّ وعلا، حين ساعدها على حبسه، بعد ما رأوا آيات نزاهته عليه السلام، ويجوز أن يكون كالتأكيد لأمانته، وأنه لو كان خائناً ما هدى الله أمره وأحسن عاقبته ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ﴾ أي لا أنزهها عن السوء، قاله عليه السلام هضماً لنفسه الكريمة، البريئة عن كل سوء، ورَبّاً عن تزكيتها والإعجاب بحالها، كأنه يقول: لا أنزهها عن السوء من حيث هي هي، ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها، إنما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيدُه قوله: ﴿ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي ﴾ . . إلى آخره.

الآيات في تفسير الجلالين

وجاء في تفسير الجلالين ما نصّه: «أخبر يوسف بقول امرأة العزيز فقال: ﴿ ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب ﴾ أي إنه عليه السلام طلب البراءة ليعلم العزيز أنني لم أخنه في أهله بالغيب، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . . ثم تواضع لله فقال: ﴿ وما أبريء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ الآية. وعلّق عليه في الفتوحات الإلهية، المشهور باسم «حاشية الجمل» فقال: هكذا قد جرى الشارح، على أن قوله تعالى: ﴿ ذلك ليعلم . . ﴾ و﴿ ما أبريء نفسي ﴾ من كلام يوسف وعليه أكثر المفسرين، وجرى بعضهم على أنه من كلام زليخا امرأة العزيز»^(١).

(١) انظر حاشية الجمل على الجلالين ٣٩٥/٢.

رأي الإمام الجصاص

ويقول الإمام أحمد بن علي الرازي، صاحب تفسير أحكام القرآن، المشهور بالجصاص ١٧٣/٣: «وإنما لم يجبهم إلى الذهاب إلى الملك، وردَّ الرسول إليه، لتظهر براءة ساحتها، فيكون أجل في صدره، وأقرب إلى قبول ما يدعوه إليه من التوحيد، وقبول ما يشير به عليه، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك: هذا من قول يوسف، يقول إني إنما رددت الرسول إليه في سؤال النسوة، ليعلم العزيز أنني لم أخنه بالغيب.. وإن كان ابتداء الحكاية عن المرأة، فإنه ردُّ الكلام إلى الحكاية عن قول يوسف، لظهور الدلالة على المعنى، وذلك نحو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وقبله الحكاية عن المرأة - ملكة سبأ - ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَةَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً﴾ و﴿وَقَوْلِهِ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ وقبله حكاية قول الملائكة: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ يعني أنها كثيرة النزاع إلى السوء، فلا يُبرئ نفسه وإن كان لا يطاوعها.. إلى آخره.

وقال الزمخشري: أراد يوسف أن يتواضع لله ويهضم نفسه، فقال: ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي﴾ لثلاث يكون لها مزكياً، وبحالها معجباً ومفتخراً».

رأي الإمام الشوكاني

وقال الإمام الشوكاني في تفسيره المسمى «فتح القدير في علم التفسير» ما نصه ٤٣/٣:

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكْ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف عليه السلام، والإشارة «ذلك» إشارة إلى الحادثة الواقعة منه وهي تثبته وتأنيبه، أي فعلت ذلك ليعلم العزيز أنني لم أخنه في أهله بالغيب أي بظهر الغيب، وذهب الأقلون من المفسرين إلى أن هذا من كلام امرأة العزيز، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ﴾ إن كان من كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس، وعدم التزكية لها، مع أنه قد علم هو وغيره من الناس أنه بريء، وظهر ذلك ظهور الشمس . . إلى آخره.

هذه نبذة عن أقوال أساطين العلماء، وجهابذة المفسرين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل^(١).

العزُّ والسلطان نتيجة الصبر والحرمان

بيناً فيما سلف أن يوسف عليه السلام، كان مثلاً يُحتذى للشباب المؤمن العفيف، فقد مرَّ بمحنٍ شديدة، وكانت حياته عليه السلام حياة عصبية، فقد تنقل بين عُسْرٍ ويُسْرٍ، وشدةٍ ورخاءٍ، وضيقٍ وسعةٍ، ثم كانت نتيجة هذه المحن والمصائب الفادحة، أن وسَّع الله عليه، وأكرمه بالعز والسلطان، فخرج من السجن إلى الوزارة، ومَلَكَه الله خزائن بلاد مصر، حتى كان الناس يأتون إليه من كل قطرٍ وبلدٍ، ليحصلوا على الميرة، في سنيِّ القحط والجذب، وقد كانت محنته سبباً لتلك المنَّة العظيمة، حيث تربَّع على كرسيِّ الوزارة - وزارة الاقتصاد الوطني - وكم

(١) انظر ما كتبناه في مجلة منار الإسلام العدد الخامس لسنة ١٤٠٥ هـ تحت عنوان «ردودٌ على أوهام» وذلك في ردي على مقال الدكتور سعد ظلام الذي خبط في مقالته خبط عشواء، فصوب الخطأ وخطأ الصواب.

من محنة في طياتها منة، والله في خلقه شئون، يُعزُّ ويُدلُّ، ويُغني ويُفقر، ويرفع ويخفض، ويبيده الخير، وإليه المصير.

يوسف الصديق يتولى الوزارة

انتهى دور البلاء من حياة يوسف الصديق، وجاء دور الرخاء، وانقضى العسر وجاء اليسر، فكل ما بعد هذه المرحلة من حياته عليه السلام، إنما هو نعمة ورخاء، وعزٌّ ورفعةٌ قدر، وبذلك يُسدل الستار على ماضي الآلام والشدائد في حياة يوسف الصديق، وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ. قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ. وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، نُنِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾.

طلب الملك من حاشيته أن يأتوه بيوسف الصديق، ليجعله من خاصته وأهل مشورته، وليسلمه إحدى وزارات الدولة، بعد أن ظهرت له براءته، وعرف عفته وشهامته، وأراد أن يجعله بمكانة المستشار لديه في إدارة شئون الدولة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴾ أي أجعله من خاصتي وخلصائي ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي فلما كلمه يوسف، ورأى الملك حصافة عقله وحسن كلامه، قال له: إنك اليوم عندنا رفيع المرتبة، عالي المنزلة، مؤتمنٌ على كل شيء في هذه المملكة.

كان عمر يوسف في ذلك الوقت ثلاثين سنة على ما ذكره المفسرون، وكانت تلوح عليه ملامح الفطنة والذكاء، فلذلك أعجب به

الملك فأجله وأكرمه وعظمه، ثم بعد أن قرَّبه وأدناه استشاره فيمن يُسند إليه الإشراف، في تلك الفترة التي ستمرُّ بها البلاد، وفي تلك الأزمة الاقتصادية الخانقة التي سيواجهها الناس، فأشار عليه يوسف أن يولِّيه الشؤون المالية والاقتصادية، أعني أن يسلمه «وزارة الزراعة والاقتصاد الوطني» كما نسميها في زماننا ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أي قال يوسف للملك: ولِّني على خزائن أرض مصر، فأني أمين على ما استودعتني، عليم بتصريف الأمور، وتدبير الشؤون، ولي خبرة فيما تعهد إليَّ من تصريف مصالح الناس.

كيف يطلب يوسف الولاية ويزكي نفسه؟

وقد يقول قائل: كيف مدح يوسف نفسه وزكَّاه؟ وكيف طلب الوزارة من الملك؟.

والجواب عن هذا كما يقول الإمام الطبري: أن ذلك ليس من باب التزكية للنفس، وإنما إعلام بأن عنده المعرفة التامة، والخبرة الكافية، في إدارة الشؤون المالية والاقتصادية، وإنما سأله ذلك ليتصرف بتدبير شؤون الناس على الوجه الأحوط، والأصلح، والأرشد، الذي ينقذ الأمة من براثن الجوع، في تلك الفترة العصيبة التي ستمرُّ بها البلاد.

ويقول سيد قطب في كتابه الظلال «ولم يكن يوسف يطلب لشخصه - وهو يرى إقبال الملك عليه - فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض، إنما كان حصيماً في اختيار اللحظة التي يُستجاب له فيها، لينهض بالواجب المرهق الثقيل، ذي التبعة الضخمة، في أشد أوقات الأزمة، وليكون مسئولاً عن إطعام شعب كامل، وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات، لا زرع فيها ولا ضرع، فليس هذا غنماً يطلبه

يوسف لنفسه، فإن التكفل بإطعام شعب جائع، سبع سنواتٍ متوالية، لا يقول أحدٌ إنه غنيمة، إنما هي تبعَةٌ يهرب منها الرجال، لأنها قد تكلفهم رءوسَهُمْ، والجوعُ كافر، وقد تَمَزَّقُ الجماهيرُ الجائعةُ أجسادَهُم في لحظاتِ الكفرِ والجنون.

والأزمةُ القادمة، وسنواتُ الرخاءِ التي تسبقها، في حاجةٍ إلى الحفظ، والصيانة، والقدرة على إدارة الأمور بالدقة، وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها، وفي حاجةٍ إلى الخِبرة وحسن التصرف، والعلم بكافة فروعهِ الضرورية لتلك المهمة، في سنوات الخِصب، وفي سنيَّ الجذب على السواء، ومن ثمَّ ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه هذه المهمة، التي يرى أنه أقدر عليها، وأن وراءها خيراً كبيراً لشعب مصر، وللشعوب المجاورة ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

وقال الإمام الجصاص: «وهذا الملك لما كان من أهل العقل والدراية، لم يرعه من يوسف منظره الرائع البهيج، كما راع النساء لقلّة عقولهنّ، وضعف أحلامهنّ، وأنهن إنما نظرن إلى ظاهر حسنه وجماله، دون علمه وعقله، وأن الملك لم يعبأ بذلك، ولكنه لما كلّمه ووقف على كماله ببيانه وعلمه ﴿ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ فقال يوسف: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ فوصف يوسف نفسه بالعلم والحفظ، وفي هذا دلالة على أنه جائر للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وأنه ليس من المحظور في تركية النفس في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٢).

(١) في ظلال القرآن ١٣/٢٠٠٥.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/١٧٤.

وروى بعضهم أن الملك لما سمع كلامه، نزع خاتمه من يده وجعله في أصبع يوسف، وقال لمن حوله: هذا عزيز مصر، فاسمعوا له وأطيعوا، فكان له العزُّ والسلطان والتمكين في الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ، يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، نُنْصِبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ وهكذا صار يوسف الوزير المتوج، والسيد المطاع في مملكة مصر، وأبدله الله من العسر يسراً، ومن الضيق فرجاً، ومن الخوف أمناً، ومن الهوان العزَّ والسلطان!!.

تدبيرٌ حكيمٌ لشئون البلاد

نهض يوسف عليه السلام بأعباء الدولة، وقام بإدارة شئون البلاد خير قيام، وأشرف على زراعة الأرض، فكثرت الخيرات والبركات، وجاءت سنوات الرخاء، فأينعت الثمرات، وأعطت الأرض خيراتها، وافيةً زاهيةً، فجمع الناس أنواع الحبوب، وبنوا البيوت والمخازن، لحفظها وحمايتها، وأمر يوسف - بعد أن تولَّى إدارة شئون البلاد - بأن تخزن الحبوب بسنابلها، حتى لقد ملأ الديار بالخزائن، الزاخرة بالأرزاق والغلات، وتولَّى بنفسه حفظ اقتصاد البلاد، لأنه يعلم علم اليقين، أنها ستمر على الناس سنون عجاف، حسب الرؤيا التي رآها الملك، وأولها له يوسف بنور العلم الإلهي الذي علَّمه الله آياه.

وقد طوت الآيات الكريمة، ذكر تلك الفترة التي مرت على البلاد، بما كان فيها طوال سنوات الخصب والرخاء، فلم تذكر كيف كان الخصب، ولا كيف زرع الناس؟ ولم تذكر كيف أدار يوسف جهاز الدولة، ولا كيف نظَّم ودبَّر وأدخِر؟ لأن هذه الأمور ملحوظة في رؤيا

الملك العجيبة وتأويلها، فلا حاجة إلى ذكرها وتكرارها، وكذلك لم تذكر مقدم سنوات الجذب، وكيف تلقاها الناس، وكيف ضاعت الأرزاق، وحلَّ البلاء العام على أرض مصر، وما جاورها من البلدان، وإنما ذكرت مشهداً من مشاهد أثر القحط والجذب، أبرزه السياق في مشهد إخوة يوسف، يجيئون من البدو، من بلاد بعيدة نائية، يقصدون أرض مصر يبحثون عن الطعام، ولنستمع إلى الآيات البيئات، وهي تتحدث عن هذا اللقاء، بعد طول فراق، حيث عرفهم يوسف ولكنهم لم يعرفوه، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ، وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾.

حضور إخوة يوسف لمصر طلباً للميرة

أما أنه عرفهم فلأنهم لم يتغيروا كثيراً، فقد كانوا حين رموه في الجبِّ كباراً، والكبير لا تتغير ملامحه إلا يسيراً، أما هو فقد كان صغيراً، ولم يكن في خيالهم إلا أن يوسف قد هلك، ثم هم الآن يدخلون عليه وهو في أبهة الملك، وعزة السلطان، على رأسه التاج المرصع باللآلئ والدرر، على عادة الملوك والسلاطين، وحوله الخدم والحرس ورجال التشريفات، وهو متربع على العرش، فلهذا لم يعرفوه مطلقاً، لا سيما أنه قد مضى على فراقهم له، بعد أن ألقوه في الجب ما يزيد على عشرين عاماً، ولذلك ورد التعبير بقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ وحيء بها بالجملة الإسمية للإشارة إلى أنهم ما عرفوه بالكلية، بل ما خطر على بالهم أن يكون هو يوسف، لهيئة المُلْك، وبعد العهد. رُوي أنهم لما دخلوا عليه تجاهلهم، وقال لهم كالمُنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا جئنا للميرة، قال: لعلكم عيونٌ - أي

جواسيس - علينا؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله شيخ صدِّيق، قال: وله أبناء غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر ولداً، فذهب أصغرنا وهلك في البرية وكان أحبنا إليه، قال: أنتم الآن عشرة، فأين أخوكم الآخر؟ قالوا: هو عند أبيه احتبسه عنده ليتسلَّى به عن يوسف، فأمر بإضافتهم وإكرامهم، وأنزلهم في جوار قصره مع غاية الحفاوة والتكريم، ولم يكشف لهم عن نفسه.

حفاوة بالغة يلقاها إخوة يوسف

ثم تمضي الآيات وهي تتحدث أن يوسف بعد تلك الحفاوة البالغة، أمر الجند المكلفين بأن يملأوا لكل واحدٍ من إخوته العشرة، حمل بغير من الطعام، وأن يردُّوا إليهم ثمن تلك الميرة فيجعلوه في رحالهم، حتى يعودوا إليه مرَّة ثانية - ويظهر أن ذلك الثمن كان بضاعةً من جلودٍ ونعالٍ وملابسٍ مما يستخدم في التبادل بالأسواق - وذلك لأنهم إذا رجعوا ثم رأوها، لا بد أن يعودوا، لأن دينهم يحملهم على ردِّ الثمن، لأنهم مطهرون عن أكل الحرام، فيكون ذلك أدمى لهم إلى العود إليه، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ، وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ. فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ. قَالُوا سَنُؤَادُ عَنهُ أَبِيهِ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ. وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

طلبه إحضار أخيهم الصغير

ملأ لهم يوسف رواحلهم من الطعام، بعد أن أكرمهم غاية الإكرام، فلما جهَّزهم بحاجات الرحلة، طلب منهم أن يأتوه بأخيهم الصغير معهم

في المرة الثانية، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ ولما جهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾ ونفهم من إشارة هذا النص أنه تركهم يأنسون به، واستدرجهم حتى ذكروا له أن لهم أخاً أصغر، ليس أخاً شقيقاً لهم بل هو أخ لهم من أبيهم اسمه «بنيامين»، لم يحضر معهم لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه، فلهذا طلب منهم أن يأتوه بهذا الأخ الصغير ليراه، وليزيد في إكرامهم ووفادتهم، وبأسلوبه اللطيف الحكيم جمع لهم بين الترغيب والترهيب فقال: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ . فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي قد رأيتم أنني أوفي الكيل للمشتريين!! فسأوفيكم نصيبكم حين يجيء معكم، ورأيتم أنني أكرم الضيوف والنزلاء، فلا خوف عليه بل سيلقى مني الإكرام المعهود. رَغَّبَهُمْ ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ وَهَدَّدَهُمْ فَقَالَ: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي فإن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة، ولا تقربوا بلادي مرة ثانية!! .

ما فعله يوسف كان بتدبير من الله وتقدير

ويظهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام، كان بوحى من الله تعالى، وإلا فمقتضى البر أن يُبادر إلى أبيه ويستدعيه بعد تلك الغيبة الطويلة، ولكن الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته، ولتتفسر الرؤيا الأولى ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي قالوا سنخدع أباه ونحتال في انتزاعه من يده، ونجتهد في طلبه منه، وإنا لفاعلون ذلك، والتعبير يوحى بأن الأمر ليس ميسوراً، إنما في طريقه عقبات، ولهذا قالوا: «سنراود عنه أباه» لأنهم يعلمون أن يعقوب لن يدفعه لهم بسهولة، بعد أن ذاق مرارة فقد ابنه الأول «يوسف» ولذلك سيبدلون جهداً كبيراً لجلبه معهم .

عودتهم إلى أوطانهم وإخبارهم لأبيهم بما جرى

وتمضي الآيات الكريمة تحدثنا عما جرى بعد عودتهم إلى أوطانهم، فقد تعجلوا أباهم فأخبروه - قبل أن يفتحوا متاعهم - بالإندار الذي سبق من عزيز مصر لهم، بأن الكيل قد مُنِعَ عنهم ما لم يأتوه بأخيهم الصغير معهم، فهم يطلبون إليه أن يرسل معهم أخاهم ليكتالوا له ولهم، وهم يعدونه موعداً مؤكداً بحفظه ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

والمعنى: لقد أُنذَرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأتِ بأخيِنا بنيامين، فإن ملك مصر ظن أننا جواسيس، وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا. . ولا بد أن هذا الطلب قد أثار مشاعر يعقوب، وخشي أن يكون ذلك منهم مكيدة لولده الثاني، فإذا به يجهر بما يختلج في صدره من خوف وقلق ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أي كيف آمنكم على أخيكم بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، بعد أن ضمنت لي حفظه ثم ختمت العهد؟ فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه، فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله وحمايته، وهو تعالى أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يمنَّ عليَّ بحفظه، ولا يجمع عليَّ مصيبتين.

إخوة يوسف يتجادلون مع أبيهم يعقوب

لقد تركنا إخوة يوسف مع أبيهم يعقوب يتناظرون ويتجادلون، يطلبون أن يرسل معهم أخاهم بنيامين، وهو يخشى عليه من مكرهم وكيدهم، أن يفعلوا به كما فعلوا بأخيه يوسف من قبل، وكان «بنيامين» وأخوه «يوسف» أخوين شقيقين، بينما بقية أبنائه إخوة له من الأب،

فلذلك كان يخشى عليه منهم، ولما استقرَّ بهم المقام بعد الوصول إلى أوطانهم، فتحوا ركبهم فإذا بالبضاعة التي دفعوها ثمناً للطعام موجودة في رحالهم، فدهشوا لهذا الكرم والإحسان الذي لاقوه من عزيز مصر، ولهذا انطلقوا يرجون أباهم أن يرسل معهم أخاهم بنيامين، لينالوا من الخير والإنعام مثل ما نالوا أول مرة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ، قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي، هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا، وَنَمِيرُ أَهْلَنَا، وَنَحْفَظُ أَخَانَا، وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ، ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾

تلفظهم مع أبيهم ليرسل معهم بنيامين

ومرادهم أن يسترضوا أباهم بهذا الكلام، يقولون له: إنا قد قدمنا على رجلٍ في غاية الكرم، أنزلنا وأضافنا وأكرمنا كرامةً لو كان رجلاً من آل يعقوب ما فعل ذلك، فأبيّ شيءٍ نبغي فوق هذا الإكرام؟ أعطانا الطعام ثم ردَّ علينا ثمن هذا الطعام على أحسن الوجوه، فهل هناك مزيد فوق هذا الإحسان؟ فإذا أرسلته معنا نقدم لك بالميرة، ونزداد باصطحابنا له حمل بعير زائداً على استحقاقنا، ونحفظ أخانا ممَّا نحفظ منه أنفسنا!! ثم قالوا بعد ذلك: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي ذلك كيل يسير على هذا الرجل المحسن، لسخائه وحرصه على البذل. ويبدو من قولهم: «وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل واحدٍ حمل بعير، ولم يكن يبيع كل قادم ما يريد من الطعام، وكان ذلك من الحكمة في سنوات الجذب، كي يظل هناك قوت للجميع، ولا ينفد ما عنده سريعاً.

شَرَطَ يَعْقُوبُ عَلَى أَبْنَائِهِ إِعْطَاءَهُمُ لِلْعَهْدِ

استسلم يعقوب عليه السلام على كرهٍ، بعد إلحاحهم الشديد، ولكنه جعل لتسليم ابنه شرطاً، هو أن يعطوه عهداً، ويُقسموا له قسماً مؤكداً بالأيمان المغلظة، أن يردُّوا عليه ولده، وأن يصونوه ويحفظوه: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ، لَتَأْتِنَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

ومعنى الموثق: العهد الشديد المؤكد باليمين، الذي تأكد بإشهاد الله عليه، وبسبب القسم، كأنه يقول: حتى تعطوني عهداً موثقاً بشهادة الله على أنكم ستردونه عليّ، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ استثناء من العهد أي إلا أن تغلبوا جميعاً فلا تقدرّون على تخليصه، ولا يبقى لكم طريقة أو حيلة إلى ذلك قاله قتادة، وقال مجاهد: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي إلا أن تموتوا جميعكم فيكون ذلك عذراً عندي، وأصله أن من أحاط به العدو فقد هلك، لأنه قد انسدت عليه مسالك النجاة، فقبل لكل من هلك: قد أحيط به، كقوله تعالى: ﴿جَاءَهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾^(١) أي أيقنوا أنهم قد هلكوا. ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي فلما حلفوا له وأعطوه العهد المؤكد، على حفظ أخيهم ورعايته، قال لهم: الله شهيد وراقب على ما نقول.

كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله

قال ابن كثير: وإنما فعل ذلك، لأنه لم يجد بُدّاً أن يبعثه معهم، من أجل الميرة التي لا غنى لهم عنها. وقبل أن يودّعهم أوصاهم بهذه

(١) سورة يونس آية رقم ٢٢.

الوصية: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أي قال لهم يعقوب: يا أبنائي لا تدخلوا مصر من باب واحد، وادخلوها من أبواب متعددة، قال ابن عباس والسدي: خشي عليهم من العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال، وهيئة حسنة، ومنظرٍ وبهاءٍ، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حقٌ تدخل الرجل القبر، والجملَ القدر، كما ثبت في الحديث الصحيح: «العين حقٌ، ولو كان شيءٌ يسبقُ القَدَرَ لسبقته العين»^(١) وقد كان ﷺ يعوذُ الحسن والحسين بهذه الدعوات فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطانٍ وهامة، ومن كل عينٍ لامة»، وكان يقول: «هكذا كان إبراهيمُ يُعوذُ إسماعيل وإسحاق عليهم السلام»^(٢) ومعنى العين اللامة: هي العين التي تصيب بسوء.

تذكيرهم بأن كل شيء بتقدير الله

ثم بعد أن وصاهم نبههم إلى أنه لا يحدث لهم إلا ما قدره الله، ولا يغني حذر عن قدر، وإذا نزل القدر عمي البصر فقال: ﴿ وما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي لست أدفع عنكم بتدبيرٍ شيئاً مما قضاه الله ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أي ليس الحكم إلا لله عز وجل وحده، لا يشاركه فيه أحد، والمراد بالحكم هنا «الحكم القدري» أي ما قضاه الله وقدره على عباده، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ عليه توكلت

(١) الحديث أخرجه مسلم في الطب رقم ٢١٨٨ والترمذي في باب ما جاء أن العين حقٌ، برقم ٢٠٦٣ ولم يذكر لفظ «العين حقٌ» وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٥٨٣/٧.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ١٧٩/٤ وأحمد في المسند ٢٧٠/١ ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

وعليه فليتوكل المتوكلون ﴿ أي على الله وحده اعتمدت، وبه وثقت،
وعليه فليعتمد أهل اليقين والإيمان، فإنه هو وحده الضار النافع .

تنفيذ الأبناء وصية أبيهم يعقوب

تلك هي وصية يعقوب لأبنائه، وهي وصية التوحيد والإيمان،
والاعتماد على الرحمن جلّ وعلا، وسار الركب، ونفذوا وصية أبيهم،
فدخلوا مصرَ من أبواب متفرقة، وهنا يذكر القرآن الكريم الحقيقة ناصئةً
بينت جلية، وهي أن دخولهم متفرقين، ما كان ليدفع عنهم من قضاء الله
وقدره شيئاً، وأن الحذر لا يدفع القدر، ولكنه الأخذ بالأسباب، يعلمه
النبي الكريم الصالح يعقوب لأبنائه، ليأخذوا الحيطة والحذر لأنفسهم
في هذه الحياة، ويعتمدوا على الله مسبب الأسباب، فيقول تقدست
أسمائه: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ
مِنْ شَيْءٍ، إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا
عَلَّمَاهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهكذا صدق القرآن ما قاله
يعقوب عليه السلام في وصيته لأبنائه حين قال: ﴿ وما أغني عنكم من
الله من شيءٍ ﴾ فقال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا
كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ثم أثنى عليه بأنه كان على جانب
عظيم، من الفهم والعلم القويم فقال: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾
أي وإن يعقوب لذو علمٍ واسع بسبب ما أكرمناه به من الوحي، فقد
علم بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴾، اللهم افتح علينا فتوح العارفين، ووقفنا لفهم أسرار كتابك
يا رب العالمين.

عودة إخوة يوسف لمصر للمرة الثانية

ها هم إخوة يوسف يعودون للمرة الثانية من بلاد كنعان، من عند أبيهم يعقوب، وقد اصطحبوا معهم أحاهم الصغير «بنيامين» الأخ الشقيق ليوسف، نزولاً عند رغبة عزيز مصر، وهم لا يدرون عن أمره شيئاً، إلا أنه العزيز، صاحب العز والجاه والسلطان، المتصرف في تدبير شئون البلاد، الذي له الحكم النافذ في أمور الإعاشة والاقتصاد والقضاء. ويطوي السياق هنا أبناء هذه الرحلة الطويلة، وما جرى فيها لإخوة يوسف من مفاجآت وأخبار، في مكابدتهم لعناء السفر، ويضعنا وجهاً لوجه أمام هذه المقابلة الملكية، فهؤلاء هم إخوته يدخلون عليه، وقد أحضروا معهم أحاهم بنيامين، ويلتقي بهم عزيز مصر ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ، قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبَشِّرْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

التقاء يوسف بأخيه الشقيق بنيامين

هنا في هذا الموقف يلتقي الأخ بأخيه الشقيق، بعد طول فراق وبعاد، بعد أن فرَّق بينهما الزمان بسبب الكيد والحسد، وتلتقي النظرات، وتحتبس في العيون العبرات، فما أن يلتقي يوسف بأخيه الشقيق بنيامين، حتى يضمّه إليه ضمّ المحب لحبيبه، ويكاد من فرط الشوق يقول هذا أخي، وهذا هو السرُّ في التعبير القرآني المبدع، حيث يحكي هذا اللقاء، بأسلوبٍ يوحى بعدم وجود مقدمات ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ مع أن المفهوم الطبيعي أن هذا لم يحدث إلا بعد أن اختلى يوسف بأخيه، فكشف له عن الحقيقة، وأخبره أنه أخوه يوسف، الذي زعم إخوته أن الذئب قد افترسه.

قال المفسرون: لَمَّا دخل إخوة يوسف عليه، أكرمهم وأحسن ضيافتهم، ثم أنزل كل اثنين في بيت، وبقي «بنيامين» وحيداً، فقال: هذا لا ثاني له، فاتركوه عندي وانصرفوا إلى منازلكم، فلما خلا به سأله من هؤلاء؟ قال: هؤلاء إخوتي من أبي، قال: أليس لك إخوة غيرهم؟ قال: بلى، لي أخ شقيق اسمه يوسف، هلك في قديم الزمن، قال: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: ومن يجد أخاً مثلك؟ ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه يعانقه، وعرفه بنفسه عند ذلك ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

التعارف بين يوسف وبنيامين

وَرُوي أنه لما انفرد به في تلك الليلة، بات يوسف يضمُّه إليه وَيَسْمُهُ حتى أصبح، وبعد ذلك أطلعه على شأنه، وعرفه أنه أخوه، فذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ . ومعنى قوله تعالى: ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أي أنزله في الموضع الذي كان يأوي إليه، وهذا يدل دلالة واضحة، على أنه اختلى بأخيه بنيامين، ولم يخبره أنه يوسف إلا في غيبة عن إخوته، لأنه يريد أن يدبر حيلةً لإبقاء أخيه عنده، ثم قال له: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا تحزن ولا تأسف على ما صنعوا بي، وعلى ما فرقوا بيننا.

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى عن إخوة يوسف، لَمَّا قدموا على يوسف ومعهم أخوه الشقيق «بنيامين» أدخلهم دار كرامته، ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والألطف والإحسان، واختلى بأخيه، فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: «لَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» أي لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره

بكتمان ذلك عنهم، وألاً يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال لبيقيه عنده معزراً، مكرماً، معظماً^(١) ويطوي السياق كذلك فترة الضيافة، التي أقامها إخوة يوسف في القصر معززين مكرمين، وما لاقوه من حفاوةٍ بالغة من العزيز ومن أهل مصر، وما دار بين يوسف وإخوته، ليعرض مشهد الرحيل الأخير.

الحيلة التي دبرها يوسف للاحتفاظ بأخيه

أما الحيلة التي دبرها يوسف فهي وضع الصاع ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾، ثم أذن مؤذناً أيتها العير إنكم لسارقون. قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون. قالوا نفقد صواع الملك، ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم. قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴿. أمر يوسف غلمانه أن يملأوا لهم أوعيتهم بالحبوب، وأسرع في تجهيزهم هذه المرة وذلك لينفرد بأخيه الشقيق من غير رقيب، بعد تلك الحيلة التي دبرها لإبقائه، ولهذا جاء التعبير هنا ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ ﴾ معطوفاً بالفاء التي تدل على التعقيب، أي فلما قضى حاجتهم، وحمل إبلهم بالطعام والميرة، وأعجل جهازهم وأحسنه ﴿ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ أي أمر يوسف بأن تجعل السقاية - وهي صاع من ذهب مرصع بالجواهر خاص بالعزيز - في متاع أخيه بنيامين، وكان قد اتفق معه على هذه الحيلة ﴿ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أي أمر منادياً أن ينادي القافلة، وينادي أصحابها قائلاً: يا أيها الركب المسافرون ويا أصحاب الإبل، إنكم قوم سراق، أكرمناكم وتسرقون؟ ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾؟.

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢٥٦/٢ المختصر.

اتهمهم بسرقة صواع الملك

ارتاع إخوة يوسف لهذا النبأ الخطير، الذي نزل عليهم كالصاعقة، فهم جماعة شرفاء أمناء أولاد الأنبياء، فكيف يتهمونهم بالسرقة؟ ولهذا وقفوا يستفسرون عن الخبر، والتفتوا إليهم يسألونهم ماذا فقدتم، وماذا أضعتم؟ وفي قولهم: «مَاذَا تَفْقِدُونَ؟» بدل: ماذا سرقنا؟ تنبيه لهم على مراعاة حسن الأدب، وعدم التسرع بنسبة البريئين إلى تهمة السرقة، ولهذا التزموا الأدب فيما بعد معهم ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ أي لقد ضاع منا وفقدنا مكيال الملك المرصع بالجواهر الثمينة، والصُّوعُ هو المكيال، يسمى صُوعاً، ويسمى سقاية وهو خاص بالعزير، ولهذا قالوا: «صواع الملك» وزيادة في إحكام الخطة رغبهم المنادي وأخبرهم بأن هناك مكافأة لمن يحضره متطوعاً، وهي مكافأة ثمينة في مثل هذه الظروف، فقال: ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي لمن يرده إلينا حملٌ بغير من القمح مجاناً كجائزة له، وأنا ضامنٌ وكفيلٌ له بذلك.

هكذا أحكم يوسف الخطة، بتدبير تلك الحيلة لإبقاء أخيه بنيامين عنده، ليتم أمر الله في لقاء الأسرة، واجتماع الشمل بعد ذلك الفراق الطويل.

تهمة فظيعة لإخوة يوسف

تركنا إخوة يوسف يجابهون تلك التهمة الفظيعة الشنيعة، تهمة سرقة صاع الملك، فهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فكيف يُتهمون بمثل هذه التهمة التي لا تليق إلا بأحد الفساق؟ ولذلك قطعوا وجزموا بأنهم مبرعون من هذا العمل القبيح، وأقسموا لهم بالله مؤكدين كلامهم بأنواع المؤكدات، بأنهم أناس أمناء، ما جاءوا ليفسدوا في

الأرض، وليس من عادتهم السرقة، لأنهم أبناء نبي كريم ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ، وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أي لقد علمتم من حالنا ومظهرنا أننا ما جئنا لنفسد في أرضكم، ولسنا ممن يوصف بالسرقة قط، فما يقع منا مثل هذا الفعل الشنيع؟ قال البيضاوي: استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم، لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم، كردّهم البضاعة التي جعلت في رحالهم، والسارق لا يفعل ذلك أبداً، وككّم أفواه الدواب لئلا تطعم زرعاً أو طعاماً لأحد!.

الحيلة التي فعلها يوسف كانت بوحى إلهي

وهنا ينكشف طرف التدبير الإلهي، الذي ألهمه الله ليوسف عليه السلام، فلقد كان المتبع في شريعة يعقوب، أن يؤخذ السارق بسرقة، فيُسْتَرَقُّ بجرم السرقة، أي يصبح عبداً رقيقاً للمسروق منه، وكان حكم مَلِكٍ مصر أن يُضرب السارق، وَيُغْرَمَ ضِعْفِيَّ قِيمَةِ الْمَسْرُوقِ، ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق، ذلك ليتم تدبيرُ الله ليوسف وأخيه ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ؟ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي قال لهم الفتيان والغلمان: ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في دعوى البراءة؟ قال إخوة يوسف: عقوبته في شريعتنا أن يُسْتَرَقُّ بسرقة لمدة سنة فيصبح عبداً مملوكاً لمن سرق منه، قال ابن عباس: كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقة، وكان استعباد السارق في شرعهم يجري مجرى قطع اليد في شرعنا^(١).

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨ / ١٨٠.

عقوبة السرقة في شريعة يعقوب

وقوله تعالى: ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أي هو نفسه جزاؤه بمعنى أن الإنسان السارق يصبح هو نفسه مسترقاً جزاء ما سرق، وهذا زيادة منهم في البيان كقولك: حقُّ الضيف أن يُكرم فهذا هو حقُّه، ثم قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الوافي يعامل السارق الظالم، ولقد قالوا ذلك ثقةً بكمال براءتهم، وهم عما فعل بهم غافلون.

دبر يوسف لإخوته هذه المكيدة من حيث لا يشعرون، جزاءً وفاقاً لما دبّروا له من الكيد والمكر، حين انتزعوه من يد أبيه وألقوه في الجب، وشتان بين الكيدين، فهذا كيدٌ للخير والمصلحة، يريد أن يُبقي أخاه ليجتمع شمل الأسرة، ويكرمهم في القصر غاية الإكرام، وذاك كيدٌ كان غايته الهلاك والدمار.

تفتيش الأوعية وإخراج الصاع من رحل بنيامين

وإحكاماً للخطة، وتنفيذاً للحيلة على أكمل الوجوه، فقد أمر يوسف بتفتيش أوعيتهم قبل أن يفتح متاع أخيه بنيامين، حتى يظهر الموضوع وكأنه أمرٌ عادي، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ، كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

قال المفسرون: هذا من تمام الحيلة، ودفع التهمة، فإنهم لما حلفوا اليمين، وادعوا البراءة من السرقة متحدثين، قال لهم الغلمان: لا

بَدَّ مِنْ تَفْتِيشِ أَوْعِيَتِكُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، فَانْطَلَقُوا بِهِمْ إِلَى يَوْسُفَ، فَبَدَأَ بِتَفْتِيشِ أَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ «بَنِيَامِينَ» قَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ كَانَ لَا يَفْتَحُ مَتَاعًا، وَلَا يَنْظُرُ وَعَاءً إِلَّا اسْتَغْفَرَ اللَّهَ مِمَّا قَذَفَهُمْ بِهِ، وَانْتَهَى مِنْ تَفْتِيشِ الْعَشْرَةِ، حَتَّى بَقِيَ أَخُوهُ بَنِيَامِينَ - وَكَانَ أَصْغَرَ الْقَوْمِ - فَقَالَ: مَا أَظُنُّ هَذَا أَخَذَ شَيْئًا، فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَا نَتْرَكَ حَتَّى تَنْظُرَ فِي رَحْلِهِ، فَإِنَّهُ أَطِيبُ لِنَفْسِكَ وَلِأَنْفُسِنَا، فَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُ وَجَدُوا الصُّوَاعَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وَعَاءِ آخِيهِ ﴾ .

المفاجأة الغريبة التي لحقت إخوة يوسف

ويدعنا السياق نتصور مبلغ الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب، فقد كانوا موقنين جازمين بأنهم بريئون من هذه التهمة الشنيعة، ولهذا حلفوا بالله جازمين ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ فلما خرج الصُّوَاعُ في رحل أخيه بنيامين، نكسوا رؤوسهم حياءً وخجلًا، وأقبلوا على أخيهم يلومونه ويهينونه، ويقولون له: ما الذي صنعت؟ فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل!! - و«راحيل» هو اسم أمه وأم يوسف أيضاً، ينسبونه إليها ذمًا وتقبيحاً - يقول تعالى: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف، وألهمناه الحيلة، ليستبقي أخاه عندهم ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أي ما كان يستطيع يوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر، إلا بمشيئته تعالى وإذنه، فلو حكّم شريعة الملك ما تمكّن من أخذ أخيه، إنما كان يعاقب السارق على سرقة، بأن يضرب ويُغرّم ضعف ما سرق، دون أن يستولي على أخيه، كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم الذي يطبقونه هم، وهذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف أسبابه، وهو كيدُ الله له بعلم وإحكام.

معنى الكيد المنسوب إلى الله عز وجل

وقد يقول قائل: إن لفظ الكيد مشعرٌ بالحيلة والخديعة، فكيف يليق بالعليم الحكيم أن يقول: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾؟.

والجواب: أن الكيد يُطلق على التدبير في الخفاء، وقد يكون للخير أو للشر، فالكيد من الخلق الحيلة والمكر وهو قبيح، والكيد من الله هو التدبير بالحق، لدفع السوء والمكروه وهو خير كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾^(١) فالكيد من الكفار هو السعي لإطفاء نور الله، والكيد من الله هو التلطف والإمهال، فيظنون أنهم على حق وعلى هدى، وأنهم لو كانوا على ضلال لعاقبهم الله، وهذا هو الاستدراج.

قال الفخر الرازي في التفسير الكبير: إن الاستهزاء، والكيد، والمكر والسخرية، في حق الله لا يليق، وقد ذكرنا قانوناً معتبراً في هذا الباب، وهو أن أمثال هذه الألفاظ، تُحمل على نهايات الأغراض لا على بدايات الأغراض، وقررنا هذا الأصل عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ فالكيد: السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إلقاء الإنسان من حيث لا يشعر في أمرٍ مكروه، ولا سبيل له إلى دفعه، فهنا أراد إخوة يوسف - بطريق الحسد - أن يهينوه ويبتلوا أمره، وأراد الله نصره وإعزازه وإعلاء أمره، ولهذا قال: ﴿نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ وقد ألهمه الله هذه الحيلة، ليتمكن يوسف عليه السلام من إمساك أخيه عنده بمقتضى حكمهم ولهذا ختمها تعالى بقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي فوق كل عالم من هو أعلم منه

(١) سورة الطارق آية رقم ١٥.

حتى ينتهي الأمر إلى علّام الغيوب، قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوّه عالم حتى ينتهي إلى الله عزّ وجلّ، فكان كيدهم ليوسف نهايته أن رفعه الله عليهم، وحكمهم عليه بالاسترقاق صار سبباً لتمكّن يوسف من إمساك أخيه، فسمي هذا مكرّاً وكيداً بسبب النتيجة، لحصول الأمر على خلاف ما يريدون^(١).

اتهمهم ليوسف وأخيه بالسرقة

ولما عُثر على الصّاع في رَحْلِ بنيامين، بُهِتَ إخوة يوسف وسُقط في أيديهم، وأخذتهم الحيرة والدهشة من هذا الصنيع، وقالوا: هذا أمرٌ عجيب، إن «راحيل» ولدت ولدَيْنِ لَصَيْنِ، - يعنون يوسف وبنيامين - ثم قالوا لأخيه بنيامين: يا بني راحيل ما أكثر البلاء علينا منكم؟ فقال بنيامين: بل ما أكثر البلاء علينا منكم، ذهبتم بأخي وضيعتموه في المفازة، ثم تقولون لي هذا الكلام؟ قالوا: فكيف خرج الصّواع من رحلك؟ قال: وضعه في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم.

وهنا حرّك الحسد كوامن حقدهم، على يوسف وأخيه، فإذا هم يتنصلون من السرقة ويرمون بها يوسف وأخاه ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ، قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾.

كأنهم يقولون: إن هذا الأمر ليس بغريبٍ منه، فإن أخاه الذي هَلَكَ كان أيضاً سارقاً، - يعنون به يوسف، وهم لا يعلمون أنه هو العزيز الذي يخاطبونه الآن - ومرادهم من هذا الكلام أن يقولوا: إننا لسنا على

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨٢/١٨ باختصار.

طريقته، ولا على سيرته، وهو وأخوه السابق مختصان بهذه الطريقة، لأنهما من أمٍّ أخرى غير أمنا، وأولادُ يعقوب منزّهون عن أمثال هذه القبائح.

لماذا رموا يوسف بالسرقة؟

ويُعَلَّل بعض المفسرين تهمتهم ليوسف بالسرقة بأقوالٍ ذُكرت في كتب التفسير، منها أنه كان يأخذ من بيت أبيه الطعام ويعطيه للفقراء، فعُدُّوا هذا سرقة، ومنها أنه أخذ في صباه صنماً لبعض أقارب أمه، كان يُعبد من دون الله، فكسره وألقاه بين الجيف، إلى آخر ذلك.

ولا حاجة إلى هذه الأقوال حتى نثبت صدق قولهم، بل هو محضُ الكذب والبهتان على يوسف، فليست هذه أول مرة يكذبون بها في كلامهم، حتى نبرئهم من الكذب، فإن الذين رموا أخاهم في الجب، ثم جاءوا أباهم عشاءً يبكون، ومعهم قميص يوسف قد لطحوه بالدم، ثم قالوا لأبيهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ لا يتورعون عن الكذب أمام عزيز مصر، ليصنوا ماء وجوههم، بعد تلك الحادثة المخجلة، التي ألحقت بهم الذل والعار، لخروج الصاع بين رحالهم، فلا حاجة إلى التعلل لهم، والاعتذار ببيان نوع السرقة!! إنهم كذبوا عليه وبهتوه، كما كذبوا على أبيهم أول مرة بقولهم: «أكله الذئب» وكانت قلوبهم لا تزال تحمل الحقد والحسد على يوسف، مهما طالت المدة ومهما بَعُد الزمان، فما أن وجدوا الفرصة مؤاتية للطعن فيه، حتى انهالت ألسنتهم بالطعن والتجريح.

قلب الحاسد لا يخلص من الحقد والغلّ

وهذه الواقعة تدلُّ على أن قلب الحاسد، لا يَطْهَرُ عن الغلِّ البتَّة، لقد قذفوا بالسرقه يوسف وأخاه، إرواءً لحقدهم القديم فقالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي إن كان بنيامين قد سرق، فهذه عادة متأصلة في أبناء راحيل، فقد سرق أخوه الشقيق يوسف من قبل، فلا عجب أن يشبه الأخ أخاه، يواجهونه بمثل هذا الزور والبهتان، وهم لا يعلمون أنه هو يوسف الصديق، وهنا يكظم يوسف غيظه، ويخفي ألمه من كذبهم وافتراءهم ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّنْهَا لَهُمْ﴾ أي أسرَّ هذه المقالة في نفسه وكتمها، ولم يُظهرها لإخوته حلماً منه، وتلطفاً معهم، وقال خفية عن إخوته ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ يعني أنكم بهذا القذف، شرٌّ منزلة عند الله من المقدوف، حيث سرقتم أحاكم من أبيكم، ثم طفقتم تفترون على البريء، ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي والله أعلم بحقيقة ما تقولون، وأراد بذلك قطع الجدل في الاتهام الذي أطلقوه، وكأنه لا دخل له بالموضوع.

تلطف واسترحام للعزیز

شعر الإخوة بأنهم قد ضيعوا أخاهم بحكم قولهم للملك ﴿جزاؤه مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي جزاء من سرق أن يُسرق، وعادوا إلى الموقف المحرج الذي سيواجهونه، إذا رجعوا إلى أبيهم وليس معهم بنيامين، بماذا سيتعللون له وماذا يقولون؟ وكيف سيصدقهم بعد هذه المرة؟ عادوا بمخيلتهم إلى الموثق الذي أخذه عليهم أبوه ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ فراحوا يتلطفون ويسترحمون، باسم

والد الفتى الشيخ الكبير، ويعرضون على العزيز أن يأخذ واحداً منهم بدله، إن لم يكن سيطلقه رحمةً بأبيه، وأخذوا يستعينون في رجائهم، بتذكير العزيز بإحسانه وفضله وبره، لعله يرقُّ قلبه ويلين ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي أتمم إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان!! ولكن يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درساً بليغاً، ليطلعهم على خطئهم الجسيم، وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التي يُعدُّها لهم ولوالده وللجميع، ليكون وقعها أعمق، وأشد تأثيراً في النفوس، يريد أن يمضي بهم إلى آخر الطريق، ليريهم فضله، وعلمه، وحلمه ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ، إِنَّا إِذَا لَطَالُمُونَ ﴾ أي قال يوسف: نعوذ بالله من أن نأخذ أحداً بجرم غيره، إنا إن فعلنا ذلك نكون ظالمين!! .

من لطائف بدائع القرآن في التعبير

لم يقل: معاذ الله أن نأخذ بريئاً بجريرة سارق، فقد كان دقيقاً في تعبيره، لأنه يعلم أن أخاه ليس بسارق، فعبر أدق تعبير حكاه عنه القرآن، احترازاً عن الكذب، ولهذا قال: ﴿ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ بدل «إلا من سرق» وهذا من بدائع لطائف القرآن، أن يحكي اللفظ مبرأً عن الكذب، حتى في قصصه وأخباره، وهو أدب من آداب الإسلام ينبها القرآن عليه.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ .

والمعنى: لما يئسوا من إجابة طلبهم يأساً تاماً، وعرفوا ألا جدوى من الاستعطاف والرجاء، اعتزلوا جانباً عن الناس يتناجون ويتشاورون ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ

قَبْلَ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴿١﴾ أي يقول لهم أخوهم الكبير «شمعون» وقيل: هو «يهوذا»: ألا تذكرون العهد الوثيق الذي قطعتموه على أنفسكم أمام أبيكم بردٌ أخيكم؟ ومن قبل هذا ألا تذكرون تفريطكم في أمر يوسف؟ فكيف ترجعون إلى أبيكم الآن، وقد أضعتم عليه ولديه يوسف وبنيامين؟ وماذا تقولون له في هذه المرة؟ وكأنه يحركهم إلى البحث عن مخرج، ثم أبدى لهم رأيه فقال: ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي، أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٢﴾ أي لن أفارق أرض مصر، حتى يسمح لي أبي بالخروج منها، أو يحكم لي بخلاص أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٣﴾ أي هو تعالى أعدل الحاكمين، لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل.

التعبير القرآني المعجز

ولنمعن النظر في هذا التعبير الإلهي، المعجز ببيانه وروعة إيجازه ﴿فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ ﴿٤﴾ فقد صوّرت الآية اجتماعهم وتشاورهم وما دار بينهم من أحاديث بهذه الألفاظ اليسيرة، وقد ذكر القاضي عياض في كتابه «الشفاء»^(١) أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام، وذلك أن الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس، وانفرادهم من غيرهم، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث، فتضمنت تلك الآية القصيرة، معاني هذه الأخبار الطويلة.

(١) انظر كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض ١/١٦٩.

تساورهم في مجابهة الموقف الخطير

اجتمع الإخوة يتشاورون، كيف يمكنهم أن يجابهوا الموقف الخطير، وأصرَّ الأخ الكبير على ألا يفارق أرض مصر، حتى ينكشف الأمر، فيأمره أبوه بالعودة، أو يكشف الله عنهم الغمّة، ونصح إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم يعقوب، فيخبروه بالأمر على جليته، ويقصُّوا له القصة كما حدثت وكما رأوها دون زيادة أو نقصان ﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ، وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ. وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا، وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ يقول لهم أخوهم الكبير: ارجعوا أنتم إلى أبيكم، فأخبروه بحقيقة ما جرى، وقولوا له: إن ابنك «بنيامين» سرق، ولسنا نتهمه اتهاماً أو نزميه جزافاً، إنما نشهد عليه بما رأينا وتيقنا، فقد رأينا الصاع في رحله، وقولهم ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ أي ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك العهد، ولو كنا نعلم ما ذهبنا به إلى الملك، فنحن غير عارفين بما يأتي به الغيب؟ ونصحهم فقال لهم: قولوا له: إن كنت شاكاً في أمرنا، فاسأل أهل القرية التي كنا فيها - وهي عاصمة مصر - والقرية في اللغة العربية: هي المدينة الكبيرة، وليسأل القافلة التي كنا فيها، فهم لم يكونوا وحدهم، حين وقعت هذه الواقعة، بل رآها الناس وشاهدوها، فالقوافل كثيرة كانت تقصد مصر لتمتار وتأخذ الطعام، في تلك السنين العجاف، وهذا معنى قولهم ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا، وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أي صادقون فيما أخبرناك عنه، من أن ابنك سرق وأخذوه بسرقة.

يعقوب أمام النبا المفجع

وتمضي الآيات تتحدث لنا عن بقية القصة، ويطوي السياق الطريق بهم، وما دار بينهم من أحاديث، حتى يقف بنا أمام أبيهم المفجوع، في مشهد حزين بعد أن بلغوه بالنبأ الفظيع، فلا نسمع إلا رده القصير السريع، شجياً، وجيماً، ولكن وراءه أملاً كبيراً، لم ينقطع عن الله عز وجل مهما عظمت المصائب، وكثرت النوائب، فأمله بالله عظيم وكبير أن يرد عليه ولديه، بل أولاده الثلاثة بما فيهم كبيرهم، الذي أقسم ألا يبرح أرض مصر، حتى يحكم الله له، أو يأمره أبوه بالرجوع. وإنه لأمل عجيب، في ذلك القلب المجروح الوجيع ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبِرْ جَمِلاً، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

لم يصدّقهم في هذا الأمر، بل اتهمهم بالتأمر على «بنيامين» وظن أنها كفعلتهم بيوسف، فلهذا قال ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ أي حسنت وزينت لكم أنفسكم مكيدة، فدبرتموها له، ثم استسلم لقضاء الله وحكمه فقال ﴿ فَصَبِرْ جَمِلاً ﴾ أي لا أجد سوى الصبر محتسباً لأجري عند الله، وهذه العبارة، هي نفسها التي قالها حينما فقد يوسف، ولكنه هناك قال ﴿ فَصَبِرْ جَمِلاً وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ وهنا قال ﴿ فَصَبِرْ جَمِلاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ ذلك لأن إيمانه بالله، يجعله يعتقد بأن المصيبة كلما عظمت وكبرت، كلما آذن الله بالفرج، ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ ولذلك ما انقطع أمله بالله، أن يرد إليه كامل أولاده، ولكن الجرح ينكت الجرح، والمصيبة تذكر بالمصيبة، ولهذا ذكرته هذه الفاجعة، بمصيبته القديمة في يوسف، فتنحى جانباً عنهم، وخلاً بنفسه وحيداً فريداً، يتفطر قلبه حزناً، ويسكب الدموع

مدراراً على ولده يوسف، ويكاد يبكي الدم بدل الدموع، واشتد به الحزن والكمَدُ، وذكره المصابُّ الجديد بالمصاب القديم، حتى فقد بصره، وعمي من شدة الحزن والكرب ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفًا عَلَيَّ يُوسُفَ، وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي أعرض عن أولاده، وقال: يا أسفي وحسرتي وحزني على يوسف ﴿ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أي فقد بصره، أو عشي^(١) فلم يعد يبصر إلا خيالاً، فإن الدموع إذا كثرت ذهب بسواد العين، وقوله تعالى ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي فهو كثيب حزين، يكظم غيظه، ويتجرع حزنه وألمه.

أقوال المفسرين حول الآية

قال أبو السعود: «وإنما تأسف على يوسف، مع أن الحادث مصيبته في أخويه، لأن ذكر يوسف كان آخذاً بجامع قلبه، لا يكاد ينساه، ولأنه كان واثقاً من حياتهما، طامعاً في إياهما، وأما يوسف فلم يكن في شأنه، ما يحرك سلسلة رجائه ولقائه، سوى رحمة الله وفضله»^(٢).

وقال الإمام الفخر الرازي: «وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف، عند هذه الواقعة، لأن الحزن الجديد، يقوي الحزن القديم الكامن، والمصيبة إذا وقعت على المصيبة كانت أوجع، كما قال الشاعر:

وَقَدْ لَأْمَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ رَفِيقِي لَتَذْرَأِ الدُّمُوعِ السَّوَابِكِ

(١) يُقال: عشي البصرُ ضَعْفٌ حتى كاد لا يرى من شدة البكاء، كأن غشاوة صارت عليه، قال الشاعر: عشيْتُ عيني من طول البكاء، قال المفسرون: إن يعقوب فقد بصره من شدة حزنه على يوسف، وبقي لا يبصر ست سنوات، حتى كشف الله عنه الضر بقميص يوسف، واستدلوا بقوله تعالى ﴿ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾.
(٢) تفسير أبي السعود ٨٨/٣.

فَقَالَ: أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ لِقَبْرِ نَوَى بَيْنَ اللَّوَى وَالِدَكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الْأَسَى يَبْعَثُ الْأَسَى فَدَعْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

قال: والوجه الثاني أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه،
التي عليها ترتبت سائر الرزايا والمصائب، وهو كان يعلم أن هؤلاء في
الحياة في أرض مصر، وأما يوسف فما كان يعلم عن حاله شيئاً، أهوحيٌّ
أو ميتٌ؟ فلهذه الأسباب، عَظُمَ وَجْدُهُ على مفارقتة، وقويت مصيبته
بسبب الجهل بحاله»^(١).

إشفاق أبنائه عليه من الهلاك

ولمَّا رأى أبنائه ما حلَّ بأبيهم من الحزن والألم، رَقُوا له وأشفقوا
عليه، وقالوا له على سبيل الرفق والشفقة ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ
حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي لا تزال تذكر يوسف،
وتتفجع عليه بالحزن والبكاء، حتى تصير إلى مرضٍ، لا تنتفع بنفسك
معه، وتشرفُ على الهلاك، أو تموتُ وتهلك أسيَّ وحسرة، كأنهم
يقولون: إن استمرت بك هذه الحال، خشينا عليك الهلاك والتلف.
رُوي أنه ما جفَّت عينا يعقوب، من يوم فراق يوسف، إلى حين لقائه،
أربعين سنة وما على وجه الأرض أكرمُ على الله عزَّ وجلَّ من يعقوب،
وذكر في بعض الآثار أن النبي ﷺ سأل جبريل عليه السلام، ما بلغ من
وَجْدِ يعقوب على يوسف؟ - أي من حزنه عليه - قال وَجْدُ سبعين ثكلى
- وهي التي لها ولد ثم يموت - قال: فهل له فيها أجر؟ قال: نعم أجر
مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله ساعةً قط»^(٢) قال المفسرون: وفيه دليلٌ

(١) التفسير الكبير للرازي ١٨/١٩٣.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ٤/٣٠٢.

على جواز التأسف والبكاء، فإن الكفَّ عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف، فإنه قلَّ مَنْ يملك نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم، وقال: «إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقولُ إلا ما يرضي الله، وإنَّا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١) وإنما الذي لا يجوز ما يفعله الجهلة، من الصياح، والنياحة، ولطم الخدود، وشقَّ الجيوب، وتمزيق الثياب.

ولمَّا لامه أبنؤه على حزنه وألمه على يوسف، قال لهم قولة المؤمن الوثاق بفرج الله ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي لست أشكو مصابي إليكم، ولكنني أشكو ذلك إلى الله، وأعلم من رحمته، ولطفه، وإحسانه ما لا تعلمون أنتم، ثم وجههم إلى البحث عن يوسف وأخيه، وأمرهم ألا يدخل إلى نفوسهم يأس، ولا قنوط، في العثور عليهما، فإن رحمة الله واسعة، وفرجه قريب منظور ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ، وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ورَوْحُ الله يراد به الفرج الذي يأتي بعد الكربة، واليسر الذي يأتي بعد الشدة.

دخول أبناء يعقوب مصر للمرة الثالثة

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة، وقد أضرت بهم المجاعة، ونفدت منهم النقود، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم، يشترون بها الزاد والطعام، يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يُعهد في أحاديثهم من قبل، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام،

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه وهذا طرف منه.

فقد أصابهم الفقرُ، والحاجةُ، وكثرةُ العيال، وقلةُ الطعام، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ، فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

وَصَفَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ أَنفُسَهُم بِالْعِجْزِ، وَرَقَّةَ الْحَالِ، وَقَلَّةَ الْمَالِ، وَشِدَّةَ الْحَاجَةِ، وَذَلِكَ مِمَّا يَرِقُّ الْقَلْبَ، وَيَحْرِّكُ الشَّفَقَةَ، وَيُوجِبُ الْحَنَانَ، وَلَمَّا كَلِمُوهُ بِهَذَا الْكَلَامِ، أَدْرَكَتْهُ الرَّقَّةُ عَلَى إِخْوَتِهِ، وَتَرَقَّرَتْ الدَّمُوعُ فِي عَيْنَيْهِ، وَبَاحَ لَهُم بِالَّذِي كَانَ يَكْتُمُ، فَأَخْبَرَهُم بِالْحَقِيقَةِ جَلِيَّةً نَاصِعَةً .

إخبار يوسف لإخوته بالحقيقة

قال سيد قطب رحمه الله في الظلال: «وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحدِّ من الاسترحام، والضيق والانكسار، لا تبقى في نفس يوسف قدرةً على الماضيِّ في تمثيل دور العزيز، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته، فقد انتهت الدروس، وحان وقتُ المفاجأة الكبرى، التي لا تخطر على بال، فإذا هو يترفق بالإفشاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي البعيد، الذي يعرفونه وحدهم، ولم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ إلاَّ الله ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ؟ .

ورنَّ في آذانهم صوتٌ لعلهم يذكرون شيئاً من نبراته، ولاحت لهم ملامحُ وجهه، لعلهم لم يلتفتوا إليها من قبل، وهم يرونه في سَمْتِ عزيز مصر وأبته وصفاته، والتمع في نفوسهم خاطرٌ من بعيد ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ ؟ أي أئنك لأنت؟ أنت بنفسك يوسف؟ فالآن تُدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير، في ذلك الرجل الكبير .

﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

المفاجأة العجيبة

مفاجأة عجيبة يعلنها لهم يوسف، ويذكّرهم في إجمال بما فعلوه في يوسف وأخيه في فترة الجهالة، ولا يزيد سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه، معللاً هذه المنّة بالتقوى والصبر وعدل الله في الجزاء، أمّا هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف، ويجلّلهم الخزي والخجل وهم يواجهونه محسناً إليهم وقد أساءوا، حليماً بهم وقد جهلوا، كريماً معهم وقد وقفوا منه موقفاً غير كريم^(١) اهـ. وقوله: «أنا يوسف» صرّح بالاسم تعظيماً لما جرى له من ظلم إخوته، كأنه قال: أنا الذي ظلمتوني على أشنع الوجوه، وأسأت إليّ غاية الإساءة، والله تعالى أوصلني إلى أعظم المناصب، أنا ذلك الأخ الذي قصدتم قتله، وإلقاء في البئر، ثم صرّ كما ترون العزيز المبجلّ؟ ولهذا قال: ﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾ مع أنهم كانوا يعرفونه، لأن مقصوده أن يقول: وهذا أخي الشقيق، كان أيضاً مظلوماً معكم كما كنتُ، ثم إنه صار منعماً عليه من الله تعالى كما ترون؟ ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي منّ علينا بالاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والخلاص من البلاء، ثم علّل ذلك الفضل والإنعام بقوله: ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي إنه من يتقى الله بالاستقامة على أمر دينه، ويصبر على البلياء والمحن، فإن الله يجازيه خيراً الجزاء، ويكرمه غاية الإكرام لإيمانه وإحسانه.

(١) انظر كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٧٠.

اعتراف إخوته بالخطأ وطلبهم المغفرة

ولمَّا ذكر لإخوته أَنَّ الله تعالى مَنْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَى قَدْرِهِ، لِأَنَّهُ أَحْسَن فِي عَمَلِهِ، وَاتَّقَى رَبَّهُ، وَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا قَبِيحًا يَسْتَوْجِبُ الذَّمَّ، صَدَّقُوهُ فِي هَذَا الْكَلَامِ، وَاعْتَرَفُوا لَهُ بِالْفَضْلِ وَالْمَزِيَّةِ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وَهَذَا مِنْهُمْ اعْتِرَافٌ بِالْخَطِيئَةِ، وَإِقْرَارٌ بِالذَّنْبِ، وَإِشَادَةٌ بِمَآثِرِهِ وَفَضَائِلِهِ.

وَالْمَعْنَى: لَقَدْ فَضَّلَكَ اللهُ عَلَيْنَا بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ، وَالْعَقْلِ وَالْفَضْلِ، وَالْمَكَارِمِ وَالْأَخْلَاقِ، ثُمَّ قَالُوا: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أَي وَحَالِنَا وَشَأْنِنَا أَنَّا كُنَّا مَذْنِبِينَ بِصَنِيعِنَا الَّذِي صَنَعْنَا بِكَ، وَلِذَلِكَ أَعَزَّكَ اللهُ وَأَذَلَّنَا، وَأَكْرَمَكَ وَأَهَانَنَا، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: فَرَقُ بَيْنِ الْخَاطِئِ وَالْمَخْطِئِ، فَالْخَاطِئُ الَّذِي يَأْتِي بِالذَّنْبِ عَمْدًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ وَالْمَخْطِئُ هُوَ الَّذِي لَا يَتَعَمَّدُ الذَّنْبَ، وَيُرِيدُ الصَّوَابَ فَيَقَعُ فِي الْخَطَا، وَلِهَذَا يُقَالُ لِمَنْ يَجْتَهِدُ فِي الْأَحْكَامِ فَلَا يَصِيبُ: إِنَّهُ مَخْطِئٌ.

موقف نبيل من يوسف نحو إخوته

ولمَّا اعترفوا بفضله عليهم، وأقرُّوا له بالسيادة وعلوَّ الشأن، واعترفوا بأنهم كانوا مذبذبين خاطئين، لم يكثر معهم العتاب والجدال، ولم يؤاخذهم على سوء الفعال، وإنما طوى ذلك كله، وغضَّ عنه كرمًا وفضلًا ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أَي لَا تَأْنِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ عِنْدِي فِيمَا صَنَعْتُمْ وَلَا عِقُوبَةَ، بَلْ أَعْفُو عَنْكُمْ وَأَصْفَحُ ﴿يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أَي وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ مَا اقْتَرَفْتُمْ فِي حَقِّي مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَهَذَا مِنْهُ زِيَادَةُ لَطْفٍ وَتَكْرِيمٍ، سَامِحُهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ خَطِيئَتَهُمْ، وَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَلَّا يُؤَاخِذَهُمْ وَلَا يِعَاقِبَهُمْ فِيمَا جَنَوْهُ،

وهذا هو منتهى الفضل والإحسان، قَابَلَ كُلَّ مَا جَرَى لَهُ مِنَ الْإِسَاءَةِ
 بِالصَّفْحِ وَالْغُفْرَانِ، وَإِنْهَاءُ الْمَوْقِفِ الْمَخْجَلِ شِيمَةُ الرَّجُلِ الْكَرِيمِ، كَمَا
 فَعَلَ نَبِيُّنَا عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ حِينَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَهُوَ فِي مَوْقِفِ
 الْعَزِيزِ الْمُنْتَصِرِ، قَالَ لِقْرِيشَ: مَا تَرُونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟ قَالُوا: نَظَنُّ خَيْرًا
 أَخُ كَرِيمٍ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، وَقَدْ قَدَرْتَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:
 أَقُولُ مَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ثُمَّ قَالَ
 لَهُمْ: اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَقَاءُ.

تعجيل البشارة لأبيه يعقوب

وبعد هذا الموقف النبيل من يوسف الصديق مع إخوته، يريد أن
 يطوي الموضوع وكأنه لم يكن، ويريد أن يعجل البشارة لذلك القلب
 الكلبي المجروح «قلب أبيه يعقوب» ذلك الشيخ الكبير الذي ألمَّ بجسمه
 الضننى، وأصاب بصره الكلال فيقول: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ
 عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا، وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قال الإمام الطبري: «ذكر أن يوسف لما عرف نفسه إخوته، سألهم
 عن أبيهم فقالوا: ذهب بصره من الحزن، فعند ذلك أعطاهم قميصه
 وقال: «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً»^(١) أراد
 يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك، وجعل قميصه
 الذي يلبسه علامة لأبيه، وطلب من إخوته أن يأتوه بجميع الأهل
 والذرية، والأولاد والأزواج، إلى أرض مصر، ليكرمهم ويجمع بهم
 الشمل. ولكن كيف عرف يوسف أن رائحة القميص سترد على أبيه
 بصره؟ ذلك من الإلهام ومما علمه الله، والمفاجآت تفعل في كثير من

(١) تفسير الطبري ٥٧/١٣.

الأحيان فعل الخارقة، وما لها لا تكون خارقة، ويوسفُ نبيُّ كريم، ابنُ نبيِّ كريم؟! ونحن بعد هذا أمام مفاجأة في القصة بعد مفاجأة، حتى تنتهي مشاهدتها المثيرة، بتأويل رؤيا يوسف الصديق ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾.

قصة يوسف سلسلة من الحلقات المثيرة

وتمضي السورة الكريمة، وهي تقصُّ علينا الأحداث العجيبة، في قصة يوسف الصديق مع إخوته، وتطالعنا بعجائب وغرائب بأسلوبها الممتع البديع، فالقصة سلسلة من الحلقات التي تثير في النفس حبَّ الاستطلاع والمشاهدة لنهاية تلك الفصول، من حين إلقاءهم له في الجب، إلى حين دخولهم عليه وسجودهم بين يديه، وهو في مقام العز والسلطان، لتتحقق الرؤيا التي رآها في المنام وهو طفل صغير، فقصَّها على أبيه، فعلم أنه سيكون له مع إخوته شأن عظيم وخطير.

تحدث الآيات عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف وهو في عز السلطان، وعظمة الملك، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه، واجتماع الشمل بعد الفرقة، وحلول الأنا بعد الكدر، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون. قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ. فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَارْتَدَّ بَصِيرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ؟ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

خروج القافلة من مصر وفيها البشير

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي خرجت الإبل متوجهةً من مصر إلى أرض كنعان، ومعهم البشير قد سبقهم بالبشارة السارة ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنَّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي قال يعقوب لمن حضر من قومه وقربته: إني لأشمُّ رائحة يوسف، ولولا أن تقولوا إنه خرف، لقلتُ لكم إنه حيٌّ، قال ابن عباس: «هاجت ریح فحملت ریح قميص يوسف وبينهما مسيرة ثمانية أيام»^(١) ﴿وَتُفَنِّدُونَ﴾ أي تنسبونني إلى الفند وهو الخرف، قال الأصمعي: إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو المفنِّد، ولما سمع من حوله كلامه ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي قال له أقاربه وأحفاده، والله إنك لفي خطئك القديم، من حب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه، وإنما قالوا هذه الكلمة الغليظة لاعتقادهم أن يوسف قد مات، وقصدوا بقولهم: «لفي ضلالك القديم» أي في خطئك القديم كما قال ابن عباس، ولو أرادوا الضلال الذي يقابل الهداية والإيمان لكفروا، ولكنهم أرادوا به الخطأ والبعد عن الصواب. وأما البشير الذي جاء يبشر يعقوب عليه السلام، فقد كان ولده «يهودا» قال: أنا الذي حملتُ إليه القميص المَلَطَّخَ بالدم، وقلت: إن يوسف أكله الذئب، فأنا اليوم أذهب بالقميص لأفرحه كما أحزنته، وهو قول مجاهد والسُّدِّي، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي رجع بصيراً من شدة السرور والفرح، بعدما ابيضَّت عيناه من الحزن، فعند ذلك بين لأولاده ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ أي ألم أخبركم بأنني أعلم

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٠٨/١٨ وتفسير أبي السعود ٣٠٥/٤.

بوحى من الله، ما لا تعلمونه أنتم، من حياة يوسف، وردّه عليّ،
لتتحقق الرؤيا؟.

يُروى أنه سأل البشير كيف تركت يوسف؟ قال: تركته وهو ملك
مصر، قال: ما أصنع بالملك، على أيّ دين تركته؟ قال: على دين
الإسلام، قال: الآن تمت النعمة. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا
كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

لماذا أحرَّ يعقوب الاستغفار لأبنائه؟

ونلمح من هذا الكلام أن في قلب يعقوب شيئاً على بنيه، وأنه لم
يصف لهم بعد، ولهذا لم يستغفر لهم في الحال، وإنما وعدهم
الاستغفار في المستقبل، بعد أن يصفو، ويسكن، ويستريح، وحكاية
لفظه بقوله: «سَوْفَ اسْتَغْفِرُ» لا تخلو من الإشارة إلى قلب إنساني مكلوم.

وقال بعض المفسرين: إنما أحرَّ الاستغفار لوقت السحر، ليكون
أقرب إلى الإجابة، وذكر الإمام الطبري في تفسيره قال: كان عمر رضي
الله عنه يأتي المسجد، فيسمع إنساناً يقول: «اللهم دعوتني فأجبتُ،
وأمرتني فأطعتُ، وهذا السَّحَرُ فاغفر لي» - وهو في طريقه إلى
المسجد - فاستمع الصَّوْتِ فإذا هو من دار «عبد الله بن مسعود» رضي
الله عنه، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: إن يعقوب أحرَّ بنيه إلى السَّحَرِ
بقوله: «سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي»^(١).

(١) جامع البيان للطبري ٧٠/١٣.

المشهد النهائي لاجتماع شمل الأسرة

ويمضي السياق في مفاجآت القصة، فيطوي الزمان والمكان، لنتقي في المشهد النهائي المؤثر. ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ، وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ. وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ، قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ، وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ، مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

قال الإمام الفخر: «روي أن يوسف وجّه إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة، ليتجهز إليه بمن معه، وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء والوزراء، يتلقون يعقوب عليه السلام، وهو يمشي يتوكأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والرجال، فقال: يا يهوذا أهذا فرعون مصر؟ قال: لا، هذا ولدك يوسف، عزيز مصر مع حاشيته وكبراء البلد، وكانوا لما دخلوا مصر لا يزيدون على اثنين وسبعين ما بين رجل وامرأة، ولما خرجوا منها مع موسى كانوا أكثر من ستمائة ألف رجلٍ سوى الصبيان والشيوخ».

سجود إخوته له وتحقيق الرؤيا

ومعنى ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ ﴾ أي ضمّهما إليه واعتنقهما ﴿ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ يعني على سرير الملك وأجلسهما إلى جواره ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أي سجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه، وكان السجود في شريعتهم جائزاً، إذا سلّموا على الكبير يسجدون له، وهو سجود احترام وتكريم وليس سجود عبادة، وأما في شريعتنا فقد

نسخ هذا السجود، فلا يجوز السجود إلا للحي القيوم الذي لا يموت ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها في منامي وأنا صغير ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أي صدقاً حيث وقعت كما رأيتها في النوم ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ أي أنعم عليّ ربي بإخراجه من السجن، ولم يذكر قصة الحب تكريماً منه، لئلا يُخجل إخوته ويذكرهم صنيعهم القبيح بعد أن عفا عنهم ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ أي جاء بكم من البادية ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ أي أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

يقول سيد قطب رحمه الله في كتابه الظلال «ويا له من مشهد، بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام، وبعد اليأس والقنوط، وبعد الألم والضيق، وبعد الامتحان والابتلاء!! يا له من مشهدٍ حافلٍ بالانفعالات والخفقات والفرح والدموع!! ويا له من مشهدٍ ختاميٍ موصولٍ بمطلع القصة، ذلك في ضمير الغيب، وهذا في واقع الحياة، ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه».

المشهد الأخير للقصة

وقبل أن يُسدل الستار على المشهد الأخير المشير، نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق، والفرحة والابتهاج، والجاه والسلطان، ليتجه إلى ربه في تسبيح العبد الشاكر الذاكر، كلُّ دعوته أن يتوفاه ربه مسلماً، وأن يلحقه بالصالحين ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا، وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

تمني لقاء الله عز وجل

لقد ذاق يوسف الصديق حلاوة الدنيا ومرارتها، ونعيمها وضرها، ونال من العز والسعادة، ومن الجاه والسلطان ما لم ينله إنسان، فلما تم له الأمر، وعلم أنه لا يدوم إلا الحي القيوم، اشتاق إلى لقاء ربه، ولا يبعد من الرجل العاقل إذا كمل عقله، أن تعظم رغبته في الموت، لا تخلصاً من الحياة، ولكن باعتبار ما يكون بعدها من النعيم الدائم، في دار الخلد والإقامة، وهو مطلب نفيس لا يكون إلا لذوي النفوس الكبيرة، المشرقة بنور الإيمان، كالأنبياء وكبار الصالحين، كما ورد في الصحيحين أن النبي ﷺ لما مَرَضَ مَرَضَ الوفاة، جعل يرفع أصبعه ويقول: «اللَّهُمَّ في الرفيق الأعلى» ثلاثاً، حتى قبض صلوات الله وسلامه عليه، وهكذا كان من شأن يوسف عليه السلام لما كمل له الملك والعز، والجاه والسلطان، وعلم أن الحياة لا تدوم لأحد، وأن سعادات الدنيا ولذاتها سريعة الزوال، مشرقة على الفناء، وشعر بدنو الوفاة، طَلَبَ من ربه أن ينقله من دار الكرب والفناء، إلى دار السعادة والصفاء، ويحشره في زمرة النبيين والصدّيقين والصالحين، وقَدَّمَ بين يدي هذا المطلب الأسنى، أنواع الحمد والثناء، فشكر ربه أولاً على نعمة الملك، وثانياً على نعمة العلم والفهم، في تأويل الأحلام، وثالثاً على تولّي الله عز وجل، وحفظه ورعايته له على أكمل الوجوه، ثم ابتهل إلى ربه عز وجل في طلب الموت على الإسلام وإلحاقه بالصالحين فقال: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ وإلى هنا تنتهي قصة يوسف الصديق وما فيها من عظات وعبر، وأحداث عجيبة مثيرة، تدفع الإنسان إلى التأمل والإمعان

في قصة يعقوب مع بنيه، وما فيها من الأخبار والأحداث.

الغرض من سرد قصة يوسف

ثم تمضي الآيات الكريمة - بعد سرد قصة يوسف - إلى إثبات الغرض الأصيل، من ذكر هذه الأنباء والقصص، ألا وهو إثبات صدق الرسالة، رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، فما كان رسول الله ليعرف هذه الأنباء، لولا أن الله عز وجل أوحاها له، لأنه لم يعاصرها ولم يدرك زمنها، فمن الذي أخبره بها على الوجه الصحيح الدقيق، الذي يتفق مع ما جاء في الكتب السماوية في التوراة والإنجيل، وهو نبيُّ أمي لا يعرف قراءة ولا كتابة؟

لا شك أن ذكر هذه القصص على وجه الدقة، بأوضح أسلوب، وأفصح بيان، فيه أعظم شاهد وأقوى برهان، على صدق رسالة نبينا محمد ﷺ، ولهذا عقب الله تعالى بعد تلك الأحداث العجبية في قصة يوسف الصديق بهذا التعقيب الصريح فقال تقدست أسماؤه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ. وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ. وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنَّهُ هُوَ الْإِلَهُ الَّذِي ذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ﴾.

والمعنى الواضح في هذه الآيات، ينبىء عن هذا الغرض الذي ذكرت من أجله القصة، فليس الهدف هو ذكر قصة يوسف، إنما الهدف هو إثبات نبوة محمد عليه السلام بطريق القصص القرآني، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي هذا الذي أخبرناك عنه يا محمد، من أمر يوسف الصديق وأخباره العجبية مع إخوته، وما آل إليه أمره من العز والمُلْك والتمكين في الأرض، إنما هو من الأخبار

المغيبية التي لم تكن تعلمها قبل الوحي، وإنما أعلمناك نحن بها على أكمل الوجوه، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أي وما كنت يا محمد حاضراً مع إخوة يوسف، حين تأمروا على أخيهم، وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب، وهم يحتالون عليه ويمكرون به وبأبيهم ليرسله معهم، فإنك لم تشاهدهم حتى تقف على حقيقة القصة، وإنما جاءتك بوحي من العليم الخبير.

تسليية ومواساة لرسول الله

ومع كل هذه الشواهد والدلائل على صدق رسالته ﷺ، فقد كذب المشركون وأنكروا أن يكون محمد ﷺ مرسلًا من عند الله، لأنه في نظرهم يتيم وفقير، وليس من زعماء ورؤساء قريش، وقد جاءت الآيات تواسيه وتسلييه، وتشدُّ من أزره، وتوضح له أن ذلك التكذيب، هو شأن الطغاة المفسدين في كل زمانٍ ومكان، فأكثر أهل الأرض لا يؤمنون بالله لعتوهم وضلالهم، فلا غرابة أن يكذبوا برسالة محمد ﷺ بعد جميع تلك الشواهد والبراهين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ. وَمَا تَسَأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا، وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾.

غفلة الناس عن آيات الله

وقد أشارت الآيات الكريمة، إلى غفلة أكثر الناس، عن التفكر والتدبر في آيات الله، ودلائل توحيده ووجوده، فكم لله في هذا الكون من آيات باهرات، يشاهدها الناس ولا يعتبرون بها؟ من كواكب

زاهرات، وأفلاكٍ دائرات، وجبال راسيات، وحدائق وجنات، وبحار
زاخرات، وأشجار وثمار، وأنهار وبحار، وحيوان ونبات، فسبحان
الواحد الأحد، خالق الكائنات، ومُبدع أنواع المخلوقات، المنفرد
بالدوام والبقاء مع كمال الصفات!!

كما جاءت الآيات تقرّر كفر الإنسان بربه، وجحوده لفضله
وإنعامه، مع كثرة الشواهد والبراهين، على أن الخالق هو الله رب
العالمين ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ﴾ أي وكم من الآيات والعلامات الناطقة بوجود الله جلّ وعلا
ووحدانيته، الكائنة في السموات والأرض، يشاهدونها ليل نهار،
ويمرّون عليها بالعشيّ والإبكار، ثم لا يفكّرون فيها ولا يعتبرون؟! فلا
تتعجب يا محمد من إعراضهم عن دعوتك ورسالتك، فإنّ إعراضهم عن
هذه الآيات الساطعات أعجب وأغرب.

ومن عجيب أمر المشركين، أنهم كانوا في حجّهم وطوافهم،
يشركون بالله الأوثان والأصنام، فقد كانوا يقولون في تليبتهم: «لييك لا
شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» وهذا معنى قوله
تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان إذا سمع المشركين
يقولون: لبيك لا شريك لك، قال: قَدْ قَدْ، أي: حسبُ حسب، لا
تزيدوا على ذلك، فأول كلامهم إيمان وآخره كفر. وقد جاءت الآيات
فيما بعد، تتوعد أولئك الكفرة المكذبين لسيد الرسل ﷺ بالعذاب
والدمار، إن لم يرجعوا عن غيِّهم وضلالهم، ولم يثوبوا إلى رشدهم،
فإن الله تعالى هو المنتقم الجبار، يمهل ولا يهمل، وإذا أخذ الظالم

أخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة: هل ضمن هؤلاء المشركون المكذبون لأنفسهم وأمنوا من عقوبة شديدة من عذاب الله، تغشاهم وتشملهم جميعاً؟ أو أمنوا أن تأتيهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يدرون ولا يحسبون؟ والاستفهام في مثل هذا الأسلوب، هو استفهام إنكاري فيه معنى التوبيخ والتهديد بالعذاب الشديد، وهو كقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ؟ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١).

دعوة ربانية لانقاذ البشرية

وبعد ذلك البيان الواضح، عن موقف المشركين المعاندين، من رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وتكذيبهم له، مع ما جاءهم به من الآيات الساطعات، التي تدل على صدق رسالته، وسلامة دعوته ممّا رماه به الجاهلون، من التكهن والكذب والبهتان، يأتي الجواب الحاسم الذي يزيل الله به الشبهة، ويدفع الظنون والأوهام، عن حقيقة البعثة النبوية، والرسالة المحمدية، فما كان رسول الله ﷺ متقولاً على الله، ولا مدّعياً للنبوة والرسالة من تلقاء نفسه، بل هو عليه السلام مؤيدٌ من الله جلّ وعلا بالمعجزات الواضحات، والدلائل الساطعات، التي تدل على صدق دعوى الرسالة، ودعوته وطريقته

(١) سورة الأعراف آية رقم ٩٧ - ٩٩ .

واضحة مستقيمة لا عوج فيها، ولا شك ولا التباس، بل هي أوضح من الشمس في رابعة النهار، وفي ذلك يقول القرآن الكريم مبيِّناً حقيقة الدعوة الكريمة: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فرسالته عليه السلام ليست للملك والسلطان، ولا لجمع الحطام، بل هي دعوة إلى الله، خالصة نقية، واضحة جليّة، لا يبتغي على ذلك مالاً، ولا يطلب من أحد أجراً، وأُمته أمة دعوة، دعوة لإنقاذ البشرية وتخليصها من براثن الشرك والوثنية، وهذه خصوصية الأمة المحمدية، فقد جعلهم الله هداة لا جباة، يعملون لصالح الإنسانية، ويقودون الناس لشاطئ الأمن والاستقرار، وهذا ما أرشدت إليه الآية الكريمة ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ فالرسول عليه الصلاة والسلام داع إلى الله، وأُمته كذلك دُعاة إلى الله، حمّلهم الله هذه الأمانة الثقيلة، ليكونوا في الأرض مشاعل النور والهداية.

لماذا كان الرسل من البشر؟

ثم انتقلت الآيات الكريمة لتبيِّن أن محمداً ﷺ لم يكن بدعاً من الرسل، وليس هو أول رسول يُبعث إلى أهل الأرض، بل سبقه رُسُل كثيرون، دُعاة هداة إلى الله، أوحى الله إليهم كما أوحى إلى محمد، ليبلِّغوا رسالة ربهم، حتى لا يبقى لأحد عذر عند الله، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ وفي هذه الآية دلالة صريحة، على أن الرسل جميعاً كانوا رجالاً، ولم يكن فيهم نساء

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ وفيها ردُّ على المشركين في قولهم إن الرسول ينبغي أن يكون ملكاً لا رجلاً من البشر، لأن الحكمة تقتضي أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، فلو كان أهل الأرض ملائكة، لأرسل الله تعالى لهم رسولاً من الملائكة، كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (١) ولم يكن الرُّسل من النساء، لأن أمر المرأة مبنيٌّ على التستر، وعدم الاختلاط بالرجال، وأمر الدعوة مطلوبٌ فيه التبليغ، والكفاح والنضال، والضربُ في الأرض لتبليغ دعوة الله، ولهذا خصَّ الله النبوة بالرجال.

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ (٢): يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسوله من «الرجال» لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء. . وزعم بعضهم أن «أم موسى» و«مريم بنت عمران» و«سارة» امرأة الخليل إبراهيم نبيات، واحتجوا بأن الله أوحى إلى «أم موسى» كما قال: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وبأن الملك جاء إلى مريم فبشّرها بعيسى عليه السلام، وأن الملائكة بشّرت «سارة» بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. . قال: وهذا القدر حاصل لهنّ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكنّ نبيات، إذ ليس في النساء نبية، إنما صديقات، كما أخبر تعالى عن مريم بنت عمران، حيث قال: ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ فوصفها في أشرف

(١) سورة الإسراء آية رقم ٩٥.

(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٦٥ وهذا هو القول الفصل في الموضوع، إنه ليس في النساء نبية، والأنبياء جميعهم من الرجال، وبهذا تسقط دعوى ابن حزم أن من النساء نبيات.

مقاماتها بالصدّيقة، فلو كانت نبيةً لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام. اهـ.

عظة واعتبار

وقد توعدّ الله المشركين من كفّار مكة، الذين كذبوا رسالة سيد المرسلين، نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، توعدّهم بالعذاب الشديد، وضرب لهم الأمثال بمصارع الأمم المكذبين، الذين كذبوا رُسُلهم فحلّ بهم عذاب الله وانتقامه، أفلا يخشى هؤلاء أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم السابقين؟ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أفلم يسافر هؤلاء المكذبون، فينظروا نظر تفكّر وتدبّر، إلى ما حلّ بالأمم السابقين، ويروا مصارع المكذبين، فيعتبروا ويتعظوا، ويكفوا عن غيهم وضلالهم؟! ثم قال تعالى مبيّناً عاقبة من آمن بالله وصدّق رسله ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي ما أعدّه الله للمؤمنين المتقين، في دار الخلد والنعيم، خيرٌ مما عليه أهل الجحود والعناد، من نعيم الدنيا وزهرتها، فإن نعيم الدنيا زائل، ونعيم الآخرة دائم، والدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أفليس لكم عقول تدركون بها ذلك؟.

نصرة الله لأنبيائه وأوليائه

وتكميلاً لموضوع الرسالة والرسول، والمواقف العصبية التي لاقاها رسل الله، من جرّاء تكذيب الأقسام لهم، وتوضيحاً لبيان سنّة الله عزّ وجل في نصرة أنبيائه وأوليائه، وأن العاقبة الحميدة تكون لهم ولأتباعهم المؤمنين، جاءت الآيات تبين أن

نجاه المؤمنين، وهلاك الظالمين، حقٌ مؤكد، ولكن لا يأتي النصر والظفر لأول وهلة، بل لا بدَّ من اشتداد الخطب، وتفاقم الأمر، حتى يلجأ الرسل أنفسهم إلى الدعاء بتنفيس الكرب، فإن من سنة الله أن يُمهّل ولا يُهمّل، وبيّتي العباد بما شاء من أنواع المكاره والشدائد ليظهر الصادق من المنافق، والبرّ من الفاجر، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا، جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ والمعنى: حتى إذا يشس الرسل من إيمان قومهم، وأيقنوا أن قومهم كذبوهم، لإبطاء النصر عليهم، جاءهم نصرنا بعد اشتداد الكرب، ففي اللحظة التي تستحکم فيها الشدّة، ويأخذ فيها الكرب بالمخائق، ولا يبقى أمل في غير الله تعالى، في هذه اللحظة يجيء النصر، كاملاً حاسماً فاصلاً، فينجي الله المؤمنين، ويهلك الظالمين، ولا يُردُّ بأس الله إذا نزل عن القوم المجرمين، هذا هو المعنى الصحيح للآية الكريمة، وليس المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كُذِّبوا فيما وعدوا به من النصر، فحاشا لله أن يظن الرسل بربهم ذلك، لأن الرسل أعرف الناس بالله، ولا يجول بخاطرهم شيء من الشك في نصره الله لهم، وإنما الظن كما قالت عائشة رضي الله عنها لعروة بن الزبير حين سألها عن هذه الآية: قالت: هم أتباع الرسل، لَمَّا طال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، ظنوا أن الرسل قد كذبوهم، ثم قالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربّها، كما ورد ذلك عنها في صحيح البخاري.

الحكمة من ذكر قصة يوسف

وقد ختم الله السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر هذه القصص والأخبار، وأن الغرض منها العظة والاعتبار، فقال تقدست أسماءه:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ووجه الاعتبار بهذه القصة، أن الله العظيم القدير، الذي نَجَّى يوسف من الجب، وأخرجه من السجن، وملكه مصر بعد الرق والعبودية، وجمع شمله بأبيه وإخوته، بعد طولِ فراق، واليأسِ من الاجتماع، قادرٌ على إعزاز محمد صلوات الله وسلامه عليه، وعلى إعلاء شأنه، وإظهار دينه، وعلى إهلاك الظالمين المجرمين.

وهكذا بدأت السورة بأنباء القصة العجيبة الغريبة، وختمت ببيان الحكمة من ذكر قصص الأنبياء والمرسلين وأخبار الأمم السابقين، ليتعظ أهل البصائر من ذوي الإيمان، ويعلموا أن الله وحده هو القوي المتين، يعزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَذُلُّ مَنْ يَشَاءُ، وينصر مَنْ يَشَاءُ، ويخذل مَنْ يَشَاءُ، وهو الفَعَّالُ لما يريد.

وبهذا البيان الساطع تنتهي قصة يوسف الصديق، وما مرَّ عليه من ضروب المحن والشدائد، محنة حسد إخوته له، ومحنة وقوعه في الجب، ومحنة مراودة امرأة العزيز له، بشتى طرق الفتنة والإغراء، وصموده أمام تلك المحنة العارمة التي تحرق الأعصاب، ثم محنة السجن بعد ذلك العزُّ في بيت العزيز، وكأن الآية تقول لرسول الله ﷺ: انظر يا محمد إلى أخيك يوسف كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل الله، وصبر على الضرِّ والبلاء، نقلته من السجن إلى القصر، وجعلته عزيزاً في أرض مصر، وملكته خزانها، فكان السيد المُطَاع، والعزيز المكرم، وهكذا أفعل بأوليائي ومَنْ صبر على بلائي، فلا بدَّ أن توطِّد النفس على تحمُّل البلاء في سبيل الله، لتبليغ دعوة ربك، وأن تصبر كما صبروا، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين، ﴿ فَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا

بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٤٠﴾ .

وهكذا تختم السورة الكريمة بهذا الختم الرائع ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ففي هذه السورة عظاتٌ وعبرٌ، ودروسٌ وحكمٌ، وفيها ألوانٌ من الأحداث العجيبة المثيرة، التي تأخذ بالآلِباب، تدل على قدرة رب الأرباب، في إنجاء عباده المؤمنين المتقين، وإهلاك الفجرة المجرمين، وقد ختم الله السورة بقوله تقديساً أسمائه: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

اللَّهُمَّ اجعل هذا القرآن هدىً ورحمةً لنا، ونورً به عقولنا وأبصارنا، واختم بالصالحات أعمالنا، برحمتك يا أرحم الراحمين .

* * *

سُورَةُ الرَّعْدِ

مَكِّيَّةٌ وَإِيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

- سورة الرعد من السور المكية، وقيل: هي من السور المدنية، ولكن أسلوبها وجوهاً يوحى بترجيح القول الأول، وهي أنها من السور المكية، لأنها تناولت الأهداف الأساسية للسور المكية، من تقرير وحدانية الله جلّ وعلا، والإيمان بالآخرة، والتصديق بالرسالة، وأمر البعث والجزاء، الذي كُذِّبَ به المشركون وجحدوا حدوثة، ودفع الشبه التي أثارها الكفار في وجه الرسالة المحمدية، إلى غير ما هنالك من أهداف ومقاصد أساسية.
- ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى الأصلية، وهي قضية الإيمان بوجود الله العليّ الكبير، وقضية تفرّده بالوحدانية والخلق والإيجاد، فمع سطوع الحق ووضوحه، كُذِّبَ المشركون بالقرآن، وجحدوا وحدانية الرحمن، فجاءت الآيات تثبت بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، وحدانيته تبارك وتعالى، وتقرّر كمال قدرته تعالى، وعجيب خلقه وصنعه في ملكوت السموات والأرض، في الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، وفي إحداث الليل والنهار، وإخراج الزروع والثمار، وفي مدّ الأرض وما خلق فيها من الرواسي والأنهار، وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع، الذي هو مظهر من آثار قدرته، ووحدانيته، ووجوده.
- ثم تلتها الآيات الكريمة في إثبات البعث والجزاء، الذي طالما أنكره المشركون واستبعدوه، وحكموا على من آمن به بالسفه والجنون، واستهزءوا بالرسول ﷺ لأنه كان يقول لهم: ستبعثون بعد الموت للحساب

والجزاء، وإلى ذلك يشير قوله تقدست أسماؤه ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ
أَتَدَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنًا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ
الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

● ثم بعد ذكر الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة، على البعث والنشور،
وانفراده جلّ وعلا بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة، والنفع والضّر،
وإحاطته سبحانه بكل ما يحدث في الكون، واختصاصه بعلم الغيب
والشهادة، وما تحمله كل أنثى، وما تغيض به الأرحام من الأجنة، ضرب
القرآن الكريم مثلين للحق والباطل، والهدى والضلال.

أحدهما: في الماء ينزل من السماء، فتسيل به الأودية والشعاب، ثم
هو يجرف في طريقه القشور والغثاء، فيطفو على وجهه الرّبد الذي لا
فائدة فيه ولا منفعة

والثاني: في المعادن الثمينة كالذهب والفضة، التي تُذاب لتُصاغ
منها الحلية والأواني والأساور، والمعادن الدفينة في الأرض كالحديد
والنحاس، وما يعلو هذه المعادن بعد إذابتها من الزبد والخبث، الذي لا
يلبث أن يذهب جفاء ويضمحل ويتلاشى، ويبقى المعدن النقي الصافي
الذي يتفجع منه الناس، فذلك مثل للحق والباطل ضربه القرآن ﴿ أَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا، وَمِمَّا يُوقِدُونَ
عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ
وَالْبَاطِلَ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ،
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ .

● وبعد هذا التمثيل والبيان، ذكر القرآن مآل السعداء والأشقياء، ووضح
صفاتهم وأحوالهم، وضرب لهم المثل بالأعمى والبصير، لأنهم عموا عن
رؤية الحقّ ولم يعملوا به ويتبعوه ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

● وختمت السورة الكريمة بالإشادة بالقرآن، والشهادة للرسول عليه الصلاة

والسلام بالنبوة والرسالة، فيكفيه شهادة الله له بأنه رسول مرسل من عند الله، بعثه الله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وشهد له بالنبوة كذلك علماء أهل الكتاب، المخلصون الصادقون، الذين رأوا فيه ما يوافق صفاته الصادقة في التوراة والإنجيل ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ .

تفصيلٌ لأهداف السورة الكريمة

ولنبداً بالتفصيل بعد الإجمال في هذه السورة الكريمة، التي تحدثت في مطلعها عن القرآن والرسالة، وذكرت بالبراهين الساطعة الدلائل على قدرة الله ووحدانيته، يقول جلّت عظمته وتقدست أسماؤه: ﴿الْمَرَّةِ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ، وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والبداء بهذه الحروف المقطّعة «ألف، لام، ميم، را» للتنبيه على إعجاز القرآن، والإشارة إلى أنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية، فهو معجز بأسلوبه، ونظمه، وبيانه، وإن كانت حروفه وكلماته مما ينطق به الناس، ومما يعرفه البشر في تخاطبهم في حديثهم، فقد جاءهم القرآن العظيم بما أفحّمهم وأخرسهم من سطوع الحجة، وإعجاز البيان، والمعنى: هذه آيات القرآن المُعجِز، الذي فاق كل كتاب، وأفحّم كل إنسان، ومع وضوحه وجلائه فقد كذب به أكثر الناس.

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية: قدّمنا عند الكلام على الحروف المقطّعة في أوائل السور، أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف، ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حقٌّ لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي هذه آيات القرآن العظيم، والذي أنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق، ومع هذا البيان والجلال والوضوح لا يؤمن أكثرهم، لما فيهم من العناد، والشقاق، والنفاق.

الدلائل والبراهين على وحدانية الله

ثم ذكر تعالى دلائل قدرته، وعظمته، ووحدانيته، فقال تقدست
أسماءه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ
الْعَرْشِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ،
يُفَصِّلُ الْآيَاتِ، لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فقد ذكر تعالى من آثار
قدرته، وعظيم سلطانه وجلاله، ثلاثة أمور، كبرهانٍ على البعث
والنشور.

الأول: خلق السموات البديعة، القائمة بقدرته بغير دعائم، لا
تستند على شيء، ولا ترتكز على ركيزة مطلقاً، بل هي قائمة بقدره رب
العالمين، والناس يشاهدونها كذلك بغير دعائم، وذلك دليل وجود
الخالق المبدع الحكيم.

الثاني: خلقه تعالى للعرش واستواؤه عليه بمعنى علوه عليه علواً
يليق بجلاله، من غير تجسيم ولا تكييف.

الثالث: تسخير الشمس والقمر لمصالح العباد، كلُّ منهما يجري
ويتحرك بقدرته تعالى إلى زمن محدود معيّن، هو زمان فناء الدنيا، وقد
ختم تعالى الآية بقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَ﴾ فإن الغرض من ذكر هذه المخلوقات أن يعرف الناس قدرة
ربهم، فيصدقوا بليقائه، ويوقنوا بالمعاد إليه بعد الموت، لأن من قدر
على ذلك كله فهو قادر على إحياء الإنسان بعد موته.

الآيات الكونية في الوجود

وبعد ذلك التوضيح عن صفات الله الجليلة، وقدرته الباهرة،
جاءت الآيات الكريمة لتحدث عن مظاهر الآيات الكونية التي يشاهدها

الناس، وهي أثر من آثار إبداع الخلاق جلّ وعلا، فيما خلق وصوّر وقَدَّر، فقد خلق الأرض كرة مستديرة، وجعل فيها سهولاً فسيحة، وأجرى فيها الأنهار العذبة، تجري من قطر إلى قطر، لتسقي الزروع والمواشي، وتخرج الفواكه والثمار، وجعل الجبال مخازن للمياه، ورواسي للأرض، لثلا تميد وتضطرب بأهلها، وجعل في تقلّب الليل والنهار، عظة وعبرة لأولي الأبصار، وامتنّ على عباده بما خلق لهم ويسرّ، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ اثْنَيْنِ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

الأرض كروية وليست مستوية

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ أي بسطها وجعلها ممدودة فسيحة، فيها السهول والوديان، والهضاب والتلال، لينتفع الناس بها بالزراعة والبناء للسكنى، ولم يجعلها تضاريس وبتوءات، أو جبلاً شامخات كلها حتى لا يتمكن البشر من زراعتها وبنائها، بل بسطها ومدّها وجعلها متوازنة بالجبال، وهذا لا ينافي كرويتها فإن ذلك أمر مقطوع به، والجسم الكروي إذا كان كبيراً ضخماً، شوهد كأنه منبسط بالنسبة للناظر، كالقبة الضخمة بالنسبة للنملة، فإنها تمشي على القبة وهي بالنسبة لها مستوية لا كرة، كذلك الكرة الأرضية بالنسبة للبشر، لسعتها وامتدادها تُرى كأنها منبسطة، فسبحان مَنْ مَدَّ الْأَرْضَ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً، وأخرج فيها أنواع الزروع والثمار والأزهار.

قال الفخر الرازي: إن الأرض كرة في غاية العظمة، والكرة العظيمة تكون كل قطعة صغيرة منها - إذا نظر إليها - كالسطح المستوي،

فلا إشكال في بسطها مع أنها كرة، والدليل قوله تعالى: ﴿وَالجِبَالُ أوتاداً﴾ سَمَّاهَا أوتاداً، مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية، فكذلك هنا^(١).

جريان الأنهار نعمة جليلة

ولما كانت حاجة الناس إلى الماء شديدة، إذ به حياة كل مخلوق، من إنسانٍ، وحيوانٍ، ونبات، أجرى الله بقدرته الأنهار في أرجاء المعمورة وتفرعت منها الجداول والعيون، وبخاصة في البلاد التي لا توجد فيها الآبار، بسبب الطين والرمال، وعدم تماسك التربة، كأرض مصر، فإن أهلها يعتمدون على نهر النيل في السقاية والزراعة، وكذلك في كثيرٍ من البلدان التي تقلُّ فيها الأمطار، تقوم حياة أهلها على وجود الأنهار، ولهذا امتنَّ الله على عباده فذكرهم بنعمة إيجاد هذه الأنهار، لتكمل لهم أسباب الحياة، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً﴾ أي جعل في الأرض جبلاً رواسخ ثوابت، لئلا تضطرب في حركتها ودورانها بأهلها، وجعل فيها الأنهار الجارية، تجري من قطر إلى قطر، ومن بلدٍ إلى بلد.

تنوع الفواكه والثمار آية باهرة

وبسبب الأمطار والأنهار، تنوعت الفواكه والثمار، ولهذا عقبها تعالى بقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ ثَمِينٍ﴾ أي جعل فيها من جميع أنواع الثمرات صنفين اثنين: ذكراً وأنثى، ليتم بينهما أسباب الإخصاب والتكاثر، وهذه حقيقة لم يعرفها البشر، إلا منذ زمنٍ قريب، وهي أن كل الأحياء تتألف من ذكر وأنثى، حتى النباتات التي

(١) التفسير الكبير للرازي ١٩/١٧٠ هذا ما قاله علماؤنا في القرن السادس للهجرة.

كان مضموناً أنه ليس من جنسها ذكور، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة، أو متفرقة في أغصان، وهذا ما لفت القرآن الكريم إليه الأنظار، في قوله سبحانه في سورة يس: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ، وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

وقيل: إن معنى ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أنه تعالى جعل من كل نوعٍ من أنواع الثمار صنفين اثنين، وهو إما في اللون كالأبيض والأسود، أو في الطعم كالحلو والحامض، أو في القدر كالصغير والكبير، أو في الكيفية كالحار والبارد، وهكذا نوع الله الأنواع، وعدد الثمار، وقد ختم الباري جلّ وعلا الآية بضرورة التفكر في صنع الله وخلقه، ليستدل الإنسان من الأثر على المؤثر، ومن الصنعة على الصانع، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في عجائب صنع الله، لدلالات وعلامات باهرة، تدل على وحدانيته وقدرته، لمن تأمل وتفكر، فيما حواه هذا الوجود من آثار قدرته جلّ وعلا.

ومن آثار قدرة الله الباهرة، وعظيم خلقه وصنعه، أنه أخرج من الأرض أنواعاً شتى من الفواكه والثمار، والكروم والزروع والنخيل والرمّان، فيها تنوع عجيب، واختلاف غريب، الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ، والكمثرى، والعنب الأبيض والأسود، والرمّان الحلو والحامض، والليمون، والبرتقال، بعض الفواكه حلو، وبعضها حامض، وبعض الثمار تختلف في الطعم وتتفق في الشكل، فمن الذي جعل

(١) سورة يس آية رقم ٣٦.

هذه الخصائص، وخالف بين الأشكال، والطعوم، والألوان؟ مع أن الأرض واحدة، والتربة واحدة، والماء واحد؟ إنها قدرة الله الكبير المتعال، التي تصنع العجائب، وتأتي بالمعجزات، ولهذا ذكّر تعالى عباده بهذا الصنع الفائق، والقدرة الباهرة، ليستدلوا على وحدانية ذي العزة والجلال، فقال تقديست أسماؤه: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أُعْنَابٍ، وَزَّرْعٌ، وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرُ صِنَوَانٍ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفِّضُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

لماذا اختلفت الطعوم والألوان؟

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ أي في هذه الأرض التي تغلّ لكم الزروع والثمار، بقاع متلاصقات، قريب بعضها من بعض، وفيها إشارة إلى أن التربة واحدة، فكيف اختلفت الطعوم والألوان؟ ﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أُعْنَابٍ ﴾ أي بساتين كثيرة من أشجار العنب التي تحمل أصنافاً متعددة، وألواناً مختلفة ﴿ وَزَّرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرُ صِنَوَانٍ ﴾ أي وفي هذه الأرض أنواع الزروع والحبوب المتنوعة، وأنواع النخيل والرطب، هي متماثلة في الشكل، ومختلفة في الطعم، ومنها ما ينبت منها شجرتان فأكثر من أصل واحد، وهي الصنوان، ومنها ما ينبت منها شجرة واحدة، وهي غير الصنوان، ثم قال تعالى: ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفِّضُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ أي الماء الذي يسقيها واحد، والتربة واحدة، ولكنها مختلفة اختلافاً كبيراً في الطعم، والشكل، واللذة، والصورة، فسبحان من خالف بينها في الخلق والتقدير، مع اتحاد الأرض والتربة والماء!! ولكنّ الناس غافلون عن

هذه الصنعة المدهشة، ينظرون إليها نظرةً عابرة، دون تعقل أو تبصّر، لأنهم اعتادوا على رؤية هذه الأشياء، فأصبحت عندهم أمراً معتاداً، ولهذا ختم الله الآية بقوله سبحانه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الإيمان بالبعث والنشور

وبعد ذلك البيان الواضح عن دلائل القدرة والوحدانية، وما بثَّ الله في هذا الكون من بدائع الخلق والتكوين، عاد الحديث إلى الموضوع الهام، الذي طالما بالغ في إنكاره المشركون، واستبعدوه وجحدوه، ألا وهو موضوع الإيمان بالبعث والنشور، واعتقاد وقوعه، فإن الكفار مع إقرارهم بأن الله هو خالق السموات والأرض، كانوا ينكرون البعث بعد الموت، ويجحدون وقوعه، ويستبعدون أن يعود الإنسان إلى الحياة مرة أخرى، بعد أن تبلى عظامه وتمزق لحومه وأوصاله وتصبح رميمًا ورفاتًا، وتختلط بتراب الأرض. ونظراً لأهمية الموضوع، وكونه ركيزة من ركائز الإيمان، وعليه يدور سلوك الإنسان، من استقامة أو انحراف، ومن هداية أو ضلالة، ومن إيمان أو كفر، جاءت الآيات تتحدث عن هذا الموضوع الخطير، الذي كان مبعث الدهشة والاستغراب منهم، وفي ذلك يقول الله جلَّتْ عظمته: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَّأْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأَوَلَيْكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَأَوَلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: إن تعجب يا محمد من شيء، فليس هناك ما هو أعجب من قول المشركين: أئذا متنا وأصبحنا رفاتاً هل سنبعث من جديد؟ فإن إنكارهم للبعث حقيق أن يتعجب به، فالذي قدر على خلق السموات والأرض، وخلق البحار والأنهار، وإخراج الفواكه

والثمار من الأرض الميتة، قادرٌ على إعادتهم بعد موتهم، فمالهم لا يتدبرون ولا يتفكرون!! .

قدرة الخالق ليست كقدرة المخلوق

ثم إن خلق الإنسان من نطفةٍ من ماء مهين، أبلغ وأعظم من إعادته بعد موته، وإن من قدر على خلقه من العدم، قادر على إعادته بعد فئاته كما قال تقدست أسماؤه: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ومدار الإنكار في أمر الكفار، أنهم قاسوا قدرة الخالق على قدرة المخلوق، فكما يستحيل على البشر، التمييز بين أجزاء بدنٍ وبدن، بعد أن تفتى اللحم والعظام، وتصبح رميماً ورفاتاً، فكذلك يستحيل في نظرهم على قدرة الخالق، إعادة هذا الإنسان بعد فئاته، ولهذا كانوا يقولون: مَنْ يحيي العظام وهي رميم؟

السلاسل والأغلال للكفار

وقد حكم القرآن عليهم بأمور ثلاثة، مترتبة على إنكارهم للبعث والنشور، وهي:

الأول: أنهم هم الكاملون المتمادون في الكفر والضلال، المغرقون في الجحود والإنكار.

الثاني: أنهم يُغْلون بالسلاسل في أعناقهم يوم القيامة.

الثالث: أنهم مخلدون في نار جهنم، لا يخرجون منها أبداً، ولا يُخفف عنهم من عذابها.

وإلى هذه الأمور الثلاثة، يشير قوله جلَّ وعلا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وتكرير قوله «أولئك» ثلاث مرات للإهانة والإذلال، تقبيحاً عليهم وتشنيعاً لما رموا به ربَّ العزّة والجلال، من العجز والنقص في صفاته العليّة، كما تفيد معنى الحصر في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فإنها جاءت جملة اسمية مؤكدة بالضمير المنفصل.

سخرية واستهزاء المشركين

وكما أنكر المشركون البعث بعد الموت، كذلك أغرقوا في السخرية والاستهزاء بدين الله وبرسوله، فقد كان ﷺ يحذّرهم عقاب الله وانتقامه، ويخوّفهم من عذابه الشديد، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم يسخرون ويهزءون، ويطلبون أن يعجّل لهم في العقوبة وبأتّهم بعذاب الله، سخرية وتهكماً، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ، وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. والمراد بالسيئة في الآية العقوبة التي كان ينذرهم بها الرسول ﷺ والمعنى: يستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بالعذاب والعقوبة قبل الرخاء والعافية ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ أي مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين في الأمم السالفة، الذين كذبوا رسلهم، فقد جعلناهم عبرةً وعظةً لمن اتعظ بهم، فما لهم لا يعتبرون ولا يتعظون!!.

ثم أخبر تعالى أنه لولا رحمته بالعباد، وعفوه عنهم، لعاجلهم بالعقوبة وأهلكهم بأشد أنواع العذاب، ولكنه تعالى رحيم ودود، يؤخر

العقاب ليتوب المذنب، ويرجع عن غيِّه الكافر الضال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

طلب المشركين لمعجزات أُخرى

ثم تمضي السورة الكريمة وهي تطالعنا بنوع آخر من فنون الكفر والتمرد والعناد، من أولئك الكفرة المكذبين من كفار قريش فقد كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بمعجزة باهرة، غير تلك المعجزات التي جاءهم بها، ومن أعظمها القرآن الكريم الذي فاق كل معجزات الأنبياء، فقد طلبوا أن يجعل لهم جبل الصفا ذهباً، وأن يُزيح عنهم الجبال، ويجعل لهم أرض مكة مروجاً وأنهاراً، وأن يأتيهم بمثل ما أتى به الأنبياء قبله موسى وعيسى وصالح، من العصا، واليد، والناقة وغير ذلك من المعجزات، ولم يعتدوا بالآيات الخارقة التي جاءهم بها خاتم المرسلين ﷺ كانشقاق القمر، وانقياد الشجر، ونبع الماء من بين الأصابع، وغيرها من المعجزات التي لا عد لها ولا حصر، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ؟! إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ والمعنى: يقول المشركون من كفار قريش: هلاً أنزل على محمد معجزة تدل على صدقه، مثل معجزات موسى وعيسى؟ قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي لست أنت يا محمد إلا رسول محذّر ومنذر، شأنك شأن كل رسول قبلك، فلكل قوم نبي يدعوهم إلى الله، وأما الآيات الخارقة فأمرها ليس إليك، إنما هو لمدير الكون وخالق العباد، وما على الرسول إلا البلاغ.

ما نستخلصه من الآيات البيّنات

ونستخلص من هذه الآيات البيّنات، أن المشركين طعنوا في نبوة محمد ﷺ من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: طعنهم في نبوته من حيث تكذيبهم له عليه الصلاة والسلام في أمر البعث، والحشر والنشر.

الوجه الثاني: طعنهم في نبوته بسبب ما أنذرهم به من نزول عذاب الاستئصال.

الوجه الثالث: طعنهم في نبوته لأنه عليه السلام لم يأتهم بالمعجزات التي طلبوها منه.

وقد تكفل القرآن بالردّ على هذه المطاعن والشبهات، فذكر أولاً الدلائل على قدرته الباهرة في أنه تعالى هو مبدع السموات والأرض، وهو خالق الخلائق أجمعين، وهو الذي رفع السموات بغير عمدٍ، وهو الذي سخّر الشمس والقمر على وفق مصالح العباد، وهو الذي أظهر في الكائنات أنواع العجائب والغرائب، فمن كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة، كيف لا يقدر على إعادة الإنسان بعد موته؟ ولهذا جاء بأسلوب يدلّ على أنهم في تصورهم لهذا الأمر وهو اعتقادهم بعدم قدرة الله على إعادتهم بعد الفناء، قد جاءوا بأعجب العجب، فهي شبهة لا تستحق الردّ لوضوح بطلانها، وقد نبّه تعالى عليها بقوله: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ وحقاً إن هذا الأمر عجاب، فإن الذي خلقهم من نطفة من ماء مهين، وصوّرهم في أحسن صورة، كيف لا يستطيع على إعادتهم بعد الموت؟

وأما الوجه الثاني: فإن الرسول ﷺ كان يهدّد المشركين تارة

بعذاب الدنيا، وتارة بعذاب يوم القيامة، وكان القوم كلما هدّدهم بعذاب القيامة أنكروا البعث والحشر والنشر، وكلما هدّدهم بعذاب الدنيا استهزءوا وقالوا: جئنا بهذا العذاب إن كنت من الصادقين، قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء، وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك بقوله تقدست أسماؤه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ.. الآية﴾ والمعنى: ويستعجلونك يا محمد بالعذاب الذي لم نعالجهم به، وقد علموا ما نزل من عقوباتنا بالأمام الخالية فلم يعتبروا بها، وكان ينبغي أن يردعهم ذلك عن الكفر اعتباراً بحال من سلف، فكما أهلكنا أولئك، نُهلك هؤلاء.

وأما الوجه الثالث: وهو طلبهم معجزات سوى المعجزات التي شاهدوها منه ﷺ كحنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل، فقد طلبوا منه معجزات قاهرة غير هذه الأمور، مثل فلق البحر بالعصا، وقلب العصا ثعباناً، وشفاء الأعمى والأبرص، وغير ذلك وقد ردّ القرآن الكريم عليهم بأنه قد أعطاهم أعظم المعجزات الباهرة، وهو هذا القرآن العظيم فلم يؤمنوا، ولو أجابهم إلى ما طلبوا ثم أصرّوا على العناد ولم يؤمنوا، لاستحقّوا عذاب الاستئصال، فلهذا السبب ما أعطاهم الله مطلوبهم، رحمةً بهم لئلا يهلكوا، وأيضاً فإن فتح هذا الباب يفضي إلى ما لا نهاية، وهو أنه كلما أتى رسول بمعجزة، جاء من يطلب منه معجزة أخرى، وذلك يوجب سقوط دعوى الأنبياء عليهم السلام.

معجزة كل نبيٍ تتناسب مع زمانه

وقد أشار تعالى إلى أنه قد خصّ كل نبي بمعجزة تتناسب مع ما غلب في زمانه واشتهر، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام

السحر، جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقة قومه، ولما كان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطب، جعل معجزته من جنس تلك الطريقة، وهي إحياء الموتى، وإبراء الأكمه - أي الأعمى - والأبرص، ولما كان الغالب في أيام الرسول عليه السلام الفصاحة والبلاغة، جعل معجزته موافقة لذلك الزمان، وهو فصاحة القرآن، فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم، فلأن لا يؤمنوا بغيرها من المعجزات من باب أولى، ولهذا أمر الله الرسول ﷺ ألا يستجيب لطلبهم، وأن يعرض عنهم، ويبيّن له أنه ليس عليه إلاّ تبليغ الدعوة والإنذار، وإلى ذلك يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي هلاً أنزل الله على محمد معجزة ظاهرة ساطعة تدل على صدق نبوته؟! قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي ليس عليك إلاّ الإنذار، ولكل أمة نبي يهديها ويرشدها إلى الحق، وإلى طريق السعادة، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها.

علم الله الشامل المحيط

ثم تلتها الآيات الكريمة، تذكر للمشركين علم الله الواسع الشامل، الذي أحاط بكل شيء معرفةً وخلقاً وصنعاً، فما يغيب عنه سبحانه وتعالى مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وسواء في علمه تعالى الصغير والكبير، والشجرة والحبة، والجبل والذرة، الكل في علمه سواء، وكيف يغيب عنه شيء، وهو جلّ وعلا قد علم ما في أرحام الأمهات من بنين وبنات؟ يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها هل هو ذكر أم أنثى؟ تام أم ناقص؟ حسن أم قبيح؟ يعلم كل شجرة، وكل ثمرة، وكل قطرة تنزل من السماء، فتغيب في مجاهل الأرض، ويعلم ما يظهره

غذاؤه؟ وهل سيستمرُّ في بطن أمه إلى التمام، أم سيكون سقطاً بعد مضيَّ أيام؟ كيف تخفى عليه أحوال الإنسان، وكيف يغيب عنه ما أكلت الأرض وأفنت من الأجسام والأبدان؟! ولهذا جاءت الآيات توضِّح علمه الشامل الكامل، كبرهانٍ حسيٍّ على البعث والنشور.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ ليس قاصراً على ما تحمله الأمهات في بطونهنَّ، بل هو عام يشمل كل أنثى من المخلوقات، من امرأةٍ، وناقيةٍ، وبقرةٍ، وشاةٍ، وكل أنثى من المخلوقات الآدميات وغير الآدميات، لأن لفظة «كل» تفيد العموم، فعلمه واسع، وخلقُه شامل، يعلم الجنين وهو في بطن الأم، غائب عن الأنظار، أهو ذكرٌ أم أنثى، كامل الخلق أم ناقص، حسن أم قبيح، طويل أم قصير، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة، والمترتبة فيه.

معنى غيض الأرحام

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ فمعناه: ما تنقصه الأرحام، أرحام الأمهات بإلقاء الجنين قبل التمام، كأن تلده لسته أشهر، أو سبعة أشهر، أو ثمانية أشهر، أو تلده سقطاً غير متكامل الخلق، مأخوذ من الغيض وهو النقص ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي وما تزداد على الأشهر التسعة، قال ابن عباس: ﴿مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ بالوضع لأقل من تسعة أشهر، وما تزداد بالوضع لأكثر من تسعة أشهر، وروي عنه أيضاً أن ما تغيضه الأرحام هو السقط الناقص الذي لم يتكامل خلقه سقط من بطن أمه ميتاً، وبالأزدياد: الولد التام الخلق.

ثم قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي كل شيء من الأشياء عند الله تعالى، بمقدار محدود، وبأجلٍ معدود، لا يزيد عنه ولا

الإنسان وما يخفيه، من أسرار ونَوَايَا، حتى الهواجس والخواطر التي ترد على قلبه يعلمها جلَّ وعلا، فكيف تغيب عنه أفعال العباد وأعمالهم، وحركاتهم وسكناتهم، وهو الرقيب على كل نفس بما كسبت!! وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمَتَعَالِ . سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

الآيات برهان على البعث

وإنما وردت الآيات كبرهان ساطع قاطع، على قدرة الله عز وجل على إعادة الإنسان بعد الموت، وإحيائه بعد الفناء، لإثبات عقيدة «البعث والنشور» التي أنكرها المشركون واستبعدوها بل اعتقدوا استحالتها، حين قالوا: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ وقالوا: كيف يستطيع الله أن يخلقنا وبعيدنا، بعد أن نصبح رفاتاً ورميماً، وتغيب عظامنا وتختلط ذراتها البالية بتراب الأرض؟ كما حكاه عنهم القرآن الكريم في قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأَيُّ غَابَتْ أَجْسَامُنَا وَاختَلطت ذراتها بتراب الأرض﴾ ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ أي هل سنبعث ونعود إلى الحياة مرة ثانية؟ ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ . قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فجاءت الآيات هنا لتقييم الأدلة والحجج والبراهين، على قدرة الله في الإنشاء والإبداع، والخلق والتصوير، فإن الكبير المتعال الذي يعلم كل ذرة في البر، وكل قطرة في البحر، والذي يعلم الجنين في أول مراحل تكوينه، كيف يتخلق، وكيف يتصور، وكيف يصل إليه

الملائكة موكلون بحفظ البشر

ثم تلتها الآيات الكريمة، وهي تُبَيِّن وتوضح رحمة الله بالعباد، حيث أوكل بهم ملائكة تحرسهم وترعاهم، وتكتب أعمالهم، وتقيهم من شر الشياطين ومردة الجن، ولولا هؤلاء الملائكة لتخطفت الشياطين بني آدم واغتالتهم، لأنهم أعداء ألداء للبشر، فقد جعل الله الملائكة كالجنود والحرس لهم وفي ذلك يقول ربنا تقديست أسماؤه: ﴿لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يُحَفِّظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ والمعنى: للإنسان ملائكة تحفظه موكلَّة به تتعاقب في حفظه، من أمامه وخلفه، يحفظونه من الأخطار والمضار، وفواجع الليل والنهار، قال مجاهد: «ما من عبدٍ إلا وله ملكٌ يحفظه من الجن، والإنس، والهوام، في نومه ويقظته» وفي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة الفجر، وفي صلاة العصر...» الحديث وقال ابن عباس: «وَكَلَّ اللَّهُ بِالْإِنْسَانِ مَلَائِكَةً يُحَفِّظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، فَإِذَا جَاءَ قَدْرُ اللَّهِ خَلَّوْا عَنْهُ»^(١) وقال كعب الأحمدي: «لولا أن الله وكلَّ بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم، ومشربكم، وعوراتكم، إِذَا لُتْخَفْتُمْ»^(٢) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ والمعنى: أن الله تعالى لا يزيل نعمته عن قوم، ولا يسلبهم إياها، إلا إذا هم بدَّلوا أحوالهم الجميلة بأعمال قبيحة، وانتهكوا محارم الله، وقابلوا النعمة بالجحود، والفضل بالكفران، وهذه من سنن الله الكونية والاجتماعية، أن الله لا يبدل النعمة ولا يسلبها من قوم، إلا

(١) انظر تفسير ابن كثير المختصر ٢/٢٧٣.

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير عن كعب الأحمدي ٢/٢٧٣.

ينقص، في الخلق، والرزق، والقدر، والكيف، والكم، الأمطار بمقدار، والأرزاق بمقدار، والرياح بمقدار، والثمار بمقدار، والأعمار بمقدار ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ ولو اختلت المقادير لفسد نظام الكون. وقوله تعالى: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ أي يتساوى عنده جلّ وعلا ما غاب عن الحسّ والبصر، وما كان مشاهداً مرئياً بالنظر، وما خفي عن العباد وما شهدوه، فعلمه تعالى شامل للخفي والمرئي، والمعلوم والمستور، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ أي العظيم الذي هو أكبر من كل شيء، المتعالي على كل شيء، الذي قهر العباد، وخضعت لعظمته الرقاب.

السُّرُّ والجَهْرُ عند الله سواء

وزيادة في الإيضاح والبيان، لعلمه الشامل الكامل، ومعرفته بأحوال العباد، ما خفي منها وما ظهر، قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ أي يستوي في علمه تعالى ما أضمرته القلوب، وما نظقت به الألسنة، ومن همس بالكلام سرّاً، أو نطق به جهراً، ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي ويستوي في علمه كذلك من هو مستتر في ظلام الليل يعمل القبائح، وهو في غاية الاستتار والاختفاء، ومن يأتي بها في وضح النهار، لا يستخفي من عمله القبيح، بل يجاهر به ويفاخر، والسارب في اللغة: الذاهب في سرّبه - أي طريقه - لا يستخفي عن الأنظار، قال الأزهري تقول العرب: سربت الإبل أي مضت في الأرض ظاهرة حيث شاءت، ومعنى الآية: سواء كان الإنسان مستخفياً في الظلمات، أو كان ظاهراً في الطرقات، فعلم الله تعالى محيطاً بالجميع.

إذا كفروا تلك النعم، وارتكبوا المعاصي، فعند ذلك يغير الله أحوالهم، فينقلهم من العز إلى الذل، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السعادة إلى الشقاوة، كما قال سبحانه عن كفار مكة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ؟﴾ ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أي ما لهم من يدفع عنهم العذاب والبلاء، إذا أراد الله بهم الشقاء، اللهم لا تهلكننا بغضبك، ولا تقتلنا بعذابك، ونجنا قبل ذلك، برحمتك يا أرحم الراحمين.

الآيات الكونية العجيبة في هذا الوجود

وتتناول السورة بعد ذلك، آيات الله الباهرة، المنبئة في هذا الكون، لتقيم الحجة تلو الحجة، والبرهان بعد البرهان، على قدرة الله ووحدانيته، وتبهر الطريق لأولئك الذين عَشِيَتْ عيونهم عن رؤية هذه الدلائل، فأشركوا مع الله غيره، وعبدوا حجارة لا تستجيب ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، ولا تُغني عن عابدها شيئاً. من هذه الدلائل الكونية، السموات والأرض، والليل والنهار، والسحب والأمطار، والبرق والرعد، والصواعق المدمرة التي تنشأ بقدرة الله من احتكاك السحب بعضها ببعض، والناس عن التفكير في هذه الآيات الكونية غافلون، يعتبرونها أموراً عادية، وأحوالاً طبيعية، ولو أمعنوا فيها النظر لرأوا عجائب وغرائب، تدل على قدرة الله العليّ الكبير، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ. وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

الآية الأولى البرق

وقد ذكر الباري جلّ وعلا في هذه الآيات الكريمة أموراً أربعة من الآيات الكونية العجيبة.

الأول: البرق، وهو قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ والبرق هو ما يرى من النور اللامع، ساطعاً من خلل السحاب، ولا شك أنه آية عجيبة على قدرة الله تعالى، وبيان ذلك أن السحاب يتكوّن من أجزاء رطبة مائية، ومن أجزاء هوائية وناارية، والغالب فيها الأجزاء المائية، والماء جسم بارد رطب، والناار جسم حار يابس، فخرج البرق من خلل السحاب آية باهرة، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي هو تعالى بقدرته يريكم هذا البرق اللامع من هذا السحاب المتكاثف، فيخرج من الظلمة نوراً، ومن البخار ماءً عذباً فراتاً، ويجعل هذا السحاب يحمل الأطنان الضخمة من الماء، الذي فيه حياة النفوس والأشياء، وقوله تعالى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفاً من الصواعق، وطمعاً في نزول الغيث، قاله ابن عباس رضي الله عنه، قال المتنبّي:

فَتَمَّى كَالسَّحَابِ الْجَوْنِ يُخْشَى وَيُرْتَجَى يُرْجَى الْحَيَا مِنْهَا وَيُخْشَى الصَّوَاعِقُ
وقيل: يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر، والمزارع الذي درس الحبّ وجمع القطن، ويطمع في نزوله من له فيه نفع، كمن وضع البذر في الأرض، أو احتاج إلى سقي الثمر.

الآية الثانية السحاب

الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ﴾ أي يخلق شيئاً فشيئاً السحب الكثيفة

ويسوقها بقدرته، وهي محملة بالماء الكثير، فيها الحياة والنفع، للزرع والضرع، فلو فكّر الإنسان كيف حمل هذا السحاب - وهو بخار خفيف - هذه الكميات الكبيرة من الماء، وربما كان فيها آلاف الملايين من الأطنان، لعرف شيئاً من قدرة الله الباهرة، ثم كيف ينزل هذا المطر من السحاب قطراتٍ قطراتٍ، متلاحقة متتابعة، ويبقى منهمراً ساعات ساعات، أو يدوم أياماً معدودات، ولا ينصبُّ دفعةً واحدةً لئلا يتلف الزرع، ويقضي على الثمر، ويؤدي العباد، فسبحان من أنزله برحمته قطراً مدراراً، سحاً فراتاً، ولم يجعله ملحاً أجاجاً!!

الآية الثالثة الرعدُ

الثالث: من الدلائل المذكورة في هذه الآية الكريمة «الرعدُ» وإليه يشير قوله جلّت عظمتة: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي يسبح الرعد له تسبيحاً مقترناً بحمده والثناء عليه، وتسبح له الملائكة خوفاً من عذابه، وتسبيحُ الرعد حقيقةً أخبر عنها القرآن، فحن نؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات، فهو تعالى لا يخبر إلا بما هو حق، ولا عجب في ذلك فكل ما في الكون يسبح المولى جلّ وعلا ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١) وكان ﷻ إذا سمع الرعد والصواعق دعا فقال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك» (٢) وعن أبي هريرة أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة

(١) سورة الإسراء آية رقم ٤٤.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد في المسند، وانظر مختصر تفسير ابن كثير

من خيفته». وفي الحديث «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله، فإنه لا يصيب ذاكراً»^(١).

الآية الرابعة الصواعق

الرابع: من الدلائل المذكورة في هذه الآية الكريمة «الصواعق» وإليه يشير قوله تقديست أسماؤه: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها مَنْ يشاء﴾ والصواعق إنما تحدث باحتكاك السحاب بعضه ببعض، وما يحمله من شحنات كهربائية، فعند اصطدام هذه الشحنات تحدث الصاعقة، فتخرّب وتدمّر، وأمرها من أغرب الأمور، إذ إنها تتولّد من السحاب، وقد جمع الله في السحاب بين الرحمة والعذاب، فهو يحمل المطر، ويحمل الصواعق، وفي الماء الإحياء، وفي الصواعق الإفناء، والجمع بين النقيضين من العجائب كما قال الشاعر:

جَمْعُ النَّقِیْضِیْنِ مِنْ أَسْرَارِ قُدْرَتِهِ هَذَا السَّحَابُ بِهِ مَاءٌ بِهِ نَارٌ
فَمَا أَجَلٌّ وَأَعْظَمُ قُدْرَةَ اللَّهِ، إِذْ أَخْرَجَ مِنَ السَّحَابِ الْمَاءَ، وَأَخْرَجَ
مِنَهُ الصَّوَاعِقَ الْمَدْمَرَةَ.

قال الفخر الرازي في التفسير الكبير: «واعلم أن أمر الصاعقة عجيب جداً، وذلك لأنها تارة تتولد من السحاب، وإذا نزلت من السحاب، فربما غاصت في البحر، وأحرقت الحيتان في لجة البحر، والحكماء بالغوا في وصف قوتها، ووجه الاستدلال أن النار حارة، وطبيعتها ضدّ طبيعة السحاب، لأن السحاب جسم مركب من أجزاء رطبة مائية، والماء جسم بارد رطب، والنار جسم حار، وظهور الضدّ من

(١) الحديث أخرجه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً وذكره الحافظ ابن كثير ٢٧٤/٢ في تفسيره.

الضدّ التام على خلاف العقل، فلا بدّ من صانع مختار، يُظهر الضدّ من الضدّ، وكان ينبغي أن تكون الصواعق أضعف من طبيعة النيران الحادثة عندنا، لكنه ليس الأمر كذلك، فإنها أقوى نيران العالم، فثبت أنها بتخصيص الإله الجبار»^(١).

سبب نزول الآية الكريمة

وقد ذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآية، أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى جبار من فراعنة العرب، فقال للصحابي: اذهب فادعه لي، فقال يا رسول الله: إنه جبارٌ عاتٍ، قال: اذهب فادعه لي، فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: مَنْ رسولُ الله؟ وما الله؟ أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من نحاس؟ فرجع إلى رسول الله عليه السلام فأخبره بما قال الرجل، وقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، فقال له: ارجع إليه ثانية، فذهب فقال له مثلها قال: أخبرني عن إله محمد أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من نحاس؟ - يقول ذلك سخرية واستهزاء - فأعاده إليه الثالثة، فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما الرجل يكلمه، إذ بعث الله عليه سحابةً حيال رأسه، فرعدت فوقعت منها صاعقة، فذهبت بقحف رأس الكافر، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾^(٢). ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ أي هو تعالى شديد القوة والبطش والنكال، فيمن طغى وعتا وتمادى في كفره.

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ٢٧/١٩.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ١٢٥/١٣ وأخرجه المحافظ البزار والموصلي، وانظر تفسير ابن

كثير ٢٧٤/٢.

تصوير رائع لعباد الأوثان

ثم أخبر تعالى عن عبدة الأوثان، أنهم يعبدون حجارة صماء بكماء، لا تنفع ولا تضر، ولا تستجيب لداعيها وعابدها، وسواء من دعاها أو دحاها فقال تقديست أسماؤه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ والآية أسلوب بديع في تصوير حال هؤلاء المشركين مع أصنامهم، فقد شبههم تعالى بتصوير في منتهى الوضوح والجمال، شبههم بصورة إنسان عطشان، اشتد عطشه فهام على وجهه يبحث عن الماء، فلما أبصر الماء من بعيد، أخذ يصرخ ويناديه طالباً من الماء أن يحضر إليه ليشربه، ويمد يديه صارخاً مستغيثاً، وهو لا يستجيب له لأنه جماد لا يشعر بعطشه، كذلك هؤلاء الذين عبدوا هذه الأحجار يدعونها وهي لا تستجيب لهم، وبإله من تصوير بديع رائع يأخذ بالألباب!!

التهكم بالآلهة المزعومة

وبعد أن سفهت الآيات عقول المشركين، في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع، وطلبهم من الأوثان ما يطلبه الداعي المؤمن من الرحمن، من كشف الضر، وطلب الرزق، واستنزال الرحمة، وطلب المغفرة، وضربت لهم الأمثال بالأحمق الذي اشتد عطشه، فهو ينادي الماء ليصل إلى فمه، والماء جماد لا يحس ولا يسمع، جاءت الآيات بعدها لتقرير عقيدة التوحيد، بأسلوب المناظرة والمحاورة، لإقامة الحجة عليهم في حماقتهم في عبادتهم لتلك الحجارة الصماء، وتركهم لعبادة الواحد الأحد، القادر على كل شيء، المدبر لشئون العباد، الذي بيده النفع

والضُّرِّ، والإحياء والإماتة، والخلقُ والأمر، وهو القائم على كل نفسٍ بما كسبت، بينما تلك الآلهة المزعومة، من الأوثان والأصنام، عاجزون عن تحصيل المنافع والمضار لأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، فكيف يجعلونها آلهة ويعبدونها مع الله؟ وبأسلوبٍ رفيعٍ من بديع البيان، يسخر القرآن من عقولهم، ويسفه أحلامهم، في تعلقهم بتلك الحجارة المنحوتة، التي نحتوها بأيديهم، ثم أضفوا عليها من صفات ذي العزة والجلال، ما يجعلها في مقام الإله الكبير المتعال، وعكفوا عليها يعبدونها من دون الله، وهذا هو منتهى السفه والخبال، إذ كيف يُساوى بين القادر والعاجز، والحيِّ والجماد، والخالق والمخلوق؟ وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلِ اللهُ، قُلْ أَفَتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ؟ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ؟ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾.

تلقين الحجة وإفحام الخصم

وهذا الأسلوب هو أسلوب تلقين الحجة، وإفحام الخصم بأبسط أمور الجدل والمناظرة، والمعنى ﴿ قُلْ ﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين: مَنْ خالق السموات والأرض ومدبر أمرهما؟ فإنهم لا يستطيعون أن يقولوا: آلهتنا هذه الأصنام التي نعبدها هي التي خلقتهما، والسؤال هنا سؤال تهكم وسخرية، وإزراء بعقولهم لعبادتهم للأصنام، وسوف لا يستطيعون الإجابة ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ أي قل لهم تقريراً وتوبيخاً: اللهُ خالقهما ومبدعهما ومنشؤهما

﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أي قل لهم - إلزاماً لإقامة الحججة عليهم - أ جعلتم لله شركاء، وعبدتموهم من دونه، وهم لا يقدرّون على نفع أنفسهم، ولا على دفع الضرر عنها؟ فكيف يستطيعون نفعكم، ودفع الضرر عنكم؟

تمثيل بديع بالأعمى والبصير

ولما ذكر تعالى هذه الحججة الظاهرة القاطعة، على بطلان ما يدعون، ذكر أن الجاهل بها يكون كالأعمى، والجهل بمثل هذا الأمر الجلي كالظلمات، والعلم بها كالنور، ولهذا أردفها بقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ؟ ﴾ أي هل يستوي الكافر الأعمى الذي لا يرى طريقه، فيخبط في الحياة خبط عشواء، بالمؤمن البصير، المستنير بنور الله الذي يعبد ربه على بصيرة ويقين وإيمان؟ فكما لا تستوي الظلمات والنور، كذلك لا يستوي المؤمن والمشرک، فالفارق بين الحق والباطل، واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال، كالفارق بين النور والظلام، ثم أردفها تعالى بما هو أظهر وأوضح فقال: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً خلقوا مخلوقاتٍ كالتي خلقها الله، حتى التبس الأمر عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم؟ وهو تهكم لاذع بالسفيه الجاهل، فإنهم يرون كل شيء من خلق الله، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئاً قط، ثم بعد هذا كله يعبدونها من دون الله، وذلك أسخف وأحط ما تصل إليه عقول المشركين، وبعد أن أقام الحججة عليهم، وأفحمهم بالبرهان الساطع، جاءهم بهذه النتيجة الظاهرة التي

لا يملكون لها دفعاً، فقال تقدست أسماؤه: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي الله وحده هو الخالق لهذه المخلوقات، وهو المبدع لهذه الكائنات، وكل ما سوى الله فباطل وضلال.

مَثَلان للحق والباطل

وبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة أن في الأرض دعوتين: دعوة الحق، ودعوة الباطل، وذكر أن دعوة الله هي دعوة الحق، وأن دعوة ما يعبدون من دونه هي دعوة الباطل، ذكر بعدها مثلين من روائع الأمثلة، ضربهما تعالى للحق وأهله، والباطل وحزبه، ليتضح الفرق بين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، فقال تقدست أسماؤه: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾.

والآية ليست خبراً عن نزول الماء من السماء، ثم امتلاء الأودية به والشعاب، إنما هي مثلٌ يضربه الله عزّ وجل، ليبين الفارق بين الماء النافع، والزبد الطافي الذي لا خير فيه ولا نفع.

أما المثل الأول: فهو مثلٌ للحق في ثباته، والباطل في ذهابه واضمحلاله، فقد مثل تبارك وتعالى للإيمان والحق، بالماء النافع الذي ينزل من السماء، فتسيل به الأودية، كلٌّ على حسب سعته وضيقه، وهذا الماء يجرف في طريقه الغثاء، يطفو على وجهه في صورة الزبد، وهو نافسٌ منتفخ، والماء من تحته ساكنٌ هادئ، ولكنه يحمل الخير

والحياة، بينما الزبد يفور ويُزبد، ثم لا يلبث أن يذهب ويتلاشى، ذلك مثل الحق والباطل، فالباطل يطفو ويعلو، ويبدو رايياً منتفخاً، ثم بعد أن يهدأ السيل، إذا به غثاء وجفاء، لا يبقى منه شيء، لأنه لا حقيقة له، بينما الماء يبقى لأن فيه روح الحياة.

أما المثل الثاني: فهو في تلك المعادن التي خلقها الله لعباده، منها الذهب والفضة وهما للزينة والجمال، ومنها النحاس والحديد والرصاص للحاجة والمتاع، فهذه المعادن التي تُصهر وتُذاب، فإن الخبث يطفو عليها أيضاً، ولكنه بعدُ خبثٌ يذهب، ويبقى المعدن في نقائه، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فلما ذكر تعالى هذا الزبد الذي لا يظهر إلا عند اشتداد جري الماء، ذكر الزبد الذي لا يظهر إلا بالنار، فإذا أُذيب المعدن انفصل عنه نوع من الزبد والخبث، فجعل الله ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يذهب ويضمحل، وكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن استمسك بالحق وعمل به، بقي له كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطيع أن يُعمل منه سكين ولا سيف، حتى يدخل في النار فتأكل خبثه، ويخرج جيده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعُرضت الأعمال، يزيع الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق. ومما يدل على أن الآية وردت مورد التمثيل قوله تعالى في آخرها: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾.

كلامٌ بديعٌ للفخر الرازي

قال الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير:

«لما شَبَّهَ تعالى المؤمن والكافر، بالأعمى والبصير، وشَبَّهَ الكفر والإيمان بالظلمات والنور، ضرب للإيمان والكفر مثلاً آخر، قال تبارك وتعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ ومن حقَّ الماء أن يستقر في الأودية، المنخفضة عن الجبال والتلال، بمقدار سعة تلك الأودية وصغرها، ومن حقَّ الزَّبَد الذي يحتمله الماء فيطفو ويربو عليه، أن يتبدَّد في الأطراف ويبطل، ولما ذكر تعالى هذا الزبد، الذي لا يظهر إلا عند اشتداد جري الماء، ذكر الزبد الذي لا يظهر إلا بالنار، وذلك لأن كل واحدٍ من المعادن السبعة إذا أُذِيب بالنار، لابتغاء حليةٍ أو متاع يحتاج إليه الإنسان في مصالح البيت، فإنه ينفصل عنه نوعٌ من الزبد والخَبَث، ولا يُنتفع به بل يضيع ويبطل ويبقى الخالص.

والحاصلُ أن الوادي إذا جرى طفا عليه زَبَدٌ، وذلك الزبد يبطل ويبقى الماء، والمعادن السبعة إذا أُذِيبَتْ لأجل اتخاذ الحليِّ أو الأمتعة، انفصل عنها خَبَثٌ وزبد، فيبطل ويبقى ذلك الجوهر المتَّفَعُّ به، فكذلك هنا أنزل الرحمن من سماء الكبرياء والإحسان، ماءً وهو القرآن، والأوديةُ قلوبُ العباد، وشَبَّهَ القلوب بالأودية، لأن القلوب تستقر فيها أنوار علوم القرآن، كما أن الأودية تستقر فيها المياه النازلة من السماء، وكما أن كل واحد، فإنما يحصل فيه من مياه الأمطار ما يليق بسعته أو ضيقه، فكذا هنا كلُّ قلب، إنما يحصل فيه من أنوار علوم القرآن، ما يليق بذلك القلب، من طهارته وخبثه، وقوة فهمه، أو قصور فهمه، وكما أن الماء يعلوه زبد من المعادن المُذَابَةِ، ويخالطها خَبَثٌ، ثم إن الزبد والخَبَث يذهب ويضيع، ويبقى جوهر الماء وجوهر المعادن، كذا ههنا بيانات

القرآن، تختلط بها شكوكٌ وشبهات، ثم إنها بالآخرة تزول وتضيع، ويبقى العلم والدين والحكمة في العاقبة، فهذا هو تقرير المثل ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾^(١). أقول: رحم الله الإمام الفخر الرازي، فقد أجاد في بيانه وأفاد، وكان بحراً يحتاج إلى من يغوص في أعماقه، ليستخرج منه اللآلئ والدرر الثمينة، فجزاه الله عن دينه وكتابه خير الجزاء.

الحديث عن الأبرار والفجار

وبعد أن أفاضت الآيات في ذكر البراهين، وضرب الأمثلة على ضلال المشركين، وسعادة المتقين المخلصين، وبيّنت الفارق بين الهدى والضلال، كالفارق بين النور والظلام، والأعمى والبصير، جاءت الآيات بعد ذلك، لتكشف لنا عن أحوال السعداء، وأحوال الأشقياء، وما يكون عليه الفريقان، من سرور ونعيم، أو عذابٍ وجحيم، وبدأت بالمؤمنين الأبرار، الذين استجابوا لدعوة الله، وإلى ما دعاهم إليه من الإيمان، والتوحيد، وإخلاص العمل لله رب العالمين، فنالوا سعادة الدنيا وعز الآخرة، ثم ثنّت بالفريق الثاني، وهم الأشقياء الفجار، الذين أعرضوا عن هداية الله، وتنكبوا عن الطريق السوي، فنالوا خزي الدنيا والعذاب الدائم في الآخرة، وفي هذين الفريقين يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ﴾ أي لهم الحسنى وهي الجنة دار المتقين ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ: ٣٥/١٩.

نعيم المحسنين في الآخرة

والآية بيان واضح لما سيكون عليه أهل السعادة وأهل الشقاوة في الآخرة، وقد ذكر تعالى جزاء المحسنين وأوجز فيه، ولكنه أسهب في بيان جزاء المجرمين، فذكر أنواعاً أربعة من العذاب والعقوبة، أما المؤمنون المستجيبون لدعوة الله فقد قال فيهم: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾ قال ابن عباس: هي الجنة وما فيها من النعيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمن دخل الجنة نال كل مبتغاه، وفاز بكل نعيم، لأن الحسنى - في كلام العرب - هي التي بلغت الغاية في الحُسن، والمراد بها الجنة كما قال ابن عباس وغيره، وهي المنزلة الرفيعة، والمنفعة الخالصة عن شوائب المضرة، الدائمة الخالية عن الانقطاع، المقرونة بالإجلال والإكرام، ومما يؤيد ذلك ما جاء في الحديث الشريف: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَحْيَا فِيهَا لَا يَمُوتُ، وَيُنْعَمُ فِيهَا لَا يِيَأْسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ.. قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا بَنَؤُهَا؟ قَالَ: لَبَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبَنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا - الطين الذي يمسك الأحجار ويشد بعضها ببعض - الْمَسْكُ، وَتَرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ»^(١).

وفي الحديث الآخر: «إِنْ أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزَلَةً، لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ جَنَانِهِ، وَأَزْوَاجِهِ، وَنَعِيمِهِ، وَخِدْمَتِهِ، وَسُرْرِهِ، مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ وَجْهِهِ غَدْوَةً وَعَشِيًّا - أي صباحاً ومساءً -» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾^(٢).

(١) الحديث أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا وإسناده حسن، وانظر الترغيب والترهيب للمنزدي ٥١٢/٤.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه والبيهقي والطبراني، وروي عن ابن عمر موقوفاً، وانظر جامع الأصول ٥٣٣/١٠.

عقاب المجرمين وأنواعه

هذا بعض نعيم الأتقياء، أما الأشقياء الذين لم يستجيبوا لدعوة الله، وكذبوا رُسل الله، فقد عدَّد تعالى من جزائهم أربعة أنواع من العقوبة:

الأول: الحسرةُ والأسى، وذلك أنهم يتمنون فداء أنفسهم من العذاب، بكل ما في الأرض من زخرفٍ ومال، ولكن هيهات أن يقبل منهم الفداء، لأنهم ماتوا على الكفر والضلال، وإليه الإشارة بقوله سبحانه ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾.

الثاني: شدة الحساب والعذاب، فإنهم يؤخذون بالصغير والكبير، والفيتل والقطمير، فلا يُغفر لهم من سيئاتهم شيء، ولا يُقبل من حسناتهم شيء، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سَوْءُ الْحِسَابِ﴾ يعني أسوأ أنواع العقوبة والجزاء.

قال الحسن البصري: «يُحاسِبون بذنوبهم كلها، لا يُغفر لهم منها شيء».

الثالث: سجنهم الدائم في الجحيم، مع الخلود المؤبد، فلا أمل في الخروج، ولا تنفيس عن الكربة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِجَهَنَّمَ﴾ أي مسكنهم ومقامهم الدائم الأبدي، الذي يأوون إليه يوم القيامة، هو نار جهنم.

الرابع: الإذلال والإهانة طيلة المكث والدوام، فلا يخفف عنهم من العذاب شيء، ولا يجدون ما يُسكِّن ألمهم وحزنهم برهةً من الزمن، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي بئس المستقرُّ والفراش نار جهنم.

سبب الهلاك عمى البصيرة

ولمّا أفاض سبحانه وتعالى في ذكر عقاب الأشقياء المجرمين، أردفه ببيان السبب في حصول هذا البلاء لهم، فقد كانوا في الدنيا عمياً عن رؤية الحق، لا يستجيبون لداعي الهدى، ولا يفكرون في المستقبل الذي ينتظرهم، فلذلك عموا عن رؤية الآيات والنذر، والأعمى إذا مشى من غير قائد، ربما وقع في البئر أو تلف في المهالك، أما البصير فإنه يكون آمناً من التردّي والهلاك، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ والمراد بالأعمى هنا هو أعمى البصيرة لا أعمى البصر، وهو الذي تخبط في ظلمات الجهل والضلال، وعاش في الدنيا بلا عقل ولا لبّ هائماً على وجهه كالحيوان، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر بآيات الله ذوو العقول السليمة، الذين تحصنوا بحصن الإيمان.

الأوصاف الحميدة التسع للأبرار

ثم شرع تبارك وتعالى في ذكر أوصاف أولئك السعداء، ذوي الألباب والعقول السليمة فقال تقدست أسماؤه: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ، وَلَا يَنْفُضُونَ الْمِيثَاقَ. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ. وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ. جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ، وَأَزْوَاجِهِمْ، وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾.

ذكرت الآيات الكريمة من أوصاف المؤمنين الأبرار، الذين لهم
حسنى الدار، تسعة أوصاف وهي:

الأول: الوفاء بالعهد، والعهد هنا عام يشمل جميع عهود الله،
وهي أوامره ونواهيه التي وصّى بها عباده، وإليه الإشارة بقوله جلّ ثناؤه:
﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ فيدخل فيه التزام جميع الفروض، وتجنب
جميع المعاصي.

الثاني: المحافظة على الميثاق، وهو ما قطعوه على أنفسهم من
عهود ومواعيد، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾
بخلاف أهل النفاق، فعلاقتهم إخلاف الوعد، ونقض العهد، وقد
قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا
اتّمن خان»^(١) وفي الحديث الصحيح: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا
دين لمن لا عهد له»^(٢).

الثالث: صلة الأرحام، والإحسان إلى الأنام، وإليه الإشارة بقوله
سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ويدخل في هذه
الصلة عيادة المريض، وإفشاء السلام، والتبسم في وجه أخيك
المسلم، وكف الأذى عن الناس، ودفع المضار حتى عن الحيوان، فقد
أخبر عليه أفضل الصلاة والتسليم عن امرأة «دخلت النار بسبب هرة
حبستها، لا هي أطعمتها، ولا هي سقتها، ولا هي تركتها تأكل من
خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَ»^(٣) ورجل سقى كلباً رآه يكاد يموت من

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨٤/١ ومسلم رقم ٥٨ في الإيمان والترمذي رقم ٢٦٣٤.

(٢) الحديث أخرجه أحمد والبخاري والطبراني في الأوسط. الترغيب والترهيب ١١/٤.

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، وانظر جامع الأصول ٥٢٥/٤.

العطش، فنزل بئراً فملاً خَفَّهُ وسقاه فشكر الله له فغفر له، قالوا يا رسول الله: وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال عليه السلام: «في كل كبدٍ رطبة أجر».

الرابع: الخشية من الله، وهي الخوف من عذابه، وإجلال وتعظيم شرعه ودينه، والوقوف عند حدوده، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

الخامس: محاسبة النفس قبل الحساب، وتذكر الموقف الرهيب بين يدي أحكم الحاكمين، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

السادس: الصبر بجميع ضروبه وأنواعه، ويشمل الصبر على أداء الطاعات، والصبر على ترك المشتبهات، والصبر على المكاره والمصائب، والغموم والأحزان، طلباً لرضى الرحمن، لا ليقال: ما أزهده وما أصبره وما أورعه؟ بل رضى بقضاء الله، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي طلباً لمرضاة الله، لا لغرضٍ دنيءٍ من الأغراض الفاسدة كحب الشهرة، وحب الثناء.

السابع: المحافظة على الصلاة بحدودها، وخشوعها، وآدابها، وأركانها، والإتيان بها على الوجه الكامل في أوقاتها، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

الثامن: أداء الزكاة لمستحقيها، والإنفاق في سبيل الله، على الفقراء والمحاويج والمساكين، في السرِّ والجهر، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

التاسع: من الأوصاف السنيّة التي وصف الله بها عباده الأبرار، مقابلة الشر بالخير، ودرء السيئة بفعل الحسنة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَيَذَرُونَّ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً وكرماً، وصفحاً وعفواً، وقد رتب المولى جلّ وعلا على هذه الأوصاف الحميدة، فوزهم بالعاقبة المحمودة، وهي الجنة دار السرور والحبور، فقال تقدست أسماؤه: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي الدار الحميدة التي لا دار تشبهها في الحُسن والصفاء، والأنس والسرور، التي وعد الله بها المحسنين المتقين، وهي مسكنهم ومستقرهم. ثم فسرها تعالى زيادة في التعريف والتشريف فقال: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ، وَأَزْوَاجِهِمْ، وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

ومعنى «عدن» في اللغة: الإقامة، مأخوذٌ من قولهم عدن بالمكان إذا أقام فيه طويلاً، فمعنى الآية أنها جنات إقامة خالدة، يدخلها أولئك الأبرار، ويدخلها كذلك مَنْ كان صالحاً من آبائهم ونسائهم وأولادهم، ليأنسوا بلقائهم، ويتمّ بهم سرورهم، وإن لم يكونوا يستحقون هذه المنازل الرفيعة العالية، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وإنما يفعل الله ذلك بهم زيادة في تكريمهم، ثم إن لهم إكراماً آخر بيّنه تعالى بقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي تهنئهم الملائكة، وتسلّم عليهم من كل باب من أبواب الجنة، قائلين لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي بسبب صبركم على الشدائد والمكاره والمِحْن، فلئن تعبتم فيما مضى فقد استرحتم الساعة ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى

الدَّارِ ﴿ أَي نِعْمَتِ الْجَنَّةِ مَأْوَى لَكُمْ، وَنِعْمَتِ هَذِهِ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ عَاقِبَتِكُمْ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَي تَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ هَهُنَا وَهَهُنَا لِلتَّهْنِئَةِ، يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مُسَلِّمِينَ مَهْنِّينَ لَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ، مِنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِنْعَامِ، وَالْإِقَامَةِ فِي دَارِ السَّلَامِ، فِي جَوَارِ الصَّدِيقِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْكَرَامِ (١).

مقابلة لطيفة بين الفريقين

ولما ذكر تبارك وتعالى صفات المؤمنين الأبرار، أعقبها بذكر صفات المجرمين الأشرار فقال تقدست أسماؤه ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ هكذا بإيجاز دون إسهاب، حكم الله عليهم بالشقاء والدمار، لأنهم على عكس صفات المؤمنين الأبرار، فهم ناقضون للعهد، مفسدون في الأرض، يقطعون الأرحام، ويأكلون الحرام، ويعيشون في الأرض بالبغي والإجرام، فلهم اللعنة الدائمة، وسوء العاقبة والمآل، وقرن بينهما في الذكر ليظهر الفارق الكبير بين عاقبة المتقين، وعاقبة المجرمين.

سعة الرزق ليس دليل السعادة

وبعد أن ذكر - جلت عظمته - صفات الكفرة الأشرار، الذين لهم اللعنة ولهم سوء الدار، أعقبها بدفع شبهة قد ترد على أذهان بعض الضعفاء، وهي: إذا كان هؤلاء الكفار أعداء الله، فكيف فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات في الدنيا؟ هذه نفسها الفكرة التي طالما رددتها

(١) مختصر ابن كثير ٢/٢٧٩.

المشركون، واختمرت في أذهانهم، حتى قالوا ما قصّه علينا القرآن الكريم ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ .

فجاءت الآيات هنا في هذه السورة لتدفع تلك الشبهة، وتزيل الوسوس التي تستولي على النفس في بعض الفترات، جاءت لتوضح أنه تعالى قد يبسط الرزق على البعض، ويضيِّقه على البعض، ولا تعلق له بالكفر والإيمان، فقد ترى الكافر موسّعاً عليه دون المؤمن، وترى المؤمن مضيّقاً عليه دون الكافر، فالدنيا دار امتحان وابتلاء، وليست دار التكريم والجزاء، ولهذا قال تقدست أسماؤه: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسع ويضيّق على مَنْ يشاء من عباده، حسب الحكمة والمصلحة، ثم قال تعالى: ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ أي فرح المشركون بما نالوا في هذه الدنيا من السعة والبسطة، فرحوا فرح بطر وأشر، لا فرح غبطة وشكر لله على إنعامه، وذلك لا يوجب الفرح، لأن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً حقيراً، يتمتع به الإنسان أياماً قلائل، ثم يعقبها حسرات لا نهاية لها، فكيف يفرح العاقل بمثل هذا الشيء التافه؟ ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ أي نزر قليل، وشيء حقير بالنظر للآخرة.

تحقير للمخدوعين بزينة الدنيا

وفي قوله تعالى: ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ خبرٌ عن المشركين، وفي ضمنه ذمٌ وتسفيه، لمن خدعته الدنيا بزينتها وفتنتها، وبهرجها اللامع، وما يدري أن وراءها السُّمَّ الزعاف، ولذلك نسي آخرته، وعكف على الدنيا وكأنها معبوده الذي يهواه.. هذه هي الدنيا تخدع ثم

تصرع، وتقتل عُشاقها وأحبابها، ولو علم هؤلاء العاشقون حقيقتها ما
فُتِنوا فيها، ولقد أحسن من قال:

فَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا جَزَاءً لِمُحْسِنٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَعَاشٌ لِظَالِمٍ
لَقَدْ جَاعَ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ كَرَامَةً وَقَدْ شَبِعَتْ فِيهَا بُطُونُ الْبَهَائِمِ

وما أجمل ما قاله ﷺ في بيان قدر الدنيا ومنزلتها عند الله حيث
قال ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً
منها شربة ماء»^(١) وليس معنى هذا أن يترك المؤمن الدنيا فلا يعمل لها،
ولا يأخذ بحظوظه الجسدية منها، بل المراد ألا تشغله عن الحياة
الآخرة، فيعمل للفانية وينسى الباقية، ويصبح عبداً لهذه الدنيا، همُّه
منها نيل الحطام، وجمع المال من حلالٍ أو حرام، فنعمت الدنيا إذا
كانت عوناً للإنسان على طاعة مولاه، وبشت الدنيا إذا شغلته عن العمل
للآخرة.

طلب المشركين لمعجزات أخرى

ثم حكى تعالى نوعاً آخر من قبائح الكفرة، وضلالهم وعنادهم،
فقد قالوا لرسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم: إن كنت يا محمد
رسولاً فائتنا بآيةٍ ومعجزةٍ قاهرةٍ ظاهرة، مثل معجزات موسى وعيسى
وصالح عليهم السلام!! وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَيَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾؟ أي يقول المشركون هلاً أنزل
على محمد معجزة من عند ربه، كمعجزة موسى في فلق البحر،

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وروى أحمد في
المسند أن النبي ﷺ مرَّ بشاةٍ ميتة، قد ألقاها أهلها، فقال: «والذي نفسي بيده، للدنيا
أهونُ على الله من هذه على أهلها» انظر الترغيب والترهيب ٤/١٧٣.

ومعجزة عيسى في إحياء الموتى ، وأمثال ذلك؟ وقد ردَّ الله عليهم بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ أي هو تعالى العالم بمن يستحق الهداية فيهديه، وبمن يستحق الضلالة فيضله، والآية جرت مجرى التعجب، فكأنه يقول: ما أعظم عنادكم!! فهذه الآيات الباهرة الساطعة التي ظهرت على يد رسول الله ﷺ ألا تكفيكم، حتى طلبتم غيرها من المعجزات؟! ولكن لا عجب فإن من أشقاه الله لا تنفعه الآيات والنذر!!

طمأنينة القلب عند سماع آيات القرآن

ثم ذكر تعالى صفات من هداه الله إلى طريق الإيمان والسعادة، فذكر من صفاتهم التوبة والإنابة، وطمأنينة القلب، وسكينته عند تلاوة كتابه، ويقينهم بصدق ما جاءهم به محمد ﷺ من الأخبار والآيات البينات، وبذلك رسخت في قلوبهم السكينة والطمأنينة، فلم ينشغلوا بهذه الدنيا الفانية كما شغل الكفار، بل جدوا في طاعة ربهم، فصدقوا في الإيمان، وأخلصوا العمل للرحمن، وفيهم يقول تقدست أسماؤه: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ. الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا بَرَ ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يريد أنهم إذا سمعوا القرآن، خشعت قلوبهم واطمأنت» فيقينهم بأن القرآن من عند الرحمن، يوجب حصول الطمأنينة لهم، بأن الله سبحانه واحد لا شريك له، وأنه تعالى صادق في وعده ووعيده، وبأن محمداً نبي حق مرسل من عند الله .

وجيء بصيغة المضارع لا الماضي ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ ﴾ ولم يقل: واطمأنت، لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره، لأن المضارع يفيد

التجدد والحدوث، فهم دائماً في طمأنينة وسكينة، لا يشعرون بقلق واضطراب من سوء العقاب، على عكس الذين غفلوا عن الله، فاضطربت نفوسهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم.

تذكيرهم بالنعمة العظمى

ولما كانت بعثة خاتم النبيين، هي النعمة العظمى على العرب وعلى الناس أجمعين، ذكّرهم تعالى بفضله وإنعامه عليهم بإرسال الرحمة المهداة سيد الأولين والآخرين، ولكن المشركين لم يعرفوا قدر هذه النعمة، فكفروا بربهم، وكذبوا رسوله، وأبوا أن يستجيبوا لدعوة الرحمن، ويالها من شقاوة وخسران!! وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴿ أَي مَضَتْ قَبْلِهَا أُمَمٌ كَثِيرَةٌ: ﴿ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ وهكذا قابلوا النعمة بالجحود والكفران، من تعاستهم وشقاوتهم، والغرض من الآية تثبيت نبوة محمد ﷺ، وتأكيده رسالته التي أنكرها المشركون، فهم آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء، ثم تسليته عليه الصلاة والسلام على ما يلقاه من قريش من الجحود والعناد، فليس هو أول نبي يُكذَّب، بل سبقه رُسُلٌ كذبهم قومهم، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

اقتراحات عجيبة من كفار مكة

وتمضي السورة الكريمة لتكشف لنا الأستار، عن موقف الكفار من دعوة سيد المرسلين، فلقد بالغوا في السخرية والاستهزاء، وأمعنوا في الغي والضلال، حتى وصل بهم الحال إلى أن ينالوا من القرآن

الكريم بالقدح والطعن، وطلبوا من رسول الله عليه السلام أن يأتيهم بمعجزة غير هذا القرآن، واقترحوا عليه اقتراحات هي إلى اللجاج والعناد، أقرب منها إلى التصديق والإيمان، فقد روي أن أهل مكة، قعدوا في فناء الكعبة، فأتاهم رسول الله ﷺ وعرض عليهم الإسلام، فقال له رؤسائهم كأبي جهل، وعقبة بن أبي معيط، وعبد الله بن أمية المخزومي: إن كنت صادقاً في دعوى النبوة، فسير لنا جبال مكة حتى ينفسح علينا المكان ويتسع، واجعلها سهولاً ورياضاً، واجعل لنا فيها أنهاراً تجري في أطراف مكة، حتى نزرع فيها ونسقي، وأحيي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقوله أم باطل؟ - فقد كان عيسى يحيي الموتى - أو سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد، فقد كانت الريح مسخرةً لسليمان، ولست بأهون على ربك من سليمان، فأنزل الله رداً عليهم فيما اقترحوا، هذه الآيات البيّنات، وهي قوله تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَوْ أَن قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ، أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ، أَوْ كُتِبَ بِهَ الْمَوْتَى، بَلْ لَئِنَّ اللَّهَ لَأَمْرٌ جَمِيعًا، أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ، أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ، حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ. وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَاْمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾؟ وجواب «لو» في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَن قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ محذوف، حُذِفَ لدلالة السياق عليه، والتقدير: لكان هذا القرآن، لكونه غايةً في الإيجاز والإعجاز، ونهايةً في التذكير والإنذار.

واختار الزجاج أن الجواب محذوف تقديره «لما آمنوا» لغلوهم في المكابرة والعناد، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى، وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا، مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

الله ﴿١﴾ ومعنى قوله سبحانه: ﴿سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي زالت ومشت من أماكنها ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ أي شَقَّقت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ أي خوطب به الأموات، حتى أجابوا وتكلموا بتلاوة القرآن عليهم، والجواب لَمَا كان غير هذا القرآن، الذي جاء بالمعجزات، والذي يصنع خوارق العادات.

كلام الحافظ ابن كثير

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ، أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ، أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى...﴾ أي لو كان في الكتب الماضية، كتابٌ تسير به الجبال عن أماكنها، أو تُقَطَّع به الأرض وتنشق، أو تُكَلَّم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجنُّ عن آخرهم - إذا اجتمعوا - أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي من إيمان جميع الخلق، ويعلموا ويتبينوا ﴿أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي لو شاء الله لهدى إلى الإيمان جميع الخلق، فإنه ليس ثمة حُجَّةٌ ولا معجزة، أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس، من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبيٍّ إلاَّ

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١١.

وقد أُوتِي من الآيات، ما آمن على مثله البشرُ، وإنَّما كان الذي أُوتِيتهُ
 وحيًّا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابِعاً يومَ القيامةِ»^(١) قال ابن
 كثير: معناه أن معجزة كل نبي انقضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية
 على الآباد لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلُق على كثرة الردِّ، ولا يشبع منه
 العلماء»^(٢) انتهى كلام الحافظ ابن كثير.

غلوُّ واستكبار وطغيان

يا عجباً لهؤلاء المشركين المكابرين، هذا الكتاب المُعْجِز، الذي
 جاءهم به نبيُّ أُمِّيُّ، لا يعرف قراءةً ولا كتابةً، تنطق حروفه وكلماته
 بصدقه، وفصاحة بيانه، وسطوع برهانه، على أنه تنزيل رب العالمين،
 ألم يكفهم هذا القرآن شاهداً على صدق محمد ﷺ حتى طلبوا معجزة
 غير القرآن؟! فلو كان هناك كتاب يأتي بالمعجزات، ويصنع الأعاجيب،
 فيزيل الجبال، ويشقق الأنهار، ويكلم الأموات والأحجار، حتى تنطقَ
 وتشهد بصدقه، لكان هذا القرآن، فكيف أعرضوا عن الإيمان به،
 وطلبوا من محمد معجزةً أُخرى غير معجزة القرآن؟

حقاً إنه الغلوُّ في المكابرة، والعناد، والطغيان، والجري وراء
 وساوس الشيطان!! والمراد من قوله تعالى: ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ هو
 الردُّ على اقتراح المشركين فيما عرضوه على سيد المرسلين، من مطالب
 وأغراض، يعني أن الله - عزَّ سلطانه - لم يجبههم إلى ما اقترحوا من
 الآيات، لأنه هو المالك لجميع الأمور، والمتصرِّف في جميع

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن ٥/٩ ومسلم في كتاب الإيمان رقم ١٥٢/ وذكره

ابن الأثير في جامع الأصول ٥٣٣/٨.

(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢٨٢/٢.

المخلوقات، إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل، وليس لأحد أن يتحكم عليه في أفعاله وأحكامه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ولا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، فلو أُجيبوا إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لاستحقوا عذاب الاستئصال وهلكوا عن آخرهم.

رأي لبعض المفسرين في الآية

ويذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ معناه أفلم يعلم ويتبين، ويستدلون على هذا المعنى بقول الشاعر:
 ألم يياس الأقبام أنني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً
 أي ألم يعلموا، وأنكر الفراء والكسائي هذا القول، حتى قال الكسائي: «ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت البتة» والأرجح والأظهر في هذا أن معنى اليأس على حقيقته في الآية الكريمة وأنه بمعنى القنوط والمعنى: أفلم يقنط ويأس المؤمنون، من إيمان أولئك الكفار، ويعلموا أن الله لو شاء هدايتهم لهداهم؟ فليس الأمر إلا لله العليّ الكبير. ثم خوف الله المشركين وتوعددهم، بنزول أنواع البلياء والنقم، وطمان نبيه والمؤمنين بإحلال العذاب بأعدائهم فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أي داهية تفرع أسماعهم، وتقلق مضجعهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيْبًا مِنْ دَارِهِمْ، حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أي تنزل هذه النكبة والداهية قريباً من ديارهم، حتى يحين وقت هلاكهم، الذي حدده الله لهم إن لم يؤمنوا، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾^(١). وختم الله

(١) سورة الكهف آية رقم ٥٩.

الآيات الكريمة بتسليية رسوله ﷺ عمًا يقابله به المشركون من السخرية والاستهزاء، فبيّن له أنها سنة الأمم مع رسلهم، ما من نبي ولا رسول إلا وقد سخر منه قومه الكافرون الجاحدون، فأعزّه الله وخذلهم، ونجّاه وأهلكهم وتلك سنة الله في خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟ والمعنى: كيف كان عقابي وجزائي لهم على الكفر والتكذيب؟ ألم يكن فظيماً شديداً؟ وهكذا أنتقم لأولياي من أعدائي، لأقرّ أعينهم بهلاك الظالمين المكذبين.

تشنيع على المشركين في عبادة غير الله

وبعد ذلك البيان الساطع عن إعجاز القرآن، وطلب كفّار مكة معجزة غيره، جاءت الآيات البيّنات تفرعهم بالحجة الناصعة، والبرهان النير، وتقيم الحجة تلو الحجة، والبرهان بعد البرهان، على سفهم وجهلهم وقبيح صنيعهم، في عبادة أحجار صماء، لا تسمع ولا تدفع، ولا تستجيب النداء، فكيف رضوا أن يجعلوها آلهة مع الله، يرجون نفعها ويخافون ضرّها، ويطلبون منها الرزق والشفاعة والأجر؟ وكيف ساووا بين الإله القدير، والوثن الحقيقير؟ فعبدوا هذه الأحجار، واستنكفوا عن عبادة الواحد القهار؟!

وبأسلوب فيه التعجيب والتوبيخ، والازدراء بعقولهم، يخاطبهم القرآن الكريم في هذه الآيات البيّنات، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ؟ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ، قُلْ سَمُّوهُمْ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ؟ أَمْ بظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ؟ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ، وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ. لَهُمْ

عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿١﴾. والمعنى: هل الله الحفيظ، الرقيب على أعمال العباد، العالم بكل المعلومات، القادر على كل الممكنات، الذي يعلم ما يعمله العاملون من خيرٍ وشر، ولا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، كالأصنام التي يعبدونها، لا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل، ولا تكشف ضراً عنها ولا عن عابديها؟ قال الحافظ ابن كثير: ومعنى الآية الكريمة: أفمن هو حفيظٌ رقيبٌ عليم، قائم على كل نفسٍ منفوسة بما كسبت من خيرٍ وشر، كالأصنام التي يعبدونها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاءً بدلالة السياق عليه، وهو قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأوثان^(١).

وقال الفخر الرازي: «والجواب مضمراً في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ والتقدير: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت، كشركائهم التي لا تضر ولا تنفع؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ وما جاء جوابه لأنه مضمّر في قوله تعالى: ﴿قَوْلٍ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فكذا هنا^(٢).

الغرض تسفيه عقول الكفار

والغرض من الآية تسفيه عقولهم وأحلامهم، فقد جعلوا الإله السميع البصير القدير، كالصنم العاجز الحقير، والعجيب في الأمر أنهم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٢٨٣.

(٢) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٩/٥٦ وهذا الرأي الذي ذهب إليه ابن كثير والرازي هو الذي رجحه الفراء حيث قال في معاني القرآن: وترك جوابه لأن المعنى معلوم، وقد بيّنه بعد هذا بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ كأنه قيل: هل الله كشركائهم؟ وهذا رأي الجمهور.

صنعوا هذه الأصنام بأيديهم ونحتوها، ثم عكفوا عليها فعبدوها، وطلبوا منها الرزق، والعون، وهي أعجز من أن تخلق ذباباً، فضلاً عن أن تخلق إنساناً، أو تجيب دعوة مكروب، وصدق الله العظيم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ ولما قرر هذه الحجة، زاد في الإيضاح والبرهان، فقال تقديست أسماؤه: ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد سموا لنا هذه الآلهة المزعومة، وصفوهم لنا، لننظر هل لهم من أوصاف الألوهية شيء؟ وفي قوله: ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ غاية في الإنكار والاستحقار، كأن الأمر بلغ من الحقارة، ألا يُعرف ولا يُذكر، ولا يُوضع له اسم، فهو يخاطبهم ويقول لهم: سموا لنا هذه الأصنام إن شئتم، أي أرباب أم عبيد؟ أي خالقة أم مخلوقة؟ ألهة حياة أم هي موات؟ ما شأنها؟ ما فضلها؟ ما مقدار عظمتها وسلطانها حتى عبدتموها؟

إن العاقل يأنف أن يعبد مخلوقاً مثله، فكيف رضيتم أن تعبدوا جماداً وهي أحس وأحق من الإنسان؟ وسواء سميتوها آلهة أو لم تسموها، فإنها في الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها!!

ثم زاد تبارك وتعالى في التوبيخ والتحقير لهم فقال: ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ، أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ﴾؟ والمعنى: هل تخبرون الله بشركاء وآلهة موجودة في الأرض، لا يعلمها سبحانه وتعالى؟ أم تسمونهم شركاء، بظن باطل فاسد، لا حقيقة له، لفرط الجهل وسفاهة العقل؟ وهذا الاحتجاج من أعاجيب الأساليب التي اختص بها القرآن الكريم المعجز، فله در شأن التنزيل.

تزيين الشيطان لهم سوء صنيعهم

ثم انتقل من المحاوراة والمناظرة، إلى بيان الداعي الحقيقي لهم، إلى عبادة هذه الأصنام والأوثان، ألا وهو السّفه والطيش، الذي جرّهم إليه الشيطان، بتزيين القبيح، وتحسين الشيء المنكر، حتى نزلوا إلى الحضيض، بعبادة مَنْ لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عن عابده شيئاً، ولهذا قال تقدست أسماؤه: ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ، وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ والمعنى: بل زين لهم الشيطان ذلك الكفر والضلال، ومنعوا عن طريق النور والهدى، ومن يضلله الله فما له أحد يهديه. . . و«بل» في كلام العرب للإضراب، ومعناه الانتقال من كلام إلى كلام، ومن دليل إلى آخر، وكأنه تعالى يقول: دع ذكر الدليل، فإنه لا فائدة فيه، لأن الشيطان زين لهم هذا العمل القبيح، فلا ينتفعون بذكر هذه الدلائل، ولا يستجيبون لداعي العقل والرشد، لأنهم ضلّوا طريق الخير والسعادة. ثم أخبر تعالى بما أعدّه لهم من العذاب والنكال في الدنيا والآخرة فقال تقدست أسماؤه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

أي لهؤلاء المشركين، الذين عبدوا غير الله، عذاب عاجل شاق في هذه الحياة الدنيا، بالقتل والتشريد، والأسر والإذلال، واللعن والذم، ولعذاب الآخرة أثقل وأشدّ ألماً وإهانة من عذاب الدنيا، وليس لهم مَنْ يحميهم أو ينقذهم من عذاب الله.

نعيم المتقين في الجنة

ولما ذكر تعالى جزاء الكفرة المجرمين، أتبعه بذكر ثواب المؤمنين المتقين، فقال تقديست أسماؤه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ والمثل هنا يراد به الصفة العجيبة الغريبة، التي هي في الحُسْن والجمال كالمثل، ومعنى الآية الكريمة: صفة الجنة العجيبة الشأن، التي وعد الله بها عباده المتقين، أن أنهارها تجري من تحت قصورها وغرفها، في غير أخاديد، وثمرها دائم لا ينقطع، وظلها كذلك لا تنسخه الشمس ولا يزول ولا يحول، وهذه الجنة بما فيها من النعيم الدائم عاقبة المتقين الأبرار، ومآلهم ومسكنهم، أما عاقبة الكفار الفجار فهي النار وبئس المصير.

وصف تعالى جنة الخلد بصفات ثلاث:

الأولى: أن الأنهار تجري من تحتها أي من تحت قصورها ومساكنها، ولما يكون القصر مشرفاً على البحر أو النهر، يكون أبهج للنفس وأسعد.

الثانية: أن أكلها دائم أي ثمارها وفواكهها لا تنقطع، وجنات الدنيا لا يدوم ورقها وثمرها ومنافعها، أما جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطعة، كما قال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

الثالثة: أن ظلها دائم أيضاً، والمراد أنه لا حرَّ هناك ولا برد، ولا شمس ولا قمر، ولا ظلمة ولا كدر، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَّا يَرُونَ فِيهَا شمساً وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ وقوله سبحانه: ﴿لَّا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ، وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فالسرور دائم، والظل دائم، وقد قال ﷺ: «إن في

الجنة لشجرةً يسير الراكبُ السريع في ظلها مائة عامٍ لا يقطعها»،
واقراءوا إن شئتم ﴿ وَظِلٌّ مَّمْدُودٍ ﴾^(١). اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ
إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قولٍ وعملٍ.

إسلام بعض أهل الكتاب

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تبين لنا عقائد أهل الكتاب،
وعقائد المشركين في شأن هذا القرآن، فمن أهل الكتاب - وهم اليهود
والنصارى - مَنْ أَنَارَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ فَاهْتَدَى، وآمن بالرسول وبما أنزل الله
عليه، كعبد الله بن سلام والنجاشي وأصحابه، وهؤلاء وأمثالهم يفرحون
بهذا القرآن، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه، والبشارة ببعثة
خاتم الأنبياء، النبي الأمي العربي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في
التوراة والإنجيل، وفي هؤلاء يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَالَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾
أي ومن الطوائف المتحزبين ضد الإسلام - وهم أهل أديانٍ شتى - مَنْ
ينكر بعض القرآن، مكابرةً وعناداً، مع يقينهم بصدقه، لأنه موافق لبعض
شرائعهم ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ
مَآبٍ ﴾ أي قل يا محمد معلناً دعوتك ورسالتك: إنما أمرتُ بعبادة الله
وحده، وإلى عبادته جلّ وعلا أدعو الناس، وإليه مرجعي ومصيري.

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٢٨٩ وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه
البخاري ومسلم بدون الآية بلفظ «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام
لا يقطعها».

طعنهم على الرسول في أمر النكاح

ولقد طعن بعض المشركين وأهل الكتاب في نبوته عليه الصلاة والسلام، وعابوا الرسول بكثرة الزوجات، وقالوا: لو كان رسولاً من عند الله، لما كان مشتغلاً بأمر النساء، بل كان مُعْرِضاً عَنْهُنَّ، مقبلاً على العبادة والزهد، مُعْرِضاً عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنْ شَهَوَاتٍ، فردَّ الله عليهم تلك الشبهة السقيمة التي طعنوا فيها بنبوته ﷺ بقوله تقدرت أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ والمعنى: لست يا محمد ببدع من الرسل، ولست أول رسولٍ يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، وينكح النساء، بل سبقك رسل كرام تزوجوا وكان لهم من زوجاتهم ذرية وأولاد، فعلام يعيبك هؤلاء الظالمون؟ ولماذا يطعنون في نبوتك، ولست أنت وحدك الذي عدَّد الزوجات، ونكح النساء؟ فقد كان لداود عليه السلام مائة امرأة - كما ثبت في صحيح البخاري - وكان لولده سليمان أكثر من ذلك، وهم من أنبياء بني إسرائيل، وهذه سنة الرسل من قبلك تزوجوا فكان لهم ذرية وأولاد، فما لهم يعيبون عليك ذلك؟

ردُّ على شبهة أخرى

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ردُّ لشبهة أخرى أثارها المشركون، وهي: إذا كان محمد رسولاً فلماذا لم يأتنا بما طلبناه منه من المعجزات؟ فأجاب تعالى بأن أمر المعجزة ليس للرسول، وإنما هو مفوض إلى مشيئة الله، فإذا شاء الله أظهرها على يده، وليس لرسول أن يأتي قومه بمعجزة إلا إذا أذن الله فيها، ولا

اعتراض لأحدٍ عليه في ذلك، ثم قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل أمر قضاءه الله وقت محدد، وزمن معين، لا يتعداه، وقد طلب المشركون من رسول الله، أن يأتيهم بالعذاب الذي كان يخوفهم ويتوعدهم به، فأخبر تعالى أن لكل شيء أجلاً محدوداً، لا يتقدم عليه ولا يتأخر، فتأخر نزول العذاب ليس إخلافاً للوعد، وإنما هو كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾.

معنى النسخ والتبديل في اللوح المحفوظ

وتمضي السورة الكريمة، لتبين لنا القدر المحتوم، الذي حدده الله في الأزل، فالله جلّ وعلا يبذل ويغيّر من الأحكام ما يشاء، حسب الحكمة والمصلحة، وينسخ من صحف الملائكة ما يشاء، فيغني ويفقر، ويعزّ ويذل، ويدفع البلاء بالتضرّع والدعاء، ولكن عنده شيء لا يتبدل ولا يتغيّر، هو علمه تعالى الذي أثبتته في اللوح المحفوظ، وإلى هذا يشير قوله تقديست أسماؤه: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فالمحو والإثبات، والتبديل والتغيير، إنما يجري في الشرائع والأحكام وصحف الملائكة الكرام، أما ما أثبت في اللوح المحفوظ، مما جرى به القلم، فهذا قد فرغ منه، وجرى به العلم الأزلي، فالشقي شقي من الأزل، والسعيد سعيد من الأزل، وهذا معنى قول ابن عباس: يبذل الله ما يشاء فينسخه، إلا الموت والحياة، والشقاء والسعادة، فإنه قد فرغ منها، والمراد بأم الكتاب في الآية هو «اللوح المحفوظ» فعند الله كتابان: أحدهما الكتاب الذي يكتبه الملائكة على الخلق، فهذا محل المحو والإثبات، والكتاب الثاني هو اللوح المحفوظ، وهو الذي سجّل فيه جميع الحوادث والأشياء، وهذا الذي لا يتبدل أو يتغير.

كلام نفيس للمفسر ابن عطية

قال ابن عطية رحمه الله: (والذي يتلخص من هذه الآية، أن الأشياء التي قدرها الله في الأزل وعلمها، لا يصح فيها محو ولا تبديل بحالٍ مَّا، وهي التي كتبت في أم الكتاب، وسبق بها القضاء، وهذا مروياً عن ابن عباس وغيره من أهل العلم، وأما الأشياء التي أخبر الله تعالى أنه يُبدل فيها وينقل، كغفر الذنوب بعد تقريرها، وكنسخ آية بعد تلاوتها، ففيها يقع المحو والإثبات، فيما يقيد الحفظ ونحو ذلك، وأما إذا ردَّ الأمر إلى القضاء والقدر، فقد محا الله ما محا، وثبت ما ثبت . .

قال: وقد روي عن عمر وابن مسعود أنهما كانا يقولان في دعائهما: «اللَّهُمَّ إن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة، فامحنا وأثبتنا في ديوان السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب» فهذا منهما دعاء في غفران الذنوب، وعلى جهة الجزع منهما، أي اللَّهُمَّ إن كنا شقينا بمعصيتك، وكتبت علينا شقاوةً بها، فامحها عنا بالمغفرة والطاعة، ولم يكن دعاؤهما البتة في تبديل سابق القضاء^(١).

مهمة الرسول تبليغ الدعوة

ثم تمضي الآيات الكريمة تبين مهمة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتأمره بالصبر وتحمل الأذى في سبيل الله، فحسبه أنه داع إلى الله، ولما كان المشركون يجابهون الرسول ﷺ بالسخرية والاستهزاء، ويقابلونه بالصدِّ والعناد، ويطلبون منه أن يأتيهم بالعذاب، الذي كان يتوعددهم به، وكان صلوات الله عليه يضيق صدره أحياناً، من

(١) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١٨٢/٨.

موقف هؤلاء المشركين المعاندين، ويتمنى أن يرى من عقاب الله وانتقامه، ما يزرهم عن السخرية والاستهزاء، فقد جاءت الآيات توضّح له مهمته التي أرسل بها، ألا وهي تبليغ الدعوة، وأما الجزاء والحساب فمرده إلى رب الأرباب ﴿ وَإِنْ مَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ، أَوْ نَتُوفِينَاكَ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ .

والمعنى: إن أريناك يا محمد بعض الذي وعدنا أعداءك، من الخزي والنكال في الدنيا، أو أريناك مصارع الظالمين، حتى نقر عينك بهلاكهم، أو توفيناك قبل أن ترى عقاب الله فيهم، فالواجب عليك تبليغ رسالة ربك، وأداء أمانته، وعلينا حسابهم وجزاؤهم. ثم ضربت الآيات مثلاً له ﷺ، وذلك بما يفتحه الله على المسلمين، من استيلائهم على ديار المشركين، حتى تنتقص بلاد الكفار، وترداد رقعة المسلمين، وذلك من أظهر الأدلة، على أن الله تعالى مُنْجِزٌ وعده لرسوله عليه السلام، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ وكأنه تعالى يقول: أولم يشاهد هؤلاء الكفار، ما يحدث في الدنيا، من الاختلافات والاضطرابات، خراباً بعد عمارة، وموت بعد حياة، وذُلُّ بعد عِزٍّ، ونقص بعد كمالٍ، فإذا كانت هذه التغيرات مشاهدةً ومحسوسةً، فما الذي يؤمنهم أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكفرة، فيجعلهم ذليلين بعد أن كانوا عزيزين، ويجعلهم مقهورين بعد أن كانوا قاهرين؟

قال ابن عباس: نقص الأرض بالفتوحات الإسلامية، وظهور الإسلام على الشرك، وروي عنه أيضاً أن نقصها بموت أشرافها وعلمائها وكبرائها، وقال مثله مجاهد أيضاً، وأنشد بعضهم:

الأرضُ تحياً إذا ما عاشَ عالمُها متى يمْتُ عالمٌ منها يمْتُ طَرْفُ
كالرُّوضِ تحياً إذا ما الغيْثُ حلَّ بها وإنْ أبى عادَ في أكنافِها التلف

قال الحافظ ابن كثير: والقول الأول أظهر، وهو أن المراد ظهور الإسلام على الشرك، قريةً بعد قرية، وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى...﴾^(١) وهو اختيار ابن جرير الطبري، وتختم السورة الكريمة، بشهادة الله عز وجل لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام، بالأمر العظيم الهام، الذي كذبه به المشركون وناوؤه، ألا وهو موضوع «النبوة والرسالة» الذي كان المحور الرئيسي لهذه السورة الكريمة، بعد موضوع الحشر والنشر، فيعلن الله جلّ وعلا شهادته الكبرى بأن محمداً عبده ورسوله، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وكفى بشهادة الله له شهادة ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

اللهم ارزقنا محبته واتباعه، واجعلنا من أنصاره وأشياعه واتباعه، في الدنيا والآخرة يا رب العالمين، والحمد لله في البدء والختام.

* * *

تم الجزء الخامس من كتاب «قبس من نور القرآن»
ويليه الجزء السادس، والله الحمد في البدء والختام

(١) سورة الأحقاف آية رقم ٢٨.

الفهرس

٢٤	الصف الثاني المؤمنون السعداء	٥	المقدمة
٢٥	مثل رائع للفريقين يضربه القرآن	٧	سورة هود
	الحكمة من ذكر قصص	٧	بين يدي السورة
٢٥	الأنبياء والمرسلين	١٠	تفصيل بعد إجمال
٢٧	البراهين ثم القصص والأخبار	١٠	برهان ساطع للإعجاز
٢٨	القصة الأولى: قصة نوح عليه السلام	١١	التوحيد أساس الإيمان
٢٨	شبهات ثلاث في وجه دعوة نوح	١١	الله المتكفل بأرزاق العباد
٣١	جدال عنيف بين نوح وقومه	١٢	من غرائب القصص
٣٣	جوابهم السخيف لنوح عليه السلام	١٣	أدلة الوجدانية منبئة في الكون
٣٤	نوح يبالغ في النصح والتذكير	١٣	العرش مخلوق قبل السموات
٣٤	أنواع الاتهامات الشنيعة لنوح عليه السلام	١٤	الغرض بيان القدرة الباهرة
٣٦	حياة نوح عليه السلام حياة شاققة مريرة	١٥	ضعف الإنسان بالنسبة للكون
٣٧	نوح يصنع السفينة وقومه يسخرون منه	١٥	تسليية للنبي عليه السلام
٣٧	الطوفان كان عاماً لجميع الأرض	١٦	افتراءات المشركين على القرآن
٣٨	أقوال المفسرين في التنوير	١٧	التحدّي الصارخ القاطع
	حجم السفينة التي صنعها	١٨	عجزهم عن المعارضة للقرآن
٣٩	نوح عليه السلام	١٩	سفه وحماقة من بعض الجهلاء
٤٠	نوح يأمر المؤمنين بالركوب في السفينة	١٩	بين أهل السعادة وأهل الشقاوة
٤١	فقرات بديعة من الظلال	٢١	مشهد مخز للمشركين في الآخرة
٤٣	سر من أسرار الإعجاز في القرآن	٢٢	الفضيحة الكبرى على رؤوس الأشهاد
٤٤	دعاء نوح لنجاة ولده	٢٣	المخسران والشقاء الأبدى

٧٠	شعيب يبالغ في تذكيرهم وإرشادهم . . .	٤٥	القصة الثانية: قصة هود عليه السلام . .
٧١	جواب السفهاء لنبیهم عليه السلام	٤٥	دعوتهم إلى عبادة الله وتوحيده
٧٢	شعيب يتلطف مع قومه	٤٦	تنبيههم إلى بطلان عبادة الأوثان
٧٣	تحذيرهم من الاستمرار على الكفر	٤٧	ترغيبهم في تكاثر الخيرات والثمرات
٧٤	تعاسة وشقاوة	٤٧	جوابهم السفیه لنبیهم الكريم
٧٤	النتيجة: الهلاك والدمار	٤٨	ضلال وطغيان
٧٥	القصة السابعة: قصة موسى عليه السلام	٤٩	نهاية الطغاة المجرمين
٧٥	تأييد الله له بالمعجزات الواضحة	٤٩	القصة الثالثة: قصة صالح عليه السلام
٧٦	فرعون مثَّل لكل طاغية	٥٠	دعوتهم إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ
٧٨	الحكمة من هذه القصص	٥١	ردُّهم على نبي الله صالح عليه السلام
٧٩	في القصص بيان صدق الرسول ﷺ	٥٢	طلبهم معجزة تدل على صدقه
٨٠	أهوال يوم القيامة	٥٣	تحذيرهم من قتل الناقة
٨١	صورٌ مفزعة عن الأشقياء في الآخرة	٥٥	القصة الرابعة: قصة إبراهيم عليه السلام
٨٢	صورٌ مشرقة عن السعداء في الآخرة	٥٥	البشارة بالمولود بطريق الملائكة
٨٣	استفسار حول الآيات الكريمة	٥٦	كرم الضيافة عند الخليل إبراهيم
٨٤	أسوءُ كفَّار مكة بالطغاة السابقين	٥٧	فزع إبراهيم من الضيوف
٨٥	حال المشركين أظهر من أن يُمتري فيه	٥٨	الآداب الإسلامية في قرى الضيف
٨٥	المشركون مقلدون للآباء	٥٩	مجادلة إبراهيم مع الملائكة
٨٦	تسلية الرسول بمن سبقه من الرسل	٦٠	مجادلته عليه السلام بدافع الشفقة
٨٧	الدنيا مزرعة والآخرة دار الجزاء	٦١	صفات إبراهيم العظيمة
٨٨	أمر الرسول بالاستقامة أمرٌ للامة	٦١	المجرم لا يستحق الرحمة والإكرام
٨٩	الاستقامة أمرٌ هام عظيم	٦٢	القصة الخامسة: قصة لوط عليه السلام
٩٠	لا كرامة أعظم من الاستقامة	٦٣	شهادة نبیهم عليهم بالفجور
٩٢	الصلاة طهارة للإنسان من الأدران	٦٤	زوجة لوط تدل على الضيوف
٩٣	سبب نزول الآية الكريمة	٦٤	اللواط من خصائص قوم لوط
٩٤	سبب هلاك الأمم السابقة	٦٥	لوط يسدي النصح لقومه
٩٦	ختام السورة الكريمة	٦٦	الملائكة تبشِّر لوطاً بالنجاة
٩٧	سورة يوسف	٦٧	هلاك قوم لوط بانقلاب مدنهم
٩٧	بين يدي السورة	٦٩	القصة السادسة: قصة شعيب عليه السلام
١٠١	تفصيل بعد إجمال		جريمة أهل مدين تطفيف
		٧٠	المكيال والميزان

١٢٨	مئة الله على يوسف بعصمته وحمايته ..	١٠١	الحكمة من نزول القرآن باللغة العربية
	خطأ فاحش في مفهوم معنى	١٠٢	أحسن القصص وأبدعه ..
١٢٨	الهَمَّ والبرهان ..	١٠٣	في القرآن تفصيل وبيان ..
١٢٩	افتراء وبهتان على يوسف عليه السلام ..	١٠٤	رؤيا يوسف الصديق ..
١٣٠	نظر دقيق في أسلوب الآية وفهم أهدافها	١٠٤	بداية القصة ..
١٣١	صفحات مشرقة من التفسير الكبير ..	١٠٥	يوسف عليه السلام يسود إخوته ..
	الأدلة القاطعة على براءة	١٠٦	أقسام الرؤيا المنامية ..
١٣٣	يوسف عليه السلام ..	١٠٨	حسد إخوة يوسف لأخيهم ..
١٣٤	بسط للكلام دقيق وتفصيل بعد الإجمال	١٠٨	المحنة الأولى مع إخوته ..
	اختيار المحققين من المفسرين	١٠٩	تأمرهم على أخيهم يوسف ..
١٣٧	لهذا الوجه ..	١١٠	سبب الحسد حب أبيه له ..
	الأدلة والبراهين من القرآن الكريم	١١١	عزمهم على إلقاءه في الحُبِّ ..
١٣٧	من عشرة وجوه ..	١١٢	احتياهم لأخذ يوسف من والدهم ..
	مؤامرة داخل القصر على	١١٣	مؤامرة وتخطيط بدهاء ..
١٤١	يوسف عليه السلام ..	١١٤	خوف يعقوب على يوسف منهم ..
١٤١	مكر امرأة العزيز بالنسوة ..	١١٥	إرساله يوسف على كره ومضض ..
١٤٢	تصوير رائع في مكر النساء ..	١١٦	رجوعهم عشاء يبكون ..
١٤٣	دعوتهن إلى القصر للمكر بهن ..	١١٧	مرور قافلة من المسافرين ..
١٤٤	لقطات من كتاب الظلال ..	١١٨	بيعهم ليوسف في مصر ..
١٤٥	النسوة ييهرن بحسنه وجماله ..	١١٩	المحنة الثانية : محنة الاسترقاق ..
١٤٦	وقفه قصيرة أمام اعتراف امرأة العزيز ..	١٢٠	فراصة عزيز مصر بيوسف ..
١٤٧	امرأة العزيز تهتك جلباب الحياء ..	١٢١	إخوة يوسف ليسوا أنبياء ..
١٤٨	استغاثه يوسف بالله لصرف شهره عنه ..	١٢٢	إقامة يوسف في قصر العزيز ..
١٥١	إدخال يوسف السجن ..	١٢٣	المحنة الثالثة ..
١٥١	محنة دخوله السجن ..	١٢٣	شروع في تفصيل القصة ..
١٥٢	التقاء يوسف بساقي الملك وطبأخه ..	١٢٤	إغلاق الأبواب بإحكام ..
١٥٣	يوسف يفسر لهما الرؤيا بعد الدعوة ..	١٢٥	امرأة العزيز تريد إجباره بالقوة ..
١٥٤	يوسف في السجن داعية إلى الله ..	١٢٥	كيد خبيث من امرأة العزيز ..
١٥٥	وصية يوسف للساقي ونسيانه الوصية ..	١٢٦	معنى الآية الكريمة ..
١٥٦	عتاب لطيف ليوسف الصديق في السجن	١٢٦	يوسف عليه السلام يدفع البهتان ..
١٥٦	الملك يرى في المنام رؤيا عجيبة ..	١٢٧	معجزة باهرة لتبرئة يوسف ..

١٨٤	عودة إخوة يوسف لمصر للمرة الثانية . . .	١٥٧	طلب الملك تفسير الرؤيا
١٨٤	التقاء يوسف بأخيه الشقيق بنيامين	١٥٨	شهامه يوسف وتأويله للرؤيا دون شرط . . .
١٨٥	التعارف بين يوسف وبنيامين	١٥٩	أمرُ الملك بإخراجه من السجن
١٨٦	الحيلة التي دبرها يوسف للاحتفاظ بأخيه	١٦٠	عفة ونزاهة
١٨٧	اتهمهم بسرقة صواع الملك	١٦١	بعض اللطائف في التفسير القرآني
١٨٧	تهمة فظيعة لإخوة يوسف	١٦٢	تحقيق الملك مع النسوة
	الحيلة التي فعلها يوسف كانت	١٦٣	خروجه من السجن بعد البراءة
١٨٨	بوحى إلهي	١٦٤	اختلافُ المفسرين في الآيتين الكريميتين
١٨٩	عقوبة السرقة في شريعة يعقوب	١٦٥	رأي جمهور المفسرين
	تفتيش الأوعية وإخراج الصاع من	١٦٦	القول الثاني هو الأظهر والأرجح
١٨٩	رَحَل بنيامين	١٦٧	رأي الإمام الطبري شيخ المفسرين
١٩٠	المفاجأة الغربية التي لحقت إخوة يوسف	١٦٨	رأي العلامة أبي السعود
١٩١	معنى الكيد المنسوب إلى الله عزَّ وجلَّ . . .	١٦٩	الآيات في تفسير الجلالين
١٩٢	اتهمهم ليوسف وأخيه بالسرقة	١٧٠	رأي الإمام الحصَّاص
١٩٣	لماذا رموا يوسف بالسرقة؟	١٧٠	رأي الإمام الشوكاني
١٩٤	قلب الحاسد لا يخلص من الحقد والغلِّ	١٧١	العزُّ والسلطان نتيجة الصبر والحرمان . . .
١٩٤	تلطف واسترحام للعزیز	١٧٢	يوسف الصديق يتولى الوزارة
١٩٥	من لطائف بدائع القرآن في التعبير	١٧٣	كيف يطلب يوسف الولاية ويزكِّي نفسه؟
١٩٦	التعبير القرآني المعجز	١٧٥	تدبير حكيم لشؤون البلاد
١٩٧	تشاورهم في مجابهة الموقف الخطير . . .	١٧٦	حضور إخوة يوسف لمصر طلباً للميرة . . .
١٩٨	يعقوب أمام النبي المفجع	١٧٧	حفاوة بالغة يلقاها إخوة يوسف
١٩٩	أقوال المفسرين حول الآية	١٧٧	طلبه إحضار أخيه الصغير
٢٠٠	إشفاق أبنائه عليه من الهلاك	١٧٨	ما فعله يوسف كان بتدبير من الله وتقدير
٢٠١	دخول أبناء يعقوب مصر للمرة الثالثة . . .		عودتهم إلى أوطانهم وإخبارهم لأبيهم
٢٠٢	إخبار يوسف لإخوته بالحقيقة	١٧٩	بما جرى
٢٠٣	المفاجأة العجيبة	١٧٩	إخوة يوسف يتجادلون مع أبيهم يعقوب
٢٠٤	اعتراف إخواته بالخطأ وطلبهم المغفرة . .	١٨٠	تلطفهم بأبيهم ليرسل معهم بنيامين . . .
٢٠٤	موقف نبيل من يوسف نحو إخوته	١٨١	شرط يعقوب على أبنائه إعطاءهم للعهد
٢٠٥	تعجيل البشارة لأبيه يعقوب	١٨١	كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله
٢٠٦	قصة يوسف سلسلة من الحلقات المثيرة	١٨٢	تذكيرهم بأن كل شيء بتقدير الله
٢٠٧	خروج القافلة من مصر وفيها البشير . . .	١٨٣	تنفيذ الأبناء وصية أبيهم يعقوب

٢٣٩ الآيات برهان على البعث	٢٠٨ لماذا أخرَّ يعقوب الاستغفار لأبنائه
٢٤٠ معنى غيظ الأرحام	٢٠٩ المشهد النهائي لاجتماع شمل الأسرة
٢٤١ السرُّ والجهر عند الله سواء	٢٠٩ سجود إخوته له وتحقيق الرؤيا
٢٤٢ الملائكة موكلون بحفظ البشر	٢١٠ المشهد الأخير للقصة
٢٤٣ الآيات الكونية العجيبة في هذا الوجود	٢١١ تمني لقاء الله عزَّ وجلَّ
٢٤٤ الآية الأولى : البرق	٢١٢ الغرض من سرد قصة يوسف
٢٤٤ الآية الثانية : السحاب	٢١٣ تسليية ومواساة لرسول الله
٢٤٥ الآية الثالثة : الرعد	٢١٣ غفلة الناس عن آيات الله
٢٤٦ الآية الرابعة : الصواعق	٢١٥ دعوة ربانية لإنقاذ البشرية
٢٤٧ سبب نزول الآية الكريمة	٢١٦ لماذا كان الرسل من البشر؟
٢٤٨ تصوير رائع لعباد الأوثان	٢١٨ عظة واعتبار
٢٤٨ التهكم بالآلهة المزعومة	٢١٨ نصره الله لأتباعه وأوليائه
٢٤٩ تلقين الحججة وإفهام الخصم	٢١٩ الحكمة من ذكر قصة يوسف
٢٥٠ تمثيل بديع بالأعمى والبصير	٢٢٣ سورة الرعد
٢٥١ مثالن للحق والباطل	٢٢٣ بين يدي السورة
٢٥٣ كلامٌ بديع للفخر الرازي	٢٢٦ تفصيل لأهداف السورة الكريمة
٢٥٤ الحديث عن الأبرار والفجار	٢٢٧ الدلائل والبراهين على وحدانية الله
٢٥٥ نعيم المحسنين في الآخرة	٢٢٧ الآيات الكونية في الوجود
٢٥٦ عقاب المجرمين وأنواعه	٢٢٨ الأرض كروية وليست مستوية
٢٥٧ سبب الهلاك عمى البصيرة	٢٢٩ جريان الأنهار نعمة جليلة
٢٥٧ الأوصاف الحميدة التسع للأبرار	٢٢٩ تنوع الفاكهة والثمار آية باهرة
٢٦١ مقابلة لطيفة بين الفريقين	٢٣١ لماذا اختلفت الطعوم والألوان؟
٢٦١ سعة الرزق ليس دليل السعادة	٢٣٢ الإيمان بالبعث والنشور
٢٦٢ تحقير للمخدوعين بزينة الدنيا	٢٣٣ قدرة الخالق ليست كقدرة المخلوق
٢٦٣ طلب المشركين لمعجزات أخرى	٢٣٣ السلاسل والأغلال للكفار
٢٦٤ طمأنينة القلب عند سماع آيات القرآن	٢٣٤ سخيرية واستهزاء المشركين
٢٦٥ تذكيرهم بالنعمة العظمى	٢٣٥ طلب المشركين لمعجزات أخرى
٢٦٥ اقتراحات عجيبة من كفار مكة	٢٣٦ ما نستخلصه من الآيات البيّنات
٢٦٧ كلام الحافظ ابن كثير	٢٣٧ معجزة كل نبي تتناسب مع زمانه
٢٦٨ غلُو واستكبار وطغيان	٢٣٨ علم الله الشامل المحيط
٢٦٩ رأي لبعض المفسرين في الآية		

٢٧٦	طعنهم على الرسول في أمر النكاح . . .	٢٧٠	تشنيع على المشركين في عبادة غير الله
٢٧٦	ردُّ على شبهة أخرى	٢٧١	الغرض تسفيه عقول الكفار
٢٧٧	معنى النسخ والتبديل في اللوح المحفوظ	٢٧٣	تزيين الشيطان لهم سوء صنيعهم
٢٧٨	كلام نفيس للمفسر ابن عطية	٢٧٤	نعيم المتقين في الجنة
٢٧٨	مهمة الرسول تبليغ الدعوة	٢٧٥	إسلام بعض أهل الكتاب

قَابِلِينَ
مِنْ ذُرِّيَةِ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

دراسات قرآنية

٦

قَبَسٌ

صُرُوفُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

مِنْ

سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ وَالْحَجِّ وَالنَّحْلِ وَالْإِسْرَاءِ

دراسة تحليلية موسعة بأهداف ومقاصد سور الكريمة

بقلم

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار القلم

دمشق

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد الذي خصَّه الله بالمعجزة الكبرى، والآية العظمى «القرآن الكريم» وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو الكتاب السادس في سلسلة «دراسات قرآنية» في ضوء السور الكريمة «إبراهيم، الحجر، النحل، الإسراء» وهي دراسة موضوعية تحليلية هادفة، القصد منها تنوير القلوب والبصائر، بما تناوله الكتاب المعجز، الذي نزل على قلب خاتم المرسلين، بلسان عربي مبين.

وإننا إذ نشكر الله عزَّ وجلَّ أن وفَّقنا لخدمة كتابه، لنبُرز ما فيه من روائع الحكَم والأحكام، ونُظهر أسرار إعجازه وبيانه، نسأله تعالى أن يمنَّ علينا بالتيسير والتسهيل، لما قصدناه في هذه الدراسات القرآنية، التي تتناول المواضيع التي تعرضت لها السور الكريمة، ليستوعب الأخ المسلم فهم ما حَوته هذه السور المباركة من مقاصد وأهداف.

والله نسأل أن يرزقنا الصديق والإخلاص، في القول والفعل والعمل، وأن ينفع بهذه الدراسات إخواننا المؤمنين، إنه خير مسؤول، وأعظم مأمول، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الشيخ محمد علي الصابوني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا اثْنَتَانِ وَخَمْسُونَ آيَةً

أهداف السورة الكريمة

● سورة إبراهيم من السور المكية التي نزلت في بدء الدعوة الإسلامية، ورسول الله ﷺ في مكة المكرمة يجابه قوى الشر والطغيان، ويعلن دعوته الربانية، التي شرّفه الله بحمل أعبائها، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

● وهي تتناول موضوع العقيدة الإسلامية في أصولها الكبرى «الإيمان بالله عزّ وجل، والإيمان بالرسالة المحمدية، والإيمان باليوم الآخر» الذي كذّب به المشركون، ويكاد يكون محور السورة الرئيسي هو «الرسالة والنبوة» التي كانت مثار الجدل بين طواغيت مكة، منذ أن بُعث سيّد المرسلين، فأنكروا أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام رسولاً مرسلًا من عند الله، واستبعدوا أن يكون الرسول من البشر، وأن يُخصّ بهذا الشرف العظيم رجلٌ يتيم فقير، لا يملك من مظاهر الغنى والثراء، ما يؤهله لهذا المنصب الجليل، دون أن يكون من زعمائهم وكبرائهم ورؤسائهم!!

● لذلك جاءت السورة تتحدث بشيء من التفصيل، عن «النبوة والرسالة» وعن مهمة الرسل الكرام، وتبيّن بوضوح وجلاء وظيفة الرسول، ومهمته التي بعث من أجلها، وتوضّح معنى وحدة «الرسالات السماوية» فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، جاءوا لتشييد صرح الإيمان، وتعريف الناس بالإله الحق، والرب المعبود، الذي تعنو له الوجوه، وبُعثوا جميعاً لغاية

واحدة هي التوحيد، وإنقاذ البشرية من ظلمات الجهالة، إلى نور العلم والعرفان، فدعوتهم واحدة، وهدفهم واحد، وإن كان بينهم اختلاف في الفروع والأحكام، لأن هذه الأحكام تختلف باختلاف العصور والأزمان ﴿الر. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. اللهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

● وتحدثت السورة الكريمة عن رسالة نبي الله الكريم «موسى بن عمران» عليه الصلاة والسلام، فذكرت دعوته لقومه إلى توحيد الله عز وجل، وأن يعبدوا الله ويشكروه على أياديه ونعمه الظاهرة والباطنة عليهم، وضربت لهم الأمثال بالمكذبين للرسول، من الأمم السابقة كقوم نوح، وعاد، وثمود، والمؤتفكات، حين جاءتهم الرسل بالدعوة الصافية النقية، فردوا عليهم رسالتهم، وكذبوا بما جاءوهم به من عند الله، حتى انتقم الله لهم منهم فأهلكهم ودمرهم، وجعلهم عبرة لمن جاء بعدهم من الأمم والأجيال ﴿الْم يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، قَوْمِ نُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾. . . الآيات.

● ثم تناولت السورة الكريمة موضوع الرسل مع أقوامهم، على مرّ العصور، وكرّ الدهور، وحكّت ما جرى بينهم وبين الأمم المعاندين، من محاورات ومناورات، وجدل وخصام، انتهت بنصرة الله عز وجل لرسله، وللمؤمنين من أتباعهم، وبإهلاك الله للظالمين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا، أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ. وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

● وتحدثت السورة عن مشهد من مشاهد الآخرة، يلتقي فيه المجرمون

الأشقياء باتباعهم الضعفاء، ويدور بينهم حوار طويل، ينتهي بتكديس الجميع في نار جهنم، يصطلون بسعيرها، ويحرقون بلظاها، فلم ينفذ الأتباع ما يوجهونه إلى سادتهم الرؤساء، من الشتائم واللعنات، فالكل في دركات السعير ﴿ وَبَرُّوا اللَّهَ جَمِيعًا، فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ، سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا، مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ .

● وتحدثت السورة عن تلك «الخطبة البتراء» التي سيخطبها إبليس اللعين في أتباعه يوم القيامة، بعد أن يتكادسوا جميعاً في أطباق جهنم، وتنهال عليه اللعنات من أتباعه الضالين، الذين أغواهم حتى أعرضوا عن هداية الله، فيقف فيهم خطيباً بتلك الخطبة الشهيرة، ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وحسرة فوق حسرتهم، وينطق لهم بالحقيقة ناصعة واضحة جليّة، ينحى فيها باللائمة عليهم ويقول ما حدث عنه القرآن: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ، إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ﴾ أي ما أنا بمنقذكم من عذاب الله، ولستم بمنقذين لي من العذاب ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

● وتحدثت السورة بعد ذلك عن «كفار مكة» الذين أكرمهم الله بالنعمة العظمى «بعثة خاتم المرسلين» السراج المنير محمد بن عبد الله، فوجدوا النعمة وقابلوها بالكفران والطغيان، فبدل الله حالهم، وأتعب بالهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ .

● وتختتم السورة الكريمة ببيان مصير الظالمين، والأهوال المفزعة يوم القيامة، وما فيها من أحداث تنخلع لها القلوب، وتشخص لها الأبصار، والموقف الرهيب بين يدي الجبار، ملك الملوك جلّ وعلا الذي يُدين

الخلايق، ويحاسب الناس، وكل ذلك لإثبات الجزاء والمعاد في يوم
الحشر الأكبر ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ
لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ، لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ
طَرْفُهُمْ، وَانفِثَتْهُمْ هَوَاءً.. ﴾ الآيات.

تفصيل بعد الإجمال

هذه هي أهداف السورة ومقاصدها الأصلية، ولنعد بعد الإجمال إلى التفصيل والبيان. يقول ربنا تقدرت أسماؤه: ﴿الر. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ، لَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ شهادة صادقة من رب الأرباب، لعبده ورسوله محمد ﷺ بأنه رسول صادق، مرسل بكتاب منير، لإخراج الناس من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، وقد أيده الله بهذا الكتاب المعجز، كبرهان واضح على صدقه عليه السلام، في دعوى النبوة والرسالة، فالكتاب هادي، والرسول واسطة ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

وإذا كان الله جلّت عظمته قد بعث إلى العرب خاصة وإلى الناس كافة هذا الرسول الكريم، بهذا الكتاب المعجز، الساطع في آياته، الواضح في برهانه، فلقد قضت حكمته، وشاءت رحمته، أن يبعث إلى كل أمة من أمم الأرض، رسولاً مرشداً هادياً، بلُغتها ولسانها، يبلغها دعوة الله، حتى لا تضيع البشرية في متاهات الحياة، وفي ذلك يقول تقدرت أسماؤه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أي بلغة قومه ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وكما بعث الله خاتم المرسلين بالهدى ودين الحق، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، كذلك بعث الله موسى الكليم، إلى بني إسرائيل، هادياً مرشداً، لينقذهم من ظلمات الضلالة، ويذكرهم بنعم الله الجليلة، ليعبدوه ويشكروه، ويعرفوا عظم النعمة عليهم، وخصّ موسى بالذكر لكثرة معجزاته، ولكون أمته أكثر الأمم بعد أمة محمد عليه

الصلاة والسلام، وليبينّ تعالى أن غاية الرسل واحدة، مهما تباينت
 عصورهم، وتنوعت شرائعهم، ألا وهو الهداية إلى صراط الله، وإنقاذ
 الأمم والشعوب من ظلمات الشرك والضلالة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا
 أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

تذكير بني إسرائيل بنعم الله الجليلية

وتمضي السورة الكريمة تذكّرنا بنعمة الله على بني إسرائيل، فلقد
 بقوا في الذل والهوان، مستعبدين مستضعفين، يسومهم فرعون وزبانيته
 سوء العذاب، فيذبّحون الأبناء، ويستحيون النساء، فيستعملونهن في
 أحسن الأعمال، خادمت وجاريات، في بيوت الأقباط، وقد أراد الله أن
 ينقذهم من بطش فرعون وظلمه، وجبروته وقهره، فبعث لهم نبياً كريماً
 هو موسى عليه السلام، وكان ذلك بداية الفرج ورفع الظلم عنهم، وفي
 ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ، إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ،
 وَيَذَّبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ
 عَظِيمٌ﴾. ومعنى قوله سبحانه ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي
 يذيقونكم أسوأ أنواع العذاب، وقد ذكر تعالى بعض هذا العذاب فقال:
 ﴿وَيَذَّبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يذبّحون الأبناء الذكور،
 ويتركون البنات على قيد الحياة، للخدمة والامتهان.

سبب ذبح الأبناء الذكور

قال المفسرون: وكان سبب قتل الذكور، أن فرعون أخزاه الله،
 رأى في منامه رؤيا، فرع لها، رأى أن ناراً من بيت المقدس قد خرجت،

حتى أتت على مصر، فأحرقت كل ما فيها من بيوت الأقباط، ودمرت القصور والدور، فقصَّها على مَنْ حوله من الكهنة، فقالوا له في تعبير تلك الرؤيا: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل، يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر عند ذلك بقتل كل مولود ذكر، وأمر بترك الإناث، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ومعنى الاستحياء تركهن على قيد الحياة، لم يتركهن الطاغية رحمةً بهنَّ، وإنما تركهنَّ للخدمة والاستعباد، ليكنَّ جوارى في البيوت والقصور، وفيه تعريضهنَّ للبغيء والفساد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي في تلك المحنة ابتلاءً لكم من ربكم عظيم، إذ يتعرض الأبناء للإفناء، والبنات للفساد بهتك أعراضهنَّ، حينما لا يبقى من يحميهنَّ من الرجال.

شكر النعمة يزيد في العطاء

ثم ذكَّره موسى - بعد هذا الفضل والإنعام، بتخليصهم من فرعون وزبانيته - بواجب الشكر لله تعالى، فإن النعمة والإحسان، يستوجبان الشكر والامتنان، وبالشكر تدوم النعم، وبكفرانها تزول، ومَنْ جحد النعمة استحق الحرمان، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ. وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ هو من تنمة كلام موسى حكاة عنه القرآن، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل، حين أعلم ربكم، إعلاماً واضحاً بيناً، لا شبهة فيه، قائلاً: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

أي ولئن جحدتم نعمتي بالكفر والعصيان، فإن عذابي شديد لمن جحد وكفر، وفي الآية وعدٌ ووعد، وترغيب وترهيب. وحقيقة الشكر الإقرار والاعتراف للمُنعم بالفضل، والثناء عليه، ثم وضعُ النعمة في موضعها، واستعمالها فيما خلقت له، فنعمةُ العلم بتعليم الجاهل، وتذكير الغافل، ونعمةُ المال بصرفه في وجوه البرِّ والإحسان، ونعمة الصحة بمساعدة الضعفاء، وعَوْن العجزة.

منفعة الشكر تعود على الإنسان

وقد بيّن لهم موسى أن منافع الشكر، ومضار الكفر، إنما تعود على الإنسان نفسه، فالله سبحانه لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، لأنه هو الغني الحميد، فلو كفر أهل الأرض جميعاً، لم يُنقصوا من جلال الله وسلطانه مثقال ذرة، ولو أطاعوه جميعاً لم يزيدوا في ملكه وسلطانه مثقال ذرة، إنما النفع والضرر يلحق الإنسان العاجز الضعيف ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وفي قول موسى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وصفان جليلان للرحمن:

الأول: أنه ﴿ غَنِيٌّ ﴾ وهذا يتضمن تحقيرهم، وعظمته جلّ وعلا، فإنَّ مَنْ كان غنياً عن العباد لا يتأثر بالكفر.

الثاني: أنه ﴿ حَمِيدٌ ﴾ ومعناه المستحق للحمد في ذاته، فهو المحمود على كل حال، وإن كفر به مَنْ كفر.

وهذان الوصفان يتضمنان عظمة المعبود، وذلة العابد، وفي ضمنها توبيخ وتسفيه لمن كفر بالله، وعصى أمره، وكأنه يقول: إنَّ كفركم بإلهٍ جليل، مستوجبٌ للمحامد كلها، مستغنٍ عن الخلق جميعهم، هو غاية السّفه والخذلان!!

الوعيد للطغاة المكذبين

ثم يأتي دور الوعيد والإنذار، فيذكّرهم موسى بما جرى للأمم السابقة، ممّن كفر بالله وكذّب رسله، ماذا أصابهم من العذاب والدمار، وكيف انتقم الله منهم، لأنهم استهزءوا بدعوة المرسلين، وكفروا بربّ العالمين؟ فيقول موسى ناصحاً ومذكراً: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ؟ قَوْمِ نُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

ذكر تعالى من الأمم المهلكين ثلاثة أقوام وهم: (قوم نوح، وعاد، وثمود) وقد أهلك الله قوم نوح بالغرق، وعاداً بالريح الصرصر العاتية، وثمود بالصيحة المدمّرة، وقد تقدم حديث هلاكهم على وجه التفصيل في سورة الأعراف، وذكر تعالى هلاكهم مجملاً في سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. وأمّا معنى قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي وضعوا أيديهم على أفواههم مبالغة في السخرية والتكذيب، وتوضيح هذا أنهم لمّا سمعوا كلام الأنبياء، عجبوا منه وضحكوا، على سبيل السخرية، فعند ذلك ردّوا أيديهم فوضعوها على أفواههم، كما يفعل ذلك من غلبه الضحك، فوضع يده على فمه.

الحوار بين الرسل والأقوام

وتتحدث الآيات عن المحاوراة التي جرت بين الرسل وأقوامهم

المكذبين، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ؟ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى؟ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا، تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ تقول لهم الرسل: يا عجباً أفي وجود الله ووحدانيته شك؟ الأمر أوضح وأجلى من الشمس في رابعة النهار، وهو لا يحتمل الشك لظهور الأدلة عليه، ولهذا لفتوا الأنظار إلى براهين وجوده بقولهم: ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي منشئهما ومبدعهما على غير مثالٍ سابق، وكأنهم يقولون لهم: إن العقل السليم يقضي بوجود الإله الحكيم، فالصنعة تدل على الصانع، فمن الذي أوجد هذه السموات والأرض، وأبدع خلقها؟ ثم وصفوه تعالى بكمال الرحمة، والكرم، والجد فقالوا: ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي يدعوكم إلى الإيمان ليطهركم من الذنوب ويدخلكم الجنان، ويمتعمكم بالحياة السعيدة إلى منتهى آجالكم.

ومع هذه البراهين الساطعة على وجود الله ووحدانيته، ورحمته ولطفه، يقابلهم المجرمون هذه المقابلة الوقحة بالجحود والتكذيب ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾.

يقولون في ردّهم على الرسل: ما أنتم إلا بشر مثلنا، لا فضل لكم علينا، تريدون بدعوتكم هذه أن تصرفونا عن عبادة الأوثان التي كان عليها آبائنا، فأتونا بحجة واضحة بيّنة على صدق دعواكم؟ فيما تزعمونه من أن الله أرسلكم إلينا؟

وتمضي الآيات البيّنات وهي تطالعنا بما تمّ من الحوار بين الرسل والأتباع، وبما ردّ به الرسل الكرام على أقوامهم، بعد أن جابهوهم

بالتكذيب، وقابلوهم بالصدِّ والإعراض، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْتَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا، وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا، وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

الشبهات التي أثارها المشركون والردُّ عليها

أقام المشركون في وجه دعوة الأنبياء حواجز، وأثاروا عدلاً عليلاً، ظناً منهم أنها حجج قوية، يستطيعون بها دفع رسالة المرسلين، فذكروا أربع شبهات:

الأولى: الشكُّ والارتيابُ في وجود ربِّ الأربابِ جلَّ وعلا، وإليه الإشارةُ بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

الثانية: زعمهم أن الرسل ينبغي ألا يكونوا من البشر، وإليه الإشارةُ بقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾.

الثالثة: تمسكهم بطريقة التقليد للآباء، وأنه هو الطريق الصحيح، وإليه الإشارةُ بقولهم: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

الرابعة: إنكارهم لمعجزات الأنبياء، وطلبهم لمعجزات يقترحونها، وإليه الإشارةُ بقولهم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

الرد على الشبهة الأولى

أما الشبهة الأولى فقد ردَّ عليهم الرسل فيها بالحجة الدامغة، التي تقصم ظهر الباطل، وهي أن دلائل وجود الله ووحدانيته، أظهرُ وأشهرُ من أن تحتاج إلى إقامة دليلٍ وبرهان، فكلُّ ذرَّةٍ في الكون ناطقة بوجوده، وكل

حركةٍ وسَكْنَةٍ شاهدةٌ بوحْدانيته، وما أحسن قول القائل:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهَ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

إذا كانت الشمس طالعة ساطعة، فهل يحتاج المرء إلى دليلٍ على وجود النهار؟ ولهذا جاء جواب الرسل على تلك الشبهة السقيمة قاطعاً واضحاً ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي أفى ألوهيته ووحْدانيته شك؟ وهو تعالى المبدعُ والخالق لكل ما في الأكوان، من سماءٍ وأرض، وجبالٍ وبحارٍ، وأشجارٍ وأنهار، وأفلاكٍ وأقمار، وإنسانٍ وحيوان، ونباتٍ وجمادٍ؟ كلُّ هذه الآثار، ألا تدلُّ على وجود الواحد القهَّار؟ سئل بدوي عن دليلٍ على وجود الله، فقال بفطرته السليمة: يا سبحان الله أو يحتاج ربنا إلى دليلٍ وبرهان على وجوده!! ثم أنشأ يقول:

البعرةُ تدلُّ على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير، أفسماءُ ذات أبراج، وأرضُ ذات فجاج، وبحارُ ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير؟ إنه منطق الفطرة أنطقه الله عزَّ وجل به، ولهذا نجد الرسل هنا يلفتون الانتباه إلى أن الأمر بدهي، لا يحتاج إلى أكثر من النظر في ملكوت السموات والأرض، ليستدل الإنسان من الصنعة على الصانع، ومن المخلوق على الخالق ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي خالق هذا الكون ومبدعه ومخترعه على غير مثالٍ سابق.

الردّ على الشبهة الثانية

أما الشبهة الثانية فقد ردّوا عليهم بالإيجاب ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي صدقتم في قولكم إننا بشر، فنحن لسنا ملائكة، نحن بشر مثلكم في الخلق والتصوير، ولكنّ الله ميّزنا عنكم بالوحي والنبوة، وخصّنا بهذا الشرف، فجعلنا رسلاً إلى الناس، والحكمة تقتضي أن نكون مثلكم بشراً، فإن الله يبعث الجنس إلى الجنس، ولو كنتم ملائكة لبعث الله إليكم رسلاً من الملائكة كما قال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (١).

الردّ على الشبهة الثالثة

أما الشبهة الثالثة وهي شبهة التقليد للآباء، فإن العقل يرفضها، والمنطق السليم يأبأها، ولذلك نجد الرسل الكرام لا يرّدون هنا عليها، لأنه إذا ثبت بالدليل القاطع صدق الأنبياء، فلا حاجة إلى بيان سفه تقليد الآباء، والتقليد الأعمى لا يليق بالعقلاء.

وقد حكى القرآن الكريم في موطن آخر الرد على هذه الشبهة فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي ما وجدنا عليه آباءنا ﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢) أي أيتبعونهم ولو كانوا أغبياء مجانين، لا يهتدون إلى طريق الخير والسعادة؟! وكفى بهذا تسفيهاً وتجهيلاً لمن احتج بتقليد الآباء بغير بصيرة!!

أما الشبهة الرابعة فقد ردّ عليهم فيها الرسل بقولهم: ﴿وَمَا كَانَ

(١) سورة الإسراء آية رقم ٩٥.

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٧٠.

لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿ أَي لَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِمُعْجَزَةٍ مِمَّا اقْتَرَحْتُمُوهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِنَا، إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَإِذْنِهِ، وَمَا جِئْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ كَافِيَةٌ فِي إِثْبَاتِ صَدَقَتِنَا، وَمَا زَادَ عَلَيَّ ذَلِكَ فَمَرْجِعُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ خَلَقَهَا وَأَظْهَرَهَا فَلَهُ الْفَضْلُ، وَإِنْ لَمْ يُظْهَرْهَا فَلَهُ الْعَدْلُ ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَي فَدَعُوا الْجَدَلَ وَتَوَكَّلُوا عَلَى رَبِّ الْأَرْبَابِ .

تهديد المشركين للرسل

ولما أجاب الرسل على شبهاتهم، ولم يتركوا لهم حجةً يتمسكون بها، وشعر أولئك الجاحدون المعاندون بالهزيمة والغلبة، أخذوا في السفاهة والتخويف والوعيد ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ . وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ، وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ، وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ هكذا يُقَابِلُ الْمُجْرِمُونَ رُسُلَهُمْ، فِي تَبْجِحٍ وَسَفْهٍ، مَهْدِّدِينَ مَتَوَعِّدِينَ ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ وَهَذَا شَأْنُ الطَّغْيَانِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، إِذَا شَعَرَ الْخَصْمُ بِالْغَلْبَةِ، وَأَفْحَمَتَهُ الْحُجَّةُ، سَارَعَ إِلَى الْبَطْشِ وَالتَّنْكِيلِ، وَالْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ، لِيَسْتَرْ بِذَلِكَ هَزِيمَتَهُ، وَيُشْعِرَ النَّاسَ بِأَنَّ الْحَقَّ بَجَانِبِهِ .

ولمَّا تَجَرَّعُوا عَلَى الرُّسُلِ بِهَذِهِ السَّفَاهَةِ، مَعْتَزِّينَ بِكُثْرَتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، لَمْ يَجِدِ الرُّسُلَ إِلَّا اللَّجُوءَ إِلَى اللَّهِ وَحَمَى الرَّحْمَنِ لِيُدْفَعَ عَنْهُمْ شَرُّ هَؤُلَاءِ الْفَجْرَةِ الْمُجْرِمِينَ .

نصرة الله لأنبيائه ورسوله

ويطوي السياق ما دار بعد ذلك من الحديث، ويوقفنا أمام هذا

المشهد المهول، في نصره الله لأنبيائه ورسله المكرمين ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي ذلك النصر للرسل، وذلك الإهلاك للظالمين، لمن خاف عظمتي، وخاف عذابي ووعيدي، فأية قوة في الأرض تستطيع أن تنال من رُسل الله، إذا كان الله معهم ونصيراً لهم؟ ثم قال تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ والمعنى: استنصر الرسل بالله على قومهم، وطلبوا نصره وعونه، وخاب وخسر وهلك كل طاغية متجبر، معاند للحق، ومعنى الاستفتاح: طلب النصر، وأن يفتح الله لهم على أعدائهم، والسين والتاء للطلب أي طلبوا النصر فجاءهم النصر، أما أعداء الرسل فقد أيدوا وأهلكوا بعذاب عاجل، أما العذاب الآجل الذي ينتظرهم فذاك أدهى وأمر، ولهذا قال تعالى: ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ، وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾، أي أمام ذلك الكافر جهنم تنتظره، وسوف يُسقى في النار شراباً من ماء صديد، قال مجاهد: هو القيح والدم، وهو عَصَاة أهل النار ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ ﴾ أي يتلعه ويشربه قهراً، ولا يكاد يستسيغه لسوء طعمه وقبحه وكراهته ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ أي لو كان هناك موتٌ لمات، ولكن هيهات، فقد حكم الله عليه بالخلود في دار الجحيم ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ وفي الحديث الشريف: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف بمن يكون طعامه»^(١)؟ أي كيف بمن كان الزقوم طعامه، لا طعام له سواه!؟

اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ، يَا عَزِيزُ يَا غَفَّارُ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

(١) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي في سننهما وقال الترمذي: حسن صحيح وانظر جامع الأصول ١٠/٥١٦.

ضياح أعمال الكفار

وتمضي الآيات وهي تضرب الأمثال، لأولئك الكفرة الفجار، الذين جحدوا وحدانية الله، وكذبوا رسله، وتوعدوهم بالفتك والبطش، والإخراج من الأوطان، فتذكر أن أعمالهم قد ذهبت وضاعت، وبطلت وتلاشت، فلا ينتفعون بشيء منها أصلاً، وتضرب لهم المثل بالريح الشديدة العاصفة، تأتي على الرماد، فتطيره وتفرق أجزاءه، بحيث لا يبقى لذلك التراب أو الرماد أثرٌ ولا خبر، كذلك أعمال الكفار تذهب يوم القيامة هباءً منثوراً وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ﴾. والمراد بأعمال الكفار، هي المكارم والمآثر التي فعلوها، يطلبون بها الأجر، من صلة الأرحام، وإغاثة الملهوفين، وعون المظلومين، وعتق الرقاب، وإطعام الفقراء والمساكين، وأمثالها من أعمال البرِّ والإحسان، فقد شبهها تعالى في ضياحها وحبوطها، برمادٍ - يعني تراب - طيرته الريح في يوم اشتدت فيه العواصف، فلم تُبق له أثراً، ذلك لبنائها على غير أساس من الإيمان، والإخلاص، والتوحيد، ولهذا قال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ أي لا يستطيعون تحصيل ثواب ما عملوا، لإحباطه بالكفر، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شيء من الرماد الذي طيرته الريح، وهناك تعظم حسرتهم وندامتهم، لأن أعمالهم قد مُحِقت، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ﴾ أي الخسران الكبير الذي لا خسران يوازيه، لأنه ضاع بالكلية.

خسرانهم يوم الحشر الأكبر

ثم تنتقل الآيات لتبيِّن شقاءهم وخسرانهم، يوم الحشر الأكبر، يوم يُعرضون على ربهم جميعاً، الزعماء والرؤساء، والأتباع والضعفاء، والأسياد والعبيد، الكلُّ حاضرُونَ أمام ملك الملوك، جبار السموات والأرضين، لا تخفى عليه منهم خافية، ويجري الحساب، وتوضع الموازين، وينجلي الموقف عن شقاء المجرمين، وتكدسهم في جهنم جميعاً، القادة والأتباع، والرؤساء والبُلَهَاءُ، يدخلون جهنم ذليلين مهينين، خاشعين خاضعين، وقد كانوا في الدنيا متعاليين متكبرين، وإذا بهم اليوم في خزي الدار، ولعنة الجبار، وموقف المهانة، وذل الفضيحة، وهناك تظهر خسارتهم الكبرى، ويعضون أصابع الندم، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا، فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَّرْنَا، مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ .

معنى الآية الكريمة

ومعنى قوله سبحانه: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي خرجوا من قبورهم لموقف الحشر، وظهروا للحساب والجزاء، لا يسترهم عن الله ساتر، مهما كثروا واختلط بعضهم ببعض . . وإنما جيء بلفظ الماضي ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ مع أن هذا إنما يكون في الآخرة، تحقيقاً للوقوع، فإن كل

ما أخبر الله تعالى عنه فهو حقٌ وصدقٌ، فصار كأنه قد حصل، ودخل في الوجود، لأنه أمرٌ مقطوعٌ به، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَنادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ فهو حكاية عما سيقع في الآخرة ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ المراد بالضعفاء: الأتباع والعوام، ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ هم السادة والكبراء.

قال ابن عباس: المراد أكابرهم الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى فضلوا وأضلوا أي قال الأتباع والعوام، للسادة الكبراء، والقادة الأشقياء، الذين أضلّوهم في الدنيا ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي كنا أتباعاً لكم، نأتمر بأمركم، وننتهي بنهيكم، وكنا لا نخالفكم في شيء، بل نطيعكم في كل ما تريدون ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾؟ أي هل يمكنكم دفع عذاب الله عنا؟ فقد كنتم في الدنيا سادتنا وقادتنا، وكنا لكم أذناناً وأتباعاً، فخلصونا ممّا نحن فيه من الشقاء والعذاب ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أي قال القادة معتردين: لو أراد الله بنا الخير، وهدانا للإيمان، لهديناكم إليه، ولكن شقينا وضللنا فأضللناكم، فلا ينفعنا اليوم العتاب ولا الجزع، وهذا اعتراف منهم بالعجز والندم، ثم قالوا: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ أي يستوي علينا الجزع والصبر ﴿ مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ أي ليس لنا مهرب ولا ملجأ من عذاب الله، أرادوا إقناطهم من دفع العذاب بالكلية، وأن عتابهم وتوبيخهم لهم لا فائدة فيه.

رُوي عن عبد الرحمن بن أسلم أن أهل النار يقولون: إنما نال أهل الجنة الرحمة بالصبر على طاعة الله تعالى، فتعالوا نصبر، فصبروا خمسمائة سنة فلم ينفعهم، فقالوا تعالوا نبكٍ ونتضرع إلى الله تعالى، كما كان المؤمنون يتضرعون إليه في الدنيا لعل الله يرحمنا!! قال:

فصَجُّوا في البكاء والعيول خمسمائة سنة أُخرى، فلم ينتفعوا فقالوا عند ذلك: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ (١).

قال الحافظ ابن كثير: والظاهر أن هذه المناظرة والمراجعة، إنما تكون في النار بعد دخولهم إيَّها، وليست في موقف العرض، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ، يَقُولُ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكَبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكَبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا، إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (٢) ويا له من موقفٍ مُخزٍ لأعداء الله!!

خطبة إبليس في النار

ثم تمضي الآيات لتطالعنا بمشهد آخر، من مشاهد الخزي للكفرة الفجار، وهو مشهد رهيب، يقف فيه «إبليس» في جهنم خطيباً، يخطب بأشياعه وأتباعه، من الكفرة المجرمين، والعصاة المذنبين، بعد أن تنهال عليه اللعنات من كل جانب، فيقف فيهم مرتجلاً لتلك الخطبة البتراء، التي يقول فيها الحقيقة على مسمع أهل النار، ليزيدهم حسرة إلى حسرتهم، وحزناً فوق حزنهم، وهي خطبة شهيرة ذكرها لنا القرآن: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ، إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْلَمْوَأْ أَنفُسَكُمْ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/٢٩٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٩٥.

هذه هي خطبة إبليس في أتباعه في أطباق جهنم، يقول فيها الحقيقة لأول مرة، دون خداعٍ أو كذب، يُعلِّمهم فيها أنه كان في الدنيا مُخادِعاً وكاذباً معهم، وقد اتفق المفسرون على أن هذه خطبة إبليس في أشياعه وأتباعه ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي لما فرغ من الحساب ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ ﴾ أي وعدكم وعداً صادقاً أن في اتباع رسله النجاة والسلامة ﴿ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ أي ووعدتكم أن لا بعث ولا نشور، ولا حساب ولا عقاب، فكذبتكم وخذعتكم ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أي ما كان لي عليكم قدرة وتسلط وقهر، فأقهركم على الكفر والمعاصي، إلا دعائي لكم إلى الضلالة بالوسوسة والإغواء، فأطعتموني وعصيتم ربكم ﴿ فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي لا ترجعوا بالملامة عليّ اليوم، بل لوموا أنفسكم، فإن الذنب ذنبكم، ثم قال لهم: ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أي لست بمنقذكم ومُخَلِّصكم من عذاب الله، كما لا تقدرون على إنقاذه من عذابه ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي أنا أتبرأ منكم في عبادتكم لي من دون الله، فإن المشركين لهم عذاب شديد ومؤلم.

وبمقابلة هؤلاء الأشقياء يأتي الحديث عن المؤمنين الأتقياء وما نالوه من السعادة في دار الخلد والنعيم، فيقول تقديست أسماءه: ﴿ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ .

أي تجري من تحت غرفها وقصورها أنهار الجنة؛ أنهار اللبن، والعسل، والماء السلسيل، وأنهار الخمر التي هي لذة للشاربين، كما

ذكر تعالى في سورة محمد بقوله سبحانه: ﴿ فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّر طعمُهُ، وأنهارٌ من خمرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى . . ﴾ الآية .

مثل كلمة الإيمان وكلمة الكفر

وبعد ذلك البيان المستفيض، عن حال الأشقياء والسعداء، الذين تحدثت عنهم الآيات الكريمة، ضرب الله مثلاً لكلمة الإيمان، وكلمة الكفر، بالشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة، فالمؤمن مثله كمثل الشجرة الطيبة، التي طابت تربتها، وطاب شكلها ورائحتها، فطاب ثمرها وفاكهتها، ورسخت أصولها في الأرض، وامتدت أغصانها في الهواء، وأعطت الثمار زاهيةً، ناضجةً، وافيةً، والكافر مثله كمثل شجرة الحنظل الخبيثة، التي استؤصلت من جذورها، واقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها، فلا خير فيها، ولا نمو لها ولا بركة، بل سرعان ما تزوى وتضمحل، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا، كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، أُصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ذلك مثل المؤمن، الذي آمن فاهتدى، وعمل الصالحات، فأثمرت شجرة الإيمان كل خير وسعادة له، ولأسرته وأبنائه، وربت ثمرات عمله الصالح، كرامةً في الدنيا، وفلاحاً في الآخرة. أما الكافر فمثله كمثل الشجرة الخبيثة، التي لا ثبات لها ولا قرار، ولا فائدة منها ولا نفع، تربتها خبيثة وثمرها خبيث، كثر شوكرها، وغار ماؤها، واقتلعت أصولها من جذور الأرض، فلم تعد تنبت شيئاً، وفي ذلك يقول القرآن

الكريم: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ، اجْتَسَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾. ذلك هو مَثَلُ الإيمان والكفر، والهدى والضلال، ومَثَلُ العمل الصالح الذي ينمو لصاحبه، والعمل الفاسد الذي يذهب أدراج الرياح.

قال ابن عباس: الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» والشجرة الطيبة قلبُ المؤمن، شبه تبارك وتعالى ما يكسبه المؤمن، من بركة الإيمان وثوابه، بالشجرة الطيبة التي رسخ أصلها، وطابت تربتها، وامتدت أغصانها، فأثمرت وأينعت بكل فاكهة لذيذة، وبكل ثمرة نضيج، وآتت أكلها في كل وقتٍ وحين، فالمؤمن كلما قال: «لا إله إلا الله» سعدت إلى السماء، ثم جاء خيرها ومنفعتها، والكافر لا يُقبل عمله، ولا يصعد إلى الله تعالى، لأنه ليس له أصلٌ في الأرض ثابت، ولا فرعٌ في السماء صاعد^(١).

معنى التثبيت في الآخرة

وأما التثبيت الذي أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ فهو تثبيته عند سؤال المَلَكَيْنِ له في القبر، حين يُقال له: مَنْ رَبُّكَ؟ وما دينك؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ كما ورد بذلك الحديث الصحيح، فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمُ إذا سُئِلَ في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢٩٦/٢.

محمدًا رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾^(١).

فتثيبته في الدنيا هو ثباته على كلمة التوحيد، وعلى الإيمان، فلا يزيغ في الدنيا ولا يُفتن، وتثيبته في الآخرة هو تلقينه الحجة، ونطقه بالشهادة عند السؤال في القبر، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه إذا فرغ من دفن الرجل، وقف عليه وقال لأصحابه: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل»^(٢) وفي مسند الإمام أحمد، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمَّا يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأنَّ على رءوسنا الطير، وفي يده ﷺ عودٌ ينكت به الأرض، فرفع رأسه ثم قال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر، وكرَّرها مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل به ملائكة من السماء، بيضُ الوجوه، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء مَلَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيء السقاء - أي فم السقاء - فيأخذها ثم تأخذها الملائكة منه، فيجعلونها في ذلك الكفن، وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك، فيصعدون بها، فلا يمرُّون بها على مَلَأٍ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟

(١) رواه البخاري ومسلم انظر جامع الأصول ٢/٢٠٣.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٩٩.

وَدَكَرَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رُوحَهُ بَعْدَ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، يَقُولُ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: «اَكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عَلِيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَتُعَادَ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانَهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَّقَ، فَأَفْرَشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبَسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ طَيْبِهَا وَرُوحِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّةَ الْبَصْرِ..»^(١) الْحَدِيثُ فَهَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ فِي الْآخِرَةِ.

تَبْدِيلُ أَهْلِ مَكَّةَ نِعْمَةَ اللَّهِ

وبعد هذا البيان عن مآل أهل الشقاوة وأهل الإيمان، يأتي الحديث عن كفار أهل مكة، الذين أكرمهم الله ببعثة هذا النبي الكريم، فكفروا النعمة، وكذبوا بآيات الله، فأبدلهم الله بالأمن خوفاً، وبالعزيز ذلاً، وبالغنى فقراً، وضربهم بالقحط سبع سنين، وفيهم يقول ربُّ العزَّة جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقَرَارُ. وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هم كفار مكة، بدلوا نعمة الله كُفْرًا، وأحلوا قومهم دار البوار»^(٢) فقد أسكنهم الله حرمة الآمن، وجعل

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢٩٧/٢.

(٢) الحديث أخرجه البخاري عن ابن عباس من رواية عطاء عنه، وانظر تفسير ابن كثير

عيشهم في سعة، وبعث فيهم محمداً ﷺ، فلم يعرفوا قَدْرَ هذه النعمة، وكفروا به وكذبوه، فابتلاههم الله بالقحط والجذب، حتى أكلوا الجلود والوبر، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ أي أنزلوا قومهم دار الهلاك والدمار، وهي جهنم يذوقون حرَّها وسعيرها، وبئست جهنم مستقراً لهؤلاء الفَجْرَةَ الكفار.

دعوة المؤمنين إلى فعل الخيرات

ثم تنتقل الآياتُ بعد الحديث عن الكافرين، الذين كذبوا رسالة سيد المرسلين، إلى الحديث عن المؤمنين، فتأمرهم بإقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، لينقذوا أنفسهم من عذاب الآخرة، ويتخلصوا من هَوْل ذلك اليوم العصيب، الذي لا ينفع فيه مالٌ ولا قريب، فإن أمام الإنسان أهوالاً وكُرباً، لا ينجو منها إلا بالعمل الصالح، الذي يبتغي به الإنسان وجه الله، وفي ذلك يقول جل ثناؤه: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴾ لقد أمر الباري جلّ وعلا عباده المؤمنين، بالقيام بطاعته، والإحسان إلى عباده، وفعل الخيرات والصالحات، وحذّره من التهاون والإهمال، والتفريط في جنب الله، فهنا عملٌ ولا حساب، وهناك حساب ولا عمل، فالعاقل من تزوّد من دنياه لآخرته، والشقي من رحل من الدنيا بلا زاد، والمراد بإقامة الصلاة: المحافظة عليها وأداؤها في أوقاتها، بحدودها، وركوعها، وخشوعها، وسجودها، وسائر الفرائض والأركان، لا مجرد أداء الصلاة التي هي جسد بلا روح، وصورة بلا حقيقة، فإن تلك صلاة الغافلين، الذين لا يعرفون قدر هذه الصلاة، وقد قال الله سبحانه في الصلاة التي تقرب المؤمن من الله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ

أَكْبَرُ ﴿١﴾. وقوله سبحانه: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾
 أي من قبل أن يأتي يوم القيامة، العصيب الشديد، الذي لا ينفع
 الإنسان فيه شيء من أمور الدنيا، إذ لا مبايعة فيه ولا صداقة، ولا فداء
 ولا شفاعة، كما قال سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال أبو عبيدة: البيع هنا يُراد به الفداء، والخِلَالُ هي
 الصَّحْبَةُ والصداقة والمعنى: لا ينفع الإنسان صداقة أحد، ولا يستطيع
 أن يفدي نفسه من عذاب الله، حتى ولو كان له ملء الأرض ذهباً.

وحمل بعض المفسرين الآية على ظاهرها فقالوا: إن يوم القيامة
 لا يكون فيه بيع ولا شراء، ولا صداقة ولا قرابة، فكأنه تعالى يقول:
 أنفقوا أموالكم في الدنيا، حتى تجدوا ثواب هذا الإنفاق في مثل هذا
 اليوم، الذي لا تحصل فيه مبايعة، ولا فداء، ولا صداقة، وهذا المعنى
 مروى عن مقاتل، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا
 رَزَقْنَاكُمْ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ، وَلَا خُلَّةً، وَلَا شَفَاعَةً،
 وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

نَعْمُ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ لَا تُحْصَى

ثم انتقلت الآيات لإقامة الأدلة والبراهين، على وجود رب
 العالمين، ولتذكُّر العباد بما أغدق الله عليهم من النعم، ليحمدوه
 ويشكروه، ويُقرِّوا له بالفضل والإنعام، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه:
 ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ
 مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ،
 وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٤.

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿١﴾.

ذكر تعالى في هذه الآيات البيّنات سبعة أنواع من الدلائل على قدرته ووحدانيته:

الأول: خلقُ السمواتِ والأرضِ، وما أبدع فيهما من أنواع الخلق والتصوير، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أبدعهما واخترعهما على غير مثالٍ سابق، وذلك دليل وجود الخالق، وكمال علمه وقدرته.

الثاني: إنزالُ المطرِ من السماء، وإخراجُ الزروعِ به والثمار، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾.

الثالث: تسييرُ السفنِ العظيمة في البحار، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ والْفُلْكَ: هي السفنُ الضخمة، الموقرة بالرجال والأثقال، تسير على سطح الماء بقدرته الكبير المتعال.

الرابع: جريانُ الأنهار في كثير من البلدان، تشقُّ الأرض من قطر إلى قطر، ليشرب منها الناس ويسقوا ويزرعوا، وبخاصة في البلاد التي تقلُّ فيها الأمطار^(١)، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾.

الخامس: تدليلُ الشمس والقمر، يجريان بدقة وانتظام لمعايش الناس ومصالحهم، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾

(١) مثل بلاد مصر فإن الأمطار فيها قليلة وهي تعتمد في الزراعة والسقي والشرب على نهر النيل، وهو رحمة من الله على أهل البلاد، فسبحان الكريم المنان.

دَائِبِينَ ﴿ ومعنى «دَائِبِينَ» أي باستمرار دون انقطاع أو فتور، فالشمس تُنير بالنهار، ولولاها لما حصلت الفصول الأربعة، ولَمَّا نَمَّا الزرع وخرجت الثمار، بل ما عاش إنسان أو حيوان، والقمر ينير بالليل، وتُعرف به الشهورُ والأعوام، ولولاه لغرقت الأرضُ بماءِ البحار، فهو سبب للمدِّ والجزر، فسبحان الإله القدير، الواحد القهار!!

السادس: تعاقب الليل والنهار، هذا يأتي وذاك يمضي، الليلُ للسكن والراحة، والنهارُ للحركة والمعاش، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ .

السابع: تأمين كل ما يحتاج إليه الإنسان، من الماء، والهواء، والغذاء، والكساء، والمسكن، والمركب، وسائر الحاجات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَأَتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أي هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في حياتكم، مما يُصلح أحوالكم ومعاشكم، مما سألتموه بلسان الحالِ أو المقال. ثم بين تعالى أن نِعَمَ الله على عباده غير متناهية، ومع كل هذه النِعَم التي لا تكاد تُحصى، فإن الإنسان جاحدٌ لفضل الله، منكرٌ لنعمائه وأياديه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ أي إنه مبالغ في الكفر والجحود، ظالمٌ لنفسه بتعدّيه حدودَ الله، والنعمةُ المذكورة في الآية الكريمة، يُراد بها النِعَم، فهي اسم جنس، وليست للمفرد، والمعنى: وإن تعدوا نِعَمَ الله لا تحصوها. ولُنمِعِنِ النظر في التعبير القرآني المجيد، فإنه ورد بصيغة «فَعُولٌ» و«فَعَّالٌ» وكلاهما من صيغ المبالغة، فلم يرد النص بلفظ «إن الإنسان لظالم كافر» وإنما ورد بلفظ ﴿ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ للتنبية على شدة ظلمه، وكفرانه لنعمة الله، وهذا من أسرار القرآن البديعة.

التفكر في نعمة الطعام

وليتأمل العاقل في قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ليرى فيض نِعَمِ اللَّهِ على عباده، بحيث لا يُحصيها عدٌّ، ولا يضبطها حدٌّ، ولنضرب على ذلك مثلاً واحداً، فإنك إذا أخذت اللقمة الواحدة، لتضعها في فمك، فانظر كم سبقها من نِعَمٍ؟ وكم وراءها من فضلٍ وإنعامٍ؟ أمّا ما تقدّم هذه اللقمة، فانظر كم سخّر الله لها من أيدي عاملة، وأشياء لا تصلح إلاّ بها، من الفلاح الذي يزرع الحب، والماء الذي ينزل من السماء، والشمس التي تعطيها الحرارة والدفء لينمو الزرع، ثم الطحّان الذي يطحن الحب، والخبّاز الذي يخبز الطحين، والآلات التي تُستعمل في الحصاد والطحن، ثم بعد أن ينضج هذا الرغيف، ويصبح بين يديك صالحاً للأكل، تفكّر فيما خلق الله لك من الأسنان التي تقطع، والأضراس التي تمضغ، واللُّعاب الذي يساعد على تقليب اللقمة حتى تصح صالحاً للبلع، ثم القوى التي أوجدها الله في بدنك، المُعينة على الجذب والإمساك، والهضم والدفع، والمعامل الكيميائية التي هي داخل جهاز الهضم، حتى تقلب هذا الغذاء إلى دم نقي يندفع من المعدة إلى الشرايين، ومنها إلى القلب، ثم إل سائر البدن، ليبقيَ عليك نعمة الحياة، ولتدوم فيك الدورة الدموية التي هي سرُّ هذه النعمة (نعمة الحياة) هذا كله يجري من أجل لقمة واحدة، فكيف لو فكرت في جميع ما حباك الله به من سائر النعم؟ هناك تعرف معنى قوله جلّ وعلا: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾!!

كلمات من تفسير الظلال

يقول الإمام الشهيد السيد قطب رحمه الله تعالى، في كتابه «في

ظلال القرآن» عند تفسير هذه الآيات الكريمة: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ..﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ يقول ما نصه: «وهنا يُفتح كتابُ الكونِ على مصراعيه، فتنتطقُ سطورهُ الهائلةُ، بنعمِ الله التي لا تُحصى: السمواتُ والأرضُ، الشمسُ والقمرُ، الليلُ والنهارُ، البحارُ والأنهارُ، الأمطارُ والثمارُ، هذه الصفحاتُ الكونيةُ المعروضةُ على الأنظارِ، ولكنَّ البشرَ لا ينظرون ولا يعتبرون، ولا يقرءون ولا يتدبرون، ولا يحمدون ولا يشكرون، إنَّ الإنسانَ لظَلومٌ كَفَّارٌ، يجعلُ اللهُ أنداداً، وهو الخالقُ الرازقُ، مسخَّرُ الكونِ لهذا الإنسانِ، والمشهدُ الهائلُ المعروضُ هنا لأيديِ اللهِ وآلائِهِ، تسيرُ فيه خطوطُ الريشةِ المبدعةِ.. أفكَلُ هذا الكونِ الهائلِ، مسخَّرٌ لذلك المخلوقِ الصغيرِ؟

السمواتُ ينزلُ منها الماءُ، والأرضُ تتلقاهُ ثم تُخرجُ به الثمارَ، والبحرُ تجري فيه الفلكُ بأمرِ اللهِ مسخَّرةً لحملِ الأقواتِ والأرزاقِ، والأنهارُ تجري بالحياةِ دافقةً في مصلحةِ الإنسانِ، والشمسُ والقمرُ دائبان لا يفتران، والليلُ والنهارُ يتعاقبان، أفكَلُ ذلك للإنسانِ، ثم لا يذكر ولا يشكر!؟

اللَّهُمَّ اجعلنا ممَّن ذكروا وشكروا، ولا تجعلنا ممَّن جحدوا وكفروا، يا رب العالمين.

* * *

دعوات إبراهيم المباركات للبلد الحرام

ثم تمضي الآيات البينات، تطالعنا بمشاهد بديعة، وصور رائعة، من حياة خليل الرحمن، إبراهيم عليه السلام، وما جاء به من التوحيد الخالص، الذي هو سرُّ الدعوة وحقيقة الإيمان، فإبراهيم هو أب الأنبياء، وهو الجدُّ الأكبر لرسول الله ﷺ، إذ كان نبينا من ولد إسماعيل، وإسماعيل هو ابن إبراهيم، فيكون إبراهيم هو الجدُّ الأعلى لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد استجاب الله دعوة إبراهيم أن يبعث في أمة العرب، رسولا عربيا، من نسله وذريته، فبعث الله خاتم المرسلين، محمدا صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، بالملة الحنيفية السمحة، التي هي ملة الخليل إبراهيم، وخصَّ إبراهيم بخصائص ومزايا فريدة، فجعله أباً للأنبياء، وإماماً للتقياء، وقُدوةً لمن بعده من المرسلين، واختاره من بين الرسل بالخلَّة والاصطفاء، وبعث من نسله خاتم الأنبياء، ولنستمع إلى هذه الدعوات المباركات، التي دعا به خليل الرحمن، بعد أن انتهى من بناء البيت العتيق، مركز التوحيد ومصدر الإيمان ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا، وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيِّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي

تتناوله حتى تموت من شدة الخوف، فدلّ ذلك على أن الخوف والفرع، أشد من الألم الحاصل للجسد.

الدعوة الثانية «نعمة الإيمان»

الثانية: من دعوات الخليل إبراهيم، طلبه أن يرزقه الله التوحيد، ويصونه عن الشرك هو وذريته وأولاده، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي جنّبي وأولادي عبادة الأصنام، والغرض من هذه الدعوة تثبيتته وذريته على ملة التوحيد والإسلام، وذلك أعظم مطلب عنده عليه السلام، والأمن والإيمان هما أسمى مطالب المؤمن المتبصّر في دينه.

الدعوة الثالثة «تعلق القلوب بالبيت الحرام»

الثالثة: طلبه أن يعمر الله هذه البقعة من الأرض، بالعابدين والعاكفين، والطائفين بالبيت العتيق، وأن تتعلق بها قلوب المؤمنين، حتى تكون دائماً عامرة بأهل الصلاح والدين، وإليه الإشارة بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس: لو قال «أفئدة الناس» لاذحمت عليه فارس والروم، والناس كلهم، ولكنه قال: ﴿أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ أي بعض الناس وهم المؤمنون الصالحون، العباد الزهّاد، كما طلب لسكان مكة، والمجاورين فيها، أن يرزقهم من جميع أنواع الثمرات ﴿وَارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

الدعوة الرابعة «إصلاح الظاهر والباطن»

الرابعة: طلبه أن يُحسن الله سيرته، ويجعله مرضياً عند الله،

وإليه الإشارة بقوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ وغرض هذا الدعاء أن يجعل الله باطنه خيراً من ظاهره، لأن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأجساد، إنما ينظر إلى القلوب والأعمال، كما صحَّ بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ حيث قال: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »^(١).

الدعوات الثلاث الباقيات

خامساً: ثناؤه على الله على ما وهب له من البنين، بعد أن بلغ سنَّ الشيخوخة، وإكرامه تعالى له باستجابة الدعاء بولادة إسحاق وإسماعيل ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾.

سادساً: دعاؤه أن يجعل الله فيه وفي ذريته، من يحافظ على إقامة الصلاة، ويجعلها شعاراً له، لأنها أهم أركان الدين، وبدون الصلاة يختل الإيمان ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾.

سابعاً: طلب المغفرة له ولوالديه، وللمؤمنين والمؤمنات، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهذه هي نهاية سؤله، وغاية قصده، أن تُغفر ذنوبه وذنوب أتباعه ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ استجاب الله دعوات إبراهيم الخليل، فأكرم أهل هذه البلاد، بالأمن والاستقرار، وسعة الرزق ورغد العيش، وجعل بيته العتيق مهوى أفئدة الناس، يأتون إليه من كل فجٍّ عميق.

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري ١٧١/٩ ومسلم برقم ٢٥٦٣ في البر والصلة، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٥٢٣/٦.

«قصة هاجر مع إسماعيل عليهما السلام»

قَدِمَ إبراهيم عليه السلام بولده الرضيع «إسماعيل» وأمه «هاجر» من أرض فلسطين، ووضعهما في ذلك المكان القفر، عند دوحَةٍ قرب زمزم، وكان ذلك بأمر الله عزَّ وجل لحكمة يريدُها المولى جلَّ وعلا، ولما عزم على العودة إلى أرض فلسطين، لحقته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم: أين تتركنا في هذا المكان القفر، الذي ليس به سمير ولا أنيس؟ وجعلت تخاطبه وهو لا يلتفت إليها، مخافة أن تمنعه عن تنفيذ أمر الله، فقالت له عند ذلك: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: اذهب إذاً فلن يضيّعنا الله، فلما ابتعد عنها أخذ يدعو ربه بهذا الدعاء الخاشع المُنِيب: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ ثم انطلق يقطع الصَّحَارَى حتى عاد إلى وطنه الأول في أرض فلسطين. وكان قد ترك لهما كيساً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، فأخذت «هاجر» تأكل من التمر، وترضع وليدها، وتسقيه من الماء، حتى إذا نفذ الشراب، أخذت تبحث له عن ماء، فوجدت الصفا أقرب جبل يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلما لم ترَ أحداً هبطت من الصفا، ثم سَعَتْ سَعَى الإنسان المجهود، حتى وصلت إلى جبل المروة فصعدت عليه فلم ترَ أحداً، فأخذت تهول وتسعى بين الصفا والمروة سبع مرات - قال ابن عباس: فذلك سعي الناس اليوم - حتى إذا أشرفت على الهلاك، وتلاشت قواها، سمعت صوتاً من بعيد، فقالت: قد سمعت فأغشنا إن كان عندك غوث، ثم نظرت فرأت رجلاً جميلاً الطلعة عند مكان زمزم، فهولت نحوه تظنه بشراً، فإذا به المَلَكُ جبريل عليه السلام بصورة

بشرية، فضرب الأرض فإذا بالماء يفور كأنه عيونٌ دافقة، ثم قال لها: لا تخافي الضياع، فإن الله ههنا بيتاً بينه هذا الغلام وأبوه - وأشار إلى تل مرتفع قرب زمزم - وإن الله لن يضيع أهله. هذه خلاصة تلك الحادثة العجيبة، والذكرى الخالدة، التي أراد الله من ورائها أن يعمر بيته العتيق، استجابة لدعوة الخليل ﴿ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

تحذير الظالمين من الحساب والجزاء

وبعد الحديث عن أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي دعا إليه التوحيد والإيمان، والذي تفتخر به جميع أهل الملل والأديان، لأنه رافع راية التوحيد، ومحطم الأصنام، جاء الحديث عن المعاد والجزاء والحساب، الذي هو أهم الأركان بعد الإيمان بالله، فذكر تعالى حال الناس في ذلك اليوم الرهيب، الذي تشخص فيه الأبصار، من شدة الفزع والدهشة والهول، إذ يلتقي فيه العباد على صعيد واحد، مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، لينال كل إنسان جزاءه العادل، وفي ذلك يقول ربنا تقدرت أسماؤه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ، لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ، وَأَفْتِدَتْهُمْ هَوَاءٌ. وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُنْجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ، أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ. وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ. وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ، وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِيَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ .

بعض أهوال الآخرة

لقد ذكر تعالى في هذه الآيات طرفاً من أهوال وشدائد الآخرة،

تسلياً للمظلوم، وتهديداً للظالم، كما قال ابن عيينة، فيوم القيامة هو يوم العدالة، يوم يُؤخذ للمظلوم من الظالم، ويُقتَصَّ للمقتول من القاتل، ويؤخذ كل إنسان بجريرته، ويتمنى الظالم أن يرجع إلى الدنيا ليعمل صالحاً، ولكن هيهات، فقد ذهب وقت العمل، وجاء وقت الحساب ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي تبقى أبصارهم مفتوحة مبهوتة، لا تتحرك الأجزاء من الفزع والهلع، ولا تطرف العين من شدة الجزع، كحال المجرم الذي يُساق إلى جبل المشنقة، ثم قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي مسرعين لا يلتفتون إلى شيء مما حولهم، قد رفعوا رؤوسهم في ذل وخشوع، لا يطفون بأعينهم من الخوف والجزع، وذلك يدل على دوام تلك الحيرة والدهشة في قلوبهم ﴿وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي قلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء من الخواطر والأفكار، كأنها نسيت كل ما نالته من نعيم، بسبب هول الحساب، قال قتادة: الأفتدة خالية، لأن القلوب قد خرجت من أماكنها فأصبحت لدى الحناجر كما قال سبحانه: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ، وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، والغرض تصوير حال هؤلاء الظالمين يوم القيامة، بحال من فقد عقله ورشده، وطار صوابه، لكارثة فادحة حلت به، فلم يعد يُبصر ما حوله، وأصبح مبهوتاً مدهوشاً.

طغيان أهل مكة وما حلَّ بالظالمين

ولئن طغى هذا الظالم وبغى في هذه الحياة الدنيا، فستأتيه ساعةٌ يعرض فيها أصابع الندم، ويتمنى أن يعود إلى الدنيا ليطيع ربه، ويتدارك أمره بصالح العمل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ

الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ، نُجِبْ دَعْوَتَكَ،
 وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴿ قَالَ تَعَالَىٰ رَدًّا عَلَيْهِمْ بِأَسْلُوبِ التَّأْنِيْبِ وَالتَّوْبِيْخِ: ﴿ أَوْلَمْ
 تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿ أَي أَلَمْ تَحْلِفُوا أَنْكُمْ بَاقُونَ
 فِي الدُّنْيَا لَا تَنْتَقِلُونَ إِلَىٰ دَارٍ أُخْرَىٰ؟ وَتَعْتَقِدُونَ أَلَّا بَعَثَ وَلَا حَشْرَ وَلَا
 نَشْرَ؟ ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ
 فَعَلْنَا بِهِمْ، وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿ أَي وَسَكَنْتُمْ فِي دِيَارِ الظَّالِمِينَ بَعْدَ أَنْ
 أَهْلَكْنَاهُمْ، فَهَلَّا اعْتَبَرْتُمْ بِمَسَاكِنِهِمْ؟ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ أَهْلَكْنَاهُمْ
 وَدَمَرْنَاهُمْ، وَلَكِنكُمْ لَمْ تَتَعَطَّوْا وَلَمْ تَعْتَبِرُوا بِتِلْكَ الْأَحْدَاثِ وَالْعِبَرِ، فَكَيْفَ
 تَطْلُبُونَ الْعَوْدَةَ إِلَىٰ الدُّنْيَا بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ؟ أَلَا فليعتبر الظالمون، فإن
 الظلم ظلمات يوم القيامة، وعاقبة الظالمين وخيمة، وما أحسن قول الشاعر:
 لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَالظُّلْمُ آخِرُهُ يَأْتِيكَ بِالنَّدَمِ
 تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مَتَّبِعُهُ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمْ
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ، وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ، وَإِنْ كَانَ
 مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿ أَي مَكَرَ الْمُشْرِكُونَ مَكْرَهُمُ الْعَظِيمِ، الَّذِي
 اسْتَفْرَغُوا فِيهِ جَهْدَهُمْ، بِالنَّبِيِّ ﷺ حِينَ أَرَادُوا قَتْلَهُ، وَإِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنَ
 الْأَرْضِ، وَعِنْدَ اللَّهِ جَزَاءُ هَذَا الْمَكَرِ الْخَبِيثِ، وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ
 وَالتَّأْتِيرِ، بِحَيْثُ يُؤَدِّي إِلَىٰ زَوَالِ الْجِبَالِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَفِظَ رِسُولَهُ،
 وَعَصَمَهُ وَوَقَاهُ مِنْ شَرِّهِمْ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ فِي نَحْوِهِمْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ
 الَّذِينَ آمَنُوا... ﴿ الْآيَةُ.

وَعْدُ اللَّهِ لَا يُخْلَفُ وَانْتِقَامُهُ قَرِيبٌ

ولما كان المشركون يهزءون من رسول الله ويسخرون، حينما كان
 يتوعدهم بعذاب الله، ويخبرهم بقرب النصر والظفر له ولأتباعه

المؤمنين، وكانوا إذا سمعوا ذلك زادوا في العتو والضلال، ويقولون على سبيل السخرية متى هذا الوعد إن كنت من الصادقين؟ ومتى تظفر وتنتصر علينا؟ جاءت الآيات الكريمة لتخبرهم أن وعد الله لا يُخلف، وأن انتقامه من أعدائه وأعداء رسله قريب، وإنما أخر نزوله لذلك اليوم الرهيب، الذي سيأتيهم لا محالة، وعندئذ يرون العذاب والبلاء الذي كانوا يهزءون به ويستعجلون نزوله، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ، وَتَعْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ . لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۞ .

وقفة الخلائق للحساب أمام أحكم الحاكمين

والآيات الكريمة تصوّر هول ذلك اليوم الشديد، حين تتبدل فيه الأرض والسموات، فتتبدل هذه الأرض بأرضٍ أُخرى، وتتبدل السموات بسمواتٍ أُخرى، ويخرج الناس من قبورهم فزعين، يُساقون إلى أرض المحشر، ليقفوا أمام أحكم الحاكمين، لا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واقٍ، لأنهم أمام الواحد القهّار ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۞﴾ وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءٍ عَفْرَاءٍ، كَقَرَصَةِ النَّقِيِّ - أَي كَالْخَبْزِ الْأَبْيَضِ فِي بِياضِهَا - لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ»^(١).

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٣٢٣/١١ ومسلم في البعث والنشور رقم

قال ابن مسعود: (تَبَدَّلُ الْأَرْضُ بِأَرْضٍ كَالْفِضَّةِ نَقِيَّةٍ، لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا دَمٌ، وَلَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ)^(١).

وروي عن ابن عباس أن الأرض هي نفس الأرض، وإنما تغير صفاتها، فتسوى الجبال، وتقلع الأشجار، وتنشق الأنهار، وتتناثر الكواكب، فهو تغيير صفات لا تغيير ذات، وأنشد قول القائل:

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَاهَدْتَهُمْ وَمَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْلَمُ
وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب تبصر المجرمين مربوطين بالقيود والأغلال ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَعْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهي مادة شديدة الحرارة، منتنة الريح، تطلي بها الإبل الجربى فيحرق الجرب بحرارته وشدته، وتعلو وجوههم نار جهنم، وتحيط بهم من كل جانب.

ختم السورة بلاغ وإنذار

وقد ختم الله السورة الكريمة بالتبليغ والإنذار للكفرة الفجار، حتى لا يبقى لهم عذر عند الله فقال سبحانه: ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ، وَلِيُنذَرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ كانت عائشة أم المؤمنين، إذا قرأت القرآن فمرت على ذكر أهل النار، انهمرت من عيونها الدموع خوفاً من عذاب الله، ودخل عليها رسول الله ﷺ ذات يوم فوجدها تبكي، فقال لها: «ما يبكيك يا عائشة؟»، قالت: ذكرت النار فبكيْتُ، فهل تذكرون يوم القيامة أهليكم؟ فقال: «يا عائشة أما

(١) انظر جامع البيان للطبري ٢٥٠/١٣.

في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحدًا، عند الميزان حتى يعلم أيخفّ وزنه أم يثقل؟ وعند تطاير الصحف حتى يعلم أيأخذ كتابه بيمينه، أم بشماله، أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وُضِعَ بين ظَهْرِيَّ جهنم»^(١) اللهم أجِرْنَا من نار جهنم، وقِنَا عذابك يوم تبعث عبادك، برحمتك يا أرحم الراحمين.

* * *

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه، وانظر جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير ٤٧٤/١٠.



سُورَةُ الْحَجْرِ

مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا تِسْعٌ وَتِسْعُونَ آيَةً

أهداف السورة الكريمة

● سورة الحجّر من السور المكية، التي نزلت قبل الهجرة النبوية، وأهدافها الأساسية كأهداف السور المكية، تثبيت العقيدة الصافية، من توحيد الله عزّ وجل، والإيمان بالرسول، والكتب السماوية، والاعتقاد بالبعث والجزاء، والجنة والنار، الذي كان سبباً لإعراض المشركين.

● ومحورُ السورة الكريمة، يدور حول مصارع الطغاة المجرمين، المكذبين لرُسلِ الله في شتى الأزمان والعصور، ولهذا ابتدأت السورة الكريمة بالإنذار والوعيد، ملفعاً بظُلٍّ من التهويل والتهديد ﴿الر. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ. رَبُّمَا يُؤَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ. ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

● وعرضت السورة الكريمة لدعوة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، ووضّحت موقف أهل الشقاوة والضلال من الرسل الكرام، فما من نبي بعثه الله إلا سخر منه قومه الضالّون، من لدن بعثة شيخ الأنبياء «نوحٍ» عليه السلام، إلى بعثة خاتم المرسلين، وقد بيّنت السورة أن هذه هي سنة المكذبين، في كل وقتٍ وحين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ. وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾.

● وعرضت السورة الكريمة إلى الدلائل الساطعات، والآيات الباهرات،

المنبثة في صفحات هذا الكون العجيب، الذي ينطق بآثار اليد المبدعة، يد الخلاق جلّ وعلا، ويشهد بجلال عظمة الخالق العليّ الكبير، بدءاً من مشهد السماء المحكمة البناء، فمشهد الأرض المُحاطة بالبحار، فمشهد الرياح اللواقح للسحاب، فمشهد الحياة والموت، فمشهد الحشر والنشر، وغير ذلك من الآيات، وكلُّها دلائل ناطقة بعظمة الله وجلاله، وشاهدة على قدرته ووحدانيته ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ. وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾.

● وعرضت السورة الكريمة للحديث عن قصة «البشرية الأولى» قصة الهدى والضلال، ممثلة في خلق آدم عليه السلام، وعدوه اللدود إبليس اللعين، وما جرى من سجود الملائكة لآدم، واستكبار إبليس عن السجود، واعتراضه على أمر الله، وتوعده لذرية آدم بالإغواء والإضلال ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي، فَسَجَدُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

● ومن قصة آدم تنتقل السورة الكريمة إلى ذكر قصص بعض الأنبياء والمرسلين، تسليّة لرسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم، وتثبيتاً لقلبه الشريف، حتى لا يتسرب إليه اليأس والقنوط، من جراء استهزاء المشركين، فله أسوة بمن سبقه من الأنبياء الكرام، فتذكر قصة إبراهيم، ولوط، وشعيب، وصالح، صلوات الله عليهم أجمعين، وتذكر ما حلّ بأقوامهم المكذبين.

● وتختتم السورة الكريمة بتذكير الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه، بإنزال هذا الكتاب المبين، المعجزة الخالدة لسيد المرسلين، وتأمره بالصبر والسلوان على ما يلقاه من أذى في سبيل تبليغ الدعوة، وتبشره بقرب

النصر له وللمؤمنين ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾. هذه مقاصد السورة، وهذه إحياءاتها، ولنرجع بعد هذا الإجمال إلى التفصيل، لنستعرض ما فيها من آيات التنزيل.

تفصيل بعد الإجمال

يقول الباري جلّ ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿ أَلَمْ تَلِكْ آيَاتِ الْكِتَابِ وَقُرْآنِ مُبِينٍ. رَبِّمَا يُؤَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ابتدأت السورة بهذه الحروف المقطّعة «ألف» «لام» «راء» للإشارة إلى إعجاز القرآن، والتنبيه للخلائق أجمعين أن هذا الكتاب المعجز، منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، فعجز البشر عن الاتيان بمثله، من أعظم الدلائل على أنه تنزيل رب العالمين، ثم قال تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ أي هذه آيات القرآن، الكامل في الفصاحة والبيان، المتعالي عن الطاقة البشرية، الواضح الجلي الذي لا خلل فيه ولا اضطراب ﴿ رَبِّمَا يُؤَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ أي ربما تمنى الكفار أن لو كانوا في الدنيا مسلمين، يتمنون ذلك حين يرون فضل الله ورحمته بالمؤمنين، ويخرج العصاة من النار بشفاعة سيد المرسلين، فيتمنون أن يكونوا مسلمين، كما روي من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «أذا كان يوم القيامة، واجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار؟ فيفضل الله تعالى بفضل رحمته، فيأمر بإخراج كل من كان من أهل القبلة

فيخرجون منها، فحينئذ يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (١).

وعيد وتهديد للمشركين

ثم توعدّ الله هؤلاء الكفار الفجار بسوء المصير، فقال جلّت عظمته: ﴿ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ والمعنى: دعهم يا محمد في غفلتهم، يأكلون كما تأكل البهائم، ويستمتعون بهذه الدنيا الفانية، ويشغلهم الأمل بطول الأجل، عن التفكير فيما يُنجيهم من عذاب الله، فسوف يعلمون عاقبة الغي والضلال، حين يَصْلُونَ حرّ جهنم.

ثم بيّن تعالى أن هلاك الطغاة المكذبين، له أجل مؤقت عند الله لا يتقدم عليه ولا يتأخر فقال سبحانه: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ. مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي لا يتقدم هلاك أمة قبل مجيء أوانه، ولا يتأخر عنهم، فلا ينبغي أن يغتر العاقل بهذا الإمهال، لأن العذاب مدّخر للمجرمين، كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا، وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (٢).

صور من السخرية والتهمك في وجه الرسول

وتمضي السورة الكريمة، وهي تطالعنا في آياتها البينات، بصور عجيبة من تعنت المشركين، واستهزائهم بسيد المرسلين، الذي جاءهم بالهدى والدين، فيصفونه بالسحر، والكهانة، والجنون تارة، ويتهمونه بالكذب على الله تارة أخرى - لأنه قال لهم: أنا رسول الله، ويطلبون

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣٠٨/٢.

(٢) سورة الكهف آية رقم ٥٩.

منه ﷺ أن يأتيهم بالملائكة ليشهدوا له بالرسالة، إلى غير ذلك من ضروب السخرية والاستهزاء، تماماً كما فعل أسلافهم المجرمون من قبل، وفي ذلك يقول، ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ. إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ. وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ. لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾.

وقول المشركين لسيد الرسل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ يعني القرآن، مع أنهم لا يؤمنون بالقرآن، ولا يُصدِّقون برسالته، إنما قالوه على سبيل السخرية والتهكم، كأنهم يقولون: أنت الذي تزعم أن الله أوحى إليك، وأن القرآن نزل عليك؟ ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي إنك حقاً لمجنون، أكدوا الخبر بـ«إن» و«اللام» مبالغة في الاستخفاف والاستهزاء، بمقامه الشريف عليه السلام، ولم يقولوا له: أنت مجنون، بل قالوا: «إنك لمجنون» إمعاناً في الغي والضلال، تماماً كما قال السفهاء من قبل لرسولهم، وعلى رأسهم فرعون الطاغية الجبار، حين قال عن موسى: ﴿ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ وكما قال قوم شعيب: ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾؟ ثم قالوا مستبعدين لدعوى الرسالة: ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي هلاً جثتنا بالملائكة لتشهد لك بالرسالة، إن كنت صادقاً في دعوى أنك رسول مرسل من عند الله؟ وذلك هو منتهى السّفه والوقاحة في مخاطبتهم لرسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم.

قال تعالى رداً عليهم، وتجهيلاً لهم فيما طلبوا: ﴿ مَا نُنَزِّلُ

المَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿١٠﴾ أي لو نزلنا الملائكة كما اقترحوا لأهلكناهم بعذاب شامل، نستأصلهم به، ولم نمهلهم أبداً، إذ جرت سنة الله في خلقه ألا يُنزل الملائكة، إلا لمن يريد إهلاكهم، فكيف يطلبون ما فيه عذابهم وهلاكهم؟

تكفل الله حفظ كتابه

ثم بين تعالى لهم بالدليل القاطع، صدق هذا القرآن، فالله الذي أنزله، هو الذي قد تكفل بحفظه، فلم يستطع أحدٌ على الزيادة فيه ولا النقصان، وفي ذلك يقول جل ثناؤه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ولننظر بعين الإمعان، إلى الفارق الكبير بين الكتب السماوية، وبين القرآن المجيد، فإن الله تعالى وكَّلَ حفظها إلى أهلها فقال: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ فبدلوا وغيروا، وجرى فيها الزيادة والنقصان، وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فلم يستطع أحد، ولن يستطيع أحدٌ، كائناً من كان، أن يتلاعب في هذا القرآن، لأن الله تعالى تكفل بحفظه، وقد يسر حفظه على المؤمنين، فهو مكتوب في السطور، ومحفوظ في الصدور، وذلك سرٌّ من أسرار القرآن العظيم.

تسليّة للرسول عليه الصلاة والسلام

ثم سلّى الله نبيه محمداً ﷺ عمّا يلقاه من أذى المشركين، ووضح له أن هذه سنة الأنبياء في أممهم، فما أتى رسولٌ من الرسل إلى قومه، إلا كذبوه وسخروا منه واستهزءوا به، وأن الرسل صبروا حتى انتقم الله لهم من المجرمين، بتدميرهم وإهلاكهم ﴿١١﴾ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ﴿١٢﴾ أي في فرق وأمم الأولين ﴿١٣﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤﴾ أي كذلك

نُدخل الباطل، ونجعل الاستهزاء والشرك داخلًا في قلوب الكفّرة المجرمين، ليزداد عذابهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي لا يصدّقون بهذا القرآن، وقد مضت سنّتنا في إهلاك أعداء الرسل، فما أقرب هؤلاء من الهلاك والدمار؟ ثم كشف تعالى الستار عن خفايا أسرار المشركين، وما انطوت عليه نفوسهم من المكابرة والعناد، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ والمعنى: لو فرض أننا أعطيناهم مطلوبهم، وصعدنا بهم إلى السماء، فرأوا عجائب خلق الله، وشاهدوا الملوك والملكوت، ورأوا بأم أعينهم الملائكة، لما آمنوا ولا صدّقوا، ولقالوا - على سبيل العناد والمكابرة - لقد سُدَّتْ أَبْصَارُنَا، وسحرنا محمد، فخيّل إلينا الصعود إلى السماء، وما هو إلا سحرٌ مبين، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهذا بيان لشدة كفرهم وعنادهم، كمن يرى الشمس في وضوح النهار ساطعة مضيئة، ثم يقول: لا شمس ولا نهار، وإنما هو وهمٌ وخيال، نعوذ بالله من الكفر والضلال.

آثار قدرة الله في الكون

ثم انتقلت السورة الكريمة، إلى بيان دلائل قدرة الله ووحدانيته، فيما أبدع في هذا الكون المنظور، الذي ينطق بعظمة الخالق، في كل ما بثّ فيه من أنواع المخلوقات العجيبة، في سمائه وأرضه ونجومه وأقماره، وجباله ووهاده، وبحاره وأنهاره، وأشجاره وأطيّاره، وفي سائر تلك المبدعات، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ

السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ. وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ. وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ. وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ. وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ، فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٥٦﴾. فقد أشارت الآيات الكريمة إلى السماء وما زينها به من الكواكب المنيرة، وإلى الأرض وما أنبت فيها من أنواع الزروع والفاواكه والثمار، وإلى الرياح التي سخرها الله لتلقيح السحاب حتى تنزل منه الأمطار، وهذه حقيقة علمية حديثة ما كان يعرفها البشر قبل هذا الزمان، أشار إليها القرآن في آياته البينات، وهي أن الرياح تلقح السحاب فيدر منه الماء، وتلقيح الأشجار فتفتح من أكامها الأزهار والثمار، فالريح كالفحل للسحاب والشجر، فهي تحمل أعضاء الذكورة والأنوثة، من شجرة إلى شجرة، ويتم التلقيح بواسطة هذه الرياح، ولنقف قليلاً عند قوله سبحانه: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ لنرى روعة الإبداع بدقة وإحكام، في كل ما أوجد الله، وخلق في هذا الكون، فكل شيء موزون بميزان الحكمة الإلهية، المطر بميزان، والهواء بميزان، والرياح بميزان، والنبات بميزان، والثمار بميزان، كل شيء محدد ومقدر، فلو كثرت المطر لأفسد ودمر، ولو قلت كميته لتعطل الزرع وتضرر، ولو زادت الرياح في هبوبها لكانت الأعاصير والعواصف التي تقلع الشجر، فسبحان من جعل كل شيء بمقدار موزون، رحمة بالبلاد والعباد، وصدق الله العظيم ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾.

قصة بدء الخليقة

ثم تمضي السورة الكريمة لتحدث عن قصة «بدء الخليقة» مصوراً في خلق آدم عليه السلام، أبي البشرية، الذي هو مظهر من مظاهر القدرة الربانية، فإن خلق الإنسان من تراب آية من الآيات الباهرة، التي تدل على قدرة الخالق المبدع الحكيم، إذ كيف يوجد من الطين إنسان سويّ، له قدرة الحركة، والمشى، والكلام، والعقل، والتفكير، والتراب جماد لا حسّ فيه ولا شعور، ولكنها قدرة الله التي تقول للشيء كن فيكون، وصدق الله العظيم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾.

إن قصة خلق آدم هي قصة البشرية بأسرها، وقد كرم الله هذا النوع البشري، حين خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، فسجدوا له جميعاً إلا إبليس «كان من الجن ففسق عن أمر ربه» وقد أفاض عليه من أسرار قدرته، وبدائع حكيمته ما جعله أهلاً للاستخلاف في الأرض، والتكريم لآدم تكريم لذريته، والاحتفاء به احتفاء بهذا النوع الإنساني، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ. وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ

سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ؟ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿١﴾ .

سجود الملائكة لآدم تكريم له ولذريته

نبه تعالى على عظيم شأن آدم ورفعة قدره، فمع أنه مخلوق من الطين، إلا أنه تعالى خصه بخصائص جعلته في مقام الحفاوة والتكريم، وجعل فيه من الأسرار العلية، ما أوجب سجود الملائكة الأبرار الأطهار له، وما ذلك إلا تكريماً لهذا النوع البشري كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وسجود الملائكة له، هو سجود تحية وتكريم، لا سجود خضوع وعبادة، فإن العبادة لا تجوز إلا لله الواحد الأحد .

والصلصال في اللغة: الطين اليابس الذي يُسمع له صلصلة أي صوتٌ إذا نُقِرَ، والحمأ المسنون: هو الطين الأسود المتنن المتغير.

قال المفسرون: خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ طِينٍ، فَصَوَّرَهُ وَتَرَكَهُ فِي الشَّمْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَصَارَ صَلْصَالًا كَالْخِذْفِ، وَصَارَ لَهُ صَوْتُ إِذَا نُقِرَ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ فَإِذَا بِهِ إِنْسَانٌ كَامِلٌ الْخَلْقِ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ . وَلَعَلَّ سَائِلًا يَسْأَلُ: كَيْفَ قَالَ تَعَالَى هُنَا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ وَقَالَ فِي مَكَانٍ آخَرَ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾^(١) الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ آدَمَ

(١) سورة آل عمران آية رقم /٥٩/ .

مخلوق من تراب، وقال في آية أُخرى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ (١) التي تدل على أنه مخلوق من الطين؟ فكيف تنوع الأخبار والمخلوق واحد هو آدم؟

الأطوار والأدوار التي مرَّ بها خلق آدم

والجواب عن ذلك أن خلق آدم عليه السلام مرَّ بمراحل وأطوار أربعة ولا تعارض بينها: المرحلة الترابية، المرحلة الطينية، المرحلة التكوينية، ثم مرحلة نفخ الروح.

أما المرحلة الأولى «المرحلة الترابية» فهي أساس الخلق والتكوين، فقد كان مصدرُ نشأة آدم وأساسُ تكوينه هو التراب، وذلك حين تعلقَت إرادة الله جلَّ جلاله بخلق آدم، أمر الملائكة أن يجمعوا تراباً من أنحاء الأرض، ومن أنواع تربتها العديدة، فجمعوا ذلك فكان هذا التراب هو الأصل في خلق آدم، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (٢) ويدل على هذه المرحلة الحديث الشريف: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسَّهْلُ، والحَزْنُ - أي الصعب القاسي - والخبيث، والطيب» (٣).

(١) سورة صّ آية رقم ٧١.

(٢) سورة الروم آية رقم ٢٠.

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٢٩٤٨ وأبو داود في السنّة رقم ٤٦٩٣ وانظر جامع الأصول ٣١/٤.

المرحلة الطينية

المرحلة الثانية: «الطينية» أمر الله الملائكة، فاجعلوا هذا التراب بالماء، فأصبح طيناً لازباً أي متماسكاً، يلتصق بعضه ببعض، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ بقي «آدم» عليه السلام بشراً بصورة طينية، مدة طويلة من الزمن، حتى جفَّ وبيس، فأصبح له صوت، يشبه الفخار إذا نُقِرَ باليد، وهو المراد من لفظ «الصلصال» في هذه السورة الكريمة ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمأٍ مسنون ﴾ أي خلقناه من طين يابس أسود، متغيّر في الرائحة والشكل، وفي قوله سبحانه: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ والصلصال: الطين اليابس الذي يصلصل أي يُسمع له صوت، فإذا طُبَّخ هذا الطين فهو الفخار، كما قال أهل اللغة.

المرحلة التكوينية

المرحلة الثالثة: «مرحلة التكوين» وهي تكوينه بالصورة الآدمية بدون روح، وقد بقي مدة أربعين سنة كما يقول المفسرون جسداً بلا روح، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ وقد كان آدم أجوف الخلق، طويلاً مفرطاً في الطول، ثم تناقصت ذريته، كما ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم عليه السلام وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»^(١).

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢/١١ في الاستئذان، ومسلم في الجنة برقم ٢٨٤١ وانظر جامع الأصول ٣١/٤.

المرحلة الأخيرة نفخ الروح

المرحلة الرابعة: «مرحلة نفخ الروح» ثم توجهت إرادة العليّ الكبير، لجعل هذا الطين بشراً سوياً، وإنساناً سميعاً، ناطقاً، بصيراً، فنفخ فيه من روحه، فإذا هو خلقٌ عظيم، في أحسن صورة وأكمل تقويم، وهذه آخر المراحل بالنسبة لخلقه، وإليها يشير قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ولما نفخت فيه الروح، سجدت الملائكة جميعاً له - سجوداً تحيةً وتكريماً - بأمر الربّ العظيم، ولكن إبليس امتنع عن السجود، بحجة أنه أفضل وأشرف من آدم، وتكبر على أمر ربه، فطرده الله ولعنه، وأبعده عن مكان القدس ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وهكذا كلُّ مَنْ تواضع لله رفعه، ومن تكبر على الله وضعه، وما أحسن قول الشاعر:

تواضع تكن كالبدْرِ لآخِ لِنَاظِرٍ عَلَى صَفْحَاتِ الْمَاءِ وَهُوَ رَفِيعٌ
وَلَا تَكُ كَالدُّخَانِ يعلو بنفسه إِلَى طَبَقَاتِ الْجَوِّ وَهُوَ وَضِيعٌ

لم يكن إبليس من الملائكة على الصحيح من الأقوال، فهو من نارٍ وهم من نور، ولكنه كان بين صفوفهم، فتوجّه إليه الخطاب بالسجود لآدم بأمر رب الأرباب كما قال سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ فهناك أمر خاص له بالسجود لآدم، أما حقيقته فهو جنّي وليس من الملائكة بنص القرآن الكريم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ وفسقه هو خروجه عن الطاعة، وعدم امتثاله لأمر الله، فلذلك استحق اللعنة والطرده والحرمان، وقد استكبر عن السجود

بسبب تلك الفلسفة الخرقاء، والحماسة الرعناء، حيث قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فكيف يسجد العظيم للحقير، والرفيع للوضيع؟ ولم ينظر إلى السر الذي أودعه الله في آدم، وإلى الأمر الإلهي الذي كلفه الله به، وقد شقي إبليس بسبب آدم، ولذلك صار عدواً لآدم ولجميع ذريته، وثارَت فيه غريزة حبِّ الانتقام.

طلب إبليس إمهاله إلى يوم البعث

لَمَّا طرد الله إبليس من السموات العلى، ولعنه لعنةً أبديةً، بسبب امتناعه عن السجود لآدم، وعرف أنه شقي، وخسر آخرته وسعادته، بسبب آدم، طلب اللعينُ من رب العزة والجلال، أن يؤخره في هذه الحياة الدنيا، وأن يمهلَه إلى يوم البعث والنشور، ليأخذ ثأره من آدم، ويشفي غليله من ذريته باغوائهم وإضلالهم، كما شقي هو وضلاً، فقال ما حدثنا عنه القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي - أَيِ امْهَلْنِي - إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُرِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾.

أراد اللعين إبليس بقوله: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أن ينجو ويتخلص من الموت، لأنه إذا بُعث الناس لا يبقى موت، فيكون بذلك قد نجا من سكرات الموت وشدائده، وبقي حياً إلى يوم القيامة، ولكنَّ الله عزَّ وجل ما أجابه إلى مطلوبه، بل حدَّد له أجلاً، هو انتهاء حياة الخلائق، عن سطح هذا الكوكب الأرضي، فلا بدَّ أن يموت إبليس كما

يموت الإنس والجن، ولهذا جاء الجواب من العليّ الكبير ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ أي قال الله جواباً له على سؤاله: إنك يا إبليس من المؤجلين والممهلين، إلى حين موت جميع الخلائق، وذلك قبل يوم البعث والنشور، لأنه بموت الناس تكون قد انتهت مهمته .

كيد خبيث لإغواء بني آدم

ولما ضمن اللعين بقاءه إلى نهاية الدنيا، أقسم بعزة الله وجلاله أن يغوي جميع ذرية آدم، لأنه شقي بسبب أبيهم، فأراد أن ينتقم من ذريته وأبنائه، فقال ما قصه علينا القرآن الكريم: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي بسبب إغوائك وإضلالك لي، لأزينن لذرية آدم المعاصي والآثام، ولأضلنهم عن طريق الإيمان والهدى أجمعين، إلا من استخلصته من عبادك، واصطفيته لطاعتك ومرضاتك، فلا قدرة لي على إغوائه . . وقد ردّ الباري تبارك وتعالى عليه بقوله: ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ، لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ .

ومعنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي قال الله تعالى: هذا طريق مستقيم واضح، مصيره إليّ، وهو أنك لا تستطيع إغواء أهل الأرض، فلا قدرة لك على المؤمنين المتقين، إنما سلطانك على الكفرة المجرمين ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أي إن عبادي المؤمنين لا قوة لك على إضلالهم، لكن من غوى وضلّ من الكافرين فلك عليهم تسلط، لأن الشيطان إنما

يتسلط على الشاردين عن الله، كما يتسلط الذئب على الشاردة من الغنم. ومن هذه الآيات البيّنات، ندرك شدة عداوة إبليس لذرية آدم، فلقد أقسم وعزم على إضلال العباد جميعاً، ثم استثنى من ذلك عباد الله المخلصين، الذين أخلصهم الله بالهداية والإيمان، والعصمة والتوفيق، ومن هنا وجب على أبناء آدم أن يُعادوا مَنْ عاداهم، وأن ينتبهوا إلى مكر الخبيث وطرق إغوائه، فهو لا يفتر عن عداوتهم والكيد لهم.

تحذير البشر من كيد إبليس

وقد حدّثنا الباري جلّ وعلا في آيات كثيرة من طرق فتنته، وأساليب كيده وخبثه، فقال تقدست أسماؤه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ يعني إبليس ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وقال جلّت عظمته: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ، يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فَمَنْ كَانَ عَدُوًّا لَكَ يَنْبَغِي أَنْ تَحْذَرَهُ وَتَتَّقِي شَرَّهُ، لَا أَنْ تَصَادِقَهُ وَتُرَافِقَهُ، وَتَسِيرَ بِنَصْحِهِ وَتُوجِّهَاتِهِ!!

دار النعيم ودار الجحيم

وقد جعل الله في الآخرة دارين: داراً لها ثمانية أبواب وهي الجنة، يدخلها المؤمنون المتقون، الذي أخلصهم الله لطاعته ومَرْضَاتِهِ، وداراً لها سبعة أبواب، وهي جهنم، يدخلها الأشقياء المجرمون أتباع الشيطان، كما قال سبحانه في هذه السورة: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أجازنا الله منها

بفضله وكرمه، إنه أرحم الراحمين. رُوي أن النار سبعة أطباق بعضها فوق بعض، وكل طبقة لها باب يدخل منه أهلها به، أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، روي ذلك عن علي وابن عباس رضي الله عنهما.

الأمن والأمان في دار السلام

وبعد الحديث عن أهل الشقاء والجحيم، يأتي الحديث عن أهل السعادة والنعيم، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب، ليكون أحفز للعمل، وأشط لبلوغ الأمل، فالنفس إذا سمعت ذكر النار فزعت، وإذا سمعت ذكر الجنة طمعت، فتجد وتجتهد رغبة فيما عند الله من الأجر والفضل، ولهذا عقب الله تعالى بعد ذكر أهل النار بذكر أهل الجنة، وما لهم فيها من النعيم الدائم الخالد، فقال تقديست أسماؤه: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ . وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ، وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ أي لا يصيبهم في الجنة إعياء ولا تعب، ولا يُخرجون منها أبداً، لأن نعيمهم خالد، وبقاؤهم دائم. ذكر تعالى من نعيم أهل الجنة البساتين الناضرة، والعيون المتفجرة، والأنهار الدافقة، والسلامة والأمن، وذهاب الغلّ والحقد، والبغضاء، والشحناء من الصدور، وعدم التعب والنصب في دار الجور، والخلود الدائم في دار النعيم، لأنها دار السعادة والصفاء، جعلنا الله وأياكم من أربابها، وختم لنا ولكم بخاتمة السعادة، إنه هو البرّ الرحيم.

رحمة الله وفضله على عباده

ثم تلتها الآيات تتحدث عن واسع رحمة الله، وعظيم فضله وإحسانه على عباده، فمع كثرة ما يرتكبه البشر، من مخالفة وعصيان،

لأمر الله العلي الكبير، تبقى رحمته غامرة لهم، وفضله وكرمه سابعاً عليهم، فهم يتقلبون في رياض نعمته، وينعمون بواسع رحمته، وحتى لا يُسلم الإنسان قياده للشيطان، ويدخل إلى قلبه اليأس والقنوط، إذا هو أذنب، وأخلّ بشيء من أوامر الله ونواهيه، جاءت الآيات لتدخل الأُنس والسرور، وتجعل الأمل واسعاً فسيحاً أمام العبد المؤمن، وأنه مهما كثرت منه المعاصي والذنوب، فلا ينبغي أن يقنط من رحمة الله، فإن الله غفار الذنوب، ورحمته سبقت غضبه، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ والآية جمعت بين مقامي: الرجاء، والخوف. ومعناها: أعلم يا محمد عبادي المؤمنين، بأني واسع المغفرة والرحمة، لمن أصلح عمله وتاب، وأخبرهم أن عذابي شديد، لمن أصرَّ على الكفر والجحود، ومات على غير الإيمان.

سبب نزول الآية

وقد وردَ في سبب نزول هذه الآية، أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام، مرَّ بنفرٍ من أصحابه، وهم يضحكون، فقال أتضحكون والنارُ بين أيديكم؟ لا أراكم تضحكون، ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجرِ - وهو مقام إسماعيل بجوار الكعبة المشرفة - رجع ﷺ القَهْقَرَى فقال: إني لمَّا خرجتُ، جاءني جبريل عليه السلام، فقال: يا محمدُ، إن الله يقول: لم تُقنطْ عبادي؟ ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾^(١).

ويشهد لذلك ما روي في الحديث القدسي عن النبي ﷺ أنه

(١) الحديث أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٣٩/١٤ وذكره الرازي في التفسير الكبير ١٩٥/١٩ وابن كثير ٣١٤/٢ عن ابن أبي رباح عن بعض الصحابة.

قال: «لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»^(١) وفي رواية «تَغْلِبُ غَضَبِي». وفي الآية لَطِيفَةٌ مِنْ بَدَائِعِ اللطائف، فقد أضاف تعالى العباد إلى نفسه ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي﴾ وهذه الإضافة إضافة تكريم وتشريف، مع أنهم في موطن العصيان والذنب، ثم قال: ﴿أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فوصف نفسه بالمغفرة والرحمة، بصيغة المبالغة، ولم يقل الغافر الراحم، بل قال ﴿الغفور الرحيم﴾ أي الكثير المغفرة، العظيم الرحمة، فإن صيغة (فعول) و(فعليل) من صيغ المبالغة، ثم انظر إلى جمال التعبير وسموه، حين أخبر تعالى عن العذاب، فلم يقل: وأني المعذب المؤلم، بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾ فأخبر سبحانه عن واسع رحمته، ونسب الألم إلى العذاب ولم ينسبه إلى نفسه مبالغة في التلطف بالعباد، فهو الغفور الرحيم بالاسم والوصف، وعذابه هو العذاب الأليم بالوصف دون الاسم، وكل ذلك لترجيح جهة العفو والرحمة، فما أجل وأسمى تعبير القرآن!!

قصة إبراهيم مع ضيوفه

وبعد هذا البيان الوافي عن واسع رحمته، وعظيم لطفه وإحسانه، جاء الحديث عن قصة خليل الرحمن، إبراهيم عليه السلام، مع ضيوفه الكرام، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله عز وجل، لإهلاك قوم لوط، فمروا بطريقهم على إبراهيم ليبشروه بالبشارة السارة، بمولود له سيأتيه على ما كان عليه من الشيخوخة والهرم، وعلى ما كانت عليه زوجته من

(١) الحديث أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وفي رواية للبخاري «إن الله لما قضى الخلق، كتب عنده فوق عرشه، إن رحمتي سبقت غضبي» وانظر جامع الأصول

العقم وكبر السن، وفي قصته دروس وعبر، وفي ذلك يقول جلّت عظمتة: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ، قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ . قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ؟ قَالُوا بُشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ .

ووجه ارتباط هذه الآية بما قبلها، أن الآية السابقة منعت المؤمن من القنوط - وهو اليأس من رحمة الله - وهذه الآية بيّنت على لسان أب الأنبياء، أن القنوط من رحمة الله، لا يحدث إلا من الكافر، الغافل عن الله، الذي استحوذ عليه الشيطان، فأضله وأغواه، ثم خذله واستعبده، أما القلب العامر بالإيمان، المتّصل بالرحمن، فلا يدخل إليه بؤس ولا يأس .

ضيوف إبراهيم كانوا ملائكة

لقد جاء هؤلاء الضيوف إلى إبراهيم عليه السلام، بصورة غلمانٍ مردٍ حسان، وسلموا عليه بتحية الإسلام، فردّ عليهم السلام، ثم سارع كعادته إلى تقديم الطعام لهم، ظناً منه أنهم ضيوف، ولم يعلم أنهم ملائكة من السماء، قدموا لإهلاك قوم لوط، الفسقة الفجرة، فلما قدّم لهم الطعام ولم يأكلوا منه، فزع منهم ولم يُخفِ عنهم هذا الفزع، بل جاهرهم به: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي إنا منكم فزعون خائفون، لماذا لا تأكلون؟

وكان من عادة الناس، أن الضيف إذا دخل البيت ولم يأكل، فذلك علامة أنه جاء يريد الشرّ، فلذلك سارعوا إلى تأمينه وتطمينه، وأخبروه بالحقيقة: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي لا تخف فإننا ملائكةٌ ولسنا بشراً، جئنا لنبشرك بمولود غلام، واسع العلم،

عظيم الذكاء، يلد لك من امرأتك «سارة» وكانت هذه البشارة بإسحق، وذلك بعد مولد إسماعيل بمدة طويلة.

تبشيره بالغلام المولود

هناك اطمأنت نفسه، وذهب عنه الفزع، وعرف أنهم ملائكة، فأخذ يستفسر منهم بطريقة التعجب والاستغراب، كيف يأتيه الولد، وهو في سنِّ يقارب المائة والعشرين، وامراته كبيرة هرمة وهي بعد ذلك عقيم؟ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ أي أتبشرونني بولادة غلام وأنا في حالة الكبر والهرم؟ فبأي أعجوبة تبشرونني؟ فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه في العادة أمر عجب، بل هو ضربٌ من المستحيل ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي بشرناك باليقين الثابت، والأمر المحقق، فلا تستبعده ولا تياس من رحمة الله، فإن الله لا يعجزه شيء ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ إستفهام فيه معنى الإنكار، أي لا يقنط من رحمة الله، إلا الذين أخطأوا طريق المعرفة والصواب، ولم يعرفوا قدرة الله، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَا يَبَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ومراد إبراهيم نفي القنوط عن نفسه على أبلغ وجه، أي ليس بي قنوط من رحمته تعالى، وإنما أريد أن أتأكد هل سيكون المولود من زوجتي العقيم، أم من زوجة أخرى أتزوجها؟ وينتهي الأمر عند هذا، فالأمر مقطوع به ومبتوت، ثم يلتفت إبراهيم عليه السلام، ليسألهم عن السبب الذي قدموا من أجله، غير موضوع بشارته بالولد ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي ما شأنكم وما أمركم الهام، الذي جئتم من أجله أيها الرسل الكرام؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ. إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا

لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿١٠﴾ أي الهالكين المدمّرين، الباقيين في العذاب مع المجرمين .

كان مجيئهم لأمرين اثنين: الأول بشارة إبراهيم بالمولود الجديد، والثاني إخبار لوط بإهلاك قومه بالعذاب الشديد .

قصة نبي الله لوط عليه السلام

وتمضي السورة لإكمال حلقات قصة نبي الله الخليل «إبراهيم» عليه السلام، مع قصة ابن أخيه «لوط» عليه السلام، فبعد أن بشرت الملائكة إبراهيم بتلك البشارة السارة، انطلقت متجهة نحو قري قوم لوط لإنزال عذاب الله بالقوم المجرمين، فقد كان أهلها فسقة فجرة، لا ينزجرون عن فعل القبيح الذي درجوا عليه، وصار لهم عادة مألوفة، ألا وهي «اللواط» أقبح القبائح، وأرذل الرذائل، حيث ينزو الذكر على الذكر، ويأتي الرجل الرجل في دبره، مع أن مثل هذا العمل المنكر، تعافه طبائع الحيوانات والبهائم، فضلاً عن الإنسان الذي كرمه الله بالعقل والفهم، ولولا أن الله عز وجل أخبرنا عن فعلهم الشنيع، ما كان يخطر على البال أن يحدث مثل هذا المنكر، الذي تقشعر له الأبدان، وكان قوم لوط هم أول من ابتكر هذا الإجمام، وفعل هذا العمل المخلّ بالمروءة والشرف، ولهذا قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ؟ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾^(١) .

قال عمرو بن دينار: «ما نزا ذكرٌ على ذكر، حتى كان قوم لوطٍ

الخبثاء» .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٨٠ و٨١ .

دخول الملائكة على لوط عليه السلام

وتحكي السورة لنا هنا، دخول الملائكة على لوط عليه السلام، وقد جاءوا لإهلاك أولئك المجرمين، وجاءوه بصورة شباب مردٍ حسان الوجوه، فلذلك خاف عليهم وأنكر دخولهم عليه، دون سابق معرفة، وهو عليه السلام لا يكره الضيوف، وإنما يخشى عليهم من العدوان، لا سيما وقد جاءوه بهذه الصورة البهية، فتیان مردٌ حسان، وقومه السفهاء يعشقون الغلمان ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ . وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَأَتَيْعَ أَدْبَارَهُمْ ، وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ . وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ ، أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ .

أما إنكاره لدخولهم عليه ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ فلأنه لم يعرفهم، لأنهم جاءوه بصورة بشرية، ولم يأتوه بصورتهم الملكية، ولذلك تعجب منهم وخشي عليهم، فقال لهم ما قال، والمعنى: إني لا أعرفكم، ولا أعرف من أيِّ الأقوام أنتم؟ ولأيِّ غرضٍ دخلتم عليّ؟ فعند ذلك عرفوه بأمرهم، وأخبروه بأنهم ملائكة الرحمن، جاءوا لإهلاك قومه المجرمين^(١) ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي جئناك بالعذاب الذي كان فيه قومك يشكون، وهو ما كنت تعدهم به فيهزون ويسخرون ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي جئناك بالأمر اليقيني من عذابهم، الذي لا شك فيه، فلا مجال للمناقشة والمجادلة، وإنا لصادقون فيما نقول.

(١) كان قوم لوط يسكنون في قرى عديدة، أعظمها «سدوم» و«عمورة» في أطراف شرق الأردن، وكان عددهم يزيد على أربعمئة ألف، وهم الذين قلب الله ديارهم، بسبب تلك الجريمة المنكرة اللواط، ولم ينج منهم أحد، فليعتبر المفسدون.

خروج لوط من القرية قبل نزول العذاب

خشيت الملائكة أن يرق قلبه على قومه، فيطلب تأجيل العذاب، فأخبروه بأنه أمرٌ محققٌ، صدر من الرحمن، فلا يُردُّ ولا يؤخر، ثم أمره بأن يخرج سريعاً في جناح الليل، قبل أن يبزغ الفجر، وأن يصحب معه أهله وبناته، وأن يقدمهم أمامه، لئلا يتأخر أحدٌ عن اللحاق به، وأن يسيروا من أرض سدوم إلى جهة بلاد الشام، وهذا معنى قوله تقدست أسماؤه ﴿فَأَسْرَبَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي في جزءٍ من الليل وطائفة منه ﴿وَاتَّبَعَ أَذْبَارَهُمْ﴾ أي كن من ورائهم، وسر خلفهم لتطمئن عليهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا يلتفت أحد منكم ورائه، لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من البلاء فيرتاع ﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي سيروا حيث يأمركم جبريل، إلى جهة بلاد الشام، إلى أرضٍ لم يعمل أهلها مثل هذا العمل الشنيع، وهكذا أراد الله أن ينقلهم من هذه البلاد الظالم أهلها، لأنه سيقبلها على من فيها، ويجعل عاليها سافلها، ويدمرها عن بكرة أبيها ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ، أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ﴾ أي أخبرنا وأوحينا إلى لوط أن أولئك المجرمين، سيستأصلون عن آخرهم، حتى لا يبقى منهم أحد، وذلك عند دخول الصباح يتم هلاكهم ودمارهم، بحيث لا تبقى منهم عين تطرف، وذاك قضاءً مبرم.

وتمضي الآيات تتحدث عن سماع قوم لوط بالضيوف، فقد أقبلوا يسرعون الخطى، فرحين مستبشرين بنوعٍ من الصيد ثمين، لم يهرعوا لضيافتهم وإكرامهم كما هو شأن الكريم الفاضل، إنما جاءوا ليقضوا وطهرهم الخبيث مع هؤلاء الضيوف، ولم يدروا أنهم ملائكة جاءوا لإهلاكهم ودمارهم ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ. قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ. قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ.

قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٠٠﴾
 والتعبير هنا على هذا النحو، يكشف عن مدى البشاعة والشناعة، التي وصل
 إليها القوم، في الدُّنس والفجور، يكشف عن هذا الانحطاط القدر، الذي
 تردى إليه هؤلاء السفهاء المجرمون، في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعات،
 مستبشرين بالعثور على شبان يعتدون عليهم، علناً وجهاراً،
 دون رادع من حياء أو خجل، أو مروءة وشهامة، هذه العلانية يترفع
 عنها الحيوان، بينما أولئك السفهاء المجرمون، يجاهرون بها ويتلمظون، وهي
 حالة من الارتكاس معدومة النظر، فأما «لوط» فوقف مكروباً يحاول أن
 يدفع عن ضيوفه وعن شرفه، وقف يستشير نخوة الأدمية فيهم،
 ويستجيش وجدان الشهامة، وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة
 المطموسة، لم يعد فيها نخوة ولا شعور إنساني، ولكنه في كربه وشدته
 يحاول ما يستطيع ﴿قَالَ إِنْ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا
 تُخْزُونِ﴾ أي لا تهينوني بالاعتداء عليهم، ولا تلحقوا بي الخزي والعار،
 ولكن ماذا كان جواب أولئك الفجار؟ ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾
 أي ألسنا قد نهيناك أن تعارضنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة؟
 ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ومراده عليه السلام بقوله «هَؤُلَاءِ
 بَنَاتِي» أي هؤلاء نساء البلد، فتزوجوا بهن إن كنتم تريدون قضاء
 الشهوة، ونسبهن إليه «بَنَاتِي» على اعتبار أن كل نبي يعتبر أباً لأُمَّته، قال
 تعالى لرسوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ والعمرُّ هو العُمُر
 والحياة، أي أقسم بحياتك يا محمد إن قوم لوط، لفي ضلالتهم
 وجهلهم يترددون ويتخبطون.

قال الحافظ ابن كثير: أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه
 عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض له عليه

السلام، قال ابن عباس: «ما خلق الله، وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد، وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحد غيره ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا» ثم أخبر تعالى ما حلَّ بالفجرة المجرمين فقال: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي حجارة من طين مُتَحَجَّرٍ، فيه آثار النار والدمار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ. وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي إن فيما حلَّ بهؤلاء المجرمين من الدمار، لدلالات وعلامات للمعتبرين، المتأملين بعين البصيرة والبصر، وإن هذه القرى المهلكة، لطريقي واضح لم يندرس، يراها المجتازون في أسفارهم، أفلا يتعظون ويعتبرون؟ وهكذا قلب الله بهم القرى وأبقى آثارهم ظاهرة للعيان، يراها الناس في أسفارهم ورحلاتهم، وهم في طريقهم من الحجاز إلى الشام، وهكذا كانت نهاية أولئك المشؤمين.

قصة أصحاب الأيكة قوم شعيب

وتمضي السورة الكريمة تقصُّ علينا بإيجاز دون إسهاب، قصة أهل مدين قوم شعيب، وهم أصحاب الأيكة - أي الشجر الكثيف الملتف الأخضر - وقد كانوا ينعمون بالحياة السعيدة الرغيدة، وكانوا تجاراً يجمعون بين التجارة والزراعة، وأراضيهم كانت بساتين فيحاء، كثيرة الأشجار وافرة الثمار، وفيها الحدائق الغناء، فلذلك سموا بأصحاب الأيكة، وقد بعث الله إليهم نبيَّه الكريم «شعيباً» عليه السلام، ولكنهم رفضوا نعمة الله، وكذبوا رسوله، فأهلكهم الله بالرجفة وبعذاب اليوم الظلة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ. فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ، وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ والمعنى: إن حال

وشأن أهل مدين، قوم شعيب، أنهم كانوا ظالمين، بتكذيبهم شعيباً، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، وعتوهم عن أمر الله، وبذلك استحقوا العذاب!!

وتأتي قصتهم هنا بإيجاز، لأنها قد ذكرت في سورة الأعراف، وسورة هود مفصلة، ومن طريقة القرآن الكريم، أنه يذكر في بعض السور، قصص بعض الأنبياء بإسهاب، وفي مكان آخر يشير إشارة خاطفة إلى أخبارهم مع أقوامهم، ليستكمل حلقات القصة، من أجل العظة والعبرة، وقد يوجز في بعض السور، ويطنب في البعض الآخر، وكل ذلك من الأساليب البديعة التي تستدعي لفت الانتباه، ولا تدخل إلى النفس الملل والسآمة، ولم يذكر قصة نبي من الأنبياء كاملة في سورة واحدة، إلا في قصة يوسف، لأن الألوان العجيبة، والمشاهد المثيرة في قصته عليه السلام، تستدعي ذكر قصته بالكمال والتمام، وقصة شعيب هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة، بعد قصة آدم وإبليس، وقصة إبراهيم ولوط، وتأتي هذه بعدهما، فهي القصة الثالثة.

قصة نبي الله صالح عليه السلام

ثم يأتي الحديث عن قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، وهم المشهورون بأصحاب الحجر، والحجر واد بين المدينة والشام، وآثاره باقية يمر عليها المسافرون في طريقهم، وتُعرف بمدائن صالح، وفي ذلك يقول ربنا تقديست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ. وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ. فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ. فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وإنما جمع الله المرسلين في إخباره عن قبيلة ثمود فقال: ﴿كَذَّبَتْ
عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ مع أنهم كذبوا نبیهم صالحاً، لینه علی «وحدة الرسالة»
وأن في تكذيب واحدٍ من الرسل، تكذیباً لجميع الرسل، لأن رسالتهم
واحدة، ودعوتهم واحدة، فمن كذب واحداً منهم فكأنه كذب الجميع .
وقد كانت قبيلة ثمود تعبد الأوثان، وتكفر بالإله الواحد الديان،
فدعاهم نبیهم صالح إلى عبادة الله، وترك عبادة الأوثان، فسخروا منه
واستهزءوا، وطلبوا منه على سبيل التعجيز أن يشق لهم الصخر، فيخرج
لهم منها ناقة عشاء - أي حاملاً - وتلد فتضع مولودها أمام أعينهم
فجاءهم بمعجزة الناقة، وكانت برهاناً ساطعاً على صدقه، ودليلاً قاطعاً
على نبوته، ومع ذلك استمروا على الكفر والضلال، وإليه يشير قوله
تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ والمعنى أريناهم
معجزاتنا الدالة على قدرتنا، وصدق نبينا، فلم يعتبروا ولم يتعظوا، قال
ابن عباس: كان في الناقة آيات: خروجها من الصخر، وقرب ولادتها
عند خروجها، وعظم خلقها فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها ودرها، حيث
كان اللبن يكفي العشيرة، فلم يتفكروا ولم يعتبروا، فلما طغوا وعقروا
الناقة أهلكهم الله بصيحة من السماء من فوقهم، ورجفة شديدة من
تحت أقدامهم، فأصبحوا جثثاً هامدة، لا أرواح فيها ولا حراك، وإليه
يشير قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ . فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ .

الإبداع في خلق السموات والأرض

وبعد بيان هلاك الظالمين، انتقلت الآيات الكريمة لتتحدث عن
إبداع الله لهذا الكون، وعن حكمة ما خلق الله فيه من سمواتٍ

وأرضين، وبحار وأنهار، وشموس وأقمار، وما أوجد فيه من أنواع المخلوقات العجيبة التي تأخذ بالأبصار، فكلُّ هذه العجائب إنما هي من خلق الواحد القهار، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ والآيات عرضت في معرض تنشيط الرسول ﷺ لتبليغ دعوة ربه، وصبره على الأذى في سبيله، وأن له بمن سبقه من الرسل أسوة، فكلهم أوزي وكلهم كُذِّب، والله عز وجل ما خلق هذه الكائنات إلا بالحق والعدل، وإن القيامة آتية لا محالة، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أي أعرض عن هؤلاء السفهاء، وعاملهم معاملة الحليم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ وهذا كالتعليل لوجوب الصبر.

نعمة الله على رسوله بإنزال القرآن

وتنتقل السورة لتذكر الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه، بإنزال هذا القرآن العظيم، الجامع لكلمات الكتب السماوية، الذي خصَّ به أشرف رسله، وخاتم أنبيائه، ليكون ختام مسك، كما ختم بمحمد رسالاته السماوية، وتأمرة بخفض الجناح لأتباعه المؤمنين، وعدم الانخداع بما عليه الكفرة من متاع الدنيا العاجل، وإنما هو بريق خادع، وظل زائل، عما قريب يزول، وحسبه أن الله أكرمه وشرفه بإنزال هذا الكتاب المنير ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ. لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ. كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ

جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ .

والمراد بالسبع المثاني في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ سورة الفاتحة، لأنها سبع آيات باتفاق، وسميت «مثاني» لأنها تثني مرة بعد مرة، وتكرر قراءتها في كل ركعة من ركعات الصلاة، وهي أم القرآن، لأنها قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، ولهذا قال النبي الكريم: «والذي نفسي بيده، ما أنزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١)، وعطف القرآن العظيم على السبع المثاني، من عطف العام على الخاص، تشريفاً وتنبهياً على جلاله قدر المذكور. وقال أبو بكر: مَنْ أوتي القرآن، فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي، فقد صغر عظيمًا، وعظم حقيراً.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٢﴾ أي أنزلنا عليك يا محمد القرآن، كما أنزلنا على اليهود والنصارى التوراة والإنجيل، فأمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه، فانقسموا إلى فرق وأقسام، وجعلوا القرآن أجزاء متفرقة، وقالوا فيه أقوالاً مختلفة، فما وافق كتابهم وأهواءهم آمنوا، وما خالفها كذبوا به، وهذا القول مروى عن ابن عباس، كما جاء في البخاري عنه قال: «هم أهل الكتاب، جزءوه أجزاءً، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه»^(٢) وهذه تسلية للرسول عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم له.

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١٩/٧ في فضائل القرآن، ومالك في الموطأ ٨٣/١ في الصلاة.

(٢) انظر الحديث في جامع الأصول ٢٠٦/٢ وهو من رواية البخاري.

أمره ﷺ بتبليغ الدعوة والجهر بها

ثم قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

لقد أمر تقدرت أسماؤه رسوله ﷺ بالجهر بتبليغ الدعوة، والإعراض عن أهل الكفر والضلال، وبشره بإهلاك أعدائه المستهزئين وكانوا خمسة من رؤساء الطواغيت، فكفاه الله شرهم، وقطع دابرهم، وقد كان صلوات الله عليه يضيق صدره منهم لاستمرارهم في الاستهزاء والتكذيب، فنجاه الله منهم، وختمت السورة الكريمة بالأمر له عليه السلام بتسبيح الله وتمجيده، والمواظبة على عبادته إلى انتهاء الأجل، طاعةً لله وزلفى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ والمراد باليقين في الآية الموت، والله أعلم.

تَمَّتْ بِعَوْنِهِ تَعَالَى سُورَةُ الْحَجَرِ

* * *

سُورَةُ النَّحْلِ

مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَمَانٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَةٌ

أهداف السورة الكريمة

● سورة النحل من السور المكية، التي تعالج موضوعات العقيدة الكبرى «الألوهية، والنبوة، والبعث، والنشور» وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل وحدانية الله، وقدرته العجيبة، في ذلك العالم الفسيح، في السموات والأرض، والجبال والبحار، والسهول والوديان، والماء الهاطل من السماء، والنبات النامي في الأرض، والفلك التي تجري في البحار، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل، إلى آخر تلك المشاهد العجيبة، التي يراها الإنسان في حياته، ويدركها بسمعه وبصره، وهي صورٌ حيةٌ مشاهدة، دالة على وحدانية الله تبارك وتعالى، وناطقة بآثار قدرته، التي أبدع الله بها الكائنات، في كل ذرة من ذرات هذا الوجود وفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

● سميت هذه السورة الكريمة «سورة النحل» لاشتغالها على تلك العبرة البليغة، التي تشير إلى عجب صنع الخالق جلَّ وعلا، وتدل على الألوهية والوحدانية، بذلك الصنع العجيب، فالنحل خلقٌ من مخلوقات الله، يشبه الذباب في الصورة والتكوين، ولكنها تعمل بإلهامٍ بديعٍ أودعه فيها الخالق العظيم، وتعمل بدقة عجيبة، يعجز عن مثلها العقل الإنساني، سواءً في بناء خلاياها، أو في اقتسام العمل المنظم بينها، أو في طريقة إفرازها العسل، الذي فيه شفاء للناس، وهي تتخذ من الجبال والشجر بيوتاً لها، وتأكل من رحيق الأزهار ما يلدُّ لها، وكلُّ ذلك بوحى وإلهامٍ من

العلي الكبير، وقد ذكرت فيها هذه العجائب، ليتفطن الإنسان إلى قدرته تعالى، وعجيب صنعه، في هذه الحشرة الضعيفة، التي لو اجتمع مهندسو العالم، لحارت أفكارهم في بناء تلك البيوت الهندسية، بتلك الدقة العجيبة ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا، وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ، فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فسبحان الإله اللطيف الخبير!!

● ولكثرة ما ذكر تعالى فيها من النعم الجليلة، التي أفاضها الله على عباده، سمّاها بعض السلف «سورة النعم» اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وقوله تقدست أسماؤه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ إلى آخر ما هنالك من آيات كريمة، تشير إلى ترادف نعم الله على عباده، ليشكروه، ويعبدوه، وبطيحوه.

● ومن التذكير بالنعم، تنتقل الآيات للتذكير بالمنعم، فتتحدث عن الخالق، المدبر، الحكيم، الذي أبدع الكائنات، وخلق المخلوقات، وتقارن بين الإله الحق الذي لا تُحصى نعمه، وبين الأصنام المزيفة التي لا تبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، ولا تملك من أمر الخلق شيئاً ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ ثم يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ. أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

● وهدفت السورة إلى تقرير مبدأ «الوحدانية» وحدانية الله جلّ وعلا، وذلك بلفت الأنظار إلى قدرة الواحد القهار، فخاطبت كل حاسة في الإنسان، وكل جارحة في كيانه البشري، ليتجه بعقله إلى ربه وخالقه ومدبر أمره، ويستنير بما يرى من آثار صنع الله، على عظمته وبديع حكمته جلّ وعلا،

ولذلك تتابعت الآيات الكريمة، تخاطب العين لترى، والأذن لتسمع، والعقل ليتدبر، وحشدت الكون كله، سماءه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وبحاره وأنهاره، ونباته وثماره، وعرضته أمام الأنظار، مكشوفاً، ملموساً، محسوساً، تكاد كل ذرة فيه تنطق لله بالوحدانية ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ، وَالْأَبْصَارَ، وَالْأَفْئِدَةَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ، مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

● وفي سبيل تقرير الحقيقة الكبرى «حقيقة الألوهية» التي غفل عنها المشركون، ذكرت السورة مثلين اثنين:

المثل الأول: مثلُ العبدِ المملوك، العاجزِ عن التصرف في شئون نفسه، الذي ليس له إرادة ولا ملك، مع سيده القوي القادر، الذي يتصرف فيه كيف يشاء، فإذا كان البشر لا يسوون بين المالك والمملوك، والسيد والعبد، فكيف يسوون بين ربِّ الكائنات، وبين الأصنام والجمادات؟ وفي ذلك يقول المولى جلّ وعلا: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا، هَلْ يَسْتَوُونَ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أما المثل الثاني: فهو حسيٌّ من واقع الحياة، يكاد يدركه الأبله، وهو مثل الأبكم الذي لا ينطق، والمشلول الذي لا يتحرك، مع الخطيب المصقع، والقوي القادر، الذي يفتن الناس ببيانه، ويسلب عقولهم بقوة برهانه، هل يستويان؟ وإليه يشير تقدست أسماؤه بقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ﴾ أي أخرس ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي ثقيلٌ عالةٌ على سيده ومالكة ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟.

ويا له من مثل رائع، يفرق بين الهدى والضلال، وعبادة الرحمن، وعبادة الأوثان؟!!

● وتناولت السورة الكريمة الأمم الطاغية، التي كفرت بنعم الله، فسلب الله عنها الأمن والاطمئنان، وأذاقها مرَّ الهوان، وحرَمها رَغد العيش، بعد أن كانت ترفل في ثياب العز والرفاهية، وتلك هي نتيجة الكفر والظغيان ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

● وفي مقابل صورة الجحود والكفر، ذكرت السورة الكريمة نموذجاً للطاعة والشكر، ومثلت له بحياة إبراهيم الخليل، ذلك العبد الذَّكر، الصَّابر، الشَّاكر، الذي اختصَّه الله بالاصطفاء والخلَّة، وأمر سيد المرسلين، بالافتداء بهديه وسيرته، في طاعته وعبادته وتقواه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

● وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالصبر على تحمل الأذى في سبيل الله، لأن الداعي كالطبيب ينبغي عليه أن يتحمل أذى وسفه المريض، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ. وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ وهكذا بدأت السورة بتوحيد الله، وختمت بالدعوة إلى الله، ليتناسق البدء مع الختام، في أروع صورة وأجمل بيان.

تفصيل وبيان للسورة الكريمة

وبعد الإجمال يأتي الحديث بالتفصيل والبيان، عن هذه السورة الكريمة «سورة النحل» فقد أشارت إلى قرب الساعة، والتأكيد على مجيء القيامة، التي طالما أنكرها المشركون، واستبعدوا ما كان يخوفهم به الرسول عليه السلام من نزول العذاب، فقد كان كفار مكة إذا سمعوا الرسول ﷺ يتوعدهم بالعذاب، يقولون سخريةً واستهزاءً: ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾^(١) أي عجل لنا هذا العذاب الذي تتوعدنا به، فإننا نريد أن نستلذَّ به قبل مجيء يوم القيامة، فأنزل الله على رسوله هذه الآيات البينات: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمراد بأمر الله - على رأي جمهور المفسرين - «القيامة» وما فيها من أهوال وشدائد، وإنما جاء بصيغة الماضي ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ لتحقق وقوع الأمر لا محالة، فإن الخبر إذا كان حقاً مقطوعاً به، يُعبَّر عنه بصيغة الماضي، على جهة التأكيد، كأنه لوضوحه والثقة به قد وقع، ويحسن ذلك في خبر الله تبارك وتعالى لصدق وقوعه، وكلامُ الحقِّ جَلٌّ وعلا يتنزه عن الخلف، ولهذا قال سبحانه بعده: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي فلا تتعجلوا هذا العذاب الذي أوعدكم به محمد، كقوله

(١) سورة ص آية رقم ١٦.

تقدست أسماؤه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ، وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١).

ثم نزه تبارك وتعالى نفسه عما يصفه به الظالمون، وعن إشراكهم معه الأنداد والأوثان فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس، وتعالى وتمجد، عن أن يكون له شريك في ملكه، أو يعبد معه غيره من الأصنام والأوثان!!

الوحي الإلهي للرسل الكرام

ثم ذكر تعالى الوحي والنبوة، وما خصَّ به بعض عباده من التشريف بإنزال الوحي عليهم، بواسطة الملائكة المقربين فقال تقدست أسماؤه: ﴿يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

والمراد بالروح هنا الوحي الإلهي، وسُمي روحاً لأن القلوب تحيا به، كما تحيا الأبدان بالأرواح، ومما يؤيد ذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾^(٢) ومن فضل الله على العباد، ورحمته بهم، أن تداركهم ببعثة الرسل الكرام، وأنزل وحيه السماوي عليهم، ليكونوا وسطاء بينه وبين عباده، ومثل الوحي كمثال النور للبصر، والروح للبدن، فالجسد موات مظلم كثيف، فإذا اتصل به الروح، صار حياً نورانياً لطيفاً، وقد أشار إلى ذلك المولى جلّ وعلا بقوله: ﴿أَوْمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٥٣.

(٢) سورة الشورى آية رقم ٥٢.

فِي النَّاسِ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلْمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا»^(١)؟ وما أحسن قول الشاعر:

يَا خَادِمَ الْجِسْمِ كَمْ تَسْعَى لِخِدْمَتِهِ أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ
أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فِضَائِلَهَا فَأَنْتَ «بِالرُّوحِ» لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ

فبالقرآن والوحي تكمل المعارف الإلهية، وتشرق في القلب الأنوار الربانية، فيحصل عند ذلك التخلص من ظلمة الجهالة، والانتقال من حضيض البهيمية، إلى أوج الكمال الإنساني، وبه يكمل حال الجسد، وليس الغرض الأصلي من إنزال الوحي، إلا تعريف العباد صفات هذا الرب المنعم، وربطهم بالخالق الحكيم، الذي هو مصدر كل فضل وإحسان، ليوحدوه ويعبدوه ويشكروه، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَنْ أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي أمرت الرسل بتذكير العباد، بأنه لا معبود بحق إلا الله، فاتقوا عذابي، وخافوا انتقامي، ولا تشركوا معي أحداً.

الآيات الكونية في خلق الإنسان

ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وجوده، وقدرته، و وحدانيته، فقال تقدست أسماؤه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ، وَمَنْافِعُ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بَشِقُّ الْأَنْفُسِ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٢.

وهذه الآيات سيقت لإقامة الدلائل على جود الخالق جلّ وعلا،
وكمال قدرته وحكمته، وقد فصلّ الباري هذه الأدلة أجمل تفصيل، فبدأ
بالعالم العلوي، وما فيه من بدائع الخلق والتكوين، ثم بالإنسان وما
ميّزه الله به من حسن الصورة، وكمال العقل، ثم بأحوال الحيوان، ثم
بأحوال النبات، وهذا الترتيب جاء في غاية الحسن والجمال.

ولمّا كان الإنسان هو أشرف هذه المخلوقات، وهو المُكَلَّف من
بين سائر العوالم، وقد أوجد الله له هذه الدنيا ليعمرها بطاعته وعبادته،
وهياً له فيها كل أسباب العيش والراحة، ولكنه جحد النعمة، وتكبّر على
ربه، وأخذ يجادل ويخاصم بالباطل، ولذلك فقد وصفه المولى جلّ
وعلا بالمعاندة والمكابرة، والمجادلة لربه، مع أنه مخلوق من شيءٍ
ضعيف ﴿خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ أي خلقه من
مادةٍ مهينة ضعيفة هي المنيّ الذي ينطف من الإنسان، فإذا هو خصيم
لربه، منكر فضل خالقه، واضح الخصومة، وقد خلق ليكون عبداً لا
ضداً، ولكنها طبيعة العناد والجحود، والتمادي في كفران النعمة.

وقد نبه الباري الإنسان على توالي نعمه عليه، ليقوم بواجب
الشكر، ويترك طريق الغطرسة والكبر، فقال تقدست أسماؤه: ﴿والأنعام
خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون﴾ والمراد بالدفء ما يستدفىء
به الإنسان من البرد، من الأكسية، والأصواف، والأوبار، التي يصنع
منها الملابس والبُسُط، والفرش، ثم قال سبحانه: ﴿ولكم فيها جمال
حين تريحون وحين تسرحون﴾ أي ولكم فيها متعة وبهجة، حين ترجع
من المرعى، وحين تسرع لترعى ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا
بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ أي إلا بجهد ومشقة تصعب على النفس ﴿إن
ربكم لرءوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما

لا تعلمون ﴿ ولنمعن النظر في هذه الآيات البيّنات، فقد عدّد تعالى منافع هذه الحيوانات، التي خلقها الله للإنسان، فمنها الغذاء والكساء، والدرّ واللبن، ومنها الزينة والجمال، ومنها المحمل والمركب، وقد ختم الله الآيات بقوله: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ وهو ختم في غاية الحكمة والإبداع، وبالأسلوب الذي يتقبله الفكر البشري في ذلك الزمان، والقرآن حكيم في ألفاظه وبيانه، كما هو حكيم في نظمه وتشريعه، وقد خاطبهم بما يدركون ويفهمون، فلو قال لهم: هذه هي الخيل، والبغال، والحمير وسائل للركوب، وستكون هناك وسائل غيرها، من سيارات، وقاطرات، وعربات لا تجرّها حمير، وسيكون هناك طائرات نفاثة، ومراكب فضائية، إلى غير ما هنالك من وسائل للركوب، لسخروا وأنكروا، لأن عقولهم لا تتحمل ذلك، فجاءهم بهذا التعبير الرائع: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ ليشمل كل ما يتمخض عنه العلم من وسائل حديثة، ويهيء القلوب والأذهان لها، ونسبها تعالى بالخلق إليه، لأنها من صنع الإنسان الذي خلقه الله، وميّزه بالعقل والفهم، ومنحه هذه الحواس، فتصحّ أنها من خلق الله، لأنها من تعليمه وإرشاده، فلله ما أسمى القرآن! وما أروع إشاراته وعباراته!!

آيات الله الكونية في النباتات والثمار

وبعد أن ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الحيوانات والأنعام، أعقبه بذكر سائر النعم العظام، وما فيها من بدائع الصنع، وروائع الخلق، وكلّها آيات كونية، تشير إلى قدرة الله، وعظمته، ووحدانيته، فقد نظّم الله الكون أبداع تنظيم، وهيئاً للإنسان أسباب العيش، فوق سطح هذا الكوكب الأرضي، أنزل المطر من السحاب، فأخرج به النبات والثمار، وأجرى به الأنهار، وخلق الشمس والقمر، والليل

والنهار، وجعل السفن تجري بقدرته في البحار، وفي ذلك يقول ربنا
تقدست أسماؤه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ،
وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ، وَالزَّيْتُونَ، وَالنَّخِيلَ،
وَالْأَعْنَابَ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَسَخَّرَ
لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ، إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

والمراد بقوله سبحانه: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ أي أنزل المطر
بقدرته الباهرة من السحاب، فإن السماء في اللغة العربية هي: كل ما
علاك فأظلك، ويدلُّ على أن المطر ينزل من السحاب قوله سبحانه:
﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً، ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركاماً، فترى
الودق يخرج من خلاله﴾ أي فترى المطر يخرج من خلال السحاب،
وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾ والمعصراتُ هي
السُّحب باتفاق علماء أهل اللغة، فلا تعارض بين أخبار القرآن، وبين
حقائق العلوم الكونية.

فوائد المطر المتعددة

ثم ذكر تعالى فوائد هذا المطر، الذي أنعم به على البشر، وقسمه
إلى قسمين: قسم لشرب الإنسان والحيوان، وقسم لسقاية الزروع
والأشجار، ومن الأشجار تخرج الفواكه والثمار، غذاءً لبني آدم، والكل
مرجعه إلى نفع الإنسان، ولهذا امتنَّ الله علينا بقوله: ﴿لكم منه شراب،
ومنه شجر فيه تسيمون﴾ أي لكم من هذا الماء ما تشربونه، عذباً فراتاً
يذهب حرارة العطش، ولكم منه ما تسقون به الزروع والأشجار لترعى
منها أنعامكم كما قال سبحانه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالجِبَالَ

أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِإِنْعَامِكُمْ»^(١) ثم فصل تبارك وتعالى ما ينشأ عن هذا المطر من أنواع النبات والشجر فقال تقدست أسماؤه: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ، وَالزَّيْتُونَ، وَالنَّخِيلَ، وَالْأَعْنَابَ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها، وطعومها، وألوانها، وروائحها، وأشكالها، فمن الذي خالف بين هذه الطعوم والألوان والأشكال؟ مع أن التربة واحدة، والماء الذي يسقي هذه الأرض واحد؟ كيف خرج البرتقال والليمون، والرطب والعنب، والتفاح والرمان، والبطيخ والحنظل، في أرض واحدة؟ بعضها حلو، وبعضها حامض، والبعض مرُّ علقم؟ ولهذا ختم الباري الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في إنزال الماء، وإخراج الثمرات، لدلالة واضحة، وعبرة ساطعة، على وحدانية الله وقدرته، لقوم يُفكِّرون بعقولهم، ويستدلون على وجود الخالق الحكيم.

نظرة تفكر واعتبار

ختم الله الآية بقوله «يتفكرون» لأن المقام مقام تفكر وتدبر، والأمر يحتاج إلى أن نستعمل الفكر، ونمعن النظر، في هذه الآيات الكونية البديعة، ألا ترى أن الحبة الواحدة، والنواة الصغيرة، إذا وضعت في الأرض، ومرَّ عليها زمنٌ معيَّن، لحقها من رطوبة الأرض ما تنتفخ به، فينشق أعلاها فتصعد منها شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منها في عمق الأرض شجرة أخرى، هي المسمّاة بعروق الشجرة، تمتد أصولها وعروقها في الأرض، ثم ينمو الأعلى ويقوى ويشتد، فتخرج

(١) سورة النازعات آية رقم ٣١-٣٣.

منها الأوراق والأزهار، والأكمام والثمار، وتمتد العروق في الأرض لتمدّ الشجرة بالغذاء والماء، وتركها حلة بهيجة أمام الأبصار، فسبحان الله الواحد القهار، الذي أخرج من هذه الحبوب الصغيرة، تلك الأشجار الباسقة، والحدائق الغناء، وجعل فيها من جميع أنواع الفواكه والثمار، ما يُحِيرُ الأبصار، وصدق الله حيث يقول: ﴿أَمْ نَخْلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا، أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾^(١) أي يشركون معه غيره، مع أنه وحده هو الخالق الرازق!!

آيات الله الكونية في خلق الليل والنهار

ثم لفت تعالى الأنظار، إلى خلق الليل والنهار، وتعاقبهما بنظام محكم في غاية الدقة والإحكام، وتسخير الشمس والقمر، لتحقيق مصالح البشر، وما أوجد الله في هذا الكون البديع من أنواع الأفلاك والكواكب، والنجوم الثوابت والسيارات، التي تدور في أرجاء السموات، نوراً وضياءً يهتدي الناس بها في ظلمات الليل، وكلُّ منها يسير في فلكه الذي جعله الله فيه، يسير بحركةٍ معيَّنة مقدرة، لا يزيد عنها ولا ينقص، والجميع تحت قهره وسلطانه، وتسخيره وتقديره، وذلك آية الآيات، الدالة على وحدانية الله عز وجل، وقدرته، وحكمته، ووجوده، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

نعم إنها آياتٌ باهراتٌ، ودلائلٌ ساطعاتٌ، وبراهينٌ واضحاتٌ، تدل على عظمة الله وجلاله، وتحتاج إلى عقول سليمة، وأذهان ثاقبة،

(١) سورة النمل آية رقم ٦٠.

لتعرف عظمة هذه النعم الجليلة، التي أنعم بها على بني الإنسان، فالليل والنهار يتولدان من دوران الأرض حول الشمس، وتتولد عن ذلك الفصول الأربعة، والشمس والقمر يجريان بتقدير العزيز الحكيم، بحساب دقيق محكم متقن كما قال سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ فمن الذي سَخَّرَ الليل والنهار، والشمس والقمر، لمصالح البشر؟ أليس هو الإله المنعم المتفضل، الذي لا تُحصى نعمه والآؤه؟ ولو انطفت شعلة الشمس عن الأرض، فهل يمكن العيش فوق سطح هذا الكوكب الأرضي؟ فسبحان من خلق وسَخَّرَ، وأحكم ودبَّرَ، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى!!

آيات الله الكونية في خلق البحار والأنهار

وإكمالاً للنعمة، ذكر الله تعالى البحار، وما فيها من عجائب الخلق والكون فقال تقديس أسماؤه: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا، وَتَرَى الْفُلْكَ فِي السِّفَنِ ﴿مَوَاجِرَ فِيهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ، وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وتسخير البحر من آيات الله الباهرة، ومنافعه كثيرة، ففيه السمك طعام الإنسان، وفيه اللؤلؤ والمرجان، حلية وزينة للنساء، وعلى سطحه تسير السفن الكبيرة تحمل الأثقال والرجال، والماء بطبيعته سائل مائع، فكيف حمل هذه الأثقال فوق سطحه، ولم تغص إلى قراره؟ إنه تسخير المولى جلّ وعلا ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ ولولا تسخيره تعالى وتذليله لَطَغَى البحر فأهلك الحرث والنسل، وقضى على الأخضر واليابس، ولولا تسخيره لاختلطت مياه البحار بمياه الأنهار فأفسدت حياة بني آدم، ولكنه

سبحانه بفضلِه وتسخيرِه وتذليلِه، جعل بينهما حاجزاً وحجراً محجوراً، كما جعل في الأرض جبلاً شامخات، وطرقاً وأنهاراً، ونجوماً يهتدي بها الناس في ظلمات الليل، فسبحانه من إله قدير، وإليه المرجع والمصير.

البراهينُ على وجود الله ووحدانيته

وتمضي السورة الكريمة لإقامة الأدلة والبراهين، على وحدانيته تعالى وقدرته، بعد أن ذكّرت العباد بنعمه وأياديه وإحسانه، ولتضع مقارنةً لطيفة بين من عبد الرحمن، وبين من عبد الأوثان، فقد أثبتت الآيات السابقة بالدلائل الباهرة، والبيّنات الزاهرة، أنه تعالى هو المتفضلٌ بجميع النعم، وهو المعطي لكل هذه الخيرات، فكيف يحسن بالعاقل، أن يشتغل بعبادة موجودٍ سواه، لا سيما إذا كان ذلك الموجود جماداً لا يفهم، ولا يقدر على شيء، وليس له من الخلق والتكوين أيُّ أثر؟ وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ. أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

نَبّه تعالى في هذه الآيات على عظمتِه، وأنه لا تنبغي العبادة إلاّ له، وأقام البرهان النير الساطع، على بطلان عبادة غير الله تعالى، والمعنى: أتسوون بين الخالق للسموات والأرض، والإنسان والحيوان، والنبات والبحار، والجبال والأنهار، وبين من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا يقدر على خلق شيء أصلاً؟ كيف تشركون هذا الصنم

الحقير، مع الخالق القدير؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تدركون خطأ ما أنتم فيه من عبادة غير الله؟

إن هذا الأمر لا يحتاج إلى تدبر وتفكر ونظر؟ فإنه أظهر من الشمس في رابعة النهار، ويكفي أن تنتبهوا بعقولكم لتدرکوا أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، فهذه الأصنام جماداتٌ محضة، وليس لها فهمٌ ولا قدرة، ولا إرادةٌ ولا اختيار، فكيف تشركونها مع الواحد القهار؟! القهار؟!!

نِعْمُ اللهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ لَا تُحْصَىٰ

ثم ذكّرهم تعالى بفضله وإحسانه، بما أغدق عليهم من أنواع النعم فقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إذا أردتم أن تعدّوا نعم الله التي أفاضها عليكم، لا تطيقوا عددها فضلاً عن أن تطيقوا شكرها، فالعبد وإن أتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات، وبالغ في شكرها، فإنه لا يؤدي حقّ هذه النعم، لأنها كثيرة وأقسامها وشعبها واسعة عظيمة، ولهذا ختم تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي غفور لما صدر منكم من تقصير، رحيم بالعباد حيث ينعم عليهم، مع تقصيرهم وعصيانهم.

وحتى ندرك بعض أسرار هذه الآية ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ نضرب هذا المثل البسيط، إن كل جزءٍ من أجزاء البدن في الإنسان، لو ظهر فيه أيُّ خلل، لتنغص العيش على صاحبه، وتمنى أن ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل، فلو أصيب بقرحة في المعدة، أو حبس في البول، أو عُسر هضم، ودام معه ذلك، لأصبحت حياته كلّها كدراً، ولم يهنأ في طعام ولا شراب، ولو تخزّبت معه

الكلية، أو تشمّع معه الكبد، أو ضاقت معه الشرايين، فلم تعد تضحّ الدم إلى القلب والرئتين، لشعر بالآلامِ يتمنى معها الموت على البقاء في الحياة.

ثم إنه تعالى - من حيث لا يشعر الإنسان - يدبر له أحوال بدنه، على الوجه الأكمل والأصلح، مع أنه لا يعلم بوجود ذلك الجزء، ولا بكيفية مصالحه، ولا بدفع مفسده، فمن الذي سخر له هذه المعامل الدقيقة، تشتغل في جسده بدقة وإحكام؟ في العين المبصرة، والأذن السامعة، وجهاز الهضم، وجهاز التنفس، وفي الدورة الدموية، وجهاز المناعة والدفاع، وفي الشرايين والأوردة، وفي سائر ما في الإنسان من دقائق الخلق والتكوين؟ إنه الرحمن جلّ وعلا الذي لا تُحصى نعمه وصدق الله العظيم ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (١) فليكن هذا المثال حاضراً في ذهنك، ثم تأمل في جميع ما خلق الله في هذا العالم، من المعادن، والنبات، والحيوان، وجعلها مهياً لانتفاعك بها، حتى تعلم أن عقول الخلق تفتى في معرفة حكمة الرحمن في خلق الإنسان، فضلاً عن سائر وجوه الفضل والإحسان، وعند ذلك تدرك سرّ الآية الكريمة!!

بين الإله الحقّ والآلهة المزعومة

ثم ذكر تعالى من آثار قدرته وعظمته، معرفته بدقائق أسرار الإنسان، وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، بينما الأصنام التي يعبدونها لا تدرك شيئاً ولا تستجيب لنداء، ولا تعرف من عبدها ممن دحّاها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا

(١) سورة إبراهيم آية رقم ٣٤.

يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ. أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١٠﴾ .
 والمعنى أن الإله يجب أن يكون عالماً بالسِّرِّ والعلانية، وهذه
 الأصنام جمادات لا معرفة لها بشيء أصلاً، ثم إنها مخلوقة، نحتها
 البشر بأيديهم، فكيف تحسن عبادتها؟ وكيف تكون آلهة تُعبد من دون
 الله؟ وزيادة في التقييح والتشنيع على من عبدها قال سبحانه: ﴿أَمْوَاتٌ
 غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي تلك الأصنام التي أضفوا عليها صفات الألوهية، أمواتٌ
 لا أرواح فيها، وهي لا تسمع ولا تبصر، ولا ترى ولا تدرك، لأنها
 جمادات لا حياة فيها، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها، لما فيكم من
 الحياة؟ ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي وما تشعر هذه
 الأصنام متى تُبعث مع عابديها؟ وفيه تهكم لاذع بالمشركين، لأنهم
 عبدوا جماداً لا يحسُّ ولا يشعر.

سبب ضلال الكفار البغي والاستكبار

ثم ذكر تعالى صفات الإله الحق، الذي ينبغي أن تعنو له
 الوجوه، ويُن سبب ضلالات المشركين، وهي استكبارهم عن عبادة
 الرحمن، وإصرارهم على طاعة الأوثان، فقال تقديست أسماؤه:
 ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ، وَهُمْ
 مُسْتَكْبِرُونَ. لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْمُسْتَكْبِرِينَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.
 لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ، أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾؟ أي
 تنكر وحدانية الله عز وجل ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي متكبرون عن قبول
 الحق، والإذعان لله بالنطق بكلمة التوحيد. والعجيب في أمر هؤلاء
 المشركين أنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، فقد كانوا يجلسون على

مداخل الطرقات في مكة، ينفرون الناس عن الدخول في دين الإسلام، ولهذا تحمّلوا وزرهم ووزر من أضلوهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أي بئس الحمل الذي حملوه من الذنوب والأوزار، ليكون قائداً لهم إلى النار، وفي الحديث الصحيح: «مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْءٌ»^(١).

مخازي المشركين وتآمرهم على الرسول ﷺ

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تطالعنا بصور ومشاهد من مخازي المشركين، وتآمرهم على صاحب الرسالة، ومكرهم الخبيث لإطفاء نور الله، ولكن الله ردّ كيدهم في نحورهم، وجعل تدبيرهم في تدبيرهم، وهذه سنة الله في رسله وأنبيائه، أنه ينصرهم ويهلك أعداءهم، ويُنجي عباده المؤمنين، وفي ذلك تسلية للرسول وأتباعه، وقد صورّ تعالى إفساده لما أبرموه من المكر بالرسول، بهذا التصوير والتمثيل الرائع، في هذه الآيات البيّنات ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ، فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ، وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ، إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ، بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

(١) هذا طرف من حديث رواه مسلم والترمذي، وانظر جامع الأصول ٥٦٦/٩.

تصوير رائع للهلاك والدمار

ولعمراً الحق إنه لتصوير رائع في غاية الجمال، لحال أولئك المفسدين، الذين أرادوا المكر بالرسول ﷺ بالقتل أو الأغتيل، وقصدوا توهين عرى الدين بما ألصقوه به من شبهات وأباطيل، وكل ذلك بقصد صد الناس عن الدخول في الإسلام، فقد شبههم تعالى بحال قوم بنوا بنياناً قوياً الدعائم، شديد البنيان، فأتى الله بنيانهم من قواعده وأسسهم، فلما اندكت القواعد، وقع السقف، وكانوا تحته فهلكوا وبادوا عن بكرة أبيهم، كذلك حال هؤلاء الأشقياء المجرمين، تأمروا وخططوا ودبروا، فكان نتيجة هذا المكر أنه عاد عليهم بالوبال والدمار، و«من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه» كما جاء في الأمثال.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ومعلوم أن السقف لا يسقط إلا من الأعلى، للتنبيه على أنهم كانوا تحته، ثم سقط عليهم السقف، و لرفع الاحتمال الذي يكون ناشئاً من قولهم: انهدم بناء فلان عليه، يريدون ذهب ملكه وعزه، فلما قال: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ دل هذا الكلام على أنهم كانوا تحته، وأفاد أن الأبنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها، وزيادة في التهويل قال تعالى: ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي جاءهم الهلاك والدمار، من حيث لا يخطر على البال، والآية بعد ذلك مشهد كامل، لما حل بهم من العذاب الشامل، وصورة توحى بالدمار والهلاك للظالمين، وللسخرية من مكر الماكرين، وتدبير المدبرين، الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يُردُّ، وتدبيرهم لا يخيب، والله من ورائهم محيط.

عذاب الآخرة أشد وأخزى

هذا عذابهم في الدنيا، أما عذابهم في الآخرة فأشد وأخزى ﴿ثُمَّ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ ﴿ أَي يُذْلَهُمْ وَيُهِينُهُمْ ﴾ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ؟ أَي يَقُولُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ: أَيْنَ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَخَاصِمُونَ وَتَجَادِلُونَ عَنْهُمْ، وَتَعَادُونَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَجْلِهِمْ؟ أَحْضِرُوهُمْ لِيُشْفَعُوا لَكُمْ؟ وَهُوَ أَسْلُوبٌ سَخِرِيَّةٌ وَتَهْكَمٌ بِهِمْ، وَبِأَلْهَتِهِمُ الْمَزْعُومَةَ ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ، إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أَي يَقُولُ الدُّعَاةُ وَالْعُلَمَاءُ، شِمَاتَةٌ بِأُولَئِكَ الْأَشْقِيَاءِ: إِنْ الذُّلَّ وَالْهَوَانَ، وَالْعَذَابَ وَالْفُضِيحَةَ الْيَوْمَ، عَلَى مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَعَبَدَ مَعَهُ مَا لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.

قبض الملائكة لأرواح الكفار

ثم بين تعالى حالهم، حين تقبض ملائكة العذاب أرواحهم الخبيثة، وهناك يلجأون إلى التضرع والاستسلام، على خلاف عاداتهم في الدنيا من العناد والمكابرة، ويزعمون كذباً أنهم ما كانوا يفعلون القبيح، ولا يعملون السوء، لعلمهم يتخلصون من العذاب، ولكن هيهات فإن الكذب لا ينظلي على علام الغيوب، فلذلك يفضحهم الله ويزيد في عذابهم، كما قال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، فَأَلْقَوْا السَّلَمَ ﴾ أَي انقادوا واستسلموا ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ أَي يقولون: ما أشركنا ولا عصينا، كما يقولون يوم المعاد: ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ قال تعالى رداً عليهم: ﴿ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَي بلى قد كذبتكم وعصيتكم، والله عالم بما كنتم عليه في الدنيا، فلا ينفعكم هذا الكذب، ثم صرح بعده بالعقاب الذي ينتظرهم فقال تقدست أسماؤه: ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ والمعنى: ادخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً، فلبئس جهنم مقراً ومسكناً للمتكبرين عن عبادة الله.

تكريم المؤمنين الأبرار

وبمقابلة هؤلاء الكفرة الأشقياء، يأتي الحديث عن المؤمنين الأتقياء، وما أكرمهم الله به من أنواع التكريم في دار النعيم، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا خَيْرًا، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ، كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ، يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وانظر إلى هذه المقابلة اللطيفة، بين السعداء والأشقياء، والأبرار والفسجار، فإن أولئك الأشقياء المجرمين، كانوا إذا قيل لهم: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا أساطير الأولين، وهؤلاء المؤمنون الأبرار، إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم على رسوله؟ قالوا خيراً أي أنزل عليه الخير والهدى والقرآن، ولهذا أكرمهم الله بدخول الجنان.

قال المفسرون: هذا كان في أيام موسم الحجيج، يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره، وعمّا أنزل الله عليه، فيقولون: إنه ساحرٌ، وكاهن، وكذّاب، وما جاء به إنما هو أساطير الأولين - أي خرافات وترهات السابقين - فيأتي المؤمنين ويسألهم عن محمد، وعمّا أنزل عليه، فيقولون: إنه رسول الله حقاً، وقد أنزل الله عليه الهدى والفرقان، قال تعالى في جزاء هؤلاء المتقين: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ وليسرّح خيالك في هذا الذي يشاءونه، مما أكرمهم الله به، فلا يشتهون شيئاً إلا أعطاهم الله إياه، ولا يخطر على بالهم شيءٌ إلا حَقَّقه الله لهم، فضلاً منه وكرماً، كما قال سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ، وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿ وقد ورد في الحديث «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ فَيَسْتَهْيِيهِ، فَيَقَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَشْوِيًّا» رواه البيهقي، وفي الصحيح: «من يدخل الجنة يُنعم ولا يئأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» (١).

وعيد المكذبين المجرمين بنار الجحيم

وبعد هذا البيان المستفيض، عن حال الأبرار وحال الفجار، ومصير كلٍّ من السعداء والأشقياء، عاد الكلام إلى تقرير المشركين وتوبيخهم، على تماديهم في الباطل، واغترارهم بالدنيا فقال تقدست أسماؤه: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

والمعنى: هل ينتظر هؤلاء الكفار، الذين أصرُّوا على التكذيب والاستهزاء برسُل الله، إلا أن تنزل بهم ملائكة العذاب، لقبض أرواحهم، أو يأتيهم أمر ربك بعذاب الاستئصال وبالنكال والأهوال؟ فعند ذلك يرتدعون وينزجرون عن كفرهم وضلالهم؟ قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي كذلك صنع من قبلهم من المجرمين، حتى نزل بهم العذاب المعجل، أفليس في مصير المكذبين قبلهم عظة وعبرة؟ ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي وما ظلمهم الله بذلك العقاب، فإنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم بأن

(١) الحديث أخرجه مسلم في صفة الجنة برقم ٢٨٣٦.

ظلموا وفسقوا وفجروا، فاستوجبوا ما نزل بهم من البلاء والعقاب ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أي أصابهم عقوبات كفرهم، وجزاء أعمالهم الخبيثة ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي نزل بهم على وجه الإحاطة والشمول، جزاء سخريتهم واستهزائهم، وهو العذاب الأليم الذي استأصل شأفتهم.

يُقال في اللغة العربية: حاق به البلاء بمعنى أحاط به من كل جوانبه، بحيث لم يُفلت ولم ينج منه. والآية تصوير للعذاب الشامل المحيط، الذي نزل بأولئك المجرمين، بسبب بغيتهم وعدوانهم، والعجيب في أمر الناس أنهم يرون ما حلَّ بمن قبلهم، ممن يسلكون طريقهم، ثم يظنون سادرين في الغيِّ، غير متصورين أن ما أصاب غيرهم يمكن أن يصيبهم، وأن سنة الله في الانتقام من الظالمين تمضي وفق ناموسٍ مرسوم، وأن المقدمات دائماً تعطي نتائجها!

احتجاج المشركين بالقضاء والقدر

وتطالعنا السورة الكريمة، بصور أخرى من سفاهات وحماقات المشركين، فإنهم يحاولون أن يبرروا جرائمهم، وإشراكهم، وأفعالهم القبيحة، بالقضاء والقدر، فيقولون: الله قَدَّرَ ذلك علينا، والله قضى بذلك علينا، فليس علينا مسئولية، لأن أعمالنا وقعت بقضاء سابق من الله، ونحن مسيرون لا مخيرون.. إلى غير ما هناك من الافتراءات والأباطيل، فقد أحالوا إشراكهم وتحريمهم لبعض الأطعمة والذبائح، وما كانوا ابتدعوه واخترعوه على إرادة الله ومشيتته، فلو شاء الله - في زعمهم - ألا يفعلوا شيئاً من هذا لَمَنَعَهُم من فعله.

وهذا محض الكذب والافتراء على الله جلَّ وعلا، وهو وهمٌ وخطأٌ

في مفهوم «المشيئة والقدرة» فالله - تقدرت أسماؤه - لا يريد لعباده الشرك، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحلَّ لهم من الطيبات، وإرادته هذه بينها على ألسنة الرسل، في شرائعه السماوية، وما بعث الله الرسل، ولا أنزل الكتب، إلا لتوضيح المنهج المستقيم الذي يجب أن يسير عليه الناس، ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تحكي أقوال هؤلاء المشركين، والردَّ الساطع الواضح عليهم، حيث يقول تقدرت أسماؤه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا، وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ؟ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ، فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ. إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

الاحتجاج بالقدر لدفع المسؤولية باطل

هذه هي مقولة المشركين، وهي مقولة الجاهلية في كل زمان ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾^(١) وهنا يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا، وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهي الكلمة التي يرددها الجاهلون في كل عصر، إذا عاتب أحدهم لماذا لا تصلي؟ يجيبك حتى يأذن الله، لم تشرب الخمر وهي أم الخبائث؟ يقول: الله قدر عليّ ذلك، كيف أقدمت على قتل أخيك المسلم؟ يجيب: هذه مشيئة الله، وهذا قدر الله، عجيب والله أن يحتج

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨.

هؤلاء السفهاء بالقضاء والقدر في فعل الشر، ولا يحتجون بالقضاء والقدر في عمل الخير، لا يُدخِلُ الإنسان يده في جيبه ليخرج المال، فيتصدق به على الفقراء والمساكين، ويقول: الله قَدَّرَ ذلك عليّ، ولا يبني الغني مسجداً لله ويقول: هكذا قَدَّرَ الله عليّ، بل ينسب الإنسان فعل الخير إلى نفسه، فيقول: أنا أحسنتُ، أنا تصدقتُ، أنا بنيتُ المساجد، وفتحتُ المدارس على حسابي الخاص، أما عمل القبيح والشر فينسبه إلى القدر فيقول: هكذا قَدَّرَ الله عليّ، وهل الله جل وعلا قَدَّرَ الشرَّ فقط، ولم يقدِّرَ الخير على الإنسان؟ إن الاحتجاج بالقضاء والقدر بهذا الأسلوب، كذبٌ وافتراءٌ على الله، ولهذا ردَّ الله عز وجل على المشركين في سورة الأنعام بقوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ وردَّ عليهم هنا بقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي افتروا مثل هذا البهتان، واحتجوا مثل ذلك الاحتجاج الباطل ثم قال: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾: أي ليس على الرسل إلا التبليغ لأوامر الله، والله ينتقم من الظالمين المفترين.

نظرة تأمل في عقيدة القدر

وهنا لا بدُّ لنا من وقفةٍ قصيرة، عند عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، فإنها باعثُ عملٍ لا باعثُ حمول، وليس في القضاء والقدر، معنى الإكراه والإجبار لأحدٍ من البشر، كما يظن بعض الجاهلين، فإن الله تبارك وتعالى قد رفع المسؤولية والإثم، عمَّن أكرهه على فعلٍ من الأفعال، حتى الكفر الذي هو أعظم الذنوب، فإنه غير مؤاخذ به إن كان قد فعله مكرهاً، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ فكيف يُكره تعالى إنساناً على عملٍ، ثم

يعاقبه عليه؟ وكيف يقضي عليه بارتكاب المحرّم، ثم يعذّبه عليه؟ إن هذا مستحيل، بل لا يتصور في عدالة الله، الذي بعث الرسل، وأنزل الكتب لهداية البشر، لئلا يتيهوا في ظلمات الحياة.

وزبدة القول في أمر «القضاء والقدر» أن الله جلّ وعلا قبل أن يخلق البشر، علم ما سيكون منهم من خير أو شر، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، وعلم من سيؤمن ومن سيكفر، فسجّل علمه هذا في اللوح المحفوظ، فلا يحدث شيء في الكون، إلّا وقد علمه الله من الأزل، فقضاءه وقدره تابع لعلمه، وعلمه سبحانه ليس عذراً للإنسان يمكنه أن يحتج به، ليتهرب من المسؤولية، بل إن الله عز وجل أعطى للإنسان الاختيار، وأمر ونهى، وحذّر وأنذر، وبعث الرسل هداةً مرشدين، وأنزل الكتب لإنارة السبيل، فمن آمن فباختياره، ومن كفر فباختياره أيضاً ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ، إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وما ترك من هدايته وإرشاده أمة من الأمم كما قال سبحانه هنا في الرد على المشركين: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين﴾ ..

وخلاصة الموضوع:

أولاً : إن القضاء والقدر تابع لعلم الله عز وجل، فما علمه الله من أحوال الإنسان على وجه التفصيل، هو الذي قد جرى به القلم، وهو الذي قد تمّ تسجيله في اللوح المحفوظ، فلا يتبدل ولا يتغيّر، وهذا الذي سُطر وسُجّل هو المسمّى «بالقضاء والقدر».

ثانياً : الإنسان في جميع أقواله، وأعماله، وأفعاله، له إرادة وله اختيار، وليس عليه من أحد إكراه ولا إجبار، وبهذا الكسب والاختيار، يثاب الإنسان على فعله أو يعاقب، ومتى أكره الإنسان زالت عنه المسؤولية، وهذا ما يشهده كل مخلوق من نفسه، عندما يُقدم على عمل، يقدم عليه بإرادته واختياره، ولا يشعر بأن هناك من يُكرهه على فعله، ولهذه الحقيقة يعترف المجرمون يوم القيامة بالذنب، ويُقرون بالمسئولية ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١).

ثالثاً : الله عز وجل من رحمته بالعباد، أرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب السماوية، وأتاهم الطريق، وهبهم العقل، وترك لهم الاختيار، في سلوك طريق الخير أو الشر، وأبان لهم ذلك في كتابه العزيز فقال تقديست أسماؤه: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ. لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾^(٢) صدق الله العظيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة: «والاحتجاج بالقدر حجة داحضة باطلة، باتفاق كل ذي عقل ودين، من جميع العالمين، ولهذا لما قال المشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ ردَّ الله عليهم بقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا؟﴾ والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة باطلة، فإن

(١) سورة الملك آية رقم ١١.

(٢) سورة الروم آية رقم ٤٤ - ٤٥.

أحدّهم لو ظلّمه الآخرُ، أو أراد قتل ولده، أو الزنى بزوجته، أو أصرَّ على الظلم فهناك الناس عن ذلك، فقال: لو شاء الله لم أفعل هذا، لم يقبلوا منه هذه الحجّة، ولا يقبلها هو من غيره، وإنما يحتج بها المحتج، دفعاً للوم عن نفسه، بلا وجه مشروع^(١).

إنكار المشركين للبعث والنشور

وتمضي السورة الكريمة، وهي تحكي لنا أمراً آخر من غرائب وعجائب المشركين، فقد أنكروا البعث، واستبعدوا وقوعه، بل اعتقدوا استحالته، فحلفوا أغلظ الأيمان وأوكدها على عدم وقوعه، إذ كيف يعود الإنسان بشراً سوياً، بعد أن أصبح رفاتاً ورميماً؟ وبعد أن أكلت الأرض جسده، وأبليت عظامه؟! وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه إخباراً عنهم ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ، بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ. إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

والمعنى: حلف المشركون بالله، أغلظ أنواع الأيمان، مبالغين في التغليظ والإنكار، فقالوا: والله لا يبعث الله من يموت، استبعاداً منهم للبعث، واعتقاداً باستحالته، بعد البلى، وتفرق الأشلاء، واستحالة اللحوم والعظام إلى رفات وذرات، وقد ردَّ الله عليهم هذا الزعم الكاذب فقال: ﴿بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي بلى والله لا بدَّ من بعثهم وإعادةتهم بعد الموت، وعدَّ الله بذلك وعداً قاطعاً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون قدرة الله، فينكرون البعث والنشور، ثم ذكر تعالى الحكمة من البعث والمعاد فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ،

(١) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي بشيء من الإيجاز.

وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٥٠﴾ أي سيعيدهم أحياء بعد الموت، ليكشف لهم ضلالهم في إنكارهم للبعث، وليحقق العدل بين العباد، فيدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار، وليظهر كذب الكفار يوم الحشر والحساب، فيفتضحوا على رؤوس الأشهاد.

استبعادهم للبعث بعد الفناء

لقد كانت قضية البعث والجزاء، هي دائماً مشكلة العقيدة، عند كثير من الأقوام، منذ أن أرسل الله رسله للناس، يأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، ويخوفونهم عذاب الله، يوم البعث والحساب.

وهؤلاء المشركون من قريش، أقسموا أغلظ الأيمان، لا يبعث الله من يموت، فهم يُقِرُّون بوجود الله، ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور، يرون هذا البعث أمراً عسيراً، بل شيئاً مستحيلاً، بعد الموت والفناء، وتفرق الذرات والأشلاء! وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى.. كيف أوجد الله الإنسان من نطفة مهينة، من شيء حقير لا يذكر؟ غفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية، التي تقول للشيء كن فيكون، ولهذا جاء الرد القاطع الفاصل، من رب العزة والجلال، لهؤلاء الجاحدين الغافلين: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي لا يحتاج الأمر إلى كثير عناء، بل هو سهل هين، على الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وليس هناك مشقة في الخلق والتكوين، بل يكفي إذا أردنا شيئاً - مهما عظم وكبير - أن نقول له مرة واحدة «كن» فيوجد في الحال، على وجه التمام والكمال، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَمُرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةٍ بِالْبَصْرِ﴾^(١) والبعث شيء من هذه الأشياء، يتم

(١) سورة القمر آية رقم ٥٠.

حالما تتوجه الإرادة إليه من غير إبطاء، فما لهؤلاء المشركين ينكرون قدرة رب العالمين، وقد أوجدتهم من العدم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً!!

ثواب المهاجرين في الآخرة

وتمضي السورة الكريمة، لتذكر جزاء المؤمنين، الذين هجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله، وفراراً بدينهم من أذى المشركين، وتركوا الأولاد والأموال، رغبةً في رضى الرحمن، ليسلموا بدينهم، هؤلاء سيكون جزاؤهم عظيماً، وثوابهم كبيراً، وهو سكناهم دار النعيم، مخلّدين فيها لهم فيها ما يشتهون، من الحور والولدان، ولذائذ الطيبات في الجنان، مع الراحة والسعادة والنعيم الخالد، الذي لا ينقطع ولا يزول، بسبب إيمانهم وصبرهم، وإلى ذلك يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا، لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَلَآجِرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وكان الآيات تقول للمشركين: هؤلاء الذين ظلمتموهم وعذبتموهم في الدنيا، من أجل إيمانهم بالله، وتصديقهم بالآخرة، سترون ما سأكرمهم به من جزيل الفضل والإنعام!! فهؤلاء المؤمنون الصادقون، الذين هجروا ديارهم وأموالهم، وتعرّوا عما يملكون وما يحبون، وضحّوا بديارهم والإنس بعشيرتهم، إذا كانوا قد خسروا الديار، فد ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي فلنسكنهم خيراً مما فقدوا ﴿وَلَآجِرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ﴾ أي ثوابهم في الآخرة أعظم وأكبر، من كل ما يُتصور ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان الناس يعلمون ذلك.

قال الحافظ ابن كثير: والحسنة في الدنيا روي عن مجاهد أنها

الرزق الطيب، وقال ابن عباس: بوأهم الله المدينة المنورة، فجعلها لهم دار هجرة، قال: ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم، فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه، وكذلك حصل، فإن الله مكّن لهم في البلاد، وحكّمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكاماً، وجعلهم للمتقين إماماً.

مهمة الرسل تبليغ الدعوة

ثم عاد السياق إلى مهمة الرسل، وإلى بيان وظيفتهم الأصلية، من الدعوة إلى الله، وتبيين أحكامه وشرائعه للناس، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا، نُوحِي إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ، إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فقد أشارت الآيات الكريمة إلى ثلاثة أمور:

الأول : أن الرسل الذين بعثهم الله إلى العباد، هم من البشر لا من الملائكة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم﴾ والحكمة تقتضي أن يكونوا من البشر، حتى يمكن الأخذ عنهم.

الثاني : أن هؤلاء الرسل الكرام ليسوا من عامة الناس، بل هم من الأشراف، من أهل المدن والأمصار الكبيرة، فهم ذوو حسب وشرف، اختارهم الله لتبليغ رسالته، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي أرسلناهم بالبينات الواضحات، والحجج الساطعات، وبالكتب المتفرقة التي هي وحي السماء.

الثالث : الأمر الثالث أن مهمة الرسول هي الشرح والتوضيح لآيات الله وأحكامه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وهكذا رسالة كل رسول إنما هي التوضيح والبيان.

تحذير وإنذار للمشركين الفُجَّار

لا يزال الحديث عن المشركين المستكبرين، المتعاليين على الله وعلى رسله، وهم لا يزالون سادرين في غيهم وضلالهم، يستكبرون ويمكرون، لإطفاء نور الله، والآيات تتوعد وتندر هؤلاء الظالمين، تخوِّفهم من مكر الله، الذي لا يأمنه أحدٌ في ساعة من ليل أو نهار، وتذكِّرهم بشديد عقابه، أن ينزل بهم، وهم غافلون لا يدرون من أين أتاهم، والله الحليم الرحيم، يمهلهم، لعلهم يراعون عن غيِّهم وضلالهم، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿أَفَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ، أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ، فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

والمعنى: هل أمن هؤلاء الكفار، الذين مكروا برسول الله، واحتالوا لقتله في دار الندوة، وسعوا لإيذائه وإيذاء أصحابه، بطرقٍ من المكر والاحتيال، هل آمنوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون؟ أو أن يأتيهم العذاب فجأة، في حال أمنهم واستقرارهم، من حيث لا يخطر ببالهم، ومن حيث لا يدرون ولا يعلمون؟ ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي يهلكهم أثناء أسفارهم

للتجارة، واشتغالهم بالبيع والشراء، فإنهم لا يعجزون الله، سواء كانوا في سفر أو حضر ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي يهلكهم حال كونهم خائفين، مترقبين لنزول العذاب، وذلك شديد على النفس، ثم بين تعالى رأفته ورحمته بالعباد، وأنه لا يعاجلهم بالعقوبة مع استحقاقهم لها فقال: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن سبب حلمه عن أولئك الظالمين، رحمته ورأفته بالعباد.

ما معنى المكر من الله عز وجل؟

والمكر في اللغة: هو السعي بالفساد على سبيل الإخفاء، وهو من العباد قبيح، لأنه إيذاء وإضرار، ومن الله حسن لأنه جزاء على العدوان ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ ولا يوصف الله بالمكر، إلا على سبيل المقابلة والجزاء، كما قال سبحانه: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١) أي جازاهم على مكرهم، بأن أحبط سعيهم، ورد كيدهم في نحورهم، وهذا الفعل غير قبيح.

وقد ذكر تعالى في تهديد هؤلاء الماكرين بالرسول والمؤمنين أموراً

أربعة:

الأول : خسف الأرض بهم، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ .
 الثاني : مجيء العذاب عليهم من السماء فجأة، كما فعل بقوم لوط، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٤.

الثالث : إهلاكهم أثناء أسفارهم للتجارة، بعيدين عن الأهل والوطن،
وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ
بِمُعْجِزِينَ﴾ .

الرابع : أن يهلكهم فرقة بعد فرقة، وجماعة بعد جماعة، وإليه
الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي
تنقص، وقال بعض المفسرين: التخوُّفُ هنا: يُراد به
الخوفُ، أي يأخذهم حال كونهم خائفين، مترقبين لنزول
العذاب، وهذا شديد على النفس.

عجائب الكون

وبعد هذا البيان عن طغيان الإنسان وجبروته، وتوَعَّدِ اللهُ بالعذاب
الشديد للمستكبرين المفسدين، يأتي الحديث عن الكون وما فيه من
مخلوقات وجمادات، وحيوانات ونباتات، وشموس وكواكب، وملائكة
وعوالم، الكلُّ قد خضع لجلال الله، وسَبَّحَ بحمده، وسجد لعظمته
وسلطانه، سوى هذا الإنسان الكافر، فإنه وحده هو الذي تكبَّرَ على
ربه، واستنكف عن عبادته وطاعته، والكل من حوله خاضع ساجد لله
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ، يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ
وَالشَّمَالِ، سُجَّدًا لِلَّهِ، وَهُمْ دَاخِرُونَ. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ، وَالْمَلَائِكَةُ، وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. يَخَافُونَ رَبَّهُمْ
مِنْ فَوْقِهِمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ .

هكذا يصور القرآن الكريم الكون العظيم، الذي يوحي بالإيمان
والخشوع، ويرسم المخلوقات خاضعة خاشعة طائعة، ويضم إليها ما
في السموات وما في الأرض من دابة، ويضيف إلى ذلك الحشد الكوني

الملائكة، فإذا بنا أمام مشهد عجيب من المخلوقات، والظلال، والدواب، ومعهم الملائكة، في مقام خشوع وخضوع، وعبادة وسجود، لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يستنكفون، ولا يتعالى على ربه إلا هذا الإنسان الجاحد الكافر، هو وحده الشاذ في هذا المقام العجيب.

إفراد الله بالعبادة والتعظيم

وتمضي السورة الكريمة، تأمر العباد بالعودة إلى الله، وترك عبادة ما لا ينفع ولا يضر، من بشر أو حجر أو شجر، وتقرر وحدة الإله، ووحدة الخالق، ووحدة المنعم، فالله وحده هو الخالق، وهو الرازق، والبشر - فضلاً عن الحجر - لا يملكون من أمر الخلق، والرزق شيئاً، بل إن الإنسان ليفزع إلى ربه وقت الشدة، وينسى ما كان يعبد من دون الله، فلا يليق إذاً بالعبد، أن يتوجه بقلبه ومشاعره، إلى غير الخالق المنعم المتفضل، الذي خضع لعظمته كل ما في الكون، وعنت له الوجوه، وذلت له الرقاب، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ. وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ؟ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ. ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ، إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ، فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ أي له جلّ وعلا العبادة والطاعة والانقياد، تاماً واجباً ثابتاً، لأنه هو الإله الحق، الذي يجب أن تكون له الطاعة خالصة، ولهذا قال بعده: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي: أغير هذا الإله القدير تخافون وتحذرون، ولا نفع ولا ضرراً إلا بيده؟ فالإله الذي

ينبغي أن يُعبد، هو الذي يملك النفع والضرر، ويده الغنى والفقر، ومنه يكون الإحياء والإفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي إذا أصابتكم شدة ومصيبة، من فقر ومرض وبأساء، فإليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي وإذا استجاب الدعاء، ورفع عنكم البلاء، عاد فريق منكم إلى الكفر والإشراك، وهكذا طبيعة البشر، يدعون ربهم في البلاء، وينسونه وقت الرخاء، وقد جاء الوعيد والتهديد فقال سبحانه: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي ليجحداوا نعمته تعالى من كشف الضر والبلاء، وليتمتعوا بدار الفناء، فسوف يعلمون عاقبة ذلك العمل الشنيع!!

من سفاهات أهل الجاهلية

وتنتقل الآيات لتذكر لنا طرفاً من أفعال أهل الجاهلية، فقد كانوا يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام، لا يركبونها ولا يذوقون لحومها، باسم الآلهة المزعومة التي سيئوها لهم، كما كانوا يتركون نصيباً من الزروع والأنعام تقرباً إليها، والله هو الذي رزقهم هذه النعم، وليست هي من رزق الآلهة المزعومة ليردوها عليها، إنما هي من رزق الله، الذي يدعوهم إلى توحيد، فيشركون به سواه ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ، تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي ويجعلون للأصنام التي لا يعلمون ربوبيتها، والتي لا علم لها، لأنها جمادات، نصيباً من الزروع والثمار والأنعام، وقد أقسم تعالى بأنهم سيسألون عن هذا الافتراء والكذب يوم القيامة فقال ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ وهو سؤال توبيخ وتقريع.

وهكذا تبدو المفارقة العجيبة، بين تصوراتهم وتصرفاتهم في تلك

الأمر، الرزق كله من الله، والله عز وجل يأمرهم ألا يعبدوا سواه، وهم يخالفون أمره فيتخذون الأصنام آلهة، ويأخذون من رزقه، فيجعلونه فيما نهاهم عنه، وهكذا تتعارض وتتناقض أفعالهم وتصرفاتهم!!

كراهيتهم للبنات ونسبتهن إلى الله عز وجل

وهناك ما هو أعجب وأغرب في أعمال المشركين وتصرفاتهم، فقد كانوا يكرهون البنات كراهية شديدة، حتى ليستحي الواحد منهم أن يظهر أمام الناس، إذا ما وُلدت له أنثى، من شؤمها ونظرتهم الوضيعة لها، كأنما هي وصمة عار، ينبغي التخلص منها بأية حال، وهذا ما سؤل لهم وأد البنات - أي دفنهن وهنَّ أحياء - ومع هذا فقد نسبوا لله البنات، فقالوا: الملائكة بناتُ الله، وهذا هو منتهى العسف والظلم والجور، إذ كيف يجعلون لله ما يكرهونه؟ وينسبون إليه ما يستحيون منه؟ ولنستمع إلى هذه الآيات البينات، وهي تحكي لنا هذه العجائب والغرائب، من أخبار أجدادنا العرب، في تناقضهم وتصورهم الجاهلي، ونظرتهم الوضيعة نحو البنات: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ - سُبْحَانَهُ - وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ. وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا، وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهَا عَلَىٰ هُونٍ، أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ومعنى الآيات الكريمة: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ أي ومن جهل هؤلاء المشركين وسفاهتهم، أن جعلوا الملائكة بناتِ الله، فنسبوا إلى الله البنات ولهم البنين، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزهه الله وتعظم عن هذا الإفك والبهتان، وهي جملة اعتراضية للردِّ عليهم، ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين، وهذا حيفٌ في القسمة وظلم وعدوان، إذ كيف يجعلون لأنفسهم البنين ولله

البنات؟ ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي وإذا بُشِّرَ أحد هؤلاء الجاهليين، بولادة بنتٍ أنثى، صار وجهه مكتئباً من الهمِّ والحزن، كأنه أسود البشرة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي مملوء غيظاً وغمماً من شدة ما هو فيه من الحزن ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي يختفي من عشيرته وقومه، خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت، كأنها مصيبة وبليّة، وليست هبةً إلهية، ثم يفكر ما يفعله ﴿أَيْمَسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أيمسك هذا المخلوق وهو البنت، على الذل والهوان، لا يورثها، ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها؟ ﴿أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ﴾ أي أم يدفنها حيّة في التراب ليتخلص من شؤمها وعارها؟ أقمّن يكرهونه هذه الكراهية، ويأنفون لأنفسهم عنه، يجعلونه لله؟ ما أقبح هذه القسمة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس ما صنعوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوه إليه، حيث جعلوا لخالقهم البنات - وهي عندهم بهذه المهانة والحقارة - وأضافوا إليهم البنين!!

الأنثى نعمة وليست نقمة

هذه هي نظرة أهل الجاهلية، إلى هذه النعمة المهداة لهم من العلي الكبير، وهذه النظرة الجاهلية لا تزال بعض آثارها إلى زماننا اليوم، إذ ينظر بعض الآباء الجهلاء، إلى البنت على أنها بليّة، وليست عطية، وهي النظرة التي صورتها لنا إحدى النساء المفجوعات، حين هجر زوجها البيت، وترك الزوجة والأولاد، لمجرد أن زوجته ولدت له أنثى فأنشدت تقول:

مَا لِأَبِي حَمَزَةَ لَا يَأْتِينَا يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
عَضْبَانَ أَنْ لَا نَلِدَ الْبَنِينَ حِكْمَةُ رَبِّي ذِي الْجَلَالِ فِينَا
وَإِنَّمَا نُعْطِي الَّذِي أُعْطِينَا

ولو عقل هذا الأب الجاهل، لعاد باللائمة على نفسه، قبل أن يعود باللوم على زوجته، فهو الذي وضع البذرة في رحم المرأة، وهو الذي ألقى إليها هذه النطفة، ألقاها إليها أنثى، فوضعت له أنثى، ولو ألقاها إليها ذكراً، ولولدت له ذكراً، هذا إذا كان سيحاكم بمنطق العقل، فمن بذر في الأرض قمحاً، لا يخرج له شعير، ومن وضع نواة النخيل، لا يخرج له قصب السكر، فكما يزرع الزارع يخرج الزرع، وإذا كان يريد معرفة الحقيقة، على الوجه الشرعي، الصحيح السوي، فالأمر أمر الله، والمشئة مشيئته، هو الذي يهب الذكور والإناث، ويعطي الزوجين ما شاء هو تعالى، لا ما شاء الأبوان، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (١) هذه هي الحقيقة يجليها لنا القرآن، بأوضح عبارة، وأجمل بيان، ولا لوم على أحدٍ من الزوجين.

يقول شهيد الإسلام سيد قطب رحمه الله في كتابه «في ظلال القرآن»:

«والأنثى هبة الله للرجل كالذكر، وما يملك أحدٌ أن يصور في الرحم أنثى ولا ذكراً، وما يملك أن ينفخ فيه حياة، وما يملك أن يجعل من النطفة الساذجة إنساناً سوياً، وإن مجرد تطور النطفة من علقية إلى بشر، ليكفي لاستقبال المولود - أياً كان جنسه - بالفرح والترحيب وحسن الاستقبال، لأنها معجزة الله تتكرر، فكيف يغتم من يُبشِّرُ بالأنثى، ويتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به؟ وهو لم يَخْلُقْ ولم يصور، إنما كان مظهر القدرة في حدوث المعجزة الباهرة؟ وهنا تتجلى النظرة

(١) سورة الشورى آية رقم ٤٩ - ٥٠.

الكريمة التي بثها الإسلام في النفوس والمجتمعات تجاه المرأة، بل تجاه الإنسانية، فما كانت المرأة هي المغبونة وحدها في المجتمع الجاهلي، إنما كانت الإنسانية هي المغبونة والمظلومة «الأنثى نفس إنسانية، إهانتها إهانة للعنصر الإنساني، ووأدها قتل للنفس البشرية، وإهدار لشطر الحياة، مصادمةً لحكمة الخلق الأصيلية، التي اقتضت أن يكون الأحياء جميعاً من ذكر وأنثى».

حلم الله على العباد

وبعد هذا البيان المستفيض عن قبائح أهل الجاهلية، يأتي الحديث فائضاً بالرحمة موضحاً حلم الله على عباده، يشدُّ المؤمن نحو ربه، فمع طغيان المشركين، وعتوهم وتمردهم على أوامر الله، وإشراكهم معه من لا يضرُّ ولا ينفع، من أوثان وأصنام، فإن الله تعالى لم يُعجِّل لهم العقوبة، بل أمهلهم وأخرهم حلماً منه تعالى، لعلهم يرجعون إلى رشدهم، فيتوبون من الكفر، ويكفون عن المعاصي، ولو آخذهم بما يعملون لأهلك أهل الأرض جميعاً، ولكنه تعالى حلِيم تواب، يغفر الذنب ويقبل التوب، وهو الرحيم الودود، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ، مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي ما ترك على الأرض أحداً يذبُّ على ظهرها من إنسان وحيوان ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أما الأجل الذي حدَّده الله، فهو أجل انتهاء الأعمار، أو أجل الهلاك والدمار، كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا، وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾^(١) ومعنى قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ

(١) سورة الكهف آية رقم ٥٩.

أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴿ أي لا يتأخرون برهة يسيرة من الزمن ولا يتقدمون عليها.

والآية الكريمة بيان لحلم الله تعالى، ورأفته ورحمته بالعباد، فهو الذي خلقهم ورزقهم، وأنعم عليهم بأنواع النعم، والبشر هم وحدهم الذين يفسدون في الأرض ويظلمون، وينحرفون عن الله ويشركون، ويظغى بعضهم على بعض، ويؤذون غيرهم من مخلوقات الله، والله تبارك وتعالى يحلم على هذا الإنسان ويرأف به، ويُمهله ولكن لا يُمهله، فهي الحكمة تصاحبها القوة، والرحمة يصاحبها العدل، حتى إذا زاد الطغيان، وفسد الإنسان، دَمَّرهم الله عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

الرسول موضح للقرآن ومفصل

وتنتقل الآيات بعد ذلك، لتبين مهمة الرسول الذي بعثه الله رحمةً للعالمين، وأنزل عليه الكتاب المبين، هدى وضياءً للمتقين، فقد ختم الله رسالات السماء ببعثة سيد الأنبياء ﷺ، كما ختم الكتب السماوية بالقرآن العظيم، الذي فيه الهدى والشفاء، والنور والضياء، ولكنَّ الناس لم يعرفوا قدر هذه النعمة فكذب بعضهم القرآن، وجحد وحدانية الرحمن، فصار بينهم الاختلاف والنزاع، كما اختلف من سبقهم من الأمم، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

والمراد بالكتاب القرآن العظيم، معجزة محمد الخالدة، وحثته الباقية إلى قيام الساعة، والرسول ﷺ موضح ومبين لما في هذا القرآن، ومن الناس من اهتدى به ومنهم من ضلَّ، فهو رحمة لقوم وشقاوة على آخرين كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً، وَالَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى، أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ
بَعِيدٍ ﴿١﴾ ولهذا قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَهُدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ﴾.

الاستدلال على وحدانية الله بنزول المطر

ثم تلتها الآيات الكريمة، وهي تفصّل وتوضّح، دلائل قدرته
تعالى ووحدانيته، وتذكر البرهان بعد البرهان، والدليل بعد الدليل، على
تفردته تعالى بالخلق والتدبير، وكل هذه الدلائل التي ذكرها القرآن عظامٌ
وعِبرٌ، تغذي القلب بالإيمان، والعقل بالعرفان، وبعد أن ذكر تعالى
في الآية السابقة، إنزال الكتاب المبين، وفيه حياة الروح، أتبعه بإنزال
الماء من السماء، وفيه حياة الأجسام، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَاللَّهُ
أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ﴾ فكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة، كذلك أحيا
الأرض الميتة، بإنزال الماء عليها من السماء، بعد طول اليأس والجذب
ولما كان نزول المطر في غاية الظهور، وحياة الأرض بالمطر مشاهدة لا
يخالف فيها عاقل، فبينما هي هامدة جرداء، إذ هي منبتة خضراء، تهتئ
بالنبات، لم يحتج الأمر إلى التفكير، ولا إلى نظر الفكر والقلب، بل
يكفي الإنسان أن يُنبه تنبيهاً خفيفاً إليها، وأن يسمع القول فقط ليرى أثر
العبرة، لذلك ختم الله الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ﴾.

الاستدلال بخروج اللبن من الأنعام

ثم ذكر تعالى دليلاً آخر، من عجائب أحوال الحيوانات، التي

(١) سورة فصلت آية رقم ٤٤.

خلقها الله لنا للأكل والمركب، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ. وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والأنعام هي الأصناف الأربعة، وهي «الإبل، والبقر، والغنم، والمعز» والعبارة فيها باهرة، تشير إلى عجيب صنع الخالق، وتدل على عظمة الإله القدير، بهذا الصنع العجيب، فهذا اللبن الذي تدره الأنعام، كيف وجد؟ وكيف تكون؟

إن الحيوان إذا تناول الغذاء، وصل ذلك العلف إلى معدته وكرشه، وهناك تكون عملية الهضم الأولى، فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ما يحصل منه في الكبد يتفاعل فيه فيصير دماً، ويكون ذلك الدم مخلوطاً بالصفراء والسوداء، وزيادة الماء، أما الصفراء فتذهب إلى المرارة، والسوداء إلى الطحال، والماء إلى الكلية ومنها إلى المثانة فيخرج منه البول، وهذا هو الهضم الثاني، وأما ذلك الدم فإنه يدخل في الأوردة، وهي العروق النابتة من الكبد، وهناك يكون الهضم الأخير، وبين الكبد والضرع - ثدي الحيوان - عروق كثيرة، فينصبُّ الدم في تلك العروق إلى الثدي، وهو لحم غددي رخو، فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه في الثدي إلى لبن أبيض، سائغ الشراب، لذيد الطعم، فسبحان الله ما أعظم قدرته، وألطف حكمته لمن تأمل وتفكر!! ولهذا ختم الله الآيات بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ذلك لأن الأمر يحتاج إلى تفكير وتدبر، وإشغال للعقل، فاللبن مستخلص من بين فرثٍ ودم، والفرث ما يتبقى في الكرش بعد الهضم، ثم يخرج بعد ذلك فضلات، والدم يذهب إلى كل خلية في الجسم، فإذا صار إلى غدد اللبن في الضرع، تحول إلى

لبن صَافٍ، ببدیع صنع الله العجيب، هذا ما يذكره علماء الطب، فهل كان محمد ﷺ يعلم هذه الحقائق الدقيقة التي ما عرفها الناس إلا منذ زمن قريب، وهو نبيُّ أميٍّ لم يقرأ ولم يكتب؟ وصدق الله العظيم ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾.

عجائب قدرة الله في خلقه

وتمضي السورة الكريمة وهي تذكر عجائب قدرة الله جل وعلا، فيما خلق وأبدع، في هذه الحشرة الصغيرة التي تسمى «النحلة» فإنها آية الآيات، وعجبية العجائب، فإن النحل تعمل بإلهامٍ من الفطرة التي أودعها إياها الخالق العظيم، وهي تعمل بدقة عجيبة، يعجز عن مثلها العقل البشري المفكّر، سواءً في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في تنظيم شئونها الداخلية، أو في طريقة إفرازها لذلك العسل المصفى، الذي فيه شفاء للناس، وهي تتخذ بيوتها في الجبال، والشجر، والأكوار التي بينها لها الناس، وقد ذلّل الله لها سُبُل الحياة، بما أودع في فطرتها من العمل الدقيق، فهي تأكل من الأزهار ما يلدُّ لها ثم تصنع منه الشمع والعسل، وترجع إلى أكوارها بعد أن تقطع مسافات شاسعة، في البراري والأودية والجبال، دون أن تخطيء طريقها.

وقد ذكر تعالى في هذه السورة هذه العجائب، ليتفطن الإنسان إلى قدرته جل وعلا وعجيب صنعه، في هذا الحيوان الضعيف، الذي لو اجتمع مهندسو العالم لخارت أفكارهم في بناء تلك البيوت الهندسية بتلك الدقة العجيبة، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا، وَمِنَ الشَّجَرِ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا، يَخْرُجُ

مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢٥﴾.

والمراد بالوحي هنا: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴿١٢٥﴾ الْإِلَهَامَ،
والهداية، والإرشاد، أي ألهمها وأرشدتها إلى مصالحتها، وإلى طريقة
صنع العسل، فهو تبارك وتعالى الذي ألهمها في فطرتها وأرشدتها إلى
ذلك العمل الجليل، الذي يعجز عنه عباقرة العالم، فإن طريقة بناء
بيوتها المسدسة التي تضع فيها العسل، تكاد تكون من العجائب
الغريبة، إذ كيف نظمت هذه البيوت، وكيف رتبت العمل بينها؟ هذه
للبناء، وتلك للتهوية، وأخرى لامتناع رحيق الأزهار، وهناك جنود
وحرس، للحماية والدفاع، وكأننا في ثكنة عسكرية، كل جندي فيها له
عملٌ مخصوص، وقد جعل الله بيوت النحل في هذه المواطن الثلاثة:
إما في الجبال وكواها، وإما في متجوف الأشجار، وإما فيما يعرش لها
الناس وبينون، وهي الكوى والأكوار من الطين وغيره وإليه الإشارة بقوله
تعالى: ﴿أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا، وَمِنَ الشَّجَرِ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾.

وكما ألهمها الباري جل وعلا صنع تلك البيوت، ألهمها كذلك
صنع العسل، فسخر لها الأشجار والأزهار، تأكل منها ما يلد لها
وتستهيه، وبين هذه الأزهار والثمار، حلو، ومر، وحامض، فإذا جنته
وابتلعته أحاله الله بقدرته، إلى عسلٍ لذيذ الطعم، حلو المذاق، شهي
المنظر، فيه شفاء للناس ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ
ذُلًّا﴾ أي ادخلي الطرق في طلب المرعى، مسخرة مذلة لك لا تضلين
في الذهاب أو الإياب، ثم قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي يخرج من بطون هذه النحل، أنواع
من العسل، ما بين أبيض، وأصفر، وأحمر، وغير ذلك من الألوان

الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكلها، وفي هذا العسل دواءً لكثير من الأمراض، كما أثبت الطب الحديث ذلك، فإن العسل غذاء وعلاج، وفيه شفاء من بعض الأمراض، قال بعض العلماء: لو قال: فيه الشفاء للناس لكان دواءً لكل داء، ولكنه تعالى قال بصيغة التنكير: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي يشفي بعض الناس على حال دون حال، كما يشفي غيره من الأدوية في بعض الحالات، فالإنسان يأكله كغذاء، ولكنه في الوقت نفسه دواء مع الغذاء، وقد لا يشعر الإنسان كيف شفي من علته إذا كان يتناول العسل، ولمَّا كثر الشفاء به، صار خليطاً ومعيناً للأدوية والمعاجن، وكثيراً ما ينصح الأطباء مرضاهم بتناول العسل، والمؤمن يزيد إيمانه عندما يرى الطب الحديث، جاء مؤيداً ومؤكداً لما أخبر عنه القرآن، قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وهو ليس بحاجة إلى هذا التأييد، فعنده من قوة اليقين ما يُغنيه عن قول الأطباء، ولكنه الشهادة الصادقة من غير المسلمين، بصدق هذا الوحي الذي جاء به خاتم المرسلين ﷺ، ولو جاء الأمر على خلاف ما أخبر عنه القرآن، لكان هناك مجال للشك أو الريب من ضعف الإيمان.

قصة الأعرابي مع الرسول ﷺ

ولنستمع إلى هذه الحادثة العجيبة، التي رواها لنا الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما، وهي حادثة تدعو إلى الدهشة والاستغراب، إذ يصف الرسول ﷺ علاجاً ودواءً لمريض، لا يناسبه ذلك الدواء - حسب الظاهر - ولكنه في الحقيقة، هو البلسم الشافي لذلك المرض، فقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إن أخي استطلق بطنه - أي أصيب بمرض الإسهال - فقال له الرسول الكريم: «اسقه عسلاً» فسقاه عسلاً،

ثم جاء فقال يا رسول الله: سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً - أي زاد معه الإسهال - قال: اذهب فاسقه عسلاً، فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال يا رسول الله: ما زاده ذلك إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ في المرة الثالثة: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً، فسقاه عسلاً فبريء» أخرجہ الشيخان .

والرَّوْعَةُ في هذا الحديث الشريف، يقينُ الرسول ﷺ أمام ما يبدو حقيقةً واقعيةً، من زيادة استطلاق بطن الرجل، وزيادة مرض الإسهال معه كلما سقاه عسلاً، فالواقع يخالف الخبر في الظاهر، وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له في النهاية، وبشفاء الرجل بعد المرة الثالثة، وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية، وبكل حقيقة وردت في كتاب الله الجليل، مهما بدا في ظاهر الأمر مخالفةً الواقع لها، فهي أصدق من ذلك الواقع الظاهري، لأنها خبر العليم الخبير.

قال العلماء: كان هذا الرجل عنده فضلات وأخلاط في بطنه، فلما سقاه عسلاً - والعسل حار - تحللت فأسرعت في الاندفاع، فزاده ذلك إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا العلاج يضره، فعاد إلى الرسول يخبره بما حدث، فأمره مرة ثانية أن يسقيه عسلاً، فلما سقاه ازداد بطنه اندفاعاً واستطلاقاً، لازدياد التحليل والدفع، فجاء مرتعداً يرتجف يخشى على أخيه من الموت، فقال له في المرة الثالثة: اسقه عسلاً، صدق الله وكذب بطن أخيك، فلما سقاه اندفعت الفضلات الفاسدة، المضرة بالبدن، وحينئذ استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام، ببركة إشارته عليه أفضل الصلاة والسلام، وهذا كله تصديق لخبر القرآن ﴿فِيهِ شَفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ اللهم ارزقنا الإيمان واليقين، واشفنا بشفائك، وداونا بدوائك واجعلنا من عبادك الصالحين يا أرحم الراحمين .

عجائب وأطوار خلق الإنسان

وتمضي الآيات الكريمة - بعد ذكر عجائب أحوال الحيوانات - إلى ذكر عجائب أحوال البشر، فتذكر طفولة الإنسان، وشبابه، ثم شيخوخته وهرمه، فكما خلق ضعيفاً في سمعه، وبصره، وقوته، لا يملك أن يدفع عن نفسه، لضعف بنيته، وسذاجة عقله، كذلك يرتد إلى مثل الطفولة، من العجز والنسيان، وضعف العقل والتفكير، وهذا من دلائل الخلق والتكوين، فإن الإنسان عاجزٌ أمام قدرة الله، فكيف يتكبر على ربه؟ ويستنكف عن عبادة خالقه؟ وهو المخلوق من نطفة من ماء مهين؟ وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ، لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى الذي خلقكم من العدم، ثم يتوفاكم عند انتهاء الأجل، ومنكم من يعود إلى الخرف والهزم، حتى ينسى ما كان يعلم، ويصبح كالطفل في نقص القوة والعقل، وهو تعالى العالم بتدبير الخلق، القادر على ما يشاء، فكما قدر على توهين قوى الإنسان، بعد الشدة والصلابة، فإنه قادرٌ على إحيائه بعد الموت، وإعادته إلى الحياة مرةً أخرى.

والمراد بأردل العمر في الآية الكريمة: الهرم، والشيخوخة، وما يرافقه من ضعف القوة، والخرف، وسوء الحفظ، وقلة الفهم، حتى

يصبح كالطفل الصغير، لا يعي خيره ومصلحته، وهذا موضع اعتبار، لذلك الإنسان الجبار، الذي يغتر بملكته العقلية وقوته البدنية، فكأن الآية تقول: أنت يا ابن آدم ضعيف من البداية إلى النهاية، فكيف تتعالى على ربك، وتنكر قدرته عليك؟! ولهذا كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الهرم، والرد إلى أرذل العمر، وكان يدعو بهذا الدعاء «أعوذ بك من البخل، والكسل، والهرم، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات»^(١).

قال عكرمة رضي الله عنه: «من قرأ القرآن فاستظهره لم يُرَدَّ إلى أرذل العمر»^(٢).

تصريف الله لشئون الخلق

وتمضي السورة الكريمة وهي تطالعنا بظاهرة واقعية، من صميم واقع الحياة، فالذي قدّر الأعمار، هو سبحانه الذي قَسَمَ الأرزاق، وحدد لها لعباده، فهذا غنيٌّ وذاك فقير، وهذا مالك وذاك مملوك، ولا دخل للعقل والنبوغ في مسألة الرزق، فإننا نجد أجهل الخلق، وأقلهم عقلاً وفهماً، تفتح عليه أبواب الدنيا، ويُغدق الله عليه الرزق، ونرى أعقل الناس وأكثرهم نبوغاً وذكاءً، فقير ذات اليد، لا يملك من حطام الدنيا إلا الشيء القليل، الذي لا يكاد يفي بحاجته، ولو كان أمر الغنى بسبب جهد الإنسان وعقله، لوجب أن يكون الأذكي والأعقل، هو الأغنى والأفضل، ولكنها قسمة الرزاق، الذي قسم الأرزاق، فأغنى وأفقر، ولله درُّ الإمام الشافعي حيث يقول:

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ ٣٨٨/٨ فتح الباري.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٤/٤٦٨.

ومن الدليل على القضاء وحكمه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ولنستمع إلى الآيات البيّنات، وهي تبين لنا تصريف الإله لشئون الخلق، بما فيه العظة والاعتبار، والحكمة والمصلحة، في التفاوت في الأرزاق بين أفراد البشر، حيث قال تقدست أسماؤه: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؟

والغرض من الآية شيان:

الأول : بيان أن الرزق قسمة من الرزاق، فاوت فيه بين العباد، لتتحقق حاجات الناس ومنافعهم، ويكون بعضهم مسخرين لبعض، يقوم كل إنسان بعملٍ يخدم فيه غيره، ولو كان الناس كلهم أغنياء، لفسد نظام الحياة، وتعطلت المصالح البشرية، فمن الذي يزرع، ويبنى، ويقوم باستخراج النحاس والحديد من المناجم؟ ومن الذي ينظف المجاري، ويكنس الطرقات، ويقطع الصخور من الجبال، لولا حاجته إلى المال؟ وإلى هذه الحكمة تشير الآية الكريمة في سورة الزخرف: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾^(١) أي ليكون بعضهم مسخراً لخدمة البعض، لتنظم شئون الحياة، فهو من التسخير بمعنى الاستخدام، لا من السخرية بمعنى الاستهزاء!!

(١) سورة الزخرف آية رقم ٣٢.

الثاني : الإنكار على المشركين، فيما زعموه من الشركاء لله رب العالمين، وهم يعترفون أنهم عبيدٌ له، يقول تعالى لهم: أنتم لا ترضون أن تساوا عبيدكم معكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى تعالى بمساواة عبيدٍ له، ومشاركتهم له في الألوهية والتعظيم؟ قال ابن عباس: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم معهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟ وكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿أَفَنِعْمَةَ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؟ أي أيشركون معه غيره وهو المنعم المتفضل عليهم؟

وقال قتادة: هذا مثلُ ضربه الله، يقول: هل منكم من أحدٍ يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه؟ فكيف تعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإذا لم ترضوا لأنفسكم هذا، فالله أحقُّ أن يُنزّه منكم.

نعمة البنين والأحفاد

ثم ذكَّره تعالى بنعمة الذرية والبنين، والزوجات والأولاد، والأصهار والأحفاد، فقال تقديست أسماؤه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾؟

ونعمة البنين والأولاد، لا تقلُّ عن نعمة المال، بل تفوقها جمالاً وقدراً، فالإنسان يفتدي ولده بماله، وهو يدخر أبناءه لشيخوخته، ولو خير بين ذهاب ماله أو ذهاب أبنائه، لاختار ذهاب المال من غير تردُّد، ولهذا ذكَّره تعالى بهذه النعمة، وقدَّم ذكر الزوجات لأنهن الأصل في وجود

النسل، وهنَّ سَكَنُ للرجل، ومن هنا تبدأ الصلة الحيَّة بين الجنسين ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي خلقهن من جنسكم وأصلكم، ليحصل الائتلاف والمودة والرحمة بينكم ثم قال: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ أي جعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد والأحفاد، والأحفاد هم أولاد البنين والبنات، سموا حفدة لأنهم يسارعون في خدمة أجدادهم وطاعتهم، وفي هذه اللمسة الكريمة إثارة للشعور بمقدار هذه النعمة الجليلة، فالإنسان الفاني يشعر بالراحة والامتداد في الأبناء والأحفاد، وكأنه لم تنطفئ شعلته، بل هي مستمرة باستمرار ذريته ونسله، ثم أتبع هذه النعم بنعمة الإحسان والفضل والرزق فقال: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي رزقكم من أنواع اللذائذ، من الحبوب والفواكه والثمار، ما يكون لكم عوناً على هذه الحياة، ثم ختم الآية بسؤالٍ فيه إنكار وتوبيخ فقال تقدست أسماؤه: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ؟ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾؟ ألا ما أشدَّ جحودَ الإنسانِ لِنِعْمِ الرَّحْمَنِ!!

عبادة المشركين للأحجار واستنكافهم عن عبادة القهار

وبعد هذا البيان المستفيض، حول نعم الله التي لا تحصى على عباده، وما غمرهم به من واسع فضله وإحسانه، حيث أغدق عليهم الخيرات، ورزقهم البنين والبنات، وأنبت لهم الزرع، وأخرج لهم الضرع، وهياً لهم كل ما يحتاجون إليه على سطح هذا الكوكب الأرضي، ومع هذا عبدوا غيره، وجحدوا فضل الله، وجعلوا له من خلقه شركاء معه، وذلك هو منتهى السّفه وسوء التفكير، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه مزرياً بهم وموبخاً: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ. فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ

الأمثال، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿﴾ إنه لعجيب حقاً أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد، فيعبد الإنسان جماداً، أو كوكباً وشمساً، أو حجارة صماء، لا تسمع الدعاء والنداء، ثم يطلب منها العون والرزق، وهي عاجزة عن ذلك لنفسها، فضلاً عن غيرها، ويترك الله الخالق الرازق، المالك لجميع الموجودات، فلا يتوجه إليه بدعاء أو عبادة!!

وهل يُقصد المخلوق الضعيف، ويُترك الخالق القادر؟ ولهذا جاء التعبير فيه توبيخ واستنكار ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يعبدون ما لا يقدر على إنزال مطر، ولا على إخراج شيء من النبات والثمر، ثم قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي وليس بمقدورهم ذلك بحالٍ من الأحوال، حتى ولو أرادوا ذلك، فكيف وهم لا يسمعون ولا يبصرون؟ ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي لا تُمثّلوا لله الأمثال، ولا تشبّهوا له الأشباه والنظائر، فإن الله تعالى لا مثل له، ولا شبيهه، ولا نظير، ولا يمكن أن يتساوى الصنم العاجز مع الإله القدير، ولهذا ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي هو العالم بكل الخفيات، وأنتم لا تعلمون عظمة الإله الخالق.

مثان في بطلان عبادة الأوثان

وبعد أن ذكر تعالى سفاهة المشركين، في عبادتهم لغير الله القوي الكبير، أعقبه بذكر مثلين، للسيد المالك الرازق، وللملوك العاجز، الذي لا يملك ولا يكسب، بغرض التوضيح لبطلان عبادة الأوثان، التي لا تضر ولا تنفع، ولا تستجيب ولا تسمع.

أما المثل الأول فمأخوذ من واقع الحياة، فقد كان لهم عبيدٌ

مملوكون، لا يملكون شيئاً ولا يقدرّون على شيء، وهم لا يُسَوُّون بين السيد المالك، والعبد المملوك، فكيف يُسَوُّون بين سيد العباد، ربّ الأرباب، وبين هذه الآلهة المزعومة؟ وإلى هذا يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا، لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا، هَلْ يَسْتَوُونَ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

توضيح المثل الأول

والمعنى: مثل هؤلاء في إشراكهم، كمثل من سوى بين عبد مملوك، عاجزٍ عن التصرف، وبين سيّدٍ حرٍّ مالك، يفعل ما يشاء لا سلطان لأحدٍ عليه، فإذا كان هذا لا يليق، مع أنهما متساويان في البشرية، فما الظنُّ برب العالمين، حيث يشركون به أعجز المخلوقات وهي الأصنام؟ وقوله جل ثناؤه: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾؟ أي هل يستوي العبيد والأحرار، الذين ضُربَ لكم بهما المثل؟ فالأوثان كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والله هو العليُّ الكبير، المالك المتصرف في الكون، وهو على كل شيء قدير، فهل بينهما مقارنة أو موازنة؟

توضيح المثل الثاني

وأما المثل الثاني فهو يصوّر الرجل الأبكم، الضعيف البليد، الذي لا يدري شيئاً ولا يعود بخير، مع الرجل القوي القادر، المتكلم الأمر، الداعي إلى الخير، وهو على هدى واستقامة من أمره، فإذا كان العاقل لا يسوي بين هذا وذاك، فكيف تمكن التسوية بين العلي الكبير، والصنم الحقيق، وإلى هذا المثل يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ، لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كُلُّ عَلَى

مَوْلَاهُ، أَيْنَمَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؟ وإنه حقاً لمثل واضح في بيانه، ساطع في حجته وبرهانه، كأنه يقول: هل يتساوى هذا الأخرس الصامت، مع ذلك الرجل البليغ، المتكلم بأفصح بيان، وأقوى حجة وبرهان، وهو مستنير بنور القرآن؟!!

الصفات الأربع التي وصف بها القرآن الأوثان

لقد وصف تعالى أصنام المشركين، التي جعلوها آلهة مع رب العالمين، بصفات أربع، تكشف أمام الأنظار، سخافات المشركين الكفار، وذلك بطريق التمثيل الرائع.

الصفة الأولى : الأبكم، ومعناه الأخرس الذي لا يستطيع النطق

لعاهة في لسانه، فهو لا يستطيع أن يعبرَ عما في جَنَانِهِ، فكيف يفهم الإنسان مقصوده ومراده؟

الصفة الثانية : العجز التام، والنقصان الكامل، في قدرته وتصرفه،

وإليه الإشارة بقوله: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

الصفة الثالثة : ثقله على صاحبه ومالكه، فهو عالة يحتاج إلى من

يخدمه ويرعى شئونه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي ثقل عالة عليه.

الصفة الرابعة : عدم الانتفاع منه في قضاء حاجة من الحاجات،

فضلاً عن قضاء المهمات، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَيْنَمَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

وقد ختم الله جلت عظمته المثل بهذا الختم البديع فقال: ﴿هَلْ

يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؟ أي هل

يتساوى الأبله الأبكى، مع الرجل الفصيح البليغ، القوي العاقل؟

كلامٌ بديعٌ للعلامة ابن القيم رحمه الله

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«ذكر الله تعالى مثلين:

فالمثلُ الأولُ: ضربه لنفسه سبحانه والأوثان، فالله هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبده، سراً وجهراً، ليلاً ونهاراً، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، يقول: كيف يجعلونها شركاء إليّ، ويعبدونها من دوني، مع التفاوت العظيم، والفرق المبين.

وأما المثل الثاني فالصنم الذي يُعبد من دونه، بمنزلة رجل أبكم - أي أخرس - لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، ومع هذا لا يقدر على شيء البتة، أينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر، متكلم، يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم، وهذا وصفٌ له بغاية الكمال والحمد»^(١).

وبعد هذا التمثيل الرائع، جاء التعقيب المباشر، الذي يوحى بعظمة الله وجلاله، وقدرته وسلطانه، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي وما أمر قيام القيامة في السرعة والمجيء، إلا كنظرة سريعة خاطفة بطرف العين، أو هي أقرب من ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لأنه الإله القادر على كل شيء، الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

(١) عن كتاب أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ١/١٦١.

نعمة العلم والحواس للبشر

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تذكّر العباد بنعم الله الجليلة، التي أنعم بها عليهم، من نعمة الخلق والإيجاد، ونعمة السمع والبصر، ونعمة العقل والعلم، ونعمة الإدراك والفهم، وسائر الحواس التي وهبها الله للإنسان، وجعلها سلماً لإدراك المعارف، حتى يشكر ربه على تلك النعم، التي أفاضها عليه ربُّ العزة والجلال، ويحمده ويعبده في جميع الأحوال، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه منبهاً ومذكراً: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ، وَالْأَبْصَارَ، وَالْأَفْئِدَةَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فالإنسان يخرج من بطن أمه، وهو خالٍ من العلم، والفهم، والشعور، والإدراك، ليس عنده قوة للمشي، ولا قدرة على الكلام، وليس عنده من الملكات العقلية والعلمية ما تخوّله الدفاع عن نفسه، فضلاً عن السيطرة على هذا الكون، وتسخير له ولمصالحه، بواسطة الاكتشافات والاختراعات، التي تحتاج إلى قدرة، وقوة، وعلم، وذكاء، ولهذا فإن الملك الوهاب جلّ وعلا، قد وهب هذه الحواس، التي بها يمكنه الاستفادة من كنوز هذا الكون، التي خبأها الله في بطون الأرض، وفي جنبات هذا الوجود، ولم يجعله كالحيوان لا يدرك إلا شهوة المأكل والمشرب، وليس له ملكة عقلية يكتسب بها أنواع

المعارف والعلوم، ولهذا جاء الامتنان على الإنسان بخلق هذه الحواس والمدارك ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي أخرجكم من أرحام الأمهات، وأنتم خلقٌ ضعيف، لا تعرفون شيئاً أصلاً، لا تعلمون مصالِحكم ومضاركم، ولا تعرفون كيف تزرعون، وتبنون، وتسكنون؟ ولا كيف تستخرجون المعادن من مناجمها، وتستفيدون منها في حياتكم، ثم ذكَّركم تعالى بنعمه وآلائه فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي خلق لكم السمع الذي تدركون به الأصوات، والبصر الذي تدركون به المرئيات، والأفئدة وهي العقول التي تكشفون بها المخبآت، وتعرفون بواسطتها أسرار الكائنات، لعلكم تشكرون ربكم على نعمه الجليلة، التي أنعم بها عليكم، فالإنسان في أصل خلقه ضعيفٌ، وقد أفاض عليه القويُّ المتين، من فيوضات رحمته وقوته، ما يجعله خليقاً بعمارة هذا الكون.

من عجائب خلق الطير

وثمة عجيبة أخرى من آثار القدرة الإلهية، يراها الناس فلا تلفتُ انتباههم، ولا يتدبرونها، وهي مشهد عجيب معروضٌ أمام الأنظار، وفيها موضعٌ للعة والاعتبار، مشهد الطيور مسخراتٍ في جو السماء، تعلق وتنخفض، وتطير وترتفع، وتقطع مسافات شاسعة، في حركة دائبة، بين السماء والأرض، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

والمعنى: ألم يشاهد هؤلاء المنكرون لوجود الله، هذه الطيور مدللات للطيوان، في ذلك الفضاء الواسع بين السماء والأرض؟ ﴿مَا

يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴿﴾ أي ما يمسكهن عن السقوط، عند قبض أجنحتهن وبسطها، إلا الله سبحانه وتعالى!! ثم ختم تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في هذا الصنع لعبراً وعضات، وعلامات باهرات، لقوم يصدّقون بالله، ويؤمنون بوحدانيته ووجوده.

اختراع الطيران بطريق معرفة أحوال الطير

وأمرُ الطير أمرٌ عجيب، يستدعي التبصر والتأمل، فهذا الحيوان الطائر، سواءً كان صغيراً كالعصفور، أو كبيراً كالصقر، والوز، والبوم، فإن طيرانه في الهواء مع ثقل جسمه شيء غريب، إذ إنه يحلّق عالياً ولا يسقط، وليس تحته ما يدعمه، ولا فوقه ما يمسكه، إنما أمسكته قدرة الله اللطيف الخبير، وبواسطة الطير، وشكلها، وكيفية طيرانها، اخترع الناس الطائرات، فجعلوا لها جناحين كالطير، تنقبض وتنبسط؛ ومقدّمة محدّبة كرأس الطائر، حتى تشقّ الهواء، ومؤخرة كالذنب، فسبحان من جعل من الطير آلة ينسج على نسلها الإنسان، فيصنع الطائرة، وهي من حديد، ولكنها على شكل الطير يقطع بها المسافات البعيدة، نعمة من الكبير المتعال، الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، ولو لم ير الإنسان الطير محلّقاً فوقه يطير بين السماء والأرض، لما استطاع أن يخترع الطائرة، ولما فكّر أصلاً في إمكان الطيران في أجواء الفضاء، ولكنها حكمة الله ليرينا كيف نستفيد من حركات هذا الطير الصغير!

قال الإمام الرازي: «وفي الآية دليلٌ على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، فإنه لولا أنه سبحانه خلق الطير خلقةً معها يمكنه الطيران، وخلق الجو خلقةً معها يمكنه الطيران فيه، لما أمكن ذلك، فإنه تعالى أعطى الطير جناحاً يبسطه مرة، ويكسره أخرى، مثل ما يفعله السابح في

الماء، وخلق الهواء خلقةً لطيفةً رقيقةً، يسهل بسببها خرقةً والنفادُ فيه، ولولا ذلك لما كان الطيران ممكناً» .

نعمة السكن في الأوطان

ثم تنتقل السورة بعد ذلك، لتذكير العباد بنعمة الأمن والسكن والاستقرار، في الأوطان والأسفار، وما يسره لهم من أنواع النعم الظاهرة والخفية، من سكنٍ ومتاعٍ، وأكنانٍ وظلالٍ، ولباسٍ ورياشٍ، كلُّ ذلك ليهيئ لهم السكن والراحة في السفر والحضر ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا، تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنْ أَصْوَابِهَا، وَأَوْبَارِهَا، وَأَشْعَارِهَا، أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ .

ولنقف قليلاً عند هذا النصِّ القرآني، الرائع في التعبير والتصوير ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ فليس البيت للنزاع، والشقاق، والخصام، إنما هو للسكينة، والراحة، والاستقرار، وهكذا يريد الإسلام، للسكينة النفسية، والراحة، والأمن والهدوء، ومن ثمَّ يضمن الإسلامُ للبيت حرمةً، ليضمن لساكنه أمنه وسلامه واطمئنانه، فلا يدخله داخلٌ إلا بعد الاستئذان، ولا يقتحمه أحد على غفلةٍ من أهله ولو باسم السلطان، لأن الله جعله حمىً، وأمناً لساكنه كما جعل بيته الحرام حمىً لداخله .

وهذه بيوتُ الإقامة للساكن في الوطن، تبنى من الحجر والمدر، ليستقر فيها الإنسان، وأماً في السفر، فقد جعل لنا بيوتاً خفيفةً لطيفةً،

من الجلد أو الشعر، تنتقل مع الإنسان من مكان إلى مكان كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي جعل لكم هذه الخيام والمضارب، المصنوعة من جلود الأنعام أو أشعارها، تستخفون حملها ونقلها في أوقات السفر والحضر، ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأُوبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ أي وجعل لكم من أصواف الغنم، ووبر الإبل، وشعر الماعز، ما تلبسونه وتفترشونه في بيوتكم، وما تتمتعون به في هذه الدنيا إلى انتهاء الأجل، وهكذا نبه الباري جلّ وعلا، على نعمة الراحة والسكن، ونعمة الأمن والاستقرار، ونعمة اللباس والفراش، في هذه الآيات الجليلة، ليشكره العباد على نعمه وأياديه، وفضله وإحسانه، وبالشكر تدوم النعم.

نعمة الظلال والملابس

وإكمالاً لتعداد النعم، التي ذكرها الله في الآيات السابقة، من نعمة السّكن، ونعمة السمع والبصر والكلام، ونعمة العلم والعقل، ونعمة الأثاث واللباس، يأتي الحديث عن نعمة الظلال، ونعمة الحصون والمعقل في الجبال، ونعمة الثياب التي تقي من الحر والبرد، والدروع التي تدفع خطر الحرب، فيقول تقديست أسماؤه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ. يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا، وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وإنما ذكر تعالى نعمة الظلال، لأن بلاد العرب شديدة الحر، وحاجتهم إلى الظل كحاجتهم إلى المأكل والمطعم، ولا تُعرف قيمة

الشيء إلا بضده، فهم بحاجة إلى الظلّ يستروحون برّده وأنسه، وبخاصة لمن كان كثير الترحال، ينتقل من مكان إلى مكان، طلباً لمرعى الإبل والغنم، فهذا عنده ساعة يستظل بها تحت ظلال الأشجار، أو ظلال الكهوف والجبال، خيراً من فاخر الطعام تحت الشمس المحرقة، ولهذا السرّ ذكر تعالى نعمة الظلال فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ وَجَمَعَ الظلالَ هنا لتشمل ظلال الأشجار، وظلال الجبال، وظلال البيوت والمساكن، وظلال الكهوف والملاجيء، وظلال السحاب في بعض الأحيان، فكلها ظلال من نعم الله على العباد، ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ والأكنان جمع كِنٌّ مثل حِمْلٍ وأحمال وهو ما يُكِنُّ الإنسان ويحميه ويقيه من العواصف، والرياح، والأمطار، وحرارة الليل والنهار، ففي الجبال ملاجئ تقي الإنسان شرّ عوادي الزمان، وفيها ما يصلح بيوتاً للسكن والاستقرار، ونظراً لارتفاعها تكون أبرد في الليل والنهار من سائر الأماكن.

نعمة الثياب والدُّروع

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ والسراويل جمع سربال، وهو القميص أو الثوب الذي يلبسه الإنسان، يدفع به الحرّ أو البرد عن نفسه، واكتفى تعالى بذكر الحرّ عن البرد، لدلالة ضده عليه، فكل ما يقي من الحريق من البرد، ولأنه أمسّ في بلاد العرب والحجاز، والبرد فيها معدوم في الأكثر، وهذه السراويل بمعنى الثياب، منها ما يكون من القطن والكتان، وهذه تلبس لرفع الحرارة، ومنها ما يكون من الصوف والأشعار والأوبار، وهذه تقي من البرد في الشتاء ثم قال تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُم بِأَسْكُمْ﴾ أي ودروعاً تشبه الثياب، تتقون بها

شرُّ أعدائكم في الحرب، والسربالُ عامٌ يقع على ما يكون من قطن، أو صوف، أو حديد، والمراد به هنا الدرع الذي يقي أذى ضرب السيف أو الرمح والسيف، وهو الذي علّمه الله لنبيه الكريم داود عليه السلام، كما قال سبحانه: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ، لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ؟﴾ ثم ختم الله الآية الكريمة بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي مثل هذا الإِنعام الجليل، يتم الله نعمته عليكم بما تستعينون به على أمركم، لتعرفوا فضله وإِنعامه، وتستسلموا لحكمه وأمره.

ولما كانت هذه النعم لسكن الإنسان وراحته، وأمنه وسعادته، وكلها يوحى بالطمأنينة والسكن، ناسب أن يختم الآية بما يدل على الاستسلام، والسكن والركون فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

جحود البشر لفضل المنعم

ثم تمضي السورة الكريمة، تُبَيِّنُ كُفْرَانَ النَّاسِ لِنِعْمِ اللَّهِ، مع كثرة ما أغدق عليهم من الفضل والإحسان، ولكن طبيعة الإنسان تأبى إلا الجحود والكفران، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا، وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي يعرفون أن الله هو المنعم المتفضل عليهم، ثم ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، وأكثر الناس جاحدون لوحداية ربهم منكرون لوجوده، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ والحساب على هذا الكفر ليس هنا في هذه الدار، وإنما هو في دار البعث والنشور، لأن الله تعالى جعل الدنيا دار العمل، وجعل الآخرة دار الجزاء، فهنا عملٌ ولا حساب، وهناك

حساب ولا عمل، ولا شيء ينفع الإنسان حينئذٍ ولا ندم، ولهذا عقبه تعالى بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبَعْتُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ. وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ، وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ. وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ، قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ، إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ. وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

النبيُّ شاهدٌ على أمة القيامة

والشاهد الذي يشهد على كل أمة هو نبيها، يشهد عليها بما ردَّت عليه وأجابته حين بلَّغها دعوة ربه، وهناك تسودُّ وجوه الظالمين الكافرين، فهم ساكتون واجمون، لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع، ولا يُطلب منهم أن يسترضوا ربهم بقولٍ أو عمل، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يؤذن لهم في الكلام بعد شهادة نبيهم عليهم، ولا يُسمح لهم أن يسترضوا ربهم بطلب العفو، فقد فات أوان الاسترضاء والعتاب، وجاء وقت الحساب والعقاب.

يُقال في اللغة العربية: استعنتني فلانٌ فأعتبته أي استرضاني فقبلت عذره وصفححت عنه، وهذا كما قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾^(١).

ثم أخبر تعالى أن عذاب الآخرة ليس فيه إمهال ولا تخفيف فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ

(١) سورة المرسلات آية رقم ٣٥ و ٣٦.

وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٤٥﴾ أي ولا هم يمهلون ويؤخرون طرفة عين، بل يأخذهم العذاب سريعاً، ويُدحرجون في جهنم جميعاً، وهناك في ذلك الموقف المخزي لأعداء الله، تتبرأ منهم آلهتهم أحوج ما يكونون إليها ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ﴿١٤٦﴾ أي هؤلاء الذين عبدناهم من دونك، وهم الذين زينوا لنا الشرك والضلال ﴿فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٤٧﴾ أي قالت لهم الآلهة: كذبتُم ما نحن أمرناكم بعبادتنا ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ ﴿١٤٨﴾ أي ألقوا الاستسلام والانقياد لحكم الله، بعد الإباء والاستكبار في الدنيا، إذ ليس لهم هناك حيلة ولا دفع ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٤٩﴾ أي بطل أملهم في آلهتهم المزعومة.

مضاعفة العذاب للمشركين في الآخرة

وينتهي الموقف بمضاعفة العذاب، لأولئك المشركين الضالين، فلا ناصر لهم اليوم، ولا مجير ولا معين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿١٥٠﴾ وهكذا بدل أن يُخَفَّفَ عنهم العذاب، يُضَاعَفُ ويزاد، لكونهم كانوا مغرقين في البغي والفساد، وتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً!!

وإنما ضاعف الله تعالى للكفار العذاب، لأنهم كانوا يهزءون ويسخرون من الأنبياء والمؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿١٥١﴾ فجازاهم الله على كفرهم بعذاب النار، وضاعف لهم العذاب لسخريتهم بالمؤمنين الأشراف.

المقام الرفيع لسيد الرسل والأنبياء

وتنتقل الآيات بعد ذلك، لبيان الشرف العظيم، والمقام الرفيع، لسيد الرسل محمد ﷺ في ذلك الموقف العصيب، الذي يكذب فيه الشركاء شركاءهم، ويستسلمون لله متبرئين من دعوى عبادة الضالين لهم، يأتي السياق ليبرز شأن هذا الرسول، ومكانته الرفيعة عند الله، وعظمة الكتاب الذي أنزل عليه، فهو خاتم المرسلين، وكتابه أشرف الكتب السماوية، وقد جمع الله فيه علوم الأولين والآخرين، لأنه خاتمة الكتب، كما أن رسول الله ﷺ خاتم النبيين، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَيَوْمَ نَبَعُثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

والمراد بالشهيد الذي يشهد على الأمة، هو نبيها ورسولها، الذي شاهد أحوالها، شاهد كفرها وإيمانها، وهداها وضلالها، فكل نبي يشهد على أمته يوم القيامة بما أجابته من إذعانٍ أو كفران، ويقوي هذا القول، أن الله قرن بين شهادة الرسل على أقوامهم، وشهادة النبي ﷺ على أمته، حيث قال جل ثناؤه: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ وتكون هذه الآية الكريمة، شبيهة بقوله جل وعلا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ

بشَهِيدٍ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿١﴾ والقرآن يُفسّر بعضه بعضاً.

وقيل: إن المراد بالشهيد في الآية الكريمة، هو جوارح الإنسان وأعضاؤه، تشهد عليه بما فعل في الدنيا، وهي عشرة: «العينان، والأذنان، واليَدان، والرِّجْلان، والجِلْدُ، واللِّسَانُ» قالوا: إن الله ينطق هذه الأعضاء، لتكون شاهدة على الإنسان، وأيدوا قولهم هذا بأن الله تعالى قال في الآية «من أنفسهم» وليس الشاهد على الإنسان من نفسه إلا هذه الأعضاء، كما قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢).

في القرآن شفاء وبيان

ثم أخبر تبارك وتعالى عن عظمة القرآن، وجلاله، وما حواه في طياته من نفائس ودرر، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

والمعنى: ونزلنا عليك يا محمد القرآن العظيم، نوراً وضياءً، وبياناً شافياً واضحاً، فيه كل ما يحتاج الناس إليه من أمور الهداية والدين، فلا حجة لهم بعده ولا معذرة، وهو هدى للقلوب، ورحمة للعباد، وبشارة للمسلمين المهتدين.

(١) سورة النساء آية رقم ٤١.

(٢) القول الأول هو الأرجح، لأن الله تعالى قال: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً﴾ فذكر الأمة ولم يقل: ﴿ويوم نبعث في كل إنسان﴾ - وإن كان الرأي الثاني قوياً وله شواهد من الآيات الكريمة والله أعلم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: قد بُيِّنَ لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء، فهو النور المبين.

وتوضيح هذا القول، أن القرآن العظيم، اشتمل على كل علمٍ نافع، من قصص وأخبار من مضى، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم، وما يصلحهم ويسعدهم، فهو الكتاب التأم الشافي، الذي جمع بين هداية القلوب، وصلاح الأبدان، وتنظيم شؤون الحياة على أكمل الوجوه، وصدق الله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فهذا التعميم يدل على الشمول، ثم قال: ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

آية جمعت الفضائل والخيرات

وكشاهدٍ وبرهان، على شمول هذا القرآن، وأنه كتاب هداية وإصلاح، وسعادة وفلاح، لمن تمسك بتعاليمه، واستنار بنور ضيائه، جاءت الآيات بعدها لتلخص مهمة هذا الكتاب، الذي فيه تبيان كل شيء، في كلمات وجيزة، وعبارات قليلة، جامعة لأصول الدين، ومتطلبات الحياة، من أخلاق وآداب، ومعاملات وأحكام، وتربية وإصلاح، وهداية وإرشاد، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَالْبَغْيِ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال ابن مسعود: «هذه أجمعُ آية في القرآن لخيرٍ يُمتثل، وشرٌّ يُجتنب» فقد تناولت كل الفضائل الدينية والاجتماعية، فرغبت فيها وحضت عليها، وحذرت من كل القبائح والشور والآثام، فنهت عنها

ونفرت منها، ولهذا جعلها الخطباء في آخر خطبهم، كموعظة جامعة مانعة يختمون بها موعظتهم، ويذكرون الأمة بواجب التقيد بأمر الله ونهيه، الذي جُمع في هذه الآية الكريمة في ألفاظ يسيرة، وقد أمرت بثلاثة أمور، ونهت عن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: العدل، وهو تحقيق العدالة في جميع الأشياء.
فالعدل الذي أشادت به الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ عامٌ يشمل العدل في الأحكام والمعاملات، وفي الفروض والواجبات، العدل مع البنين والبنات، والعدل مع الأصدقاء والأعداء، والعدل مع القريب والغريب، والعدل مع الزوجات والمملوكات، وسائر ما يفيد لفظ العدل، من عدالةٍ ومساواة.

والعدل الذي أمر به الرحمن عباده، هو الذي يكفل لكل فرد، ولكل جماعة، ولكل أمة، قاعدةً ثابتةً راسخة، لا تميل مع هوى، ولا تتأثر بوُدٍّ أو بغض، ولا تتبدل مع الظروف، مسايرةً لصهرٍ أو نسب، ولغنى أو فقر، ولقوة أو ضعف، إنما تسير على منهجٍ واحدٍ هو الذي أمر به الله جل وعلا في تعامل المسلم مع غيره.

الأمر الثاني: الإحسان في جميع ضروبه وأشكاله.

والإحسان الذي أمر به الرحمن، كذلك هو عام شامل، يشمل الإحسان إلى البشر، وإلى النبات، والحيوان، وإلى الضعفاء والفقراء، وإلى من تقلهم الأرض وتظللهم السماء، فالإحسان أوسع مدلولاً مما تعارفه الناس، من الإحسان إلى الفقراء والمساكين، فكل عملٍ طيبٍ إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عملٍ وتعامل، في علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بالجماعة، وعلاقته بالبشرية، حتى

العلاقة بين الإنسان والحيوان، يجب أن يكون فيها الإحسان، كما أُرشدنا إليه مربي الإنسانية، سيدنا محمد رسول الله حيث قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلِيُحَدِّدْ أَحَدَكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلِيُرِحَ ذَبِيحَتَهُ»^(١).

الأمر الثالث: مواساة الأقرباء بالبذل والعطاء، وتخفيف آلامهم بالإِنفاق، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وخصَّهم بالذكر اهتماماً بهم، توثيقاً لصلة الأرحام، فإيتاء القريب صلة وإحسان تفوق الإِنفاق على غيرهم.

وأما التي نهى عنها الله عز وجل فهي ثلاثة أيضاً وهي: الفحشاء وهو كل فعل قبيح تنهى في القبح والشناعة، كالزنى، واللواط، والخمر والميسر، وسائر الأعمال المخلة بالمروءة والشهامة، والمنكر وهو الذي يستقبحه الشرع وتنفر منه الطباع السليمة، والبغي وهو العدوان على حرمت الناس ودمائهم وأموالهم، وسائر المنكرات ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ روي أن «أكثم بن صيفي» لما بلغه خبر الرسول ﷺ، انتدب شخصين ليلتقيا برسول الله عليه السلام فيسمعاً كلامه، ثم يخبرانه بحقيقة أمره ودعوته، فلما قدما على رسول الله ﷺ سألاه: مَنْ أَنْتَ؟ وما أَنْتَ؟ فقال: أنا محمد بن عبد الله، وأنا رسول الله، ثم تلا عليهما الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فرجعا إلى صاحبهما، فلما قرءا عليه الآية الكريمة قال لهما أكثم: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مساوئها، فكونوا في هذا الأمر

(١) رواه مسلم.

رعوساً، ولا تكونوا فيه أذنباً»^(١) أي كونوا من السباقين إلى الإسلام وإلى مكارم الأخلاق.

توجيهات القرآن للوفاء بالعهود

وبعد ذلك الإجمال عن فضائل الخصال، التي أمر الله تعالى عباده بها، يأتي الحديث مفصلاً عن هذه الفضائل والمكارم، في مجموعة من التوجيهات والإرشادات الربانية، التي بها صلاح المجتمع، وسعادة الإنسانية، وأمن واستقرار الشعوب والأمم، فيأمر تعالى بالوفاء بالعهود، والاستقامة على شريعة الله، في العبادات، والمعاملات، والأخلاق، والسلوك، والالتزام بكل وعدٍ وبكل عهد، فإن المؤمن تقيٌ وفي، صدوق أمين، إذا حدث صدق، وإذا وعد وفي، وإذا ائتمن على شيء لم يخن فيه، وتلك هي الأمور التي توثق دعائم المجتمع، وفي هذا يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ، أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَتُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقد أمر تعالى في هذه الآيات البيّنات بالوفاء بالعهود، والوفاء بالعهود هو الضمان لبقاء عنصر الثقة، في التعامل بين الناس، وبدون هذه الثقة، لا يقوم مجتمع، ولا تُبنى حضارة، ولا تنهض أمة ولا تعز ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ

(١) ذكر هذه القصة الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣٤٣/٢.

بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴿ ونقضُ الأيمان هو نقضُ البيعة مع الخليفة والسلطان، وإهدار الأيمان التي حلف بها المسلم، عند البيعة والالتزام بالعهد، فكلُّ ذلك من الأسباب المحلَّة بشريعة الله، إذ كيف يحلف المؤمن على أمر، ثم ينكث في حلفه ويمينه، ولا يلتزم بمقتضى اليمين الذي أشهد الله عليه فيه؟! ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ أي جعلتم الله شاهداً ورقيباً على ذلك العهد ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي عالم بأفعالكم وأحوالكم، وسيجازيكم عليها يوم القيامة، وفي الآية تهديد ووعيد.

مثلٌ من بدائع الأمثال للناقض للعهد

ولا يكفي القرآن بتوجيه المؤمنين، إلى الأمر بالوفاء بالعهد، والنهي عن النقض، إنما يستطرد لضرب الأمثال، وتقبیح حال الناكثين، في أبداع صور التمثيل، يمثِّل لهم ذلك بصورة امرأة حمقاء، ملثثة العقل ضعيفة الرأي والعزم، تغزل غزلاً ثم تنفضه، وتركه قطعاً محلولة، مبعثرة هنا وهناك، تقضي وقتها فيما لا فائدة فيه، إلا التعب والعناء، وسوء التصرف والغباء، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾ أي غزلته وفتلته فتلاً محكماً، وبعد أن تعبت فيه حلته أنكاثاً وأنقاضاً ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ أي تتخذون أيمانكم خديعة ومكراً تخدعون بها الناس ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ أي لأجل أن تكون طائفة، أعزَّ وأوفر جاهاً ومكانة من غيرها.

قال مجاهد: «كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعزَّ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك».

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَيَلَيِّنَنَّهُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي إنما هذا ابتلاء وامتحان من الله لكم، ليظهر المطيع من العاصي، وأما الجزاء فسيكون في الآخرة عند لقاء الله .

هذا مثلٌ رائع ضربه القرآن الكريم لمن نقض العقد، ونكث العهد، وما أبدعه من تمثيل!! وما يرضى إنسانٌ كريم لنفسه، أن يكون مثل هذه المرأة الحمقاء، الضعيفة العقل والتفكير، التي تقضي حياتها فيما لا يعود عليها بشيء من النفع .

وكان بعض الناس يُبرر لنفسه نقضَ عهده مع الرسول ﷺ، زاعماً أن محمداً ومن معه قلةٌ ضعيفة، بينما قريش كثرةٌ قوية، فنبههم القرآن إلى أن هذا ليس مبرراً لأن يتخذوا أيمانهم غشاً وخديعة، فيتخلوا عنها، بسبب كون أمة أكثر عدداً وقوةً من أمة، وطلباً للمصلحة مع الأمة الكثيرة.

هل يباح نقض المعاهدات الدولية؟

يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان: «ويدخل في مدلول النص، أن يكون نقض العهد تحقيقاً لما يُسمى الآن «مصلحة الدولة» فتعقد دولةٌ معاهدةً مع دولة، ثم تنقضها بسبب أن هناك دولة أقوى في الصف الآخر، تحقيقاً لمصلحة الدولة!!

فالإسلام لا يُقرُّ مثل هذا المبرر، ويجزم بالوفاء بالعهد، وعدم اتخاذ الأيمان ذريعةً للغشِّ والدَّخَل، ذلك في مقابل أنه لا يُقرُّ تعاهداً ولا تعاوناً على غير البرِّ والتقوى، ولا يسمح بقيام تعاهد أو تعاون على الإثم، والفسوق، والعصيان، وأكل حقوق الناس، واستغلال الدول

والشعوب، وعلى هذا الأساس قام بناء الجماعة الإسلامية، وبناء الدولة الإسلامية، فنعم العالم بالطمأنينة والثقة، والنظافة في المعاملات الفردية والدولية، يوم كانت قيادة البشرية إلى الإسلام»^(١).

الاختلاف في العقيدة لا يبرر نقض العهد

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والآية الكريمة توحى بأن الله لو شاء لخلق للناس باستعداد واحد، وجعلهم أهل ملة واحدة، لا يختلفون ولا يفترون في أمر الدين والإيمان، ولكن اقتضت حكمته أن يتركهم لاختيارهم، ناس للسعادة، وناس للشقاوة، فيضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وسوف يسألهم الله عن عملهم يوم القيامة الذي هو يوم الجزاء، وكأنه يقول: لا ينبغي أن يكون الاختلاف في العقيدة سبباً في نقض العهود، وإهدار الحقوق.

وتمضي السورة تؤكد وتوثق، ما أبرمه المسلمون من عهود، مع القريب والغريب، والصديق والعدو، فتأمر بالوفاء، وتنهى عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة، لأن ذلك يزعزع الثقة بدين الإسلام، ويزلزل العقائد، والمعاملات بين أفراد المجتمع، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ، فَتَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا، وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة ومكراً، تغرؤن بها الناس، لتحصلوا على بعض منافع الدنيا الفانية، فتزل أقدامكم عن طريق الاستقامة بعد رسوخها فيه.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢١٩٢.

قال الحافظ ابن كثير: هذا مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحائثة، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فيمتنع بسببه عن الدخول في الإسلام»^(١).

الحياة السعيدة للمؤمن الصالح

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تقرّر الحياة الطيبة السعيدة، لكل من أطاع الله وعمل الصالحات، من ذكرٍ أو أنثى، والجزاء الكريم في دار النعيم، للمؤمن الصالح الذي أخلص النيّة والعمل لله، فقد جعل الله تبارك وتعالى، هذه الحياة الدنيا ميداناً للتنافس والتسابق إلى الخيرات، والعامل من غنم من حياته الفانية، لتلك الدار الباقية، فجَدَّ واجتهد في طاعة الله، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ونلاحظ في الآية الكريمة شرطاً مهماً للحياة السعيدة، التي وعد الله بها المؤمنين والمؤمنات، هذا الشرط هو الإيمان، فبدون الإيمان يكون العمل زاهقاً وباطلاً، لأن الله لا يقبل عمل الكافر كما قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٢).

فالإيمان هو الأصل والأساس، والعمل الصالح هو البناء الذي يرتفع فوق ذلك الأساس، وكما لا يقوم بُنيان من غير أساس متين،

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١٤٢/٢.

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٢٣.

فكذلك لا يُقبل عملٌ بدون إيمان راسخ، ولهذا قال جلّت عظمته هنا:
﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾.

ثمرة الإيمان أمران عظيمان

ثم رتب تبارك وتعالى على ذلك أمرين هامين، ثمرة لذلك الإيمان والعمل الصالح، وهما:

الأول: الحياة الطيبة السعيدة، وإليها الإشارة بقوله سبحانه:
﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ وهي الراحة، والطمأنينة، والسعادة التي تغمر قلب المؤمن، الذي ذاق طعم الإيمان، فيستشعر فضل الله عليه، فيما وهبه له من حواس، ورزقه من صحة ومال، ويشعر بالسعادة والقناعة والرضى، وتلك أعظم ثمرة يقطفها المؤمن من ثمار الإيمان.

وقد ذهب بعض المفسرين، إلى أن المراد بالحياة الطيبة، النعيم الذي يكون في الجنة مما لا يخطر على قلب بشر، وهو قول الحسن البصري، فقد قال رضي الله عنه: «لا تطيب الحياة لأحدٍ إلا في الجنة، لأنها حياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحة بلا سقم، وسعادة بلا شقاوة»^(١) ولكن الظاهر من الآية الكريمة، أن الحياة الطيبة هي في الدنيا - وهو قول جمهور المفسرين - لأن الله تبارك وتعالى، نبه على الجزاء في الآخرة بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فدل على أن الحياة الطيبة هنا في الدنيا، ولو كانت في الآخرة لكان في الكلام تكرار، وذلك ينافي بلاغة القرآن، وما أسعد المؤمن، وما أطيب حياته، وهو يرى في المصيبة تصيبه، برداً وسلاماً، ونعمة واطمئناناً! كما

(١) تفسير ابن كثير ٣٤٦/٢.

كان عمر رضي الله عنه يقول: ما أصابتنى مصيبةٌ إلا وجدتُ فيها ثلاث
نعمٍ:

الأولى : أنها لم تكن في ديني .

الثانية : أنها لم تكن أعظم مما كانت .

الثالثة : الجزاء الذي أعدّه الله للصابرين ، ثم تلا : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ .

الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله ، وإنا إليه راجعون .

أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم

المهتدون﴾^(١) .

فإذا كان المؤمن يرى في المصيبة نِعْمًا عديدةً، فكيف تكون
حياته؟ وكيف تكون سعادته؟ لا شك أنه لا يشعر بقلق واضطراب،
وحزن وكمَدٍ، كما يشعر به من خلا قلبه من الإيمان، وليست السعادة
بكثرة المال كما يظنه بعض الناس، وما أجمل قول الشاعر:

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ

الأمر الثاني: هو ما أدخره الله لعبده المؤمن، من الأجر الوافي

العظيم، والكرامة والنعيم، في دار الخلود، مما لا عين رأت، ولا أذن

سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا

أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) وإلى هذا الأجر

والثواب أشارت الآية الكريمة بقوله تقدست أسماؤه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا من فضل الله على عبده المؤمن،

أن يكافئه بأفضل الجزاء، على أحسن الأعمال، مع التجاوز له عن

السيئات، فما أكرمه من جزاء!!

(١) سورة السجدة آية رقم ١٧ .

المؤمن في حصن حصين من الشيطان

ولما كانت سعادة المؤمن، باتصال قلبه بالرحمن، والبعد عن وساوس الشيطان، جاءت الآيات الكريمة بعد ذلك، تُقرر، أن حماية الله وحفظه للعبد، إنما تتحقق عن طريق هذا القرآن، وتلاوة المؤمن له صباح مساء، حتى يكون في مأمن من نزغات الشيطان، الذي يُضلُّ أتباعه وأولياءه، بوساوسه وأباطيله، وأما المؤمن فلا يستطيع أن يغويه الشيطان، لأنه في حصن حصين، وملجأ أمين، لأنه في حمى الرحمن ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ .

زعمهم أن القرآن تعليم البشر

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تقرر موقف الكفرة الجاحدين، من هذا القرآن العظيم، هؤلاء الذين سيطر عليهم الشيطان، فأخضعهم للشهوات والملذات، فساروا بقيادة الشيطان، تحت لوائه وتوجيهاته، هؤلاء الضالون الجاحدون، يتهمون رسول الله عليه السلام بأبشع تهمة، يتهمونه بالتلاعب بالقرآن، والكذب والافتراء على الرحمن، وينسبون هذا الكتاب المعجز، في بيانه وأحكامه وتشريعه، إلى رجل أعجمي لا يعرف اللغة العربية، يزعمون أن محمداً ﷺ تعلّم منه هذا القرآن، وهذا من أعجب العجب، أن يكون الأعجمي الذي لا يكاد يُبين، معلماً لأفصح اللغات كما زعموا، وكلُّ ذلك إنما اخترعوه، بقصد الطعن في القرآن، والنيل من صاحب الرسالة محمد بن عبد الله، بالتشكيك في دينه وكتابه وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ

آيَةٌ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ - قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .
 قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَهُدًى
 وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسَانُ الَّذِي
 يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٩﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت إذا نزلت آية فيها شدة،
 ثم نسخت بما هو أيسر، قال كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر من
 أصحابه، يأمر اليوم بأمر، وينهاهم غداً عنه، وإنه لا يقول ذلك إلا من
 عند نفسه، فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
 يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي كذاب، تكذب على الله، وتنسب إليه ما
 لم يقل، وما درى هؤلاء الجهلاء، أن مثل آيات هذا الكتاب، كمثل
 العلاج والدواء، يُعطى منه للمريض جرعات حتى يماثل الشفاء ثم
 يُستبدل بما يُصلحه من أنواع الأطعمة والغذاء، فكذلك أحكام القرآن،
 تتمشى مع مصالح البشر، وما ينفعهم دنيا وآخرة، والأشنع من هذه
 التهمة،! ادعائهم أن الرسول عليه السلام، كان يتلقى هذا القرآن من
 رجل نصراني اسمه «جبر الرومي» وهذا الرجل الذي كان يجلس عنده
 النبي ﷺ بعض الوقت أعجمي اللسان لا يعرف العربية، فكيف يمكن
 لمن لسانه أعجمي، أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربي المبين؟ ومن
 أين للأعجمي أن يدوق بلاغة هذا الكتاب، المعجز في فصاحته وبيانه،
 ولهذا قال تعالى رداً عليهم ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهَذَا
 لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ والمعنى: إن لسان الذي يزعمون أنه علمه هذا
 القرآن، وينسبون إليه التعليم أعجمي، وهذا القرآن عربي في غاية
 الفصاحة والبيان، فكيف يتصور هذا؟ هذا أمرٌ مستحيل، بل هو محض
 الكذب والبهتان، ولكنها المكابرة والعناد من أولئك المكذبين المستهزئين .

الكذب صفة من لا يؤمن بالله

وبعد ذلك الاتهام للنبي عليه السلام، بالافتراء والكذب على الله، جاءت الآيات توضّح أن من جحد آيات الله، لا يوفقه الله ولا يهديه إلى طريق الخير والإيمان، ومن كذب على الله سدّ الله عليه باب الهداية، وجعله يتقلّب في الجهالة والضلالة، ولا يمكن للكاذب المفترى أن يسعد برضى الله، وهؤلاء المشركون لما بالغوا بالسخرية والتكذيب، والجحود لآيات الله، كيف يشرح الله صدورهم للإيمان؟ وكيف يهديهم لفهم أسرار هذا القرآن؟ وهم على ما هم عليه من الكفر والجحود، والسخرية والاستهزاء؟ وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم يُبين تبارك وتعالى حقيقة المفترى الكذاب، وهو الذي لا يؤمن بآيات الله، وما هم إلا هؤلاء الضالون المكابرون، الذين كذبوا سيّد الخلق، وجحدوا وجود الله، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾.

وهذه الآية ما هي إلا ردٌّ صريح، على المفترين على الله من كفار قريش، وتبرئةٌ لساحة النبي عليه السلام، مما نسبّه إليه المشركون من الكذب والافتراء، وكأنّ الآية تقول: ليس محمّدٌ بمفترٍ ولا كذاب، لأنه

إنما يفترى الكذب على الله شرارُ الخلق، ولا يصدر هذا الافتراء، إلا من مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون، ولا يمكن أن يصدر من محمد النبي الصادق الأمين!! والكذب جريمة فاحشة، لا يُقدم عليها مؤمن، فضلاً عن سيّد الأنبياء والمرسلين.

جريمة المرتد عن الإسلام

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تحدثنا عن جريمة المرتد عن دين الله، الذي كفر بعد الإيمان، وضلّ بعد الهدى، وآثر الحياة الفانية على الحياة الباقية، فهذا هو الشقي الخاسر، الذي باع دينه بعرضٍ من الدنيا حقير، وقد استثنى تباركت أسماؤه من «جريمة الردة» المُكرّة على الكفر، ولكن قلبه مطمئن بالإيمان، فإن هذا لا يدخل في زمرة الأشقياء، المحرومين من رحمة الله، لأنه مجبرٌ مكره، والله تبارك وتعالى لا يعاقب من كان مكرهاً على أمر لا رضى له فيه ولا اختيار، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ، إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا، فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَسَمِعِهِمْ، وَأَبْصَارِهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ. لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والآية هنا فيها تغليظ لجريمة المرتد، لأنه عرّف الإيمان وذاقه، ثم ارتدّ عنه، إشاراً للحياة الدنيا على الآخرة، لذلك فقد عاقبه الله، بالغضب الشديد، والعذاب العظيم، والحرمان من دخول الجنة، ووصّمه بالغفلة وانطماس القلب، والطبع على سمعه وبصره، والحكم عليه بأنه في الآخرة من الخاسرين، ولم

يكن مثل هذا العقاب، للكافر المجاهر بكفره، فإنه أخف عقوبةً من المرتدّين .

رفع الجناية عن المكره على الكفر

ولقد لقي المسلمون الأوائل في مكة من الأذى والبلاء، ما لا تطيقه الشَّمُّ الرواسخ من الجبال، فكان بعضهم يَكْوَى بالنار وبالحديد المحمي، وبعضهم يُعْرَى من الثياب، ثم يُبَطَّح على الأرض، فوق الرمال اللاهبة، وتحت الشمس المحرقة، وتوضع على صدره صخرة عظيمة، ويُقال له: لا تزال هكذا حتى تكفر بمحمد، كما فعل بيلال رضي الله عنه وأرضاه، وهو يقول: أحدٌ، أحدٌ تحت وطأة العذاب، وبعضهم يُمنع عنه الطعام والشراب، حتى يكاد يقتله الجوع والعطش، وهو لا يجيبهم إلى ما أرادوا، وكان البعض لا يستطيع الصبر، فيُظهر لهم الكفر والرجوع عن الإسلام، تخلصاً من العذاب، ولكن فؤاده ممتلئٌ إيماناً وقيناً، كعمّار بن ياسر، الذي عذّبه المشركون عذاباً شديداً، حتى أعطاهم بعض ما أرادوه، فأظهر الكفر بلسانه، نجاتاً لروحه من الهلاك.

روى ابن جرير الطبري بسنده، أن الآية نزلت في «عمّار بن ياسر» أخذه المشركون فعذّبوه عذاباً لا يُطاق، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا - وفي بعض الروايات أنه سبّ النبي، وذكر آلهتهم بخير - ثم جاء إلى النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له رسول الله ﷺ: «كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان والحمد لله، فقال: إن عادوا فعُدّ» فأنزل الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(١).

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٨٢/١٤.

العزيمة أفضل من الرخصة

والآية وإن كانت قد رخصت للمكروه إظهار كلمة الكفر، بشرط أن يكون قلبه عامراً بالإيمان، إلا أن الأفضل والأولى كما قال العلماء أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى ذلك إلى قتله، فإنه يكون شهيداً، وهذه هي العزيمة، وأما الرخصة فقد أباحها الله للضعفاء، الذين لا يتقوون على تحمل العذاب ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾. أما من كفر بلسانه وقلبه، وأعطى المشركين ما أرادوه منه من الكفر، فانسلخ من ربة الإسلام، فهذا هو المرتد الخاسر، الذي تجري عليهم أحكام الردّة والعياذ بالله، وهو المخلد في نار الجحيم، الذي قال فيه: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

وقد ذكر تبارك وتعالى من صفات هذا الشقي الخاسر هنا خمس صفات هي: الغضب من الله، وحرمانه من الهدى، والعذاب العظيم، والطبع على قلبه، وجعله من الغافلين كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا، فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ. لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

من روائع القصص في التاريخ

وإليكم هذه القصة الرائعة، من قصص البطولة والفداء، للصحابي الجليل «عبد الله بن حذافة» رضي الله عنه وأرضاه فقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمته له، أنه لما وقع أسيراً في يد الروم،

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٧.

جاءوا به إلى ملكهم، فعرض عليه النصرانية، وقال له: تَنْصَرُ وأنا أشركك في ملكي، وأزوجك إبتني!! فقال له رضي الله عنه: لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما تملكه العرب، على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طَرْفَةَ عَيْنٍ ما فعلت، فقال: إذا أقتلك، فقال: أنت وذاك، قال: فأمر به فُصِّلب - أي وُضِع على عمود مربوطاً بالحبال - وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به الملك فأنزل ثم أمر بقدر كبيرة من نحاس فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر إلى ما يُصنع به، فإذا هو عظامٌ تلوح، وعرض عليه النصرانية فأبى، فأمر به أن يُلقى فيها، فُرفِع في البكرة لِيُلْقَى فيها، فبكى، فطمع فيه ودعاه، فقال: ما يبكيك؟ فقال: إني إنما بكيتُ لأن نفسي إنما هي نفسٌ واحدة، تُلقى في هذا القدر الساعة في الله، وقد أحببتُ أن يكون لي بعدد كل شَعْرَةٍ في جسدي، نفسٌ تعذب هذا العذاب في الله . . فلما رأى صلابته سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه ولم يأكل منه - وقد كاد يهلك من الجوع والعطش - ثم استدعاه فقال له: ما منعك أن تأكل منه؟ فقال: إنه قد حلَّ لي، ولكن لم أكن لأشمتك بي، فقال له الملك: قَبِّلْ رأسي وأنا أطلق سراحك، فقال: وتطلق معي جميع أسرى المسلمين؟ قال: نعم، فقبَّل رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسرى المسلمين، فلما رجع إلى المدينة المنورة، وبلغ عمر قصته وخبره، قال عمر رضي الله عنه: «حقُّ على كل مسلم أن يقبِّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام فقبَّل رأسه وقبَّله المسلمون»^(١).

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٤٨.

الهجرة تمحو الذنوب والآثام

ثم تابعت السورة وهي تتحدث عن أناسٍ من المسلمين ضعاف، فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب، ولكنهم هاجروا بعد ذلك، عندما أمكنهم الخلاص، ووافتهم الفرصة، فحسن إسلامهم، وجاهدوا في سبيل الله، صابرين على تكاليف الدعوة، محتسبين للأجر والثواب، فهؤلاء يبشرهم الله أنه سيغفر لهم ويرحمهم، ويعفو عن زلّتهم، بعد الهجرة والجهاد، والانتظام في سلك المؤمنين المجاهدين، وفيهم يقول تقدست أسماؤه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا، ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الجزاء في اليوم الرهيب

ثم يأتي بعد ذلك، الحديث عن ذلك اليوم العصيب الرهيب، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب، ولا يفيد فيه مال ولا ولد، ويأتي فيه كل إنسانٍ، وحيداً فريداً، ليس معه أحد يجادل عنه، أو محامٍ قدير يدافع عنه، بحجة واضحة تدفع عنه العذاب، لأنه يوم تُشغل فيه كل نفسٍ بحالها، ولا تلتفت إلى غيرها، وفي ذلك اليوم الرهيب يكون

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٣٢٨/٢ المختصر.

جزاء المحسنين والمسيئين، إمّا إلى النعيم، وإمّا إلى الجحيم، والحاكم فيه ربُّ العزة والجلال ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا، وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهَمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وهو تعبيرٌ يُلقى ظلال الهول، على ذلك اليوم العسير، الذي يشغل كلَّ امرئٍ بنفسه، يريد نجاتها من عذاب الله ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(١).

جحود أهل مكة للنعمة

ثم تنتقل الآيات تصوّر حال أهل مكة في طغيانهم وضلالهم، وتكذيبهم لسيد المرسلين، فتضرب لهم المثل بقريّة كانت في سعةٍ ورخاء، وأمنٍ واطمئنان، وسعادةٍ ونعيم، ولكنها جحدت نعمة الله، فبدّل الله حالها، وغير مسارها، فسلبها نعمة الأمن والاطمئنان، وأذاقها آلام الخوف والجوع والحرمان، وحلّت بها الكوارث والمصائب، والبلايا والنكبات، وفي ذلك يقول جلّ ثناؤه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ذلك هو مثل أهل مكة، أمام نعمة الإسلام، وبعثة النبي عليه الصلاة والسلام، فقد جعل الله لهم حرماً آمناً، وهم في جوار البيت العتيق، والناس من حولهم يُتَخَطَّفُونَ، وأهل مكة في حراسة الله وحمايته، آمنون مطمئنون، رزقهم يأتيهم هنيئاً سهلاً، من كل مكان، مع الحجيج وقوافل المسافرين والعمّار، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبِّي إِلَيْهِ

(١) سورة عبس آية رقم ٣٤ إلى ٣٧.

ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴿١﴾؟ وهم ينعمون بالأمن والطمأنينة، والعيش الهنيء الرغيد، ولكنهم ما عرفوا قدر هذه النعمة العظيمة - نعمة بعثة هذا النبي العظيم محمد ﷺ - فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فعذبهم الله بالقحط والجذب، والجوع والحرمان، سبع سنين عصبية حتى أكلوا الجِيفَ والعِظَامَ، بدعوة النبي عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فاستجاب الله دعاءه، ورماهم بالجوع والقحط في تلك السنوات العجاف.

ومما يؤكد أن المثل يراد به أهل مكة - كفار قريش - أن الله تعالى أتبع الآية بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وهو قول ابن عباس وجمهور المفسرين. واللباس ما يلبسه الإنسان، ولكنه في الآية الكريمة، عبّر به تعبيراً رائعاً بأبداع صور البيان، شبّه ذلك اللباس من حيث الكراهية، بالطعم المرّ الشع، الذي ينفر منه الإنسان، على طريقة الاستعارة الممكنية، وحذف المشبّه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الإذاعة ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ واللباس لا يُذَاق، ولكنه الإبداع في التعبير، بأساليب العرب الرشيقة، كما قال البحرني في وصف الربيع:

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلُقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا مِّنَ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ

وكما قال الشاعر:

لَا تَضْحَكِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

فكل ذلك من تفنن العرب في أساليب البلاغة والبيان، وبأسلوب العرب نزل القرآن.

(١) سورة القصص آية رقم ٥٧.

شكر النعم واجب على المؤمنين

ولمَّا ذكر كفر أهل مكة لِنعَمِ الله، وما حلَّ بهم من النكبات والبلايا، أمر تعالى المؤمنين بشكر نعمه التي أسبغها عليهم، ليزيدهم من فضله وإنعامه، فبالشكر تدوم النعم، ثمَّ بيَّن لهم أن كلَّ ما حرَّمه الله، فإنما هو لخيرهم ومصلحتهم، لأن الله لا يُحرِّم إلا ما فيه مضرة في الدين والدنيا، وما فيه أذى للجسم والروح، وذلك من رحمته بعباده، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ، إِنَّ كُتُوبَكُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ. إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ، وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ، وَمَا أَهْلَ لِعَیْرِ اللهِ بِهِ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ، فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. وبعد هذا البيان عن الحلال والحرام، يُعقَّب القرآن الكريم في آياته البينات، على أولئك الذين تخطوا حدود ما شرع الله، فأحلوا وحرَّموا من تلقاء أنفسهم، دون حجة قاطعة من كتاب أو وحي، أو بيِّنة واضحة من عقلٍ منير، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ، وَهَذَا حَرَامٌ، لَتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

واستطردت السورة الكريمة الحديث عن اليهود، الذين عاقبهم الله بسبب إجرامهم وعصيانهم، بتحريم بعض الطيبات، عقوبةً لهم، لا لأنها في الأصل حرامٌ، ولكن بسبب البغي والإجرام ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

الله واسع المغفرة لعباده

وإتماماً للنعمة، وإظهاراً لواسع فضل الله عز وجل على العباد، فقد جاءت الآيات توضّح، أن من عصى الله بشتّى طرق العصيان، من شرك، أو مُنكر قبيح، أو معصية وذنّب، ثم تاب وأناب، وأصلح العمل بعد ذلك الزلل، فإن الله يغفر له، ويسعه برحمته، ويعفو له عن زلته، بشرط التوبة والإصلاح، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ، ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه، أو غير متدبرين لسوء العاقبة، لغلبة الشهوة عليهم، وهذا حال أكثر الناس، قال سفيان الثوري: جهالته أن يلتذّ بهواه، ولا يبالي بمعصية مولاه، وقال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، والآية تأنيسٌ لجميع العصاة والمذنبين، وفتح لباب التوبة إلى يوم الدين.

دعوة إبراهيم دعوة التوحيد الخالص

وتمضي السورة الكريمة، وهي توضّح حقيقة دعوة إبراهيم الخليل، صلوات الله وسلامه عليه، الذي يفتخر به العرب، لأنه جدهم، ويُقرّون بحسن طريقته، ووجوب الاقتداء به، ويفتخر به كذلك اليهود والنصارى، لأنه أبو الأنبياء، وإمام الحنفاء، وحامل لواء التوحيد، وباني صرح الإيمان، وكلُّ الأمم تعظّمه وتحترمه، حتى زعم اليهود أنه على ملّتهم ودينهم، وأدعى النصارى أن إبراهيم كان نصرانياً منهم،

فنزّل القرآن يخبر عن الحقيقة جليّة واضحة ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١).

وهنا في هذه السورة الكريمة، أوضح الله منهاجه، وبين ما كان عليه من توحيد الله عز وجل ورفض عبادة الأوثان والأصنام، ليكون ذلك رداً على المشركين، وعلى أهل الكتاب، الذين يخالفون منهجه وتشريعه، ويدعون أنهم على ملّة الخليل إبراهيم عليه السلام، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً، قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

خمس صفات في الثناء على إبراهيم

وصفه تعالى في هذه الآيات بخمس صفات، تشير إلى علو منزلته، ورفعة شأنه:

الصفة الأولى: أنه كان أمة، أي كان وحده أمة من الأمم، يعدل أمة كاملة، في صفات الخير والطاعة والكمال، كأنه جمع الفضائل والمحاسن التي تجتمع في الأمم، وكما قال القائل:

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ
فهو في برّه، ودينه، وصلاحه، واستقامته على شريعة الله، كأنه أمة وحده، كما قال ابن عباس: كان عنده من الخير، ما كان عند أمة، ولهذا قال تعالى مثنياً عليه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦٧.

الصفة الثانية: الخشوع والخضوع، والطاعة والإنابة، التي عمرت ذلك القلب المؤمن حتى صار نموذجاً للهداية والطاعة، والشكر والإنابة لله رب العالمين، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿فَأَتَىٰ اللَّهَ حَنِيفًا﴾ أي طائعاً، خاشعاً، عابداً «حنيفاً» أي متجهاً إلى الحق، مائلاً إليه، قال ابن كثير: القانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرفُ قصداً عن الشرك إلى التوحيد.

الصفة الثالثة: أن إبراهيم هو الذاكر الشاكر، فهو عبدٌ قد أخلص نفسه لله، وباعها في طلب مرضاته، اختاره الله لخلته، فسمي «خليل الرحمن» كان شاكراً في النعماء صابراً في الضراء، وقد ابتلي بأنواع من البلاء، ابتلي بذبح ولده، وبإلقائه في النار، وبالهجرة من الوطن، فكان مثلاً رائعاً في العبودية، كما كان مثلاً في الصدق والوفاء، والشكر والثناء، ولهذا جعله الله إماماً يقتدى به، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الصفة الرابعة: ما جعل الله له من الذكر الحسن، والمقام الرفيع في الدنيا والآخرة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

قال قتادة: حَبَّه الله إلى جميع الخلق، فكل أهل الأديان يُقرُّون بفضله، ويعترفون بمآثره، اليهود والنصارى والمسلمون، وخصوصاً كفار قريش، فإن فخرهم وعزهم كان بإبراهيم الخليل، باني البيت العتيق، وذلك ما جعل جميع الطوائف تنتسب إليه، إجابة لدعوته: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾.

الصفة الخامسة: أمرُ الله عز وجل لمحمد سيد الأنبياء، باتباع ملته، والسير على منهجه، والتمسك بشريعته الحنيفية السمحة ﴿ثُمَّ

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿﴾ وكفى بهذه الصفات والخصال الجليلة فضلاً، وإظهاراً لقدرة إبراهيم الرفيع عند الله، ومكانته لديه. ولما كانت الأمة المحمدية، ممثلة في شخص نبيها الكريم محمد بن عبد الله، هي أحق الأمم بالانتساب إلى أب الأنبياء، إبراهيم الخليل صلوات الله عليه، وقد أمر نبينا بالافتداء به، ولهذا فقد برأ الله إبراهيم ومحمداً من ضلالات اليهود والنصارى، فيما اخترعوه من مناسبات وأعياد، مع أن هذه الطوائف تزعم أنها على شريعة إبراهيم، وذلك هو محض الكذب والافتراء، على أب الأنبياء، فقد جعل اليهود السبت يوم عيدهم، والنصارى جعلوا يوم الأحد يوم راحتهم وعيدهم، وزعموا أن ذلك هو شرع إبراهيم، وقد نزل القرآن بتكذيبهم وردّ افتراءاتهم فقال تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والمعنى: لم يكن تعظيم يوم السبت وترك العمل فيه، من شريعة إبراهيم، ولا من شعائر دينه، وإنما جعل تغليظاً على اليهود، لاختلافهم في الدين، وعصيانهم أمر الله، حيث نهاهم عن الاصطياد فيه فاصطادوا، فمسخهم الله قردة وخنازير، وسيفصل بينهم الله يوم القيامة، ويرون عاقبة البغي والعدوان.

الدعوة إلى الله بالحكمة

وبعد هذا التوضيح والبيان، في انحراف أهل الكتاب عن شريعة إبراهيم الخليل، أمر الله رسوله الكريم أن يدعو اليهود، والنصارى، والمشركين، وسائر الناس، إلى دين الله وشرعه، بتلطف ويسر، وبأسلوب الحكمة التي تُقنِعُ العقول، والموعظة الحسنة، التي تنير الصدور، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
 أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٥﴾ والمعنى: ادع الناس
 يا محمد إلى دين الله، وشريعته القدسية، بالأسلوب الحكيم، مع
 اللطف واللين، بما يؤثر فيهم وينجع، لا بالقسوة والشدة، والزجر
 والتأنيب، وجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة
 والمناظرة، بالحجج والبراهين، وليس عليك هدايتهم، إنما عليك
 البلاغ وعلينا الحساب، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا
 عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة هي أحد أسس التربية
 الإيمانية، التي كُلف بها نبينا الكريم، والدعاة من بعده والمصلحون،
 وهي عنصر هام في إصلاح الأمراض الاجتماعية، فإن النفس البشرية
 لها تمردٌ وتكبر، فما لم يسلك الإنسان الطريقة الحكيمة في معالجتها،
 عصت وبغت وتمردت، فعلى الداعي الناصح، أن يدعو بالرفق واللين،
 من غير فظاظة ولا تعنيف، والموعظة الحسنة هي التخويف والتحذير،
 والتلطف بالشخص بأن تُجلِّه وتنشِّطه، وتجعله يقبل النصح برضى
 واطمئنان.

الصبر وتحمل أذى الجاهلين

وختمت السورة الكريمة، بأمر الرسول بتحمل الأذى، والصبر
 على سفاهة الجاهلين، ورعاية العدل والإنصاف في جميع الأمور
 والأحكام، مع الخصوم والأعداء، فإن الداعي لا بد أن يناله شيء من
 الأذى والمكروه، فما لم يكن متدرعاً بالصبر، ورحابة الصدر، أخفق في
 دعوته، ولم يصل إلى غرضه ومبتغاه ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا

تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا،
وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٧٤﴾ وهكذا ينير القرآن الطريق للدعاة المرشدين،
والهداة المصلحين، لیسلكوا السبیل القويم فی إصلاح المجتمع،
ومعالجة الأمراض الاجتماعية، فإن مرض القلب أخطر من مرض
الجسد، ومعالجته تحتاج إلى صبر، وحلم، وأناة، وبدون ذلك لا
نجاح ولا فلاح، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهت بعونه تعالى وتوفيقه سورة النحل

* * *

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

مَكِّيَّةٌ وَأَيَّانَهَا إِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَةً

أهداف السورة الكريمة

● سورة الإسراء من السور المكية، التي تهتم بشئون العقيدة، وأصول الإيمان، شأنها كشأن سائر السور المكية، التي تتحدث عن أسس العقيدة الإسلامية وأصول الدين، وتعالج فكرة الإيمان بوحداية الله عز وجل، وما يتبعها من أمر الرسالة والنبوة، وأمر الحساب والجزاء والبعث والنشور، ولكنَّ العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو «شخصية الرسول» ﷺ وما أيده الله به من المعجزات الباهرة، والحجج الساطعة، الدالة على صدق رسالته عليه الصلاة والسلام.

● تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء، التي كانت مظهراً من مظاهر التكريم الإلهي، لخاتم الأنبياء والمرسلين، وآية باهرة تدل على قدرة الله جلَّ وعلا في صنع الغرائب والعجائب، فإن قطع مسافةٍ طويلة، تحتاج إلى شهرين، في أقلَّ من ليلةٍ واحدة، أمرٌ معجزٌ خارق للعادة في ذلك الحين، حيث لم يكن سيارات، ولا طائرات، ولا مراكب فضائية تقطع في ساعات هذه المسافات الخيالية.

● وتحدثت السورة عن بني إسرائيل، وما كتب الله عليهم من التشرذم والذل والهوان في الأرض مرتين، بسبب فسادهم وطغيانهم، وعصيانهم لأوامر الله عز وجل، وما نزل بهم من أنواع العقاب والبلاء ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ، لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَإِذَا

جَاءَ وَعَدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ، فَجَاسُوا خِلَالَ
الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا. . . ﴿ الآية .

● ثم انتقلت للحديث عن بعض الآيات الكونية العجيبة، التي تدل على
العظمة والوحدانية، وعن النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار، ويسير
وفق ناموس ونظام ثابت لا يتبدل ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ، فَمَحْوَنًا
آيَةَ اللَّيْلِ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً، لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ. . .﴾ الآية .

● ثم انتقلت السورة لتوضيح بعض الآداب الاجتماعية، والأخلاق الفاضلة
الزكية، التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن، ليكون هناك المجتمع المثالي
الفاضل، في أخلاقه، وآدابه، ومعاملاته، الذي ينشده الإسلام ﴿وَأَتِذَا
الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، وَالْمِسْكِينَ، وَابْنَ السَّبِيلِ، وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا، إِنَّ الْمُبْذِرِينَ
كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا. . .﴾ الآية .

● وتحدثت السورة الكريمة عن موضوع «البعث والنشور» الذي كثر حوله
الجدال، فأقامت الأدلة والبراهين على إمكانه، وأنه حق لا مندوحة منه
﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا؟ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً
أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا؟ قُلِ
الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ. . .﴾ الآية .

● ثم انتقلت للحديث عن القرآن العظيم «معجزة محمد الخالدة» فبينت
عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، وذكرت تعنت المشركين في
اقتراحاتهم التي عرضوها على النبي ﷺ كشرط للإيمان به، حيث طلبوا
منه أن يفجر لهم الأنهار، ويزيل عنهم الجبال، ويجعل لهم مكة حدائق
وبساتين غناء، أو يصعد أمامهم إلى السماء فيأتيهم بكتاب من عند الله، قد
سُطر فيه أن محمداً رسول الله ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ
الْأَرْضِ يَنْبوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ، فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ
خِلَالَهَا تُفَجِّرُهَا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتِ عَلَيْنَا كِسْفًا، أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ قِبَلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ، أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ،

وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفِيكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا
بَشَرًا رَسُولًا؟.

● وختمت السورة الكريمة بتعظيم الله وتمجيده، والإيمان بوجوده ووحدانيته، وتنزيهه عن الشريك، والزوجة، والولد، لأنه الواحد الأحد، وتقديسه وتنزيهه عن صفات العجز والنقص ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تُخَافُوا بِهَا، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا. وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيٍّ مِنَ الذَّلِيلِ، وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا﴾. وهكذا بدأت السورة بالتسبيح والتنزيه، وختمت بالتقديس والتمجيد، ليتناسق البدء مع الختام، على أبداع صور البيان.

معجزة الإسراء والمعراج

ولنبداً بالتوضيح والتفصيل لسورة الإسراء، بعد ذلك الإيجاز والإجمال، مستمدين من الله عوناً وفتحاً.

ابتدأت السورة الكريمة بذكر تلك المعجزة العظيمة «معجزة الإسراء والمعراج» التي كانت لسيد الرسل محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وقد كانت حادثة الإسراء من أعظم معجزاته ﷺ التي سجّلها القرآن في كتابه الخالد بحروفٍ من نور، وسطّرها لتظلّ خالدةً باقية، تتلى على كثر الدهور ومرّ الأزمان، تشير إلى مكانة هذا النبي العظيم، وعلو قدره ومنزلته عند الله، حيث لم يكن مثل هذا الاحتفاء والتكريم لأحد من البشر سوى النبي العربي الهاشمي، الذي خصّه الله بالعروج إلى مكان القدس للمناجاة، وأسرى به من البلد الحرام إلى المسجد الأقصى، ليريه من آياته الكبرى، وليلتقي بالأنبياء والمرسلين فيصلّي بهم إماماً، وذاك تشريف ما بعده تشريف، واحتفاء ما بعده

احتفاء بسيد الرسل والأنبياء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا، مِنْ
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ مِنْ
 آيَاتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ والإسراء معناه: السفر ليلًا، مأخوذ من
 السَّرَى وهو المشي في الليل، والسير في ظلمة الليل كما قال الشاعر:

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
 وَبِتَّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً مِنْ «قَابِ قَوْسَيْنِ» لَمْ تُدْرِكْ وَلَمْ تُرْمِ

الإسراء كان يقظة بالجسد والروح

والإسراء برسول الله ﷺ كان بجسده وروحه، يقظة لا مناماً،
 حقيقة لا خيالاً، دَلَّ عليه أن الله تقدست أسماؤه بدأ السورة بتنزيهه عن
 صفات النقص، التي تعترى المخلوقين، فهو الإله القادر الذي يصنع
 الأعاجيب ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ أي تنزّه وتقدّس الإله
 العليُّ الشأن عمّا لا يليق بجلاله، الذي أسرى بعبده أي سافر به،
 وانتقل به في جزء من الليل، وطائفة من ساعات الليل، والعبد اسم
 لمجموع الجسد والروح.

قال الحافظ ابن كثير: والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو
 كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار
 قريش لتكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وقد ذكر تبارك
 وتعالى الزمان، والمكان، ليدل على أنها رحلة حقيقية، وحادثة واقعية،
 ليست خيالاً ولا مناماً، فالزمان هو الليل ﴿لَيْلًا﴾ وقد ورد بلفظ التنكير،
 لبيان تقليل مدة الإسراء، وأنه سبحانه قطع به المسافات الشاسعة
 البعيدة، في جزءٍ وطائفةٍ من الليل، وكانت المسافة مسيرة أربعين ليلة،
 قُطعت في هذه المدة اليسيرة، أمّا المكان فهو من «البلد الأمين» - مكة -

شرفها الله، إلى «بيت المقدس» في أرض فلسطين ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ أي من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، وسُمِّي بالأقصى لبعُد المسافة بينه وبين المسجد الحرام، والغاية من هذه الرحلة، الاحتفاء بسيد الأنبياء، والتكريم لإمام المرسلين ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي لنري محمداً آياتنا العجيبة، ونظلمه على ملكوت السموات والأرض، فيرى عظمة خلقنا، وبديع صنعنا، إن الله هو السميع لأقوال محمد، البصير بأفعاله، فلهذا خصّه بهذه الكرامات والمعجزات، احتفاءً وتكريماً لنبيه وحببيه محمد ﷺ.

ولو كانت حادثة الإسراء قصة منامية، لما ذكرها الله في كتابه العزيز، بهذا التصوير والتحديد، ولما كذّبه المشركون، فإن كل واحدٍ منّا يرى في منامه ما هو أعجب وأغرب، ولا يكذبه الناس، ولكنها آية من آيات الله الباهرة، وهي نُقْلةٌ عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر، أما بالنسبة إلى قدرة الخالق العظيم جلّ وعلا، فإنما تجري كلمح البصر، لأن الله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هكذا نؤمن بأن الله أسرى بعبده محمد - كما أخبرنا القرآن - حقيقة لا خيالاً، يقظة لا مناماً، بجسده وروحه، وكانت معجزة الإسراء تكريماً لسيد الأنبياء عليه أفضل الصلاة والتسليم.

الربط بين الرسالات السماوية

وبمناسبة الحديث عن المسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء بسيد الأنبياء، وللربط بين رسالة «محمد» ورسالة «موسى» عليهما السلام، يأتي الحديث في هذه السورة الكريمة، عن «موسى الكليم» مع بني إسرائيل، وما في قصته من أحداث غريبة عجيبة، تستدعي

الانتباه والنظر، والتفكر في عاقبة بني إسرائيل، وما جرى عليهم من المصائب والمحن، بسبب ارتكاسهم في الغي والضلال، وعصيانهم لأوامر الله العلي الكبير، وكما أكرم الله محمداً بالإسراء والمعراج، فقد أكرم موسى بالتكليم والمناجاة، وأنزل عليه التوراة نوراً وهدى لبني إسرائيل، ولكن اليهود لم يقدرُوا هذه النعمة الجليلة، فكفروا وطغوا وأفسدوا، فسَلَطَ اللهُ عليهم شرار الخلق «المجوس» فخرَّبوا الديار، وسفكوا الدماء، ورمَلوا النساء، وعاثوا في الأرض فساداً، وهكذا ينتقم الله من الظالمين بالظالمين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ، أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً. ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا. وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا. ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ، وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

سيرة بني إسرائيل

وهذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل، لم تذكر في القرآن إلا في هذه السورة، وهي تتضمن نهاية بني إسرائيل التي صاروا إليها، ودالت دولتهم وذهب مجدهم وسلطانهم بها، وتكشف عن العلاقة المباشرة، بين مصارع الأمم، وفسوُ الترف والفساد فيها، وفاقاً لسنة الله تعالى - التي سيذكرها في هذه السورة بعد قليل - وهي أنه إذا قدر الله الهلاك لأهل قرية، جعل إفساد المترفين فيها سبباً لهلاكها وتدميرها ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً، أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ، فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾.

وإنما ذكر تبارك وتعالى «نوحاً» في قصة بني إسرائيل، ليدكرهم بواجب الشكر، فإنهم من ذرية ذلك العبد الشكور «نوح» عليه السلام - جدهم الأكبر - الذي حُمل آباؤهم معه في السفينة، ولم يحمل معه فيها إلا المؤمنين، والنعمةُ على الآباء نعمة على الأبناء، ولهذا قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي يا ذرية ويا أبناء المؤمنين، الذين كانوا مع نوح في السفينة: لقد نجينا آباءكم من الغرق، فاشكروا الله على فضله وإنعامه، فإن جدكم نوحاً كان كثير الشكر لله، فاقتدوا به في الصلاح والدين، والشكر لرب العالمين.

إفساد اليهود في الأرض

ومع التذكير والتحذير، الذي ذكرهم الله به في التوراة، فإن بني إسرائيل أمعنوا في الغي والضلال، والإفساد والإجرام، ولم يشكروا الله على نعمه، ولم يعرفوا قدر النعمة التي أولاها لهم، فاستمروا على الكفر والعصيان، فعاقبهم الله شرَّ عقاب، وانتقم منهم أعظم انتقام ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ والمعنى: أخبرناهم وأعلمناهم في التوراة، بما يحدث منهم من إفساد وإجرام، وأنذرناهم عاقبة هذا الفساد، ليرتدعوا وينزجروا، فما نفع التذكير، ولا أفاد التحذير، وأوحينا إليهم بما قضيناه عليهم من الإفساد في الأرض مرتين، وطغيانهم فوق الأرض المقدسة طغياناً كبيراً، يكون من ورائه شرٌّ وبلاء مستطير.

وهذا القضاء إخباراً من الله عز وجل بما يكون منهم، حسب ما وقع في علمه الإلهي من حالهم ومآلهم، لا أنه قضاء قهري عليهم،

تصدر عنه أفعالهم^(١)، فالله تعالى لا يُجبر أحداً على معصية، ولا يأمر أحداً بفاحشة أو فساد، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)؟ أي أتفترون على الله وتكذبون من تلقاء أنفسكم؟

وإنما علمه سابق على الأحداث، وما أخبر عنه فهو واقع لا محالة، مع بقاء الإرادة والاختيار للبشر. ولقد قضى الله لنبى إسرائيل في الكتاب، الذي آتاه الله لموسى، أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وليعلنن علواً كبيراً أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، وكلما بغوا فجعلوا الارتفاع على الناس وسيلة للإفساد، سلط الله عليهم من يقهرهم ويذلهم، ويسومهم سوء العذاب، ويدمرهم تدميراً.

قال ابن عباس: أول الفساد قتلهم لنبى الله زكريا عليه السلام، والفساد الثاني قتلهم لنبى الله يحيى عليه السلام والظاهر - والله أعلم - أن الإفساد الأول ليس بقتل زكريا فحسب، بل هو بأنواع البغي والإجرام، فقد قتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء، وتعظّموا وتكبروا، واستحلّوا محارم الله، فذلك هو الإفساد للمرة الأولى، وقتلهم لزكريا كان من ضمنه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَاهُمَا،

(١) هذا هو الحق في موضوع الإخبار بالقضاء، فإنه إخبار عن علم الله بما سيحدث منهم، لا قضاء إجبار وإكراه على الفساد دون أن يكون لهم فيه إرادة أو اختيار، فإن الله تعالى أعدل من أن يجبر أحداً على عمل من الأعمال ثم يعاقبه عليه، وهذا ما قرره الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ﴿وقضينا إلى بنى إسرائيل﴾ حيث قال: أي تقدمنا إليهم وأخبرناهم وأعلمناهم بما في الكتاب أنهم سيفسدون في الأرض مرتين!.

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٨.

بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿١٨٣﴾ .

والمعنى: إذا جاء وعد أولي المرتين من الإفساد، سلطنا عليكم من عبيدنا أناساً جبارين، أولي قوة وبطش، وتعذيب وتنكيل، وقوله سبحانه: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي تردّدوا وطاقوا وسط دياركم، يروحون ويغدون، لا يخافون من أحد ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ أي عقاباً حتماً، وجزاءً مبرماً، لا يقبل النقض، لأنه وعد المنتقم الحكيم .

وهؤلاء الذين سلطهم الله على بني إسرائيل هم من المجوس «بختنصر المجوسي» السفاح ملك بابل وزبانيته قتلوا من بني إسرائيل ما يربو على سبعين ألفاً، وأفسدوا وخربوا ودمروا، وأسروا منهم أعداداً كبيرة، وهذا مروى عن سعيد بن جبير وغيره من كبار التابعين، ولا غرابة في ذلك فإن الله يسלט الكافر الفاجر، على المؤمن إذا عمل بمعصية الله، كما كتب عمر بن الخطاب في وصيته للجنود والجيش وهم يقاتلون الروم في بلاد الشام، فقال لهم: «وياكم والمعاصي وأنتم تجاهدون في سبيل الله، فإنها أخوف ما أخاف عليكم، ولا تقولوا: إن عدونا شرٌّ منا فلن يُسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هو شرٌّ منهم، كما سلط على بني إسرائيل لما انتهكوا محارم المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً» .

هذا هو وعد الله الذي قضى به على بني إسرائيل، أن يُسلط عليهم - عند الإفساد الأول - عباداً من عباده أولي بأسٍ شديد، وأولي بطش وقوة، يستبيحون الديار، ويروحون ويغدون فيها باستهتار، ويطئون من فيها بلا تهيب ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ لا يُخلف ولا يكذب . . حتى إذا ذاق بنو إسرائيل الويلات، ويلات الغلب، والقهر، والذل، فرجعوا إلى

ربهم، وأصلحوا أحوالهم، أдал الله لهم من أعدائهم، ومكّن للمستضعفين من المستكبرين ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي رددنا لكم الدولة والغلبة عليهم، لما تبتم وأنبتم، وأصلحتم أحوالكم مع الله، وجعلناكم أكثر رجالاً وأعداداً من عدوكم، لتستعيدوا قوتكم، وتبنوا دولتكم.

ثم تتكرر القصة من جديد، فيعود اليهود إلى الإفساد، ويعود عليهم العذاب والنكال، بشكل أشد وأفظع ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي الكرة الآخرة ويعني به المرة الثانية من الإفساد ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَلِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمُوا تَبِيرًا﴾ أي بعثنا من ينتقم منكم، فيجعلوا الذل والمهانة والمساءة بادية على وجوهكم، وليدخلوا بيت المقدس فيخربوه كما خربوه أول مرة، وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه تدميراً، فقد سلط الله عليهم بعد إفسادهم للمرة الثانية من شردهم في الأرض، ودمر ملكهم تدميراً، ويعقب القرآن على سياق القصة، بأن هذا العقاب قد يكون سبباً للعودة والإنابة إلى الله فيقول سبحانه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ، وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي لعل الله أن يرحمكم، ويغفر لكم ما صدر منكم إن تبتم وأنبتم، وإن عدتم إلى الإفساد والإجرام، عدنا إلى العقوبة والانتقام، وجعلنا جهنم سجناً ومحبساً للكافرين المجرمين، لا يجدون فيها مخلصاً، ولقد عادوا في زمن النبي ﷺ للإفساد، فسلب الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة العربية كلها، ثم عادوا إلى الإفساد منذ أمدٍ قريب، فسلب الله هتلر حتى جرّعهم غصص العذاب، وقتل منهم من قتل، وأحرق من أحرق، تصديقاً لوعده الله القاطع الذي لا يخل.

نعمة نزول القرآن على أمة محمد ﷺ

ثم تمضي السورة الكريمة - بعد ذلك البيان المستفيض، عما حلَّ
ببني إسرائيل من ألوان العذاب والتنكيل، بسبب بغيهم وإجرامهم -
فتحدث للمسلمين عن نعمة نزول هذا القرآن العظيم، ليستمسكوا
بحبله، ويعتصموا بهديه، ويستنبروا بنوره وضيائه، وكما أنزل الله على
بني إسرائيل التوراة فيها هدى ونور، فكذلك قد أنزل على المؤمنين هذا
الكتاب المبين، هدى وضياءً، ورحمة لمن آمن به، وعمل بأوامره
ونواهيه، وإذا لم يُقدَّر اليهود نعمة التوراة، فالواجب على المؤمنين أن
يقدِّروا نعمة القرآن، ويعلموا أنَّ به فلاحهم ونجاحهم، وسعادتهم في
الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا. وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

والحديث عن بني إسرائيل في الآيات السابقة، جاء تمهيداً
للحديث عن القرآن العظيم، تنبيهاً للعباد على أن طاعة الله، واتباع
هدي رسله، توجب للإنسان كل خير وكرامة، وأن معصيته توجب كل
عقوبة وإهانة، والعاقل من اهتدى بهداية الله، فأشرق في قلبه نور
الإيمان، وأعرض عن طاعة الشيطان، فهذا القرآن هو المخلص، وهو

المنقذ من عذاب الله، والهادي إلى الصراط المستقيم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾ أي يرشد للطريقة التي هي أقوم الطرق وأعدلها، فهو الدواء والعلاج للأمراض الاجتماعية، والنفسية، والاقتصادية، والسياسية، لأنه جمع قواعد وأصول السعادة الدنيوية والأخروية، كما قال الرسول الأعظم ﷺ في وصف هذا القرآن: «كتابُ الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبلُ الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا تنقضني عجائبه، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراطٍ مستقيم»^(١).

العجلة من طبائع البشر

ومن طبيعة الإنسان التعجل وعدم التمهّل، وقد يدعو على نفسه وعلى أهله وأولاده بما لا يحبُّ، ومن رحمة الله أنه تعالى لا يستجيب لهذا الإنسان العجول في دعائه بالشر، كما يستجيب له في دعائه بالخير، ولو استجاب له لهلك، أو أصابه ما لا تحمد عُقباه، ولهذا قال تقدست أسماؤه: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ، بِالْخَيْرِ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ والمعنى: يدعو الإنسان بالشر على نفسه كما يدعو لها بالخير، ولو استجيب له في ذلك لهلك ودُمّر، وهذا لما جُبِل عليه من العجلة.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه برقم ٢٩٠٨ من حديث الحارث الهمداني، ورواه الدارمي وأحمد في المسند جامع الأصول ٤٦١/٨.

قال ابن عباس: هو دعاء الرجل على نفسه وولده، عند الضجر، بما لا يحبُّ أن يُستجاب له، يقول: اللهم اهلكه، اللهم دمِّره، ونحو ذلك.

وتحتمل الآية معنى آخر كما ذكره الفخر الرازي وهو: «أن الإنسان قد يبالغ في الدعاء، طلباً لشيء يعتقد أن خيره فيه، مع أن ذلك الشيء يكون مصدر شره وضرره، وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء، وإنما يُقدم على مثل هذا العمل، لكونه عجباً مغتراً بظواهر الأمور، غير متفحص عن حقائقها وأسرارها»^(١).

آية الليل والنهار

ومن الآيات القرآنية، تنتقل السورة الكريمة إلى الآيات الكونية، لتذكر العباد بنعم الله الدينية والدنيوية عليهم، فالآيات القرآنية مصدر الهدى والرشاد، والآيات الكونية لمصالح ومنافع العباد، وقد أحكم الله نظام هذا الكون إحكاماً دقيقاً، وجعل فيه الآيات والعبر، فالليل والنهار من الآيات الباهرة، الليل لسكن الإنسان وراحته، والنهار لسعيه ومعيشته، وكل منهما يسير بنظام دقيق ثابت، يدل على وجود المدبر الحكيم، الخالق العليم، الذي هياً للإنسان سبيل العيش على سطح هذا الكوكب الأرضي، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً، لِيَتَّبِعُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَهُ تَفْصِيلاً. وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٦٢/٢٠.

يَلْقَاهُ مَنْشُورًا. اِقْرَأْ كِتَابَكَ، كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿اللَّيْلِ آيَةٌ
 بما فيه من الظلام، والنهار آية بما فيه من النور والضياء، ولولا تعاقب
 الليل والنهار لما تحققت راحة وسعادة الإنسان، وقد جعل الله الليل
 سكناً، يسكن في كل شيء من الإنسان، والحيوان، والنبات،
 والدواب، وجعل النهار للانتشار، والتقلب لطلب المعيشة في الأسفار.
 ومصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار، فلولا الليل ما حصل السكون
 والراحة، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش،
 فسبحان الواحد القهار.!

ومعنى قوله سبحانه: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي طمسنا الليل
 فجعلناه مظلماً لتسكنوا فيه ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جعلنا النهار
 آية باهرة، جعلناه مشرقاً بالنور ليحصل به الإبصار، ثم قال تعالى:
 ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أي لتطلبوا
 في النهار أسباب معيشتكم وتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام،
 بتعاقب الليل والنهار، فالليل للراحة والسكون، والنهار للسعي والكسب
 ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَانُهُ تَفْصِيلاً﴾ أي وكل أمر من أمور الدنيا والدين، بيناه
 للناس أحسن تبيين، وليس شيء في هذا الكون متروك للمصادفة
 والطفرة، وإنما هو بتدبير، وتقدير، وإحكام.

فوائد تعاقب الليل والنهار

ذكر تبارك وتعالى من فوائد تعاقب الليل والنهار ثلاثة أمور:

الأول : السكون بالليل راحةً للبدن، والسَّعْيُ بالنهار طلباً للرزق،
 وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ
 مُبْصِرَةً، لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

الثاني : معرفة الأيام، والشهور، والأعوام، ومعرفة أوقات الحج والصيام، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ﴾.

الثالث : التنبيه إلى وجود مدبر حكيم، يسير الكون بنظام دقيق، من غير خلل ولا اضطراب، فلو دام النهار لهلك الناس، ولو دام الليل لما كان هناك زروع ولا ثمار، ولا سعي ولا عمل، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا تَفْصِيلاً﴾.

كل إنسان مرتبط بعمله

ثم ذكر تبارك وتعالى أن النظام الكوني الذي يحكم الليل والنهار، يرتبط به سعي الناس، وعملهم من خير وشر، وجزاؤهم على الخير والشر، ويرتبط به عواقب الهدى والضلال، فقال جلّت عظمته: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي جعلنا عمله ملازماً له، لزوم القلادة للعنق، والسوار للمعصم، والطائر هنا استعارة لعمل الإنسان، وقد خاطب الله العرب بما يعرفون، إذ كانوا يتيامنون ويتشاءمون بالطير سارحةً وبارحةً، فأخبرهم تعالى بأوجز لفظ، وأبلغ إشارة، إلى أن جميع ما يلقي الإنسان من خير وشر، ملازمٌ له لا ينفك عنه، حتى يلقي جزاءه في الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ أي يرى عمله ظاهراً مكشوفاً لا يملك إخفائه، ويقول الله تعالى له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي كافيك اليوم أن تكون شاهداً على نفسك حاكماً عليها، قال الحسن البصري: يا ابن آدم لقد أنصفك ربك، عدل والله من جعلك حسيب نفسك. اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، يا رب العالمين.

إرسال الرسل رحمة إلهية

وتمضي السورة الكريمة وهي تبين رحمة الله بالعباد، بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، وحكمه العادل في أن الإنسان لا يؤاخذ بذنب غيره، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه، فهي «التبعة الفردية» والمسئولية الشخصية، التي تربط كل إنسان بنفسه، إن اهتدى فلها، وإن ضلّ فعليها، وما من نفس تحمل وزر أخرى، وما من أحدٍ يُخَفَّفُ حمل أحد، إنما يُسأل كلٌّ عن عمله، ويُجزى كلٌّ بعمله، وذلك هو كمال العدل في قانون الله عز وجل، الذي لا يُحابي فيه شخص على حساب شخص، ولا يُحمل من إنسان على إنسان، لأن ذلك يجانب الحقَّ والعدل، الذي جعله الله معيار الحساب والجزاء، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

والمعنى: من آمن واتبع الحقَّ، واهتدى باقتفاء هُدي المرسلين، فإنما يجني عاقبته الحميدة لنفسه ومن ضلَّ عن الحق، وزاغ عن سبيل الهدى والرشاد، فإنما يجني على نفسه، ولا يعود وبال ذلك إلا عليه، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي لا يحمل أحدٌ ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه.

كل إنسان يُجازى بما جناه

هذا هو العدل الإلهي، والحكم السماوي الذي قرره الله في كتبه، وعلى ألسنة رسله، ولا تعارض ولا تنافي بين هذه الآية الكريمة، وبين قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ فإن هذه الأثقال التي حملوها فوق أوزارهم، هي في الحقيقة من كسب أيديهم ومن صنعهم، فإن الدعاة إلى الضلالة، عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثم من أضلّوه ودعوه إلى معصية الله، فلولا أنهم حسّنوا إليه القبيح، وزينوا له المنكر، لما ضلّ ذلك الإنسان عن طريق الله المستقيم، فهم قد تسببوا لضلاله، والمتسبب أخ للمجرم في الذنب، وشريك له، كالذي يعين القاتل على القتل، والسارق على السرقة، يشاركهما في الإثم والإجرام، وهذا من عدل الله بعباده، وقد قال صلوات الله عليه: «ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١).

لا عقاب إلا بعد الإنذار

وقد شاءت رحمة الله، ألا يأخذ الإنسان بالآيات الكونية، الماثورة في صفحات هذا الوجود، الناطقة بوجوده ووحدانيته، وألا يأخذه بعهد الفطرة، الذي أخذه على بني آدم في ظهور آبائهم، فإن ذلك العهد قد يُنسى، إنما يرسل إليهم الأنبياء والمرسلين، مذكّرين ومنذرين، لتقوم عليهم الحجة، ولا يبقى لأحدٍ عذر يوم القيامة، ولهذا ختم الله الآية الكريمة بقوله جل ثناؤه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي وما كنا معذبين أحداً من الخلق، حتى نبعث لهم الرسل هداةً مرشدين، يبلغونهم

(١) الحديث أخرجه مسلم في العلم رقم ٢٦٧٤ والترمذي وأبو داود، وانظر جامع الأصول

أوامر الله، ويرشدونهم إلى طريق الهداية والفلاح، وهذه رحمة من الله أن يُعذِر إلى العباد، قبل أن يأخذهم بالعذاب، والله سبحانه أحمق من يقبل العذر، إن كان هناك وجه شرعي مقبول من جهة العبد، فقد روى الإمام أحمد في المسند، أن رسول الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجلٌ أصمٌ لا يسمع شيئاً، ورجلٌ أحمق - أي مجنون - ورجلٌ هَرِمٌ - أي كبرت سنُهُ حتى أصيب بالخرف - ورجلٌ مات في فترة، فأما الأصمُّ فيقول: ربِّ قد جاء الإسلامُ وما أسمعُ شيئاً، وأما الأحمق فيقول: ربِّ قد جاء الإسلامُ والصبيانُ يحذفونني بالبعر، وأما الهَرِمُ فيقول: لقد جاء الإسلامُ وما أعقلُ شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ ما أتاني لك رسولٌ.. فيأخذ الله موثيقهم ليطيعنَّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار - أي يمتحنهم سبحانه بأمرهم بدخول النار - قال ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً»^(١).

إهلاك الطغاة المفسدين من الأمم

ثم تنتقل السورة الكريمة، لبيان سنَّة الله في إهلاك الظالمين، وأخذ أهل القرى بالعذاب العاجل في الدنيا، عندما يرتعون في الفسق والمجون، ويبغون في الأرض ويفسدون، فيهلكهم الله ويدمرهم، ويأخذهم بأشدَّ أنواع العذاب، الصالحون والطالحون، لأن الشرَّ والمنكر إذا فشا وانتشر، فذلك علامة فساد الأمة وتحللها، وتركهم لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعند ذلك يكون العذاب عاماً، والبلاء شاملاً ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً، أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ، فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٢٤/٤.

سؤال وجواب

وهنا سؤال لا بد من الجواب عليه، وهو كيف قال تعالى: ﴿أَمْرًا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾؟ وهل يأمر الله بالسوء والشر، حتى يأمر المترفين بالفسوق والفجور؟

والجواب من وجهين:

أولاً : ثبت بالنص القرآني القاطع، أن الله منزّه عن السوء ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟.

ثانياً : في الآية شيء محذوف يدلُّ عليه السياق، والمحذوف هو مفعول الأمر وهو الطاعة أي أمرناهم بطاعة الله ففسقوا فيها، كما تقول: أمرته فعصاني، فأنت لم تأمره بالعصيان إنما أمرته بطاعتك فعصى أمرك، ومعنى الآية الكريمة: وإذا أردنا إهلاك قوم من الأقسام، أمرنا الرؤساء والقادة والمنعمين فيها بطاعة الله، فعصوا أمرنا، وخرجوا عن طاعتنا، وفسقوا وفجروا، فاستحقوا العذاب بالفسق والطغيان، فدمرناهم وأهلكناهم إهلاكاً كاملاً. وهذا القول مروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير، قال ابن كثير: أمرهم بالطاعات، ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة. هذا هو الفهم السليم لآيات القرآن الكريم، وحكي قول آخر عن ابن عباس أن معنى: ﴿أَمْرًا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي سلطنا أشرارها، فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، قال وهي كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا...﴾.

التحذير من الترف

والمراد تحذير الأمة من الترف، والاستهتار بالقيم والمقدسات، والولوغ في الأعراض والحرمات، فإذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم، عاث الفجار في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة، وأشاعوها بين الناس، فحلَّ بالأمة العذاب والدمار. روي أن النبي ﷺ دخل على أم المؤمنين زينب رضي الله عنها، وهو فرعٌ يقول: لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، - وحلَّق بالسبابة والإبهام - إشارة إلى الفتن التي تحدث في آخر الزمان - قالت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»^(١).

الإنسان له حرية الإرادة والاختيار

ثم انتقلت السورة الكريمة، توضِّح الأمور، وتبيِّن الحقائق، وتردِّد على سفاهات الجاهلين، الذين يقولون لو شاء الله لنا الهداية لا هتدينا، ولو أراد لنا الخير والصلاح لكننا صالحين، فذكر تعالى أنه ترك للناس حرية الاختيار، بعد أن أرشدهم إلى السبيل، وأرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، فلم يترك لهم عذراً، فمن شاء أن يعمل للجنة فالطريق ميسرٌ، ومن أراد أن يكون حطباً لجهنم، فالطريق أيضاً له ميسرٌ، والله يعطي الإنسان من القدرة، والقوة، والإرادة، والاختيار، ما يجعله يسلك الطريق الذي يحبه، الذي يوصله إلى النعيم أو إلى الجحيم، ولا غصب ولا قهر ولا إكراه ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا. كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا. انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا . لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿ هَكَذَا يَبَيِّنُ اللَّهُ بِكُلِّ جَلَاءٍ وَوَضُوحٍ ، أَنَّهُ قَدْ تَرَكَ لِلإِنْسَانِ الْإِخْتِيَارَ ، فَهُوَ حُرٌّ أَنْ يَخْتَارَ الْجَنَّةَ أَوْ أَنْ يَخْتَارَ النَّارَ ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ هُمْ إِلَّا الدُّنْيَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا قَدَّرَهُ لَهُ ، لَا كُلَّ مَا يَرِيدُ ، ثُمَّ كَانَ مَصِيرُهُ جَهَنَّمَ ، يَدْخُلُهَا مَهَانًا حَقِيرًا مَطْرُودًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالَّذِي يَرِيدُ الْآخِرَةَ لَا يَدَّ أَنْ يَسْعَى لَهَا سَعِيهَا ، فَيَجِدُ فِي طَاعَةٍ وَيَجْتَهِدُ ، يَنْتَهِي إِلَيْهَا مُشْكُورًا ، يَتَلَقَّى التَّكْرِيمَ فِي دَارِ النِّعَمِ ، وَذَلِكَ جَزَاءٌ مِنْ أَحْسَنِ عَمَلًا ، وَهَكَذَا قَطَعَ اللَّهُ الطَّرِيقَ عَلَى الْمَجَادِلِينَ فِي آيَاتِ بِالْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ ، وَالْبِرْهَانِ النَّاصِعِ .

الآداب الإسلامية الحميدة

ثم يأتي دور التوجيه إلى الآداب الإسلامية الفاضلة، التي بها يسمو المجتمع، وتسد الأمة، ويعيش الإنسان عيشة العزة والكرامة، لأن الأمة إنما تسمو بأدائها، وتوزن بأخلاقها، وإذا هبطت الأخلاق، تلاشت الأمة وضاعت، وانحدرت إلى هاوية الجحيم.

وقد بدأت الآيات الكريمة بتوجيه الإنسانية إلى الإيمان بالله وتوحيده، وبر الوالدين، والإحسان إلى الفقراء، والأيتام والمساكين، وتحريم قتل الأولاد خشية الفقر، وتحريم سفك الدماء، والوفاء بالعهد، وإيفاء الكيل والوزن، والتحذير من الوقوع في أعراض الناس دون تثبت والنهي عن الخيلاء والكبر، وفي ذلك يقول جلَّتْ عِظْمَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ ، أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ، فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ ، وَلَا تَنْهَرُهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا

كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ، إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿١٩٦﴾.

حَقُّ اللَّهِ مَقْرُونٌ بِحَقِّ الوَالِدِينَ

جمع تعالى بين حقِّ الله وحقِّ الوالدين، لينبه على عظيم حقهما على الولد، فإنهما تعباً وشقياً من أجل سعادته وراحته، فعليه أن يقابل الجميل بالجميل، والإحسان بالإحسان، لاسيما عند بلوغهما الشيخوخة والكبر، فإن رعايتهما في هذا الوقت ألزم وأوجب، والتعبير يوحى بالشفقة والحنان، ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ فللشيخوخة دلالتها وإحواؤها، فكأنهما في هذه السنَّ أصبحا كالطفلين الصغيرين، يحتاجان إلى حماية ورعاية، وكلمة «عندك» تصوّر معنى الالتجاء والاحتماء، فقد ذهب عنهما القوَّة، والحيويَّة، والشدَّة، وجاء دور العجز، والضعف، والكلال، ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ فقد أصبحا لعجزهما لاجئين إلى من يحميهما، كما كان الولد في صغره يحتاج إلى حماية أبيه وأمه. . ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ﴾ وكلمة «أفٌ» تدل على السامة والضجر، وهي اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، فإذا كانت هذه اللفظة التي هي أقل مراتب الإساءة قد نُهي عنها، فكيف بالشتم أو الضرب أو اللعن؟ ثم حذره ممَّا هو أعظم فقال: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ والنَّهْرُ: الزجرُ بصياح أو إغلاظ كما قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ومعنى الآية: لا تقل للوالدين أقلَّ كلمة تظهر الضجر ككلمة أفٌ، ولا تزجرهما بإغلاظٍ فيما لا يعجبك منهما ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي قولاً حسناً ليناً طيباً، بأدب ووقار واحترام ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي تواضع لهما بتدلل وخضوع ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي أدع لهما

بالرحمة، وقل في دعائك: يا ربّ ارحم والديّ وأكرمهما، كما أحسنا تربيتي في صغري .

ما أسمى هذا الأسلوب البياني، الذي عرضه القرآن، في تصوير تواضع الإنسان لوالديه ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ فقد شبه الذل بطائر له جناح، فإذا طار فتح جناحيه ونشرهما، وإذا كفّ عن الطيران قبضهما إليه، فشبهه شدة التواضع لهما، بقبض الجناح، ولم يكتف بذكر الجناح بل أضافه إلى الذلّ، ليشعره بالانكسار والخضوع بين يديهما كأنه لذلك جناح مكسور، وإنه لتصويرٌ بالغ الروعة والجمال، بأبداع صور التعبير، بطريق الاستعارة المكنية كما يقول علماء البيان .

الإحسان إلى الضعفاء والمساكين

وبمناسبة الإحسان إلى الوالدين، يأمر تعالى بالإحسان إلى الضعفاء والمساكين، والأرامل والأيتام، فالناس كلهم عبيدُ الله، وأحبُّ الناس إلى الله أنفعهم لعباده ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ، وَابْنَ السَّبِيلِ، وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ وينهى القرآن عن التبذير، والتبذيرُ - كما يفسره ابن مسعود - الإنفاق في غير حقّ، وفي غير وجوه المنفعة .

قال مجاهد: «لو أنفق إنسانُ ماله كلّهُ في الحق، وفي وجوه الخير لم يكن مبذراً، ولو أنفق مدّاً في غير حقّ كان مبذراً» .

وقال قتادة: التبذير الإنفاقُ في معصية الله، وفي الفساد . فليس التبذير إذاً في الكثرة والقلّة في الإنفاق، إنما هو في موضع الإنفاق، ومن ثمّ كان المبذرون إخوان الشياطين، لأنهم ينفقون في الباطل، وينفقون في المعصية، وينفقون في الشر، فهم رفقاء الشياطين،

في السَّفه والغِيّ والفساد ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي جاحداً لنعمة الله، وكذلك إخوانه.

وإذا لم يجد الإنسان ما يعطف به على الفقراء والمساكين، وطلب منه الإحسان، ولم يكن لديه ما يعطيه أو يواسي به الفقير والمسكين، فليكن هيناً لينا في صرف هؤلاء، بالابتسام، وبالكمة الطيبة، وبالقول الجميل ﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾.

والمعنى: إن أعرضت عن ذوي القربى والمساكين، لأنك لم تجد ما تسدُّ به حاجتهم، فعدهم وعداً حسناً، وقل لهم قولاً لينا، مثل أن تقول: إن جاءنا رزقُ الله، فنصلكم إن شاء الله، ورب كلمة فاقت عطاءه، وكما أمر الله بالإنفاق والإحسان، نهى عن الشح والبخل، وذم الإسراف والتبذير ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ، فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾.

وهذه الآية على وجازتها أرست أصول الاقتصاد، فالتوسط في الإنفاق هو الذي يحفظ الإنسان من العوز والحاجة، ويضمن له الحياة الهنيئة السعيدة، والتوازن بين الدُّخْل والإنفاق، هو القاعدة الكبرى في المنهج الإسلامي، فلا بخل ولا شح، ولا سرف ولا تبذير، وخير الأمور أوساؤها.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ أي تصبح قعيداً عديم المال، يلومك الناس ويذمونك، محسوراً أي منقطعاً عن الإنفاق والتصرف، والحسير في اللغة: الدابة تعجز عن السير، فتقف ضعفاً وعجزاً، فكذلك من أسرف ماله وبذره، انقطع من المال، كمن ينقطع في سفره بانقطاع مطيته.

قتل الأولاد خشية الفقر جرم عظيم

وقد كان بعض أهل الجاهلية يقتلون البنات خشية الفقر والإملاق، فجاءت الآيات تحذّر من هذا العمل الوحشي القبيح، فالرزاق هو الله، وما دام الرزق بيد الله، فلا خوف على كثرة النسل إذاً، طالما تكفل الله برزق عباده ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي إن قتلهم ذنب عظيم، وجرم كبير، لا يفعله إنسان عاقل.

وكانوا يقتلون البنات بطريق الواد، ويتركون البنين، لعجز البنات عن الكسب، وقدرة البنين على القتل والغارة، وأيضاً فقد كانوا يخشون أن تزوج لغير الأكفاء بسبب الفقر، وذلك عارٌ شديد عندهم، وكلُّ هذه الأسباب مرفوضة شرعاً وعقلاً، فإن الأولاد نعمة، وقتلهم وحشية من أعمال الجاهلية.

التحذير من فاحشة الزنى

ثم يأتي النهي عن الزنى بعد النهي عن قتل الأولاد، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ والفاحشة هي العمل القبيح الذي تنهى في الشناعة والقبح، وقد ورد النصُّ القرآني بلفظ: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَ﴾ ولم يقل سبحانه: ولا تزنوا، لأنه أبلغ منه وأشمل وأوسع، حيث أفاد النهي عن مقدماته، كاللمس، والقبلة، والنظرة، والخلوة، وسائر ما يدعو إلى مقارفة هذه الفاحشة، فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن الفعل، وربَّ نظرةٍ ولدت حسرة، وجرَّت إلى ويلات وبلاء، كما قال الشاعر:

كَمْ نَظْرَةً فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا فَتَكَ السَّهَامِ بِلَا قَوْسٍ وَلَا وَتَرٍ
ولهذا السرُّ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَ﴾ أي اجتنبوا الزنى،
وابتعدوا عن كل أسبابه ودواعيه، ممَّا يجركم إليه ويوقعكم فيه، وفي
الربط بين قتل الأولاد والزنى صلةٌ ومناسبة، فإن الزنى قتلٌ في صورة
أخرى، لأن الزاني يصب ماء الحياة في غير موضعه، يتبعه غالباً الرغبة
في التخلص من آثاره بقتل الجنين بإسقاطه قبل أن يتخلق، وبعد أن
يتخلق للتخلص من تبعته أو خوفاً من الفضيحة، أو يكون من اللقطاء لا
يعرف له أباً ولا أمّاً، فيعيش لحياة شريرة أو حياة مهينة ويصبح خطراً
على المجتمع.

وما من أمة فشا فيها الزنى، إلَّا صارت إلى انحلالٍ ودمار، وليس
أدُلُّ على ذلك من هذا الطاعون الخبيث، كوليرا العصر، وهو «مرض
الإيدز» الذي هو أخطر بلاء على البشرية، وهو نتيجة لهذه العلاقات
الجنسية الأثيمة، التي فشلت في المجتمع الأوروبي والأمريكي، وهو
نذير بخطر كاسح يأتي على الأخضر واليابس، ويدمّر الأمم
والمجتمعات، نعوذ بالله من هذا البلاء والوباء.

جريمة القتل تدمر المجتمع

ثم تنتقل السورة للحديث عن جريمة القتل، وهي جريمة
اجتماعية خطيرة، تدمر بنيان المجتمع، وتجلب القلق والدُّعْر، وتهدد
الأمن والاستقرار، وتجعل البشر كالوحوش الضارية، يفترس القويُّ
الضعيف، ويسطو القادر على العاجز.

والإسلام دين الحياة، ودين السلام، فقتل النفس عنده كبيرةٌ تلي
الشرك بالله، فالله جلّ وعلا واهبُ الحياة، وليس لأحدٍ غير الله أن

يسلبها من الإنسان، إلا في الحدود التي رسمها المولى جلّ وعلا، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا، فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾.

فالنفس الإنسانية حرم لا يمس، وحرام إزهاؤها إلا بالحق، والحق هو الذي شرعه الله جلّ وعلا بطريق القصاص، أو بطريق العقوبة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ووضحه رسول الله عليه الصلاة والسلام في الحديث المروي في الصحيحين: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(١).

وبغير هذا الحق فجريمة لا تغتفر، كما نبّه عليه سيد البشر، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ، أَهْوَنُ مِنْ قَتْلِ مُسْلِمٍ»^(٢).

وفي الحديث الآخر: «ليس من نفس تُقتل ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ منها - أي وزرٌ من إثم قتلها - لأنه أولٌ من سنّ القتل»^(٣).

والحالات التي تُقتل فيها النفس بالحق هي ثلاث لا تزيد عليها:

-
- (١) الحديث رواه الشيخان «البخاري ومسلم».
 - (٢) الحديث رواه الترمذي والنسائي، وانظر جامع الأصول ١٠/٢٠٨.
 - (٣) الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي. جامع الأصول ١٠/٢٠٩.

أما الأولى فهي القصاصُ العادل.

وأما الثانية فهي دفعُ للفساد الاجتماعي في انتشار الفاحشة، وهي لونٌ من ألوان القتل كما ذكرنا.

وأما الثالثة فهي دفعُ للفساد الروحي، وهي الردّة عن الإسلام، الذي يشيع الفوضى في الجماعة، ويهدّد أمنها ونظامها، وإنما يُقتل المرتدُّ لأنه دخل في جسم الجماعة المسلمة، واطلع على أسرارها فخروجه بعد ذلك تهديدًا لها، وخطرٌ عليها.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ أي ومن قُتل ظلماً بغير حقٍّ شرعيٍّ يوجب قتله، فقد جعلنا لولي أمره ووارثه، سلطةً على القاتل بالقصاص منه، أو أخذ الدية، أو العفو ﴿فَلَا يُسْرَفُ فِي الْقَتْلِ﴾، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿أَي فَلَآ يَتَجَاوَزُ مَا حَدَّهُ اللهُ لَهُ﴾، استغلالاً لهذا السلطان، بأن يقتل غير القاتل، ممن لا ذنب له، كما كان يقع في الثأر الجاهلي، حيث يقتلون بالواحد اثنين أو عشرة، ويقتلون من أقاربه من لم يرتكب جرماً، سوى أنه من أسرة القاتل، فمثل هذا ظلمٌ وطغيان ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ ينصره الله، وينصره الحاكم على خصمه، فليكن عادلاً في قصاصه.

النهي عن إتلاف أموال اليتامى

ثم بعد النهي عن إتلاف النفوس، يأتي النهي عن إتلاف الأموال، وبخاصة مال اليتيم، فإنه بحاجة إلى حماية ورعاية، لا إلى من يطغى عليه فيسلبه قوته وماله، وما أحوج الطفل الذي فقَدَ حنان أبيه، إلى من يكفكف دمعته ويرعاه؟ ويثمر له ماله، ويدفع عنه عوادي الأيام، فهو يتيم وهو ضعيف، ومن واجب المجتمع حماية الضعيف، ولهذا وصّى الله عز وجل به، وحذّر من أكل ماله، بل من قربه على وجه الإضاعة

والإفساد، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

والمعنى: لا تتصرفوا بمال اليتيم، إلا بالطريقة التي هي أحسن، وهي حفظه واثميره، حتى يبلغ اليتيم سن الرشد، ويحسن التصرف في ماله، كما قال سبحانه: ﴿وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ، فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشَدًا، فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ ثم أمر تبارك وتعالى بالوفاء بالعهد، وهو كل عهد بينك وبين الناس، وبينك وبين الله، ومنها عهد رعاية مال اليتيم ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي يسأل عنها الإنسان يوم القيامة، هل وفاها أم لا؟.

الأمر بوفاء الكيل والوزن

وبعد الوفاء بالعهد، يأتي الحديث عن الوفاء بالكيل والوزن، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي إذا أتممت الكيل لمن تبعونه من غير تطفيف ولا بخس، ووزنتم بالميزان السوي بلا احتيال ولا خديعة فإن ذلك خير لكم في الدنيا، حيث تُشهرُونَ بالأمانة، وأحسن عاقبة ومالاً في الآخرة، حيث تنالون رضی الله.

والطمع في الكيل والوزن، قذارة وصغار في النفس، وغش وخيانة في التعامل، يزعزع الثقة بأفراد المجتمع، ولهذا أوعد الله بالعذاب الشديد عليه، حيث قال جل ثناؤه: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ؟ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟

حواس الإنسان أمانة يُسأل عنها يوم القيامة

ثم تنتقل الآيات الكريمة، إلى التحذير من إساءة الظنّ بالمسلمين، وعدم التسرع بالحكم على إنسان، أو اتهامه قبل أن يتثبت من الأمر، فإن أمانة الجوارح والحواس أمانة يسأل عنها الإنسان يوم القيامة ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ، وَالْبَصَرَ، وَالْفُؤَادَ، كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ وفي الحديث الصحيح: «ياكم والظنّ، فإن الظنّ أكذب الحديث»^(١) وبش مطية الرجل «زعموا».

التحذير من الخيلاء والكبر

وتختتم هذه التوجيهات الإلهية، التي دعت إلى الفضائل والآداب، ومكارم الأخلاق، إلى التحذير من الكبر والخيلاء، فلا يليق بالإنسان وهو العبد الضعيف العاجز أن يتكبر، وهو معروف البداية والنهاية ﴿وَلَا تَمْشِي فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ، وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

والمعنى: لا تمش في الأرض مشية المتكبر المختال، المعجب بنفسه، فإنك ضعيف هزيل، لا يليق بك الكبرياء فلن تستطيع بمشيتك أن تخرق الأرض فتجعل فيها شقوقاً، ولا أن تبلغ الجبال بتطاولك فتصل إلى ذراها؟ وهو أسلوب تهكمي رائع.

والكبرياء لا تليق إلا بالله جلّ وعلا، كما في الحديث القدسي الشريف: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، من نازعني فيهما قصمته ولا أبالي»^(٢) وقد أحسن الشاعر حين قال:

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٧١/٩ ومسلم برقم ٢٥٦٣.

(٢) الحديث أخرجه مسلم برقم ٢٦٢٠ وأبو داود برقم ٤٠٩٠.

وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الْأَرْضِ إِلَّا تَوَاضِعًا فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُ مِنْكَ أَرْفَعُ؟
وقال آخر:

تَوَاضِعٌ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لَاحٍ لِنَاطِرٍ عَلَى صَفْحَاتِ الْمَاءِ وَهُوَ رَفِيعٌ
وَلَا تَكُ كَالدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ إِلَى طَبَقَاتِ الْجَوِّ وَهُوَ وَضِيعٌ
رأى رجل من الصالحين شخصاً يمشي متكبراً، قد أعجبهت نفسه،
فهو يزهو ويتبختر، فقال له: قف، أتدري من أنت؟ أتعرف بدايتك
ونهايتك لماذا كل هذا العُجب والخيلاء؟ أولك نطفةٌ قدرة - أي مهينة -
وآخرك جيفةٌ قدرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة - أي النجاسة -
فاستحيا الرجل وخفض رأسه ومشى، وفي الحديث الصحيح: «من
تواضع لله رفعه، ومن تكبر على الله وضعه».

الإشراك بالله عقوبته الخلود في جهنم

وتمضي السورة الكريمة - بعد ذكر تلك الآداب والفضائل - إلى
ذكر العقيدة الإسلامية الصافية، التي هي أساس كل تكليف، وأصل كل
فضيلة، ومصدر كل خير وإحسان، فتنهى عن الشرك، وتحذّر من عاقبته
الوخيمة، لأن في الإشراك بالله جحوداً لفضله وإحسانه وتنكراً لعظمته
وجلاله، فهو وحده الخالق، وهو وحده الرازق، فكيف يجعل الإنسان له
شريكاً في ملكه؟ وسواء كان هذا الشريك حجراً أو بشراً، وسواء كان
ولداً أو ملكاً، أو أيّ وجه من وجوه الشركاء والأنداد، فقد حذّر الله منه،
ونهى عنه، وجعل عقوبته الخلود في نار جهنم، لأنه أعظم الكبائر
والذنوب، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ
رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا
مَدْحُورًا﴾ أي ذلك الذي تقدّم، من الآداب والأخلاق والأحكام، ممّا

أوحاه إليك ربك يا محمد، من المواعظ البليغة، والحكم الفريدة، ولا تشرك مع الله غيره من وثن، أو بشر، أو حجر، فتلقى في نار جهنم، يلومك ربك وتلومك نفسك، وتصبح مطروداً مبعداً من كل خير، مع الذل والهوان.

نَبَّهَ تَعَالَى إِلَى أَنْ التَّوْحِيدَ هُوَ رَأْسُ الْأُمُورِ وَأَسَاسُهَا، وَهُوَ مَبْدَاهَا وَمُنْتَهَاهَا، وَالْأَعْمَالُ بِدُونِهِ بَاطِلَةٌ دَائِرَةٌ.

زعمهم أن الملائكة بنات الله

وبأسلوب يدل على الاستنكار، والتهمك بعقول المشركين، يخاطبهم القرآن الكريم فيقول تقدست أسماؤه: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ، وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

والمعنى: هل خصكم الله بالذكر واختار لنفسه البنات؟ وكيف يجعل لكم الأعلى والأفضل من النسل والذرية ويختار لنفسه الأدنى؟ وهو أسلوب تهكمي لاذع، فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله - تعالى الله عن الصاحبة والولد علواً كبيراً - وهم يكرهون البنات ويقتلونهن خوف الفقر أو العار، ومع ذلك لا يستحون أن يقولوا الملائكة بنات الله!! فهل أصفاهم الله بالبنين المحبوبين، واتخذ لنفسه الإناث المكروهات؟ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي إن هذا الأمر منكر، عظيم في شناعته وبشاعته، عظيم في جرأته ووقاحته.

نفورهم عن التوحيد والإيمان

ويبين القرآن الكريم طغيان المشركين، ونفورهم عن الإيمان، وعن اتباع آيات الرحمن، فمع كثرة ما نوح الله لهم من المواعظ،

والحجج، والبراهين، بقيت نفوسهم شاردةً عن الله، مستعصيةً عن قبول الحق، لا تتعظ ولا تلين، وإلى ذلك يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا، وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

والمعنى: ولقد بينا في هذا القرآن، العبر والأمثال، والحكم والمواعظ، والوعد والوعيد، وسلطنا في إيضاحها طرقاً شتى، وأساليب متنوعة ليتعظوا ويعتبروا بما فيه من الحجج النيِّرة، والبراهين الساطعة، فينزعوا عما هم عليه من الشرك والضلال، وما يزيدهم هذا البيان والتذكير، إلا نفوراً عن الحق، وإعراضاً عن نور القرآن.. والنفور من أوصاف الدوابِّ الشرسة، الشديدة الجموح، وقد شبههم القرآن بهذا التشبيه الرائع، ليصورهم في أذهان المخاطبين، وكأنهم دوابُّ شاردة كقوله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ. كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾^(١) أي كأنهم حمراً وحشيةً نافرة، هربت فزعاً من رؤية الأسد.

تقرير الوجدانية بالأدلة العقلية

وتنتقل الآيات بعد ذلك، لتقرير وجدانية الله عزوجل، وإبطال مزاعم المشركين في وجود آلهة مدَّعاة، زعموا أنها شركاء مع الله، في الألوهية والربوبية، وهذه الآلهة المزعومة، إن هي إلا خلقٌ من خلق الله، سواء كانت نجماً أو كوكباً، إنساناً أو حيواناً، نباتاً أو جماداً فهي لا تملك من الحَوْلِ والطَّوْلِ، والقوة والقدرة، ما يجعلها تنافس الله في الربوبية، ولو كان لها تلك القوة القاهرة، والسلطان القويُّ، لطلبت مغالبة الله عزوجل، لتسلبه ملكه وسلطانه، وهذا من أظهر الدلائل،

(١) سورة المدثر آية رقم ٤٩ - ٥١.

على تفرد الله عزوجل بالوحدانية، والربوبية، والمُلك فهو الواحد القهار، الكبير المتعال، الذي يُسبِّح له كل ما في الوجود، من صامتٍ وناطقٍ، وإنسان وجماد، وكوكب وذرة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ، إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ، وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ والآية الكريمة وردت على سبيل الفرض والتقدير، فإن «لو» في لسان العرب: حرف امتناع لامتناع، فالقضية كلها ممتنعة، وليس هناك آلهة مع الله كما يزعمون ويدعون!!

والمعنى: لو فرضنا أن مع الله آلهة أخرى كما زعم المشركون، لطلب هؤلاء طريقاً إلى مغالبة الواحد المتعال، ذي العزة والجلال، ليسلبوا منه ملكه، كما يفعل ملوك الدنيا وسلاطينها حيث يكون بينهم منافسة على الحكم والسلطان، والغالب القاهر هو المنتصر على خصمه حتى يستتبَّ الملك له، فهذا هو المعنى المقصود من قوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي إذا لطلبوا قهر الله والاستيلاء على ملكه وسلطانه^(١). ثم قال سبحانه

(١) هذا أحد وجهين من أقوال المفسرين في الآية الكريمة، وهو مروى عن سعيد بن جبير وغيره من أئمة السلف، وهنا وجه آخر أن المعنى: لو كان الأمر كما تقولون، لكان أولئك المعبدون يبتغون سبيلاً إلى التقرب إليه، بعبادته وطاعته، ويطلبون الزلفى لديه، وهو اختيار ابن جرير وابن كثير، وهو مروى عن قتادة، والوجه الذي ذكرنا أظهر وأوضح - كما يقول العلامة أبو السعود - لأنه هو المناسب لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فإنه صريح في الإنكار لا في الإسرار والله تعالى أعلم.

منزهاً نفسه عن الشريك، والمنافس، والنظير: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تنزهه الله وتقدس، عما يقول أولئك الظالمون، وتعالى وتمجد عما نسبوه إليه من الزور والبهتان من الزوجة والشريك والولد، فإن مثل هذه الفرية ظاهرة البطلان، وقد جاء لفظ «العلو» بعد عنوان بلفظ «ذي العرش» في أعلى مراتب البلاغة والبيان، لأنه المناسب للعظمة والجلال.

ثم ذكر تعالى من دلائل تفرده بالألوهية والوحدانية، أن كل ما في الكون يُسَبِّحُه ويقده، في كلِّ حصاةٍ وكلِّ حجر، وكلِّ شجرة وكلِّ ورقة، وكلِّ زهرة وكلِّ ثمرة، وكلِّ دابةٍ وكلِّ حشرة، وكلِّ زاحف، وكلِّ سابح، وكلِّ ناطق وكل صامت، الكلُّ مع الملائة الأعلى في تسبيح وتمجيد ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي تُسَبِّحُ له جميع الكائنات، بلسان الحال أو بلسان المقال، ومن فيهن من المخلوقات، من ملك، وإنس، وجان ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي وما من شيء في هذا الوجود، إلا وهو ناطق بعظمة الله، شاهد له بالوحدانية، السموات تُسَبِّحُ الله في زرقتها، والحقول في خضرتها، والبساتين في نُضْرَتِهَا، والأشجارُ في حفيفها، والمياهُ في خريرها، والطيورُ في تغريدها، والشمسُ في شروقها وغروبها، والسُّحُبُ في أمطارها، والكل شاهد له بالوحدانية:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهٗ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي ولكن لا تفهمون تسبيح هذه الأشياء، لأنها ليست بلغاتكم ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي لا يعاجل من عصاه بالعقوبة لحلمه سبحانه، غفور لمن تاب وأتاب لأنه هو التواب.

سخريتهم بالرسول وتشويشهم عند تلاوة القرآن

وتمضي السورة الكريمة لتحدث عن كبراء قريش، في افتراءاتهم على القرآن، وأقوالهم الشنيعة فيه وفيمن أنزل عليه، فقد كانوا يستمعون إلى القرآن، ولكنهم لإغراقهم في الكفر والطغيان كانوا يجاهدون أنفسهم ألا يتأثروا به، أو ترقّ قلوبهم لآياته البينات، ويجتهدون للطعن فيه بشتى وسائل الطعن والتشويه، فكان بعضهم كلما سمع رسول الله ﷺ يقرأ القرآن، يرسل إليه من يقوم عن يمينه وشماله، ليصفق ويصفر ويخلط عليه بالأشعار، ولذلك فقد جعل الله على قلوب هؤلاء السفهاء أغلفة كالأغطية، فلا تفقه القرآن ولا تفهمه، وجعل لهم في آذانهم كالصمم، فلا تعي ولا تدرك ما فيه من نور وضياء، وفي ذلك يقول تقديست أسماؤه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا. وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوُوا عَلَى أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا. انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ والأكنة جمع كنان، وهو الغطاء الذي يستر الشيء، والمعنى: إذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجاباً خفياً، يحجب عنهم فهم القرآن، وإدراك أسراره وحكمه، وجعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفهموا آيات القرآن، وفي آذانهم صمماً يمنعهم من وصول نور بيناته، وإذا وحدت الله، فرّ المشركون ونفروا، من استماع كلمة الإيمان والتوحيد، ثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أي نحن أعلم باستماعهم للقرآن وبسبب هذا السماع حين يستمعون لقراءتك يا

محمد، فما غرضهم أن تستنير قلوبهم بنور آياته البينات، وإنما غرضهم السخرية والاستهزاء، فهم يتناجون بينهم، ويتحدثون سرّاً عن الناس فيقول بعضهم لبعض: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، قد سحر فاختلط عليه عقله، وزال عن حد الاستواء، فهو يهذي بهذا القرآن.

قصة الطواغيت الثلاثة من زعماء قريش

روى الحافظ ابن كثير في تفسيره «أن أبا سفيان، وأبا جهل، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحدٍ منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، وجمعتهم الطريق فتلاوموا، فقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه الشك، وظن أن ما يقوله محمدٌ حق، فعلوا ذلك ثلاثة أيام، كل يوم يخرجون ليستمعوا لقراءة النبي ﷺ ثم قالوا: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه ثم خرج، حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: يا أبا حنظلة أخبرني عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال يا أبا ثعلبة: والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يُراد بها، قال الأخنس: وأنا والله كذلك.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ لقد تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى كنا كفرسي رهان - يعني لا يسبقوننا ولا نسبقهم في الفضائل - حتى إذا تجاثينا على الركب، افتخروا علينا فقالوا: منا

نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس وتركه»^(١).

وهكذا يظهر مكابرة المشركين وعنادهم، فهم يعلمون الحق ويكابرون، ويسمعون القرآن ولا يؤمنون، لأن عيونهم عميت عن رؤية نوره الساطع، وقلوبهم مغطاة بحجب كثيفة، فلا تدرك أسرارها، ولا تفهم أحكامها، وكما حال الله بينهم وبين فهم القرآن، فقد حال بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام.

قصة العوراء امرأة أبي لهب

رُوِيَ عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت: جاءت العوراء أم جميل، امرأة أبي لهب، إلى رسول الله ﷺ، ولها ولولة - أي صوت - ويدها فهْرٌ - أي حجر رقيق حاد كالسكين - وهي تقول:

مُذَمَّمَا أَبِينَا وَدِينَهُ قَلِينَا وَأَمْرَهُ عَصِينَا

تقصد بقولها «مذمماً» محمداً ﷺ، وقد كان السفهاء من قريش يهجون الرسول بهذا اللفظ.

ورسولُ الله ﷺ جالسٌ وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر يا رسول الله: لقد أقبلت هذه العوراء، وأنا أخاف أن تراك، فقال له ﷺ: «إنها لن تراني» وأخذ يقرأ هذه الآيات الكريمة: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ قال: فجاءت حتى قامت على رأس أبي بكر، وأخذ الله بصرها فلم تر النبي ﷺ فقالت يا

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣٨١/٢ وقد ذكر هذه القصة «محمد بن إسحق» في السيرة النبوية بسنده عن محمد بن مسلم بن شهاب عن الزهري بالسياق الذي ذكره الحافظ ابن كثير.

أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني، فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك فأنصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني بنت سيدها.

شبهتهم حول البعث والنشور والرد عليها

ثم تنتقل السورة الكريمة، لتردّ على شبهات المشركين من كفار مكة، في إنكارهم المعاد والبعث والقيامة، فقد استبعدوا أن يردهم الله إلى حال الحياة بعد أن صاروا عظاماً ورفاتاً، وقالوا إن الإنسان إذا مات جفت أعضاؤه، وتناثرت وتفرقت أشلاؤه وعظامه، واختلطت بتراب الأرض، فكيف يعقل اجتماعها وعودتها إلى الحياة بأعيانها مرة أخرى؟ وقد حكى القرآن هذه الشبهة وردّ عليها بقوله تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا، أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا؟ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ، وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا. يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ردّ القرآن سفاهتهم وجهالتهم، بأنصع حجة، وأقوى برهان، فكأنه يقول لهم: إنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويردكم بعد الموت، إلى رطوبة الحيّ وعضاضته، فلو كنتم أبعد شيء من الحياة، لو كنتم حجارةً يابسة، أو حديدًا صلدًا - وهذه أبعد شيء من الحياة من رطوبة الحيّ، لما فيها من المساواة والصلابة - فإن الله قادرٌ على أن يردكم إلى الحياة مرة أخرى، لسبب بسيط هو أنكم تجهلون نشأتكم الأولى، فقد كنتم في العدم فأحياكم الله، فكيف لا يقدر على إعادتكم بعد تفتيت أوصالكم، الذي أنشأكم إنشاءً، قادرٌ على أن يردكم أحياءً، بل أفرضوا ما هو أبعد في التصور والاستحالة، أن تكون أجسامكم من

حجارة أو حديد، أو ما هو أوغل في البعد عن الحياة، مما يعظم في صدوركم، ولا تتصوره عقولكم، فسيبعثكم الله؟! فكيف تغفلون عن قدرة العلي الكبير، الذي يقول للشيء كن فيكون!! ولكن هؤلاء القوم لا ينتفعون ولا يقنعون ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟﴾ أي فسيحركون رؤوسهم ويهزونها سخرية واستهزاءً قائلين: متى سيكون هذا البعث والإحياء ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي قل لهم يا محمد لعلَّ وقته يكون قريباً .

ثم بين تعالى موعد البعث والنشور فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُونَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهكذا أفحهم الله بأقوى حجة وأوضح بيان .

التلطف بالقول مع المعاندين

وبعد ذلك البيان الساطع في تفنيد شبه المشركين، وإقامة الأدلة والبراهين، على إمكان البعث والنشور، تأتي الآيات لتأمر المؤمنين، بالرفق والتدرج عند إيراد الحجة على المخالفين، وأن يتلطفوا معهم بالقول، ولا يعاملوهم بمثل أفعالهم وأقوالهم، فالجاهل لا بد أن يُقابل بصدرٍ رحب من العاقل، وبخاصة المؤمن الداعية، فإنه كالطبيب ينبغي أن يكون لطيفاً ليناً مع المريض، لينقذه من خطر الداء القاتل، فيصبر على أذاه، ويتحمل سفهه وجهله، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ والمعنى: قل يا محمد لعبادي المؤمنين يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلمة الطيبة، ويختاروا من الكلام ألطفه وأحسنه ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ أي إن الشيطان يُفسد

بينهم، ويُهيج بين الناس الشرَّ، ويُشعل نار الفتنة، بالكلمة الخشنة المنكرة يُفلت بها اللسان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان، من قديم الزمان، يتلمَّس سَقَطَات لسانه، ليحدث العداوة والبغضاء بين البشر، فاحترسوا من شرِّه، والكلمة الطيبة تسدُّ عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق.

عاقبة المحسن والمسيء

ثم يأتي الحديث موضحاً عاقبة المؤمن والكافر، والمحسن والمسيء، فالدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، وهناك يلقي الإنسان جزاء ما قدم ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾.

والغرض من الآيات الكريمة تسليئة النبي ﷺ، بتوضيح أن مهمته التبليغ فقط، وليس مسئولاً عن اهتداء الناس أو ضلالهم، والرد على المشركين حيث استبعدوا أن يكون محمد رسولاً، وقالوا: كيف يكون يتيم أبي طالب نبياً من الأنبياء؟ وكيف يكون الفقراء الضعفاء أصحابه دون الأكابر والرؤساء ثم ذكر تبارك وتعالى أنه خصَّ كل رسول بخصلةٍ من خصال الفضل والخيرية، فخصَّ إبراهيم بالخلة وموسى بالتكليم، وسليمان بالملك العظيم وتعليمه لغة الطير، ومحمداً بالإسراء والمعراج، وجعله سيد الأولين والآخرين، كما خصَّ داود بتسيح الجبال معه، وأعطاه الزبور المشتمل على الحكمة وفصل الخطاب.

الآلهة التي عبدوها لا تضر ولا تنفع

وترجع الآيات بعد ذلك، لتسفيه عقول الذين اتخذوا آلهةً من دون

الله، أشركوهم مع الله في الألوهية، وتأتي بأسلوب التحدي السافر للمشركين، تطالبهم أن يدعوا الآلهة المزعومة لكشف الضر عنهم، أو تحويله إلى غيرهم، إن أراد الله بهم البلاء والعذاب ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

والمعنى: إن الذين تدعونهم آلهة من دون الله، لا يستطيعون رفع البلاء عنكم، ولا تحويله إلى غيركم وتلك الآلهة هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة، وهم بعبادتهم لله يرجون رحمته، ويخافون عقابه، ويتسابقون إلى رضاه فكيف تعبدونهم معه؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي عذابه تعالى شديد، جدير بأن يحذره الإنسان، ويخاف من وقوعه.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: «كان ناسٌ من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم» فذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾^(١) وقال ابن عباس: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة، والمسيح، وعزيراً، وهم المراد بالآية الكريمة^(٢) فكان الله تعالى يقول: هؤلاء الذين تعبدونهم، هم يتوسلون إلى الله بصالح الأعمال، ويطلبون رحمته ومغفرته ورضوانه، فكيف يليق بكم أن تعبدوا مخلوقين مثلكم، هم بحاجة إلى رحمة الله؟

(١) انظر فتح الباري على صحيح البخاري ٣٩٧/٨.

(٢) رواه الطبري عن ابن عباس وذكره ابن كثير ٣٨٤/٢.

نهاية الطاغين المكذبين

ثم بين تبارك وتعالى نهاية الأقوام الطاغين، والأمم المكذبين، وأن سنة الله في إهلاك الظالمين، لا بد أن تتحقق، قبل مجيء يوم القيامة، فقال تقديست أسماؤه: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

والمعنى: أنه ما من قرية من القرى الكافرة، التي عصت أمر الله، وكذبت رسوله، إلا وسيهلكها الله، إما بالاستئصال الكلي، كما أهلك قوم عاد وثمود، أو بالعذاب الشديد لأهلها، بأخذهم بالجوع والقحط، أو بالفيضانات والزلازل، كان ذلك الأمر حكماً مسطراً في اللوح المحفوظ لا يتغير، وفي الآية وعيد وتهديد للظالمين، حتى لا يغتر أحدٌ بإمهال الله عز وجل لهم، فالله يمهل ولا يهمل، وإذا أخذ الظالم أخذه أخذ عزيز مقتدر.

عدم تحقيق المقترحات رحمة بهم

وتمضي الآيات الكريمة، وهي تبين حكمة الله عز وجل في عدم إجابة المشركين لما اقترحوا من الآيات، فقد طلبوا من رسول الله عليه السلام، أن يزيل عنهم جبال مكة، ويجري فيها الأنهار، وأن يقلب لهم الصفا ذهباً، ولو أجابهم الله إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا كان هلاكهم محققاً كما هلك من قبلهم من الأمم، حين طلبوا من أنبيائهم بعض المعجزات، فلما جاءتهم ولم يؤمنوا أهلكهم الله بعذاب الاستئصال، وهذه الأمة مرحومة بنبيها، وقد قضى - والله - وحكم أن يُخرج من أصلاب المشركين، من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً، ولذلك لم يجبهم إلى ما

طلبوا وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

والمعنى: ما منعنا من إرسال المعجزات والخوارق التي طلبها قومك، إلا تكذيب من سبقهم من الأمم، حيث اقترحوا ثم كذبوا فأهلكهم الله ودمرهم، ولولا أنا قد حكمنا بعدم إهلاك قومك بعذاب الاستئصال إكراماً لك يا محمد، لأجنبناهم إلى ما طلبوا، ثم ذكر تعالى نموذجاً عن المهلكين ممن طلبوا الآيات والخوارق ثم كذبوا بها «كثمود» قوم صالح فقال سبحانه: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي أعطينا قوم صالح الناقة، آية بيّنة واضحة، ومعجزة ساطعة، كما طلبوا، فكفروا بها وجحدوا فأهلكناهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي ما نرسل بالأحداث الكونية من الزلازل، والفيضانات، والرعد، والصواعق، والخسوف والكسوف إلا تخويفاً للعباد ليرجعوا إلى ربهم وينبوا له. قال ابن عباس: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فأوحى الله إليه إن شئت أعطيناهم ما سألوا فإن كفروا هلكوا، وإن شئت أن نستأني بهم؟ فقال: بل استأن بهم يا رب، فنزلت الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ...﴾ الآية.

ما رآه ﷺ من العجائب في الإسراء والمعراج

ثم تمضي السورة الكريمة وهي تتحدث عن الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ، وهي رؤيا عين وليست برؤيا منام، وهي ما رأى في ليلة الإسراء من العجائب، حيث رأى من آيات ربه الكبرى، وكانت فتنةً للمشركين ولضعفاء الإيمان، حتى ارتد بعضهم عن الإسلام، وقد كان رسول الله ﷺ حين عُرج به، رأى البيت المعمور، وسدرة المنتهى،

والجنة والنار، ورأى في النار شجرة خبيثة هي شجرة الزقوم، رآها في أصل الجحيم، وقد كانت تلك الأحداث العجيبة، التي رآها رسول الله عليه السلام ابتلاءً للناس، ولما أخبرهم رسول الله بشجرة الزقوم كذبه المشركون، حتى قال أبو جهل متهكماً ساخراً: هاتوا لنا تمراً وزُبْداً، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقّموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا، وإلى ذلك يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي أحاط علمه وقدرته بالناس، وهم في قبضته وتحت قهره وعَلْبَتِهِ، وعصمك وحماك من شرهم، فالآية إخبار له ﷺ أنه محفوظ من الكفر، آمن من القتل، ومن كل مكروه عظيم، قال مجاهد والحسن: عصمك الله منهم، فبلغ رسالة ربك. وأما الشجرة الملعونة فهي «شجرة الزقوم» كما روى البخاري عن ابن عباس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ قال: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ قال: هي شجرة الزقوم»^(١) ثم قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أي ونخوفهم بأنواع الآيات والنكبات الزاجرة، فما يزيدهم ذلك إلا تمرداً وطغياناً.

(١) الحديث أخرجه البخاري وأحمد، وانظر فتح الباري ٣٩٨/٨ قال أبو حيان في البحر المحيط ٥٥/٦: «هي شجرة الزقوم، لما نزل أمرها في سورة الصافات، قال أبو جهل وغيره: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تُنبت الشجر، والنار تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، ثم أمر أبو جهل جارية له فأحضرت تمراً وزبداً، وقال لأصحابه تزقّموا، فاقتن بهذه المقالة بعض الضعفاء».

قصة خلق آدم وحسد إبليس له

ثم تلتها الآيات وهي تتحدث عن قصة خلق آدم، وأمر الملائكة بالسجود له، وامتناع إبليس واستكباره عن السجود له، وتوعده بإضلال ذرية آدم، ووجه المناسبة بين الآيات السابقة وهذه الآيات، أن المشركين لما نازعوا الرسول في النبوة، واقترحوا عليه الآيات، وكان الدافع لهذا هو الكبر والحسد، والبغى والطغيان، فقد حسدوا الرسول ﷺ على ما آتاه الله من النبوة، والدرجة الرفيعة، وكذلك إبليس حمله الكبر والحسد على الامتناع عن السجود لآدم، فناسب ذكر قصته بعد ذكر قصة أولئك الطغاة المتجبرين من كفار مكة، فالسبب واحد، والدافع واحد، ولهذا جاء التعقيب بذكر قصة آدم مع إبليس، في قوله جل ثناؤه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا؟ قَالَ: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ، لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لأُخْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا. قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا. وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ، وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

امتناع إبليس من السجود لآدم وحقيقته أنه من الجن

وإبليس لم يكن من الملائكة على الرأي الصحيح المشهور^(١)،

(١) هذا ما رجحه المحققون من المفسرين، أن إبليس لم يكن من الملائكة وإنما هو جنِّي، وقد أمر بالسجود لآدم حين أمرت الملائكة، فأطاعت الملائكة، وعصى هو وتكبر، فطرده الله من الملائكة الأعلى، ولعنه لعنة أبدية، وقد تقدم في سورة البقرة قول =

وإنما كان من الجن كما قال سبحانه في سورة الكهف: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ولكنه لما كان في جملة الملائكة ومعهم لما أمروا بالسجود لآدم، صار مكلفاً بالسجود له، وهناك أمر خاص من رب العزة والجلال لإبليس بالسجود لآدم، ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي ما منعك من السجود حين أمرتك؟ وقد بين تعالى في هذه الآيات الكريمة سبب امتناع إبليس اللعين فقال تقدست أسماؤه: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، قَالَ: أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا؟﴾ أي أسجد أنا العظيم الكبير، لهذا المخلوق الضعيف الحقير، الذي خلق من الطين؟ كيف يصح للعالي أن يسجد للداني؟ وهذا حسدٌ وغرور من إبليس، يجعل اللعين يذكر الطين، ويغفل عن سرّ النفخة الربانية في هذا الطين ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ ولكن الحسد أعمى بصيرته، وأحرق قلبه، فغفل عن ذلك السرّ الذي أودعه الله في آدم، ومن أجله أمر الملائكة بالسجود له عليه السلام.

عزم إبليس على إغواء بني آدم

ويزيد إبليس في الاستعلاء والطغيان، والتكبر على أوامر الرحمن، فيقول في غطرسةٍ وتبجحٍ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْت عَلَيَّ؟﴾ أي ترى هذا المخلوق الذي فضّلته عليّ، وجعلته أكرم مني عندك؟ ﴿لَئِن أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي أنظرني وأبقيتني حقاً إلى يوم البعث ﴿لَأُحْتَكِنَنَّ دُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لأستأصلنّ ذريته بالإغواء والإضلال، ولأستولينّ عليهم، وأملك زمامهم، وأجعلهم في قبضة يدي، أصرف أمرهم كما أشاء، إلا قليلاً منهم، وهم عبادك المخلصون.

= الحسن البصري: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين» وذكرنا أربعة أدلة شرعية تدل على أنه لم يكن من الملائكة.

قال تعالى رَدًّا عَلَيْهِ: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ أي اذهب يا إبليس فقد أنظرتك، فابذل جهدك فيهم، وحاول محاولتك معهم، فمن أطاعك من ذرية آدم، فإن جزاءك وجزاءهم نار جهنم، جزاءً وافراً كاملاً، لا ينقص منه شيء، والأمر هنا أمر إهانة، وكأنه يقول له: اجهدْ جهدك فقد أنظرتك.

الوسائل الخسيسة التي يستعملها إبليس لإضلال البشر

لحكمة يريد بها الله عز وجل - وله الحكمة البالغة في الخلق والتقدير - أطلق لإبليس - بريد الشرِّ والغواية - الزَّمامَ، ليحاول محاولته مع بني الإنسان، ولكنه تعالى زوَّد البشر بالعقل والإرادة، والتمييز بين الخير والشر، والهدى والضلال، ليكون لديهم ما يقاومون به مكر إبليس وخبثه وكيد، ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِرْ مِنْهُمْ مَنْ اسْتَطَعَتْ بِصَوْتِكَ﴾ أي حرك من أردت أن تستفزّه فتخدعه، بدعائك له إلى الفساد ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي اجمع لهم أعوانك وجنودك من كل راكبٍ وراجل، وهو تمثيلٌ لتجميع قوى الشر على بني آدم ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي شاركهم في أموالهم وأولادهم، بتزيين كسب المال الحرام وإنفاقه في المعاصي، وتحسين اختلاط الرجال بالنساء، حتى يكثر بينهم الزنى والفجور ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي عدِّهم بالوعد الخادعة، والأمانى الكاذبة، فلن تستطيع أن تغوي إلا أتباعك المجرمين، بهذه الوسائل والأساليب الخسيسة، أما عبادي المؤمنين فلن تقدر على إغوائهم وإضلالهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي إن عبادي المخلصين ليس لك عليهم تسلط بالإغواء ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي كفى أن يكون الله عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك.

أبواب الرحمة مفتوحة أمام العباد

وتمضي السورة الكريمة - بعد ذلك البيان المستفيض عن وساوس الشيطان وطرق إغوائه وإضلاله - فتفتح أبواب الرجاء في وجوه العباد، لئلا يقنطوا من رحمة الله، إذا ما أغواهم الشيطان بطرق مكره وخداعه، فوقعوا في المعاصي، أو انتهكوا بعض المحارم، وتذكّرهم بنعمه جلّ وعلا وإحسانه إلى عباده، وبآثار قدرته ووجدانيته، فهو الرب الرحيم، الذي يقبلُ توبةَ العبد المنيب، إذا تاب إلى ربه واستقام، وهو الذي يدفع عن الإنسان الشدة والكرب، وقت الضيق والبلاء، ويستجيب لعبده الدعاء ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ، لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا. وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا. أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا؟. أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ، فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا؟﴾.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي يُسير لكم السفن في البحر، ويسوقها من مكان إلى مكان، وجعل هذه السفن الضخمة الكبيرة تجري فوق سطح الماء، آية من آيات الله الباهرة، إذ

كيف حمل هذا الماء - وهو مادة سائلة رقيقة - هذه السفن التي هي كالأبراج فوق سطحه ولم تغص فيه؟ والحصاة إذا قذفناها في الماء غاصت إلى قعره، فكيف حمل الماء هذا الفلك المشحون؟ إنها قدرة الله التي تسيّر الكون وما فيه بنظام دقيق محكم، ولولا أن الله سخر البحر لعباده لما استطاعوا أن يركبوا متنه، ولكنها الرحمة الإلهية، ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي هو بكم رحيم، ولذلك سهل لكم أسباب الانتقال، وحمل الأثقال.

التجاء المشركين إلى الله وقت الشدة والضيق

ثم ذكّرهم تعالى برحمته وقت وقوعهم في الضيق والشدة، وأنه لا منجى لهم وقت الكرب والبلاء إلا الله رب العالمين، وذلك عندما تعصف الرياح، ويفاجئهم الغرق وهم فوق ظهر البحر، تتقاذفهم الأمواج، ويشعرون بالخطر يُحدق بهم، فإنهم يلجأون إلى الله متضرعين منيبين، وينسون ما كانوا يعبدونه من أوثان وأصنام، لاعتقادهم أنه لا يكشف الضر إلا الله، فهم يتجهون إليه وحده في لحظة الخطر، لا يدعون أحداً سواه، ثم إذا نجّاهم وكشف عنهم الضر، عادوا إلى الكفر والعصيان، ونسوا فضل الرحمن ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من كنتم تعبدونه من الآلهة، ولم تجدوا لكم مغيثاً إلا الله ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أي فلما نجّاكم من الكرب، وأنقذكم من الغرق، نسيتم ربكم، ورجعتم إلى الضلال بعبادة غيره، وهذا شأن الإنسان الكافر الجاحد لنعم ربه.

الإنسان في قبضة الله في كل لحظةٍ وآن

يقرر القرآن هذه الحقيقة، وهي أن الإنسان يلجأ إلى الله وقت الشدة، وينساه وقت الرخاء، وإذا ما نزلت به نكبة، أو أصابته مصيبة، فزع وتضرع إلى الله، حتى إذا كشفها الله عنه عاد يبغي ويفسد في الأرض، وأنه وقت الكرب لا يذكر إلا الله، ينسى كل معبودٍ، وكل شيء تقرب إليه في الدنيا، ولكنَّ الإنسان في قبضة الله عزوجل، في كل لحظةٍ وآن، سواءً كان في البرِّ أو في البحر، فكيف يأمن من عذاب الله، ولهذا جاء الوعيد والإنذار ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾؟.

والمعنى: هل أمنتُم أيها الناس حين نجوتُم من الغرق في البحر، أن يخسف الله بكم البر، بزلزالٍ أو بركان، أو يمطركم بحجارةٍ من السماء، فيهلككم كما فعل بقوم لوط؟ ولا تجدون من ينقذكم من عذاب الله ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ، فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾؟

والمعنى: أم هل أمنتُم أن يعيدكم الله في البحر مرة ثانية، فيرسل عليكم ريحاً شديدة مدمرة، تقصف الصواري، وتغرق المراكب، فيغرقكم بسبب كفركم، ثم لا تجدوا من يأخذ لكم بالثأر منا، أو يطالبنا بتبعة إغراقكم؟

إنها الغفلة من الناس عن ربهم، يظنون أنهم في مأمنٍ وحرزٍ من عذاب الله، يأمنون بطشه وانتقامه، ولا يعلمون أنهم في كل ساعةٍ وحين في قبضته تعالى، سواءً كانوا في بحرٍ أو بر، وسواءً كانوا في صحة أو مرض، فانتقام الله من العصاة المكذبين قريب، وبطشه شديد.

تكريم الله عز وجل للنوع الإنساني

وبعد هذا البيان المستفيض، عن جحود الإنسان وإعراضه عن ربه، ونسيانه لفضله وإحسانه يذكرهم القرآن الكريم بتكريم الله عز وجل لهذا النوع الإنساني، وتفضيلهم على سائر المخلوقات لينبوا إلى ربهم، فيقوموا بواجب الشكر، ويعبدوه ويعظموه، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ إنه التشریف والتكريم لآدم وذريته، خلقهم على أحسن الهيئات وأكملها، يمشون منتصبين على أرجلهم، يأكلون بأيديهم، والحيوانات تمشي على أربع، منكوسة الوجه نحو الأرض، وتأكل بفمها، وليس لها عقل، بينما الإنسان شرفه الله وكرمه بالعقل، والعلم، والنطق، والفهم، وسخر له جميع ما في الكون، وجمع له بين الخلق من الطين، والنفخة الربانية، فصار جامعاً بين السماء والأرض، ومهيأً لحمل الأمانة، التي عرضها الله على السموات والأرض، فعجزت عن حملها، وحملها هذا الإنسان السميع العاقل فهذا طرفٌ من تكريم الله تعالى لبني آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ومن التكريم أيضاً حملهم على ظهور الدواب والسفن، في البر والبحر ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ثم ما أنعم به عليهم من لذيذ المطاعم والمشارب ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال مقاتل: جعل الله طعام الإنسان السمن والعسل، والزبد واللحم، والفواكه والخضار، وجعل رزق الحيوان التبن والشعير والعلف، ثم ختم تعالى الآية بقوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي فضلناهم على أصناف المخلوقات من الجن، والبهائم، والوحش، والطيور، والدواب، فسبحان المعطي الوهاب!!

الحساب والجزاء في الآخرة للمحسن والمسيء

وبعد هذا التشریف والتكريم، يأتي دور الحساب والجزاء، فيذكركم تبارك وتعالى بيوم الحشر والمعاد، حين يُنادى كلُّ إنسان بكتاب عمله، لِيُسَلَّمَ له وينال جزاءه، وهناك يظهر الربح والخسران، ويتميز الشقي والسعيد ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ، وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ والمراد بالإمام هنا كتاب عمل الإنسان، بدليل قوله تعالى عقبه: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وقوله في سورة يس: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

ومعنى الآيات الكريمة: يوم ننادي كل إنسان بكتاب عمله لِيُسَلَّمَ إليه، وينال جزاءه، فمن أعطى كتاب عمله بيمينه فهو السعيد الناجح، يقرأ كتابه بفرح واستبشار ويقول: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ﴾ فهو فرح مسرور، ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب والبصيرة، فهذا هو الشقي الخاسر، فهو هنا يتخبط على غير بصيرة ولا نور، وهو في الآخرة أشد عمى وضلالة، وبعداً عن الهداية.

محاولة المشركين لفتنته عليه السلام عن الاستمرار في الدعوة

ثم يأتي الحديث عن أمر النبوة، وعن شخصية الرسول ﷺ وموقف القوم منه ومن دعوته، فلقد أراد الأشقياء من كفار قريش، أن يصرفوا الرسول عن دعوته، وأن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه، بطريق الخداع، والمكر، والتليس، وحاولوا محاولات كثيرة، ليشنوا

رسول الله ﷺ عن المضي في دعوته، منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه، مقابل أن يترك تسفيه آلهتهم، والتنديد بما كان عليه آبؤهم من الضلالة، ومنها مساومة بعضهم أن يجعل أرضهم وبلادهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرّمه الله، ومنها طلبُ بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء، وأشار عليه بعضهم أن يُبدل آيات الوعيد بآيات البشارة، إلى غير ما هنالك من اقتراحات سخيفة، أرادوا بها فتنة النبي عليه السلام، ولكن الله تعالى عصمه وحباه، وذكره بنعمته وفضله عليه فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، لِيُفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ تَرَكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً. إِذَا لَا أَذُقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾.

عصمة الله لرسوله ﷺ

الآية الكريمة فيها بيان لعصمة الله لرسوله ﷺ، من المحاولات اليائسة التي بذلها رؤساء قريش لصرفه عن الدعوة، فالرسول عليه السلام مؤيدٌ من عند الله، محفوظ بحفظه ورعايته، معصوم من الافتراء والكذب على الله، ولولا أن الله امتنَّ عليه وعصمه، من مكر وخداع المشركين، لنالوا شيئاً من مبتغاهم، فإن النفس البشرية قد تلين وقد تضعف، أمام المناورات التي تتزيياً بزِيِّ الإصلاح، وقد يُخدع الإنسان بالكلام المعسول، ولكن الرسول عليه السلام له وضع خاص، غير ما عليه الناس من التأثيرات النفسية، وهو أنه مؤيد من عند الله بالحجج والبيانات ومعصومٌ من الذنوب والموبقات، فلا يمكن أن يعصي أمر الله أو يخالف شرعه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ تَرَكُنُ

إِيَّاهُمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴿١﴾ ومعناه لولا حماية الله وعصمته لك، لملت إليهم شيئاً قليلاً، ولسايرتهم على ما طلبوا، ولكن الله حرسك وحماك. فالآية بيان للنعمة والعصمة، وليست تقريراً للوقوع في الفتنة، فهم أرادوا ولكن الله حماه، ومعلوم في اللغة العربية أن «لولا» حرف امتناع لوجود، بمعنى أنه لولا اللطف والعناية الربانية، لمال إلى مهادنتهم ومسايرتهم، ولكن المهادنة لم تحدث بسبب اللطف الإلهي^(١)، كما قال تعالى عن قوم شعيب: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ فلم يحدث الرجم لوجود الرهط والعشيرة فكذلك هنا يقول: لولا العصمة لوقعت في الفتنة، فالآية إذاً تذكير له عليه السلام بنعمة الله الجليلة. قال في تفسير الكشاف والمعنى: «لولا تثبتنا لك وعصمتنا، لكنت قاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم، وهذا تهيج من الله له وفضل تثبت»^(٢).

تهديده بمضاعفة العذاب

ثم قال تعالى: ﴿إِذَا لَأَذُنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ وهذا أيضاً على سبيل الافتراض، بمعنى أنك يا محمد لو ملت إليهم أدنى ميل، وسايرتهم إلى ما طلبوا، لضاعفنا لك عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة، لأن الذنب من الكبير، جرم عظيم،

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط ٦٤/٦ ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبْتِنَاكَ لَقَدْ كَدَّتْ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ جواب «لولا» يقتضي إذا كان مثبناً امتناعه لوجود ما قبله، فمقاربة الركون لم يقع منه ﷺ فضلاً عن الركون، والمانع من ذلك هو تثبت الله تعالى له، وجواب لولا هو قوله ﴿لَقَدْ كَدَّتْ تَرْكُنَ﴾ ومثله قول الشاعر:

لَوْلَا الْأَمِيرُ وَلَوْلَا فَضْلُ طَاعَتِهِ لَقَدْ شَرِبْتُ دَمًا أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ
(٢) انظر تفسير الكشاف ٤٦٥/٢.

يستحق عليه مضاعفة العذاب، كما قال تعالى لنساء النبي: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾^(١) والغرض إذاً من الآية بيان فضل الله على الرسول، في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتنة، ولو تخلى عن عصمته طال إليهم بعض الشيء، وليس في الآية ما يُنقص من قدر الرسول، هذا خلاصة ما قاله أهل التحقيق من المفسرين.

وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصوماً من الله، ولكن هذا تعريفٌ للأمة، لئلا يركن أحدٌ منهم إلى المشركين، في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه^(٢).

محاولتهم محاصرته عليه السلام ثم قتله

ولقد عزم المشركون على إخراج النبي ﷺ من مكة، وحاولوا في بعض المرات أن يقتلوه، ولكن الله الكبير المتعال حماه من شرهم، وحفظه ووقاه، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ، لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا. سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

والمعنى: وإن كاد المشركون بمكرهم وإزعاجهم أن يخرجوك يا محمد من أرض مكة، والاستفزازُ الإزعاج بسببٍ من الأسباب، للحمل على الخروج من الوطن وغيره، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك إلا زمناً يسيراً، حتى

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٠.

(٢) جامع الأحكام للقرطبي ٣٠٠/١٠.

يهلكهم الله ويدمرهم بعذاب الإبادَة، كما فعل تعالى بالأُمم السابقة ﴿سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا﴾ أي هذه عادةُ الله مع الذين يخرجون رسلهم من الأوطان، أن يهلكهم ويبيدهم ويستأصل شأفتهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي لن تجد لها تبيداً ولا تغييراً، فلو أخرجوك لحاق بهم الهلاك.

قال ابن عباس وقتادة: «هم أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من وطنه، ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا، ولكن الله تعالى منعهم من إخراجهم، حتى خرج بنفسه بأمر الله تعالى».

وهذه الآية تشير إلى قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ، أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ لقد عزموا على طرده وإخراجهم، ولكن الله عصمه وحماه، لما سبق في علمه تعالى من إمهالهم، وعدم أخذهم بعذاب الإبادَة كالأُمم قبلهم، ولو أخرجوه لما تأخر هلاكهم، وفق سنة الله التي لا تتبدل، ولكنه خرج بأمر الله العليّ القدير.

المقام المحمود لسيد المرسلين

ومن ثمَّ يأتي الأمر لرسول الله عليه السلام، أن يمضي في طريقه، يصلي لربه، ويعبد الله في أمنٍ وأمان، ويقرأ القرآن على أصحابه، ويعلمهم ما بعثه الله به من الهدى والنور المبين، ويدعو الله أن يدخله المدينة المنورة، التي أمر بالهجرة إليها سالماً، وأن يخرجها من مكة سالماً، ووعدته بالمقام المحمود، في ذلك اليوم المشهود، الذي يفزع فيه الخلائق إلى الرسل والأنبياء، من أجل الشفاعة، فلا

يجدون لها إلا محمداً رسول الله، وإنه لشرف ما بعده شرف، أن يخص الله هذا النبي العظيم بالفضل الجسيم، وفي ذلك يقول ربنا تقدرت أسماؤه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ، عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ قال ابن عباس: المقام المحمود هو مقام «الشفاعة العظمى» لسيد الخلق، و«عسى» من الله واجبة، أي ليست للترجي بل للتحقيق.

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي حافظ يا محمد على الصلاة في أوقاتها، من زوال الشمس إلى ظلمة الليل ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي وأقم صلاة الفجر وقرأ فيها كتاب ربك، فإن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الرحمن، ثم أمره بعد الصلاة بالتضرع والدعاء لرب الأرباب، أن يحفظه من شر الأشرار وكيد الفجار، وأن يخرجه من مكة سالماً، ويدخله المدينة آمناً ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ، وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ أي اجعل لي يا رب قوة ومنعة، تنصرنى بها على أعداء دينك، وتشدُّ أزرى بها، فأنت وحدك المعين والناصر، وقد استجاب الله دعاءه، فنصره على الأعداء، وأعلى دينه على سائر الأديان، وبشّره بالعز والنصر والتمكين، والعودة إلى البلد الأمين، ليحطم الأصنام والأوثان، ويعلن عبادة الرحمن ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي مضمحلًا متلائيًا لا ثبات له ولا استقرار، لأن الباطل عارض، سرعان ما يزول كشعلة الهشيم، ترتفع عاليًا ثم تخبو سريعاً.

القرآن شفاءً ورحمةً

وبمناسبة ذكر الحق والباطل، تأتي الآيات البينات مشيدة بالقرآن العظيم، الذي هو الحقُّ وبالحقِّ نزل، وفيه شفاءٌ إلى القلوب من أمراض الجهل والضلال، وتطهيراً للنفوس من الشُّح والحسد، والهوى والدنس، وفيه النور والهدى والضياء، لمن أراد طريق السعادة والهناء، أما الذين في قلوبهم ظلمات الضلالة والشرك، فهو عليهم عمى، وهو لهم شقاوة وخسران، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

هذا القرآن العظيم، هو معجزة محمد الخالدة، أنزله الله نوراً وهدى وضياء، فيه شفاء للنفوس العليلة، من الأمراض القلبية والاجتماعية، كالعقائد الفاسدة، والأخلاق الذميمة، أزال الله به الريب، وكشف عن غطاء القلب، فصار لأمراض القلوب، كالشفاء لعلل الأبدان، وكما اهتدى به أقوام ففازوا وسعدوا، كذلك ضلَّ به أقوام فخسروا وشقوا، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾^(١) ولهذا قال تعالى هنا: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي ولا يزداد الكافرون به، إلا شقاءً ودماراً، فإن من أعرض عن هدايته، بقيت فيه الأمراض والأسقام، وظلَّ يتخبط في الشكوك والأوهام.

وليس الشفاء في الآية الكريمة، قاصراً على الأمراض القلبية، كالحسد، والبغضاء، والجهل، والسفه، والكبر، والرياء، بل هو أيضاً شفاء للأمراض الجسمانية، لما في قراءته من التيمن والبركة وحصول

(١) سورة فصلت آية رقم ٤٤.

الشفاء من المرض، كما جاء في صحيح البخاري أن رجلاً في قبيلة
لُدَغَ فَرَمَاهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، وَأَعْطَوْهُ أَجْرًا ثَلَاثِينَ
شَاةً، فَلَمَّا أُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ
اللَّهِ»^(١).

وعن بعض السلف أنه قال: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه
الله» وتسمى سورة الفاتحة «الشافية» لأن في تلاوتها على المريض،
شفاءً من الأسقام، وما أحسن أن يلتقي التداوي بالدواء مع التداوي
بالقرآن!! ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال الفخر الرازي: «الأرواح والنفوس مختلفة، فبعضها مشرقة
صافية، يظهر فيها من القرآن نورٌ على نور، وبعضها ظلمانية كدرة،
يظهر فيها من القرآن ضلالٌ ونكالٌ».

الناس أمام هداية القرآن

وبعد هذا البيان عن أثر القرآن في قلوب الناس، يأتي الحديث
عن الأشقياء الكفار الذين أعرضوا عن هداية الله، ولم تستر قلوبهم بنور

(١) روى البخاري في كتاب الطب ١٠/١٦٩ عن عبد الله بن عباس أن نفرًا من أصحاب
رسول الله ﷺ مروا بماءٍ فيهم لذيخ، فعرض لهم رجلٌ من أهل الماء، فقال: هل
منكم من راق، فإن في الماء رجلاً لذيخاً؟ فانطلق رجلٌ منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على
شاء - أي شرط عليهم أن يعطوه بعض الغنم - فبرأ، فجاء بالشاء إلى أصحابه، فكروهوا
ذلك وقالوا: أخذت على كتاب الله أجراً!! حتى قدموا المدينة، فقالوا يا رسول الله:
أخذ على كتاب الله أجراً، فقال رسول الله ﷺ: إن أحق ما أخذ عليه أجراً كتاب الله
ورواه أبو داود بأوسع من هذا، وفي رواية الترمذي أن الغنم كانت ثلاثين شاة.

كتابه المبين، وهذا هو الصنف الثاني من البشر، الذين كان القرآن عليهم شقاءً ووبالاً، وعنهم يتحدث القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا. قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ، فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ والمراد بالإنسان ههنا الجنس الذي كفر بالله، الذين قال الله فيهم في الآية السابقة: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

والمعنى: وإذا أنعمنا على هذا الإنسان الظالم بأنواع النعم، من صحة، وأمن، وغنى، أعرض عن طاعة ربه وعبادته، وابتعد عنه تكبراً وغروراً، وإذا أصابته الشدائد والمصائب، أصبح يائساً قانطاً من رحمة الله، والآية تمثيل لطغيان الإنسان، فأذا أصابته النعمة بطر وتكبر، وإذا أصابته الشدة أيس وقنط، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ أي قل لهم: كل واحد يعمل على منهجه وطريقته، في الهداية أو الضلالة، فإذا كانت نفس الإنسان مشرقة صافية، صدرت عنها أفعال كريمة فاضلة، وإن كانت نفسه كافرة فاجرة، صدرت عنها أفعال سيئة شريرة، وكما قيل «وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضح» ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي ربكم هو العالم بمن اهتدى إلى طريق الرشاد، وبمن ضلَّ عنه، وسيجازي كل إنسان بعمله.

الروح من أمر الله عز وجل

ومن القرآن روح الحياة، إلى روح الأبدان يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

روي أن كفار مكة، بعثوا إلى اليهود في المدينة المنورة،

يسألونهم عن أمر محمد، هل هو نبي أم لا؟ وقالوا لهم: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل؟ - يعنون محمداً ﷺ - فبعثوا لهم: سلوه عن فتية فُقدوا في أول الزمان، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها، وعن الروح، فإن أجابكم عن الثلاثة فهو نبي، وإن سكت عن بعض فهو كذاب، فنزل في شأن الفتية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾؟ ونزل في شأن الذي بلغ المشرق والمغرب ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ونزل في الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فظهر لهم صدق نبوته عليه السلام.

لقد كان سؤالهم عن معرفة حقيقة الروح، ما هي؟ وكيف تتولد؟ وممَّ خلقت؟ وكيف تدخل الجسد وتنتشر فيه؟ وإذا مات الإنسان فأين تذهب الروح؟ فجاء القرآن الكريم بالجواب القاطع الواضح: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي قل لهم يا محمد: أنا لا أعرف، ولا أحد من البشر يعرف حقيقة الروح، فهي مما استأثر الله عز وجل بعلمها، واختص بمعرفتها، وهي سرٌّ من الأسرار لا يعلمها إلا الواحد القهار، وإذا كان حال العلم بأقرب الأشياء إلى الإنسان وهي نفسه هكذا، فما ظنك بالأبعد الذي غاب عن حواس الإنسان، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿وما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وليس في هذا حَجْرٌ على العقل البشري أن يعرف ويتأمل، ولكن فيه توجيهاً له أن يعمل في حدوده، ولا يخطئ حَبْطَ عَشْوَاءٍ في أمور لا يدرك كنهها، كالذات العلية، ذات الله جلَّ وعلا، وما أخبر عنه من معيَّيات، فحسبُ الإنسان عجزاً ألا يعرف أخصَّ شيءٍ من جنبيه، ألا وهي الروح التي تسري في بدنه، فإنه يقف حسيراً عاجزاً أمام ذلك السرِّ

اللطيف، لا يدري ما هي الروح، ولا كيف جاءت، ولا كيف تذهب، ولا أين كانت، ولا إلى أين تصير، وهذا دليلٌ عجز الإنسان وضعفه.

وإذا كان الرسول عليه السلام عاجزاً عن معرفة كل شيء في الحياة، وهو رسولٌ يوحي إليه، فما بالك ببقية أفراد البشر، ولهذا عقب تعالى بيان فضله على رسوله بتعليمه أمور الوحي والدين، والله قادرٌ على أن يسلبه منه إذا شاء، لو خالف حكمه وأمره، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَيْسَ شَيْئًا لَّنْذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، ثُمَّ لَا تَجِدَ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا. إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

والمعنى: لو أردنا لمحوها هذا القرآن، الذي هو مِنَّةُ الرحمن في صدرك يا محمد، ثم لا تجد من يرده عليك، ولكن رحمةً من الله تركه محفوظاً في صدرك، لتبلغه للناس، وهذا من فضل الله الكبير عليك، حيث اختصك بالنبوة والرسالة، وجعلك خاتم المرسلين، وسيد الأولين والآخرين.

القرآن هو معجزة محمد الخالدة

وبعد هذا البيان المستفيض، عن الرسالة والرسول، وعن الوحي والروح، وما أراد به المشركون من الأسئلة الغامضة المحرجة، بقصد التشكيك في رسالته عليه السلام، والظعن في دين الإسلام. . . جاءت الآيات الكريمة تحكي صدق رسالته ﷺ، بما أيده الله به من المعجزات الباهرة، والدلائل الساطعات، ومن أعظمها وأجلها هذا القرآن العظيم، الباقي بقاء الدهر، الذي عجز العالم عن الإتيان بمثله، وأنه من أكبر النعم التي أنعم الله بها على رسوله، فهو نبيُّ أميٍّ لم يتلقَّ علماً في مدرسة، ولا تتلمذ على يد أحد من العلماء النوابغ، فمن أين جاء بهذا

القرآن، وهو الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة؟ إنها رحمة الله وفضله على رسوله، الذي أبقى له بسبب القرآن ذكراً إلى آخر الدهر، ورفع له به قدراً، لم ينله أحد قبله ولا بعده، وإذا كان فصحاء اللسان وبلغاؤهم، عجزوا عن الإتيان بسورةٍ واحدةٍ مثله، فلأن يكون غيرهم أعجزَ عن أن يأتوا بمثل جميعه من باب أولى، ولهذا تحدى الله الخلائق أجمعين، الإنس والجن، والنبغاء والفصحاء، وأخبر خبراً جازماً قاطعاً، بأنهم لو اجتمعوا جميعاً، وتعاونوا مشتركين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن العظيم، لما قدروا ولا استطاعوا، وذلك نهاية التحدي في الإعجاز ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا لُقْرَانٍ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي ولو تعاون الثقلان عليه، وحاولوا بكل قواهم وجهودهم، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لما أطاقوا ولما استطاعوا، وأدرج تبارك وتعالى الجن مع الإنس في التعجيز، ليكون ذلك أبلغ في العجز، فلم يكتف باجتماع الإنس، حتى ضمَّ إليهم الجن، وطلب منهم أن يستعين بعضهم ببعض لهذا الأمر العظيم ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ أي لو فرض والتقوا جميعاً، واتحدوا واتفقوا على معارضة القرآن، بما فيهم أرباب الفصاحة والبيان، لما قدروا على معارضته.

سرُّ الإعجاز في القرآن الكريم

فهذا القرآن ليس مجرد ألفاظٍ وتراكيب، يحاول الإنس والجنُّ أن يحاكوها، إنما هو شيء معجز، كسائر ما يُبدعه الله من المخلوقات، يعجز الخلائق عن أن يصنعوا مثلها، هو كالروح من أمر الله، لا يدرك الخلق سرُّه الشامل الكامل، وإن أدركوا بعض خصائصه وآثاره ولذلك ما

استطاع أحدٌ من أرباب الفصاحة، وملوك البيان، أن يدعي أنه قادرٌ على محاكاته، رغم التحدي الصارخ لهم، الذي يستفزُّهم لمعارضته، ويدفعهم إلى الحفاظ على كرامتهم، برُدِّ ذلك التحدي المتكرر، بالإتيان بمثل سورةٍ منه، أو عشر سور، أو بالإتيان بمثل هذا القرآن، مع الاستعانة بجميع الإنس والجان، فما كان منهم إلا أن يلقوا السلاح، ويعترفوا بالعجز، ويقول قائلهم: «والله لقد سمعتُ من محمد كلاماً، ليس من كلام الإنس ولا الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه» وروي في سبب نزول هذه الآية، أن جماعةً من قريش، قالوا لرسول الله ﷺ: جئنا يا محمد بآية غريبة، ومعجزةٍ بيّنة تدل على صدقك، غير هذا القرآن، فإننا لو شئنا لأتينا بمثل هذا القرآن فنزلت الآية الكريمة: ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهراً﴾ قال العلامة ابن عطية رحمه الله: «وفهمت العرب بخلوص معرفتها في ميز الكلام، ودربتها به، ما لم نفهمه نحن، ولا كلُّ من خالطته حضارة، فهموا العجز عنه ضرورةً ومشاهدة، وعلمه الناس بعدهم استدلالاً ونظراً، فهم مع هذه الأفهام أقرُّوا بالعجز، ولجأ الفرسان منهم إلى السيف، ورضي بالقتل والسِّبَاء، وكشف الحُرْم، وقد كان يجد المندوحة عنه بالمعارضة..»^(١) ولهذا السبب قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

والمعنى: لقد وضَّحنا للناس الحجج والبراهين وبيَّنا لهم الحقَّ بالآيات والعبر، وبالأمثال الواضحة الثيرة، ما يزيل عنهم الشكوك

(١) عن المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية.

والأوهام، ومع هذه البراهين القاطعة، والحجج الواضحة، أبى أكثر الناس إلا جحوداً وإنكاراً، وإعراضاً واستكباراً «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ».

اقترح المشركين للآيات والخوارق

ثم تتابعت الآيات تذكر نموذجاً لعناد المشركين، واستكبارهم وجحودهم، بعد كل تلك الحجج والبراهين، فقال تقدرت أسماؤه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي، هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾؟

لما تبين للمشركين إعجاز القرآن، ولزمهم الحجّة وغلبوا، أخذوا يتعلّلون باقتراح الآيات والخوارق، فعل الحائر المبهوت المحجوج، واقترحوا عليه الآيات الستّ، التي ذكرها الله عز وجل هنا، كشرط لهم للإيمان، وهي:

الأولى : أن يُخرج لهم عيناً غزيرة من الماء، من شأنها النبوع من غير انقطاع، لأن مكة شحيحة المياه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ أي عين ماء غزيرة.

الثانية : أن يكون له حديقة وبستان، تجري فيها الأنهار، وفيها أشجار النخيل والعنب والفواكه والثمار، وإليه الإشارة بقوله

سبحانه: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُجَرَّ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تُفَجِّرَآءُ﴾ والتعبيرُ بقوله: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ كأنهم يقولون له: هبْ أنك لا تفجر الأنهار من أجلنا، ففجرها من أجلك ومن أجل حديقتك.

الثالثة : أن يأخذهم بعذاب من السماء، فيسقط عليهم السموات قطعاً متفرقة، كما كان يتوعدهم بذلك، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْفَآ﴾ ومعنى كَيْفَآ أي قطعاً متفرقة متناثرة.

الرابعة : أن يحضر ربُّ العزة والجلال، ومعه الملائكة الكرام، ليشهدوا لمحمد ﷺ بصدق الرسالة، وأن يروا الله والملائكة عياناً بأبصارهم، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ تَأْتِي بِلَآئِهِ وَالْمَلَآئِكَةُ قَبِيلاً﴾ أي نراهم معاينةً من غير حجاب، ويشهدون لك بأنك رسول الله، وأن الله بعثك رسولاً إلينا.

الخامسة : أن يكون لمحمد قصرٌ مشيد من الذهب، لا من الحجارة والطين، ليكون ذلك كبرهان على محبة رب العالمين، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ﴾ والزُخْرَفُ هو الذهب الوضاء الثمين.

السادسة : أن يصعد محمد إلى السماء، فيأتي كلَّ واحد منهم بكتابٍ من عند الله، قد كتب له فيه بقلم القدرة، أن محمداً عبده ورسوله، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَآءِ﴾ أي تصعد في معارجها ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ أي نقرأ فيه أنك بحق مرسل من

عند الله، وقد أمره تعالى أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾؟ أي سبحان ربي هل أنا إله حتى تطلبوا مني أمثال هذه المطالب؟ ما أنا إلا رسول من البشر، ولست أدعي الألوهية حتى آتيكم بما تطلبون.

هذه هي اقتراحات المشركين من سيد المرسلين، جعلوها شروطاً للإيمان به والتصديق برسالته، وهي كلها حماقات وسفاهات، تدل على مقدار ما وصلوا إليه من عنادٍ واستكبار، وطيشٍ وحماقة.

اجتماع رؤساء قريش بالرسول ﷺ

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة فقالوا: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه، حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا ليكلّموك، فجاءهم سريعاً - وكان حريصاً على رشدهم - فقالوا يا محمد: إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب، أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفّهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فإن كنت إنما جئت بهذا تطلب مالا، جعلنا لك ما تكون به أكثرنا مالا!! وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا!! - أي جعلناك شريفاً وسيداً علينا - وإن كنت تريد النساء زوجناك أجمل بناتنا، حتى تكون أكثرنا نساء!! وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً من الجن، بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه، أو نغدر فيك!! فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئكم أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا المُلْك عليكم، ولكن الله بعثني رسولاً إليكم، فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو

حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله عز وجل، حتى يحكم الله بيني وبينكم!!

فقالوا يا محمد: إن كنتَ غير قابلٍ منا ما عرضنا عليك، فقد علمتَ أنه ليس أحدٌ من النَّاسِ أضيّقُ بلاداً، ولا أشدُّ عيشاً منا، فسل ربَّكَ أن يُزيحَ عنا هذه الجبال، فتصبح سهولاً ومزارع، ويجري لنا فيها الأنهار، ويبعث من مضي من آبائنا، حتى نسألهم أحقُّ ما تقول؟ وسله أن يجعل لك قصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة تغنيك عنا، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات البينات: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجيراً﴾ الآيات.

ثم قال تعالى مبيناً عنادهم ومكابرتهم، وراداً على شبهتهم العليّة، أن الرسول ينبغي أن يكون من الملائكة، لا من البشر حتى يؤمنوا به ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا؟ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ أي لو كان أهل الأرض ملائكة، يمشون على سطحها، لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة، لأن الجنس يألفه الجنس، ولكن أهل الأرض بشر، فلذلك أرسلنا الرسول بشراً منهم.

شهادة الله لرسوله بالنبوة

ثم عرضت السورة الكريمة، لبرهان نبيٍّ واضح، يدل على صدق رسالة محمد عليه السلام، ألا وهو شهادة الله عز وجل له بأنه رسوله، وكفى بها شهادة، كما ذكرت أن أمر الهداية والإيمان إنما هو بيد الرحمن، فمن شاء هداه، ومن شاء أضله، وفي ذلك يقول تقدست

أَسْمَاؤُهُ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا. وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا، مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا، وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟

وحشر الكافر على وجهه معناه سحبه على وجهه إلى نار جهنم، يمشي على وجهه منكوساً بدل أن يمشي مستوياً على قدميه، وهي حقيقة أخبر عنها القرآن: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أي تجرهم الزبانية من أرجلهم، فتبقى وجوههم تُجرجر على الأرض، حال كونهم فاقدى الحواس، لا يرون، ولا ينطقون، ولا يسمعون، وقد سُئل رسول الله ﷺ فقيل يا رسول الله: كيف يمشي الكافر على وجهه؟ فقال: أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجلين، قادراً أن يمشيه في الآخرة على وجهه؟ قال قتادة: بلى وعزة ربنا^(١) وصدق الله العظيم ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٢).

إثبات الحشر والمعاد

ثم ذكّرهم تعالى بعظيم قدرته، وباهر حكمته، في موضوع البعث والنشور، فقال تقدست أسماؤه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَىٰ

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند، وأصله في الصحيحين من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) سورة القمر آية رقم ٤٨.

الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١﴾ فَإِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ هَذَا الْكَوْنَ الْعَظِيمَ، بِسَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، وَجِبَالِهِ وَبِحَارِهِ وَأَنْهَارِهِ، وَنَجُومِهِ وَأَقْمَارِهِ، قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ جَسَدِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ فَنَائِهِ، فَإِنَّ مِنْ قَدْرِ عَلَى الْإِحْيَاءِ، قَدْرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ بِالْمَنْطِقِ الرَّشِيدِ ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (١).

ثم تلتها الآيات تتحدث عن أولئك الذين اقترحوا على الرسول عليه السلام، تلك المقترحات المتعنتة، من قصور الذهب، وجنات النخيل والأعناب، والينابيع المتفجرة بالمياه العذبة، أنهم بخلاء أشحاء حتى لو أن الرزق الذي عند الله، أسند إليهم ووكل حفظه لهم، لأمسكوا وبخلوا خوفاً من نفاذه، فكيف لو كان أمر النبوة والرسالة بأيديهم؟ أو كان أمر تدبير شؤون الخلق إليهم؟ ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي، إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي بخيلاً شحيحاً منوعاً.

الآيات والمعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام

ثم أخبر تعالى عن الآيات الباهرات، التي أيد الله بها نبيه موسى ابن عمران عليه السلام، وهي دلائل قاطعة على صدق نبوته، ومع ذلك رآها فرعون وجماعته، فما ازدادوا بها إلا شقاءً وضلالاً، وجحوداً وعناداً، فكثرة الخوارق لا تنشيء الإيمان في القلوب الجاحدة، وها هو موسى قد أوتي تسع آيات بينات، ثم كذب بها فرعون وقومه، فحل بهم الهلاك جميعاً، فلو أعطينا قومك ما طلبوا من المقترحات ثم لم يؤمنوا

(١) سورة يس آية رقم ٨١.

لاستحقوا عذاب الاستئصال، فلا تلتفت إليهم، ولا تهتم بمقترحاتهم ومطالبهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا. قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا. فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا. وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا. وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أما الآيات التسع وهي المعجزات التي أيد الله بها موسى، فهي كما قال ابن عباس: «العصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات، والظوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم» آيات مفصلات، كما أشارت إلى ذلك آية الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ، وَالْجَرَادَ، وَالْقُمَّلَ، وَالضَّفَادِعَ، وَالْدَّمَ، آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ، فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾^(١) فهذه بعض الآيات التي أرسلها الله على الأقباط أتباع فرعون الجبار.

المحاورة بين موسى وفرعون

وانظر إلى هذه المقابلة اللطيفة، والمحاورة التي جرت بين نبي الله موسى عليه السلام وفرعون الطاغية الجبار، فإن موسى لما عرض عليه كلمة التوحيد، ودعاه إلى الإيمان وترك الظلم والطغيان، رأى في دعوته جرأةً وخروجاً على آداب اللياقة، في مخاطبة الملوك والعظماء ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ فما يستطيع الطغاة من

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٣٣.

أمثال فرعون، أن يسمعوا مثل هذه الكلمات الصريحة، إلا إذا كان المتحدث لا يملك قواه العقلية، فهو يهذي لأنه مسحور، أو به مس من الجن، وأما موسى فقد كان قوياً بالحق الذي أرسله الله به، مطمئناً إلى نصره الله له، وأخذه للطغاة المتجبرين ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي أعتقد أنك هالكٌ مدمرٌ، جزاء تكذيبك بآيات الله، وأنت تعلم أنه لا أحد يملك هذه الخوارق إلا الله رب العالمين، وإنها لواضحة مكشوفة منيرة للبصائر، حتى لكانها البصائر نفسها، تكشف الحقائق وتجلّيها أمام الأنظار.

عندئذ يعزم الطاغية أن يزيل موسى والمؤمنين من الأرض ويبيدهم، ويلجأ إلى قوته المادية بجبروت وطغيان ﴿فَارَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا. وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي فإذا جاء وعد يوم القيامة، جئنا بكم جميعاً للحساب والجزاء، المؤمن والكافر، والبر والفاجر. وهكذا كانت عاقبة التكذيب بالآيات وأورث الله الأرض عباده المؤمنين.

ختام السورة الكريمة

وكما أيد الله نبيه موسى بالآيات والخوارق، فكذلك أيد حبيبه المصطفى بالقرآن المعجز، المتضمن للحق في أنبائه، وأخباره، وأحكامه ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ ثم يأتي دور الوعيد والتهديد للمكذبين لهذا القرآن ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا، إِنَّ

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ، إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا. وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠﴾ أي سواء عليكم آمنت أم لم تؤمنوا، فإن أهل العقل والبصائر، من صالحى أهل الكتاب، كانوا إذا سمعوا آيات الرحمن، خرّوا على وجوههم ساجدين لله رب العالمين، من فرط تأثير القرآن في قلوبهم.

وتختم السورة الكريمة بتمجيد الله وتحميده، كما بدأتها بتسبيحه وتزيهه، ليتلاءم البدء مع الختام، وينسجم المشهد غاية الانسجام، الذي يوحى بجلال الله وعظمته، وقدرته وسلطانه ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ، وَلَا تُخَافُتْ بِهَا، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا. وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذُّلِّ، وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾. لا إله إلا الله والله أكبر، والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله وعونه الجزء السادس من كتاب قيس من نور القرآن الكريم، ويتلوه الجزء السابع وأوله سورة الكهف، والحمد لله في البدء والختام.

* * *

الفهرس

٢٧	مثل كلمة الإيمان وكلمة الكفر	٥	المقدمة
٢٨	معنى التثبيت في الآخرة	٧	سورة إبراهيم
٣٠	تبديل أهل مكة نعمة الله	٧	أهداف السورة الكريمة
٣١	دعوة المؤمنين إلى فعل الخيرات	١١	تفصيل بعد الإجمال
٣٢	نعم الله على عباده لا تُحصى	١٢	تذكير بني إسرائيل بنعم الله الجليلة
٣٥	التفكر في نعمة الطعام	١٢	سبب ذبح الأبناء الذكور
٣٥	كلمات من تفسير الظلال	١٣	شكر النعمة يزيد في العطاء
٣٧	دعوات إبراهيم المباركات للبلد الحرام	١٤	منفعة الشكر تعود على الإنسان
٣٨	الدعوة الأولى: «نعمة الأمن والأمان»	١٥	الوعيد للطغاة المكذبين
٣٩	الدعوة الثانية: «نعمة الإيمان»	١٥	الحوار بين الرسل والأقوام
	الدعوة الثالثة: «تعلق القلوب		الشبهات التي أثارها المشركون
٣٩	بالبيت الحرام»	١٧	والرد عليها
٣٩	الدعوة الرابعة: «إصلاح الظاهر والباطن»	١٧	الرد على الشبهة الأولى
٤٠	الدعوات الثلاث الباقيات	١٩	الرد على الشبهة الثانية
٤١	«قصة هاجر مع إسماعيل عليهما السلام»	١٩	الرد على الشبهة الثالثة
٤٢	تحذير الظالمين من الحساب والجزاء	٢٠	تهديد المشركين للرسول
٤٢	بعض أهوال الآخرة	٢٠	نصرة الله لأنبيائه ورسله
٤٣	طغيان أهل مكة وما حل بالظالمين	٢٢	ضياح أعمال الكفار
٤٤	وعد الله لا يُخلف وانتقامه قريب	٢٣	خسرانهم يوم الحشر الأكبر
٤٥	وقفه الخلّاق للحساب أمام أحكم الحاكمين	٢٣	معنى الآية الكريمة
٤٦	ختام السورة بلاغ وإنذار	٢٥	خطبة إبليس في النار

٧٦	الإبداع في خلق السموات والأرض . . .	٤٩	سورة الحجر
٧٧	نعمة الله على رسوله بإنزال القرآن	٤٩	أهداف السورة الكريمة
٧٩	أمره بتبليغ الدعوة والجهربها	٥١	تفصيل بعد الإجمال
٨١	سورة النحل	٥٢	وعيد وتهديد للمشركين
٨١	أهداف السورة الكريمة		صور من السخرية والتهمك
٨٥	تفصيل وبيان للسورة الكريمة	٥٢	في وجه الرسول
٨٦	الوحي الإلهي للرسول الكرام	٥٤	تكفل الله حفظ كتابه
٨٧	آيات الكونية في خلق الإنسان	٥٤	تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام
٨٩	آيات الله الكونية في النباتات والثمار	٥٥	آثار قدرة الله في الكون
٩٠	فوائد المطر المتعددة	٥٧	قصة بدء الخليفة
٩١	نظرة تفكر واعتبار	٥٨	سجود الملائكة لآدم تكريم له ولذريته
٩٢	آيات الله الكونية في خلق الليل والنهار	٥٩	الأطوار والأدوار التي مر بها خلق آدم
٩٣	آيات الله الكونية في خلق البحار والأنهار	٦٠	المرحلة الطينية
٩٤	البراهين على وجود الله ووحدانته	٦٠	المرحلة التكوينية
٩٥	نعم الله على عباده لا تحصى	٦١	المرحلة الأخيرة نفخ الروح
٩٦	بين الإله الحق والآلهة المزعومة	٦٢	طلب إبليس إمهاله إلى يوم البعث
٩٧	سبب ضلال الكفار البغي والاستكبار	٦٣	كيد خبيث لإغواء بني آدم
	مخازي المشركين وتآمرهم	٦٤	تحذير البشر من كيد إبليس
٩٨	على الرسول ﷺ	٦٤	دار النعيم ودار الجحيم
٩٩	تصوير رائع للهلاك والدمار	٦٥	الأمن والأمان في دار السلام
١٠٠	قبض الملائكة لأرواح الكفار	٦٥	رحمة الله وفضله على عباده
١٠١	تكريم المؤمنين الأبرار	٦٦	سبب نزول الآية
١٠٢	وعيد المكذبين المجرمين بنار الجحيم	٦٧	قصة إبراهيم مع ضيوفه
١٠٣	احتجاج المشركين بالقضاء والقدر	٦٨	ضيوف إبراهيم كانوا ملائكة
١٠٤	الاحتجاج بالقدر لدفع المسؤولية باطل	٦٩	تبشير الغلام المولود
١٠٥	نظرة تأمل في عقيدة القدر	٧٠	قصة نبي الله لوط عليه السلام
١٠٨	إنكار المشركين للبعث والنشور	٧١	دخول الملائكة على لوط عليه السلام
١٠٩	استبعادهم للبعث بعد الفناء	٧٢	خروج لوط من القرية قبل نزول العذاب
١١٠	ثواب المهاجرين في الآخرة	٧٤	قصة أصحاب الأيكة قوم شعيب
١١١	مهمة الرسل تبليغ الدعوة	٧٥	قصة نبي الله صالح عليه السلام

- ١١٢ تحذير وإنذار للمشركين الفَجَّار
- ١١٣ ما معنى المكر من الله عزَّ وجلَّ؟
- ١١٤ عجائب الكون
- ١١٥ إفراد الله بالعبادة والتعظيم
- ١١٦ من سفاهات أهل الجاهلية
- كراهيتهم للبنات ونسبتهنَّ إلى الله
- ١١٧ عزَّ وجلَّ
- ١١٨ الأثني نعمة وليست نقمة
- ١٢٠ حلم الله على العباد
- ١٢١ الرسول موضحٌ للقرآن ومفصَّل
- ١٢٢ الاستدلال على وحدانية الله بنزول المطر
- ١٢٢ الاستدلال بخروج اللبن من الأنعام
- ١٢٤ عجائبُ قدرةِ الله في خلقه
- ١٢٦ قصة الأعرابي مع الرسول ﷺ
- ١٢٨ عجائب وأطوار خلق الإنسان
- ١٢٩ تصريف الله لشؤون الخلق
- ١٣١ نعمة البنين والأحفاد
- عبادة المشركين للأحجار واستنكافهم
- ١٣٢ عن عبادة القهَّار
- ١٣٣ مثلان في بطلان عبادة الأوثان
- ١٣٤ توضيح المثل الأول
- ١٣٤ توضيح المثل الثاني
- الصفات الأربع التي وصف بها
- ١٣٥ القرآن الأوثان
- ١٣٦ كلامٌ بديع للعلامة ابن القيم رحمه الله
- ١٣٧ نعمة العلم والحواس للبشر
- ١٣٨ من عجائب خلق الطير
- ١٣٩ اختراع الطيران بطريق معرفة أحوال الطير
- ١٤٠ نعمة السكن في الأوطان
- ١٤١ نعمة الظلال والملابس
- ١٤٢ نعمة الثياب والدُّروع
- ١٤٣ جحود البشر لفضل المنعم
- ١٤٤ النبيُّ شاهدٌ على أمته يوم القيامة
- ١٤٥ مضاعفة العذاب للمشركين في الآخرة
- ١٤٦ المقام الرفيع لسيد الرسل والأنبياء
- ١٤٧ في القرآن شفاء وبيان
- ١٤٨ آية جمعت الفضائل والخيرات
- ١٥١ توجيهات القرآن للوفاء بالعهود
- ١٥٢ مثلٌ من بدائع الأمثال للنَّاقض للعهد
- ١٥٣ هل يباح نقض المعاهدات الدولية؟
- ١٥٤ الاختلاف في العقيدة لا يبرر نقض العهد
- ١٥٥ الحياة السعيدة للمؤمن الصالح
- ١٥٦ ثمرة الإيمان أمران عظيمان
- ١٥٨ المؤمن في حصن حصين من الشيطان
- ١٥٨ زعمهم أن القرآن تعليم البشر
- ١٦٠ الكذب صفة من لا يؤمن بالله
- ١٦١ جريمة المرتد عن الإسلام
- ١٦٢ رفع الجنابة عن المكروه على الكافر
- ١٦٣ العزيمة أفضل من الرخصة
- ١٦٣ من روائع القصص في التاريخ
- ١٦٥ الهجرة تمحو الذنوب والآثام
- ١٦٥ الجزاء في اليوم الرهيب
- ١٦٦ جحود أهل مكة للنعمة
- ١٦٨ شكر النعم واجب على المؤمنين
- ١٦٩ الله واسع المغفرة لعباده
- ١٦٩ دعوة إبراهيم دعوة التوحيد الخالص
- ١٧٠ خمس صفات في الثناء على إبراهيم
- ١٧٢ الدعوة إلى الله بالحكمة
- ١٧٣ الصبر وتحمل أذى الجاهلين
- سورة الإسراء
- ١٧٥ أهداف السورة الكريمة

سخرتهم بالرسول وتشويشهم	١٧٧	معجزة الإسراء والمعراج
عند تلاوة القرآن	٢١٠	الإسراء كان يقظة بالجسد والروح
قصة الطواغيت الثلاثة من زعماء قريش	٢١١	الربط بين الرسالات السماوية
قصة العوراء امرأة أبي لهب	٢١٢	سيرة بني إسرائيل
شبهتهم حول البعث والنشور والردّ عليها	٢١٣	إفساد اليهود في الأرض
التلطف بالقول مع المعاندين	٢١٤	نعمة نزول القرآن على أمة محمد ﷺ
عاقبة المحسن والمسيء	٢١٥	العجلة من طبائع البشر
الآلهة التي عبدها لا تضر ولا تنفع	٢١٥	آية الليل والنهار
نهاية الطاغين المكذبين	٢١٧	فوائد تعاقب الليل والنهار
عدم تحقيق المقترحات رحمة بهم	٢١٧	كل إنسان مرتبط بعمله
ما رآه ﷺ من العجائب	٢١٧	إرسال الرسل رحمة إلهية
في الإسراء والمعراج	٢١٨	كل إنسان يُجازى بما جناه
قصة خلق آدم وحسد إبليس له	٢٢٠	لا عقاب إلا بعد الإنذار
امتناع إبليس من السجود لآدم وحقيقته	٢٢٠	إهلاك الطغاة المفسدين من الأمم
أنه من الجن	٢٢٠	سؤال وجواب
عزم إبليس على إغواء بني آدم	٢٢١	التحذير من الترف
الوسائل الخسيسة التي يستعملها	٢٢١	الإنسان له حرية الإرادة والاختيار
إبليس لإضلال البشر	٢٢٢	الآداب الإسلامية الحميدة
أبواب الرحمة مفتوحة أمام العباد	٢٢٣	حقّ الله مقرون بحق الوالدين
التجاء المشركين إلى الله وقت	٢٢٣	الإحسان إلى الضعفاء والمساكين
الشدة والضيقة	٢٢٤	قتل الأولاد خشية الفقر جرم عظيم
الإنسان في قبضة الله في كل لحظة وأن	٢٢٥	التحذير من فاحشة الزنى
تكريم الله عزّ وجلّ للنوع الإنساني	٢٢٦	جريمة القتل تدمّر المجتمع
الحساب والجزاء في الآخرة	٢٢٦	النهي عن إتلاف أموال اليتامى
للمحسن والمسيء	٢٢٧	الأمر بوفاء الكيل والوزن
محاولة المشركين لفتنته عليه السلام	٢٢٧	حواس الإنسان أمانة يُسأل عنها يوم القيامة
عن الاستمرار في الدعوة	٢٢٧	التحذير من الخيلاء والكبر
عصمة الله لرسوله ﷺ	٢٢٨	الإشراك بالله عقوبته الخلود في جهنم
تهديده بمضاعفة العذاب	٢٢٩	زعمهم أن الملائكة بنات الله
محاولتهم محاصرته عليه السلام ثم قتله	٢٣٠	نفورهم عن التوحيد والإيمان
المقام المحمود لسيد المرسلين	٢٣١	تقرير الوحدانية بالأدلة العقلية

٢٤٣ شهادة الله لرسوله بالنبوة	٢٣٣ القرآن شفاءً ورحمةً
٢٤٤ إثبات الحشر والمعاد	٢٣٤ الناس أمام هداية القرآن
 الآيات والمعجزات التي أيد الله بها	٢٣٥ الروح من أمر الله عز وجل
٢٤٥ موسى عليه السلام	٢٣٧ القرآن هو معجزة محمد الخالدة
٢٤٦ المحاورة بين موسى وفرعون	٢٣٨ سر الإعجاز في القرآن الكريم
٢٤٧ ختام السورة الكريمة	٢٤٠ اقتراح المشركين للآيات والخوارق
		٢٤٢ اجتماع رؤساء قريش بالرسول ﷺ